

نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية

لسنة الله

في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ

تأليف الدكتور
أبو اليسر رشيد كهُوس
أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان
جامعة القرويين

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م



جمهورية مصر العربية - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤١٠٦٧٤٨ - ٠١٠٠١٣٥٤٠٦
ص.ب: ١٠ - الرمز البريدي: ١١٥٢٨
www.darelhekma.net
hassanelsherif@darelhekma.net

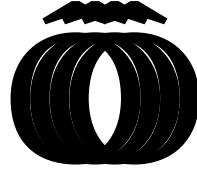
٢٠١١/١٩٥٣١	رقم الإيداع
978-977-5077-10-3	I.S.N.B

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ﴿٢١﴾

[الأحزاب]



إلى الرؤوف بالمؤمنين الرحيم
سيدنا وحبينا ومولانا محمد صلى الله
وسلم



المقدمة

الحمد لله الغالبِ جندُه، والمتعالي جَدُه، أحمدُه سبحانه وتعالى وحَلَاوَةٌ مَحَامِدُه تزداد مع التَّكْرَارِ، وأشكره وفضله على من شَكَرَ مَدْرَارًا، وأستعين به استعانة راجٍ لفضله، مؤمِّلٌ لنفعه، واثقٌ بدفعه، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا ونبينا محمدًا، بعثه الله بالنور القوي، والبرهان العلوي، والمنهاج المستقيم، والكتاب القويم. كان مولدُه بمكة، وهجرته بطيبة علاها ذكرُه وامتد بها صوتُه. رفع الله به عن أمته الأغلال والآصار، وكشف بدعوته أذى البصائر وقذى الأبصار، وفرق بشريته بين المتقين والفجار حتى امتاز أهلُ اليمين من أهل اليسار، فبلغ الرسالة صادعا بها، وحَمَلَ على المحجة دالا عليها، وأقام أعلام الاهتداء، ومنار الضياء، وجعل أمْرَاسَ الإسلام متينةً، وعرى الإيمان بينة، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا في الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الهداة المنعمين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى التابعين وتابعي التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيعتبر استنباط سنن الله من خلال جملة عهوده ووعوده سبحانه وتعالى ضمن الآيات القرآنية التي تناولت السيرة النبوية ضروريا وهاما؛ إذ الأمة الإسلامية في حاجة ماسة إلى أن تعي دروسها، وتستفيد منها في مسيرتها المستقبلية، وبخاصة أنها موعودةٌ بوراثة الأرض والاستخلاف فيها.

وما أصاب أمتنا في عصور التدهور والانحطاط والتأخر عن الركب كان بسبب القعود عن الجهاد بمعناه الشامل، وليس الجهاد ما علق بأذهان الجاهلين بالإسلام اليوم بأنه حمل السيف وقتال العدو وانتهى الجهاد، بل الجهاد أعظم من أن يُخَنَّدَقَ في خَنَدَقٍ ضَيِّقٍ؛ هو أن يكون كل فرد من أفراد الأمة المسلمة في بذل جهد مستمر صباح مساء ليحيا الإسلام وتقوى شوكة المسلمين، وتنتشر الدعوة الإسلامية في العالمين، وينالوا رضا الله يوم الوقوف بين يدي خالق الخلائق أجمعين بتزكيتهم لنفوسهم واهتمامهم بمصير أمتهم. أضف إلى ذلك أن كلمة الجهاد في القرآن الكريم والسنة النبوية لا تومئ إلى معنى لغوي واحد في كل ورودها، بل تعني بذل الجهود والمسعى في تحقيق المطلوب وتحصيل المقصود.

وعليه، فالجهاد لا ينحصر في القتال فقط، بل تتعدد أنواعه وأبوابه؛ أجمل أهمها في: جهاد النفس والجهاد بالمال و جهاد الدعوة و جهاد التعليم و جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و جهاد البيان و جهاد البناء فالجهاد السياسي ثم جهاد الكفر والفقر ثم الجهاد الاقتصادي و جهاد التّوحد وأخيرا الجهاد القتالي.

ولذلك فإن شمولية معاني الجهاد - كما رأينا- تجعل ترجمته إلى اللغات الأخرى أمراً صعباً وضاراً، حيث تفرغه تلك الترجمة من مضمونه ومعناه السامي، وتشوه معناه كما حدث لترجمته إلى اللغة الانجليزية التي أطلقت عليه اسم الحرب المقدسة (Holy War) حيث عممت بابا واحداً من أبوابه الكثيرة أو نوعاً واحداً من أنواعه المختلفة، وسدت باقي أبواب الجهاد وطمست بقية الأنواع.

ومن هنا وجب أن ننظر إلى الأمور ومن ضمنها التاريخ بمنظار القرآن الكريم وعبوات السنة النبوية؛ نظرة تعتمد سنة الله منهاجاً جديداً لدراسة التاريخ، نظرة تنطلق من كلام الله لفهم التاريخ؛ نظرة تتعظ من سنن الله في التاريخ.

ذلك أن سنة الله تكمن في أنها: أقدار الله وعهوده الثابتة ووعودُه الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحداً مؤمناً كان أم كافراً. وبتعبير مختصر هي: قدر الله الذي على وفقه يدبر كل شيء في هذا الوجود. فلا ريب أن يؤدي عدم التعامل معها بشكل صحيح وإغفالها وعدم إدراك كنهها والتقصير المعرفي بها- كما هو حال أمتنا اليوم- إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعدتهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والازدهار.

فواجب على الفرد المسلم أن يفقه سنن الله فقها شاملاً واعياً يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئه وبنوره يبني مجتمعه الأخوي الإسلامي ويستنبط منهاجَه. وبالمثال يتضح المقال؛ إننا إذا نظرنا إلى سيرة رسول الله ﷺ من زاوية الفقه بالسنن بان لنا جلياً وذلك في تعامله ﷺ مع سنن الله: فتغييره للنفوس البشرية وللمجتمع ودعوته وبناء الدولة الإسلامية وبناء الأمة ومعاركه. كل ذلك كان وفق سنن الله المبثوثة في هذا الكون.

وعلى هذا المنهاج المحمدي اللاحب، سار الخلفاء الراشدون ﷺ ففتحوا البلدان وفتحوا مغاليق القلوب، وحرروا النفوس والعقائد.

هذا جانب، والجانب الآخر أن ما ابتليت به الأمة المسلمة من الخطوب وعظائم الأمور يحتاج منا إلى وقفة تأمل وتدبر في هذه الرزايا التي حلت بدارها، أهي طارئة، أم أنها أخلت بأسباب النصر والتمكين، حاملة بانتصارات خارقة للعادة؟!؛ إذ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة كما يقال.

ولا يفوتني القول أن السنن الإلهية جعلها الله تعالى للاعتبار والاتعاظ وذلك باعتبار دلالة التلازم - كما يقول علماء الأصول-؛ "فثبوت الملزوم يستلزم ثبوت اللازم من غير عكس، ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم من غير عكس"؛ أي التزام الاتعاظ والاعتبار مع منهج السنن الإلهية، ولا يمكن الفصل بين سنن الله والاتعاظ لقوله عز اسمه بعد ذكره سنته في اليهود: ﴿...فَاعْتَبِرُوا يَأْتُوايَ الْأَبْصَرَ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]. وقوله جل وعلا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]؛ فالغرض من الوقوف على سنن الله هو الاتعاظ والتبصر والاعتبار.

ولأهمية دراسة الجهاد النبوي من منظور السنن الإلهية تم تقسيم الموضوع إلى المحاور الآتية:

* مقدمة.

* ومدخل عام.

* وثلاثة فصول.

أما المدخل العام فقد تناولت فيه حقيقة الجهاد ومفهومه الشامل.

وأما الفصل الأول، فخصص للحديث عن سنن الله في الجهاد النبوي بمكة؛ من البعثة النبوية حتى بناء المجتمع الإسلامي بيثرب.

أما الفصل الثاني فكان الحديث فيه عن: سنن الله في تعامل النبي ﷺ مع قريش والروم وقبائل العرب.

وفي الفصل الثالث تحدثت عن: سنن الله في معاملة النبي ﷺ لليهود.

ثم خاتمة لأهم نتائج الكتاب.

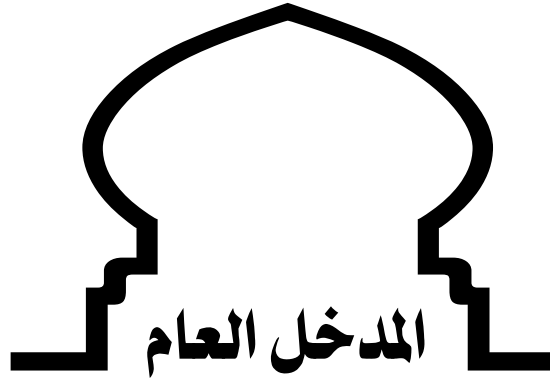
هذا ومرد العلم كله إلى الله تعالى، والبشر عاجز قاصر، والاعتراف متعين واجب،
ومن كان الله في عونه تيسرت عليه المذاهب، وأنجحت له المساعي والمطالب، وأنا معتمد
على عون الله فيما رُمته من أغراض البحث والدراسة، والله المسدّد والمعين والهادي إلى سواء
السييل وعليه التكلان.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما
صليت على آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

. . .

وكتبه أبو اليسر رشيد كهوس





تحقيق الجهاد في سبيل الله

تمهيد

إن الجهاد في سبيل الله تعالى شرف هذا الدين وذروة سنامه، وحافظ مقدساته، وناشر لوائه، والدائد عن حماه؛ فلا قيام للمجتمع الإسلامي إلا به، ففضله نال المسلمون النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وبالقعود عنه وتعطيله أصيبت أمة الإسلام بالصغار، واستولى عليها الكفار، ونزل بها الهوان وأحاط بخيامها، وأحرق بساحتها العذاب، وأنزل الله بها أنواعا من البلاء وألزمها مذلة وخزيا، وتداعت عليها الأمم من كل أوب وصوب، فنهشت في جسمها، وقضمت أطرافها، واحتلت أراضيها، واغتصبت شرفها -القدس-، ونزع الله المهابة من قلوب أعدائها ووضعها في قلوب أبنائها.

ولهذا فإن أية محاولة لتغيير ما بالأمّة تتجاهل حقيقة الجهاد وأهميته في الحفاظ على ثوابت الأمّة وأركانها وحصن ذاتها؛ تلك الحقيقة التي هي سنة من السنن الإلهية التي لا تقبل التبديل ولا التغيير ولا التحويل، فإن هذه المحاولة ستؤول إلى الفشل الذريع والهزيمة النكراء، لأنها ضيقت روح الأمّة وعمودها الفقري وبرجها العاجي الذي بدونها لن تكون الأمّة شيئا.

وهذا ما دفع أعداء الملة والدين إلى تشويه صورة الجهاد، وتخذيل المسلمين عنه، وزرع الشكوك في قلوبهم، ووضع العراقيل في طريقهم الجهادي، وقصر معنى الجهاد على "الحرب المقدسة" ضد معتنقي الأديان الأخرى، -كما يسمونها- فقط، كل ذلك وغيره خوفاً من أن يؤوب المسلمون إليه كما آب إليه من سبقنا بالإيمان فيما مضى، فتعود لهم روح المغالبة ومصدر القوة فيهمزموهم ويخرجوهم من بيوتهم أذلة صاغرين.

وفضلا عن ذلك فإن الجهاد في سبيل الله من المصطلحات التي أراد أعداؤنا أن يشوهوها ويهدموا معناها، ويفرغوها من محتواها، ويبعدوها عن حياة المسلمين، ويستبدلوها بمفردات أخرى أكثر رقة، لا لشيء إلا لإبعاد المسلمين عن مصطلحاتهم وتشويه تاريخهم؛ كما فعلت أمريكا اليوم بالنسخة التي طلعت بها علينا وسمتها (بفرقان الحق)، حيث ضمنتها مجموعة من سور القرآن وحذفت منها الآيات التي تتحدث عن الجهاد وعن لعن اليهود.

ولهذا فإن الجهاد لا يقصد به بذل الجهد في القتال فقط - الذي هو لحظة من لحظات الجهاد الكلي وصورة من صورته، ومجال من مجالاته، ومشهد واحد من مشاهدته، ومرتبة من مراتبه - لكن الجهاد أعم وأشمل من أن يحصر في رفع السيوف فقط كما سيأتي بيانه.

وعليه، فإنني أقف في هذا المدخل ملياً مع المعاني اللغوية والاصطلاحية للجهاد، ونمر على تصور المستشرقين وأعداء الإسلام للجهاد، ثم نرد بضاعتهم إليهم، ونفسد عليهم رأيهم، ونبطل سحرهم؛ وذلك بالمقارنة بين القتال عندهم ومن خلال نصوصهم المقدسة وبين القتال في الإسلام من خلال نصوص القرآن والحديث، ثم نذكر بعد ذلك شمولية معاني الجهاد بذكر أهم أنواعه، ونختم بتعريفنا الذي نراه مناسباً مع هذه الدراسة التي نحن بصددتها.

الجهاد لغة:

كلمة الجهاد مأخوذة من الجهد، و"الجُهدُ بفتح الجيم وضمها الطاقة، (...) والجهد بالفتح المشقة، يقال: جهَدَ دابته وأجهدَهَا إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجهدَ الرجل في كذا، أي جدَّ فيه وبالغ وبأبها قطع. وجهدَ الرجل على ما لم يسم فاعله فهو مجُهدٌ من المشقة وجاهدَ في سبيل الله مُجَاهِدَةً وَجِهَادً وَالْأَجْتِهَادُ وَالتَّجَاهُدُ بذل الوسع والمَجُهودُ"^(١)، في "المدافعة والمغالبة، فهو مجاهد وهم مجاهدون.

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية"^(٢).

الجهاد اصطلاحاً:

أ) تعريف الجهاد عند الفقهاء القدامى:

إن المقصود بالجهاد في الاصطلاح الشرعي: "الجهاد المبالغة في إتباع النفس في ذات الله، وقاتل الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله، وقمع دين الشيطان"^(٣).

(١) مختار الصحاح، محمد الرازي، مادة: جهد، ص ٥٧.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، مادة: جهد، ١/٢٢٦.

(٣) إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، للقسطاني، وبهامشه صحيح مسلم بشرح النووي، ٥/٣١. تفسير السعدي، ١/٩٨. مقدمات ابن رشد مطبوع مع المدونة الكبرى: بيان ما اقتضته المدونة من الأحكام، لابن رشد، ٨/٢٨٢٩. تفسير السعدي، ص ٢٣٠. فضائل الجهاد، محمد البابلي الشافعي، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام: ٢٨٨٢٢، الرقم الخاص: ٩٣٤، ص ٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، ٦/٣. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، للزرقاني، ٣/٣. موسوعة الفقه الإسلامي، عبد الحليم عويس، ١/٤٥٣. مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة: جهد، ص ٢٠٨. الجهاد ركن الإسلام، محمد إسماعيل إبراهيم، ص ٦١. كتاب شرح حدود أبي عبد الله بن عرفة، للرصاص التونسي، ص ١٩٣. التعريفات، للجرجاني، حرف الجيم، المادة رقم: ٦٦٤ =

وقال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في تعريفه للجهاد: "وذلك لأن الجهادَ حَقِيقَتُهُ الاجتهاد في حصول ما يحببه الله من الإيمان والعمل الصالح؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان"^(١). ويضيف قائلاً: "والجهاد هو بذل الوسع وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق"^(٢).

فالجهاد في الاصطلاح القرآني والسني يشير إلى جملة كبيرة من المعاني، تشمل الدين كله؛ وتشمل حياة الفرد والمجتمع كلها، بمجالاتها وجوانبها المختلفة التربوية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، والعلمية، والإعلامية.. هذا رغم محاولات أعداء الدين ومكائدهم الذين يسعون بخيلهم ورجلهم لعزل هذا المصطلح عن معناه الشامل والعام ليقصروا على نوع واحد من الجهاد وإقصاء الأنواع الأخرى، ألا وهو القتال والكفاح المسلح كما يصورونه هم ببشاعة وهمجية، وذلك في محاولة بائسة لتدمير دعائم الإسلام.

ب) تعريف الجهاد عند بعض المعاصرين:

قال الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله في تعريفه للجهاد: "هو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب. وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه والإسلام لأوامره، وذلك يحتاج إلى جهاد طويل شاق ضد كل من يزاحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى وكل من ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق"^(٣).

ويقول العلامة يوسف القرضاوي: "الجهاد فهو يعني: بذل الجهد أو تحمل الجهد البدني والنفسي والعملي من أجل الدفاع عن الدين، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وهو يبدأ بجهاد النفس، ثم جهاد الشيطان، ثم جهاد الظلم والفساد في المجتمع، ثم بجهاد الكفار والمنافقين"^(٤).

=ص ٨٤. حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة، لابن عابدين،

١٢١/٤. سفرة الزاد في سفرة الجهاد، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي البغدادي، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام: ٢٧٣٦٣، الرقم الخاص: ٨٣٤، ص ٩.

(١) الفتاوى الكبرى، ١٨٧/٥.

(٢) الفتاوى الكبرى، ١٨٨/٥.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٨٦.

(٤) نحن والغرب أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة، ص ٥٠.

ويقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في تعريف شامل وجامع وموافق لمقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها: "الجهاد اصطلاحاً: يعني استفرغ الطاقة لتحقيق الأهداف التي توجه إليها الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية وغيرها في أوقات السلم والحرب سواء"^(١).

ويقول منير البعلبكي: "الجهاد حرب مقدسة تشن في سبيل الله، توسيعاً لرقعة ديار الإسلام أو دفاعاً عن هذه الديار، إذا تهددها باغ بالعدوان، أو باشر الاعتداء عليها فعلاً وهذه الحرب مفروضة على المسلمين، في مواطن من القرآن الكريم متعددة"^(٢).

وهذا التعريف انطلق من قراءة سطحية للآيات القرآنية التي تتناول موضوع الجهاد والقتال، في محاولة لحشر الجهاد في معركة القتال العسكري وانتهى الأمر، أضف إلى ذلك أن هذا الفهم يفتقر إلى حقيقة التعامل مع نصوص الشريعة؛ ويتضح هذا الفقر في التصور في تعريف الجهاد بكونه "حرباً مقدسة"، هذا التعريف بعيد كل البعد عن روح الجهاد وغاياته ومقاصده النبيلة، فضلاً على أن تعبير "الحرب المقدسة" لم يرد في القرآن الكريم ولو مرة واحدة، ولا نعلم بوروده في سنة سيدنا رسول الله ﷺ، والتعبير إنما هو ترجمة حرفية للتعبير الإنجليزي (Holy War) وهو تعبير لا يمت بصلة لمفهوم الجهاد في الإسلام، كما أنه يتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

ولهذا فإن ذلك الخلط بين الجهاد الإسلامي بمفهومه الشامل وبين الحرب المقدسة هو أثر من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام والنيل منه، وهناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم ومارسه المسلمون في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين من بعده وعلى مر التاريخ الإسلامي.

ولذلك استغل أعداء الإسلام مثل هذا التصور للجهاد، وجعلوا هذا الضعف في التصور وسيلة لبث سمومهم في مجتمع الإسلام، ونشر أفكارهم الضالة، وإصاقهم التهم بالشريعة الإسلامية؛ بأنها شريعة العنف والحرب وإراقة الدماء.

قال حسن مرعي في تعريفه للجهاد هو: "قتال من يجوز قتالهم"^(٣).

-
- (١) الأمة الإسلامية مفهومها - مقوماتها - إخراجها، ماجد عرسان الكيلاني، ص ٦٣.
 - (٢) موسوعة المورد العربية: دائرة معارف ميسرة مقتبسة عن موسوعة المورد، ١/ ٤٠٠.
 - (٣) القاموس الفقهي، حسن مرعي، ص ٦٦.

إن تعريف الجهاد بأنه قتال وانتهى الأمر فهم مبتور للتصور الإسلامي للجهاد، ولذلك فإن أكثر ما يعرف به الجاهليون أمة الإسلام أنها أمة الحرب المقدسة كما سيأتي.

وفي رسالة الدكتوراه للدكتور محمد خير هيكل خلص -بعدهما أورد مجموعة من التعريفات- إلى التعريف الآتي: "[الجهاد] هو القتال في سبيل الله بشروطه"^(١).

فلم يستطع الباحث المذكور الخروج عما قاله السابقون في تعريف الجهاد، فقد ضيق واسعاً، لما حصر الجهاد في القتال، رُغم أن البيان القرآني واضح، والسنة النبوية جلية كذلك ولم تستعمل الجهاد في معناه القتالي فقط، بل جاءت لفظة الجهاد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية بمعاني متعددة..

ت) تعريف الجهاد عند المستشرقين وأعداء الإسلام:

لقد وجه الاستدماريون الاستخرابيون والمنصرون والمستشرقون واليهود وسائر أعداء الإسلام سهامهم الملوثة إلى فريضة الجهاد الكبرى وذلك عبر وسائل مأكرة متعددة، محاولة منهم لتشويه صورته، والتنقيص من قدره، وتخذيل المسلمين عنه..

وكان من شبهاتهم التي ألصقوها بتلك الفريضة العظمى شبهة انتشار الإسلام بالسيف، وإكراه الناس عليه، ثم بعد ذلك قاموا بمحاولة لإفراغ الجهاد في سبيل الله من مضامينه ومعانيه السامية، ليكون القتال في سبيل أهداف مختلفة بعيدة عن الإسلام كالقومية والعصبية والوطنية. كما خططوا جاهدين لزرع الفرق الأجير التي تعمل على إلغاء الجهاد في سبيل الله، بحيل شتى، إضافة إلى إطلاق الجهاد على الحركات القتالية التي تحمل شعار الجهاد الإسلامي لتقتل الأبرياء واستغلال هذه الصورة المصطنعة للتغفير من فريضة الجهاد في سبيل الله، مع أن هذه الصورة لا تمت بصلة لدين الإسلام، بل يجرمها ولا يأذن بها، هذا إضافة إلى ما تقوم به المنظمات الدولية كالماسونية والصهيونية. من بث الشكوك حول تلك الفريضة ونشر الأفكار الرامية إلى القضاء على دين الإسلام بإلغاء الجهاد في سبيل الله.

ومن اللافت للنظر أن التعصب الغربي بمستشركيه وترسانته الإعلامية الكاسحة قد قام بتشويه صورة الجهاد في الإسلام، وأفرغه من معانيه المتعددة، واحتفظ بصورة القتال والعنف الذي ينبذه الشرع، بعد أن أضفى على هذه المعاني معنى الإرهاب ليكون ذريعة

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ٤٦/١.

له لاستتصال الإسلام والمسلمين من جذورهم. والموسوعات التي ألفها المستشرقون في مطلع السبعينات من القرن العشرين - الإسلامية منها خاصة - مليئة بهذه الصور المشوهة لحقيقة الجهاد، وإن كان التمهيد له قد بدأ قبل ذلك بكثير.

لنقف هنا مليا مع بعض تعريفات المستشرقين وأعداء الإسلام للجهاد وتشويههم لصورته، وحصر معناه في قتال الكفار والمشركين بالسيف فقط.

يقول بَطْرُسُ البُسْتَانِي: "الجهاد في اصطلاح الشرع: محاربة من ليس بمسلم، ويسمى المغازي أيضا، وله عندهم فضل عظيم لبذل النفس فيه، وركوب المشقات والمخاطر وقد جعله النبي^(١) في الفضل بعد الصلاة وبر الوالدين"^(٢).

هذا التعريف منقول من تعريف الفقهاء للجهاد، ولم يأت (بطرس) بجديد في تعريفه.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية - التي شارك في إعدادها عدد من المستشرقين - تحت عنوان (الجهاد) ما يلي: "نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة"^(٣).

وقال المنصر المكرم متحدثا عن النبي ﷺ بقوله: «فإننا لم نره دعا الناس إلا بالسيف وبالسلب والسبي والإخراج من الديار..»^(٤).

أما الراهب الإسباني سان بدرو باسكوال المتوفى سنة ١٣٠٠م فإنه يقول في كتابه (الفرقة المحمدية): "القرآن على حد سواء أمر بالسلب والحرب، والحديث أكد هذا"^(٥). هكذا يعبرون عن ذلك الحقد الدفين الذي ملأ كيأنهم وكرههم..

هذا هو الجهاد في عُرف الجاهلين بحقائق الإسلام لا جهاد السيف وانتهى الكلام. وكأن الإسلام نقمة على العالمين.

(١) قلت: صلى الله عليه وسلم.

(٢) دائرة المعارف، ٦/٥٧٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، تأليف: مجموعة من المستشرقين، يصدرها بالعربية: أحمد الشتاوي وزملاؤه، ٧/١٨٨-١٨٩.

(٤) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة ردود على حملات تشويه صورة خاتم المرسلين، الحسيني الحسيني معدى، ص ٣٣.

(٥) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ٣٨.

ث) ردود ومقارنات:

إن المتدبر في تعريفات المستشرقين وأعداء الإسلام السابقة التي ترمي إلى استدامة العدوان والحروب بين الشعوب؛ هو نتاج لجهل محض بحقيقة الشريعة الإسلامية الغراء، التي انتشرت بمبادئها النابعة من الوحي القرآني والسنة النبوية المطهرة، ولم تنتشر بحد السنان، ولا بالغزو..

إنه تأويل منحرف لمفهوم الجهاد في الإسلام؛ وزاد انحرافا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول التي جعلته مرادفا للإرهاب والقتال.

هكذا لم يذكر الجهاد إلا وذكرت معه الكراهية، والانتقام، وسفك الدماء. مما يحول ذلك إلى هستريا جماعية في الأوساط الغربية فيزيد في تشويه صورة الإسلام، والانتقاص منه حتى يفقد الإسلام مصداقيته في وسط تلك الشعوب.

ويزيد الجرح عمقا حينما يروج أعداء الإسلام من المستشرقين والمغربين لفكرة تقسيم العالم إلى منطقتين: "دار الإسلام"، و"دار الحرب"^(١)؛ وجعل الحرب هي العلاقة بين كل الشعوب، والمستهدف هو الإسلام.

ويا للعجب! كيف يتناسى هؤلاء ما في العهد القديم من عنف ومجازر وحشية بشعة، قائمة على القتل والتمثيل بالقتلى والهدم واستلاب الثروات.

والحرب في اليهودية قائمة على الإبادة والاستئصال، ومحو أي أثر لما كان قائماً من ناس وتراث، أو من ماشية. وما يقع في فلسطين السليبية عامة وفي قطاع غزة خاصة لخير دليل على بشاعة الحرب عندهم.

جاء في الطبعة الأمريكية من الكتاب المقدس (عند اليهود) الصادرة بالعربية: "فهتف الشعب في القرون عندما نفخوا في القرون. وكان حين سمع الشعب صوت القرن وأطلق الشعب صيحة حرب عظيمة، أن السور سقط في مكانه. ثم صعد الشعب إلى المدينة، وساروا قدما كل في جهة، واستولوا على المدينة. وحرموا^(٢) بحد السيف كل ما في المدينة،

(١) لكن التقسيم السليم هو أن الأمة الإسلامية هي: أمة استجابة، أما الغرب فيمكن تسميته بأمة دعوة؛ أي يحتاج إلى من يحمل إليه رسالة الإسلام وعدل الإسلام ورحمة الإسلام.

(٢) أي قتلوا وقطعوا دابر أهل المدينة.

من رجل وامرأة، من شاب وشيخ، وثور وخروف وحمار"^(١).

وجاء في الكتاب المذكور كذلك: "وأحرقوا المدينة وكل ما فيها بالنار. أما الفضة والذهب وكل متاع من نحاس وحديد أعطوها لخزينة بيت يهوه"^(٢). وجاء فيه كذلك: "فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها واستولى عليها. وأخذ تاج ملكهم عن رأسه. وكان وزنه ووزنة من الذهب، مع حجارة كريمة؛ فصار على رأس داود وكانت الغنيمة التي أخرجها من المدينة كثيرة جدا، وأخرج الشعب الذي فيها وجعلهم على نشر الحجارة وقواطع الحديد وفؤوس الحديد، وأجبرهم على العمل بصنع اللبن. وهكذا فعل بجميع مدن بني عمون. وأخيرا رجع داود وكل الشعب إلى أورشليم"^(٣).

وجاء في سفر حَرْقِيَال من الكتاب المقدس عند اليهود ما يلي: "لا تشفق عيونكم ولا تترأفوا. اقتلوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء حتى الهلاك. ولكن كل إنسان عليه السمة لا تقتربوا منه. وابتدئوا من مقدسي فابتدئوا من الشيوخ الذين أمام البيت. وقال لهم: دنسوا البيت واملاؤا الديار من القتل"^(٤).

وتكمن الوحشية القتالية عند اليهود في هذا النص من كتابهم المقدس: "ملعون من يمنع سيفه عن الدم"^(٥).

أما الحرب عند النصارى فرغم أنهم يعتبرون أنفسهم أهل تسامح وسلام؛ فإن ما جاء في كتابهم يبين حقيقتهم البلجاء، ومما جاء فيه مما افتروه على لسان السيد المسيح ليؤصلوا لحروبهم وجرائمهم: "جئت لألقي على الأرض نارا، وكم أتمنى أن تكون اشتعلت! وعلي أن أقبل المعمودية الآلام"^(٦)، وما أضيق صدري حتى تتم. أتظنون أني جئت لألقي السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل الخلاف. فمن اليوم يكون في البيت خمسة، فيخالف ثلاثة منهم اثنين، واثنان ثلاثة. يخالف الأب ابنه والابن أباه، والأم بنتها والبنت أمها، والحماة"^(٧)

(١) سفر يشوع، الإصحاح: ٦، الفقرة: ٢٠ و٢١.

(٢) سفر يشوع، الإصحاح: ٦، الفقرة: ٢٤.

(٣) سفر صَمُوئِيل الثاني، الإصحاح: ١٢، الفقرات: ٢٩-٣١.

(٤) الإصحاح: ٩، الفقرات: ٥-٧.

(٥) سفر إِرْمِيَا، الإصحاح: ٤٨، الفقرة: ١٠.

(٦) جاء في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، في شرحه لهذا القول: (معمودية الآلام): إن المعمودية

المؤلمة التي أشار إليها يسوع هي عملية الصلب التي تنتظره. ص ٢١١٩.

(٧) الحماة: أم الزوج.

كَتَبَهَا وَالكَتَّةُ^(١) عَلَى حَمَاتِهَا"^(٢). وجاء فيه كذلك: "ومن لا سيف عنده، فليبع ثوبه ويشتر سيفاً"^(٣).

وفي كتبهم الطوام وكثير من الإجرام، ولولا مخافة التطويل لاستخرجت كل الفقرات التي تتحدث عن البشاعة والوحشية في القتال عند اليهود والنصارى، ولأثبتت من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عن القتال -وهي قليلة جدا-، والأحاديث النبوية الشريفة لخرجنا بنتيجة -والتاريخ شاهد عليها- أن الحروب عبر التاريخ لم تعرف الفضيلة ولا الرحمة ولا العدل مثل حروب الإسلام التي انضبطت بضوابط قرآنية، ولم يقتل فيها إلا عدد قليل من الطرفين، بالمقارنة مع حروب اليهود والنصارى التي قتل فيها ملايين الشعوب، وأبيدت فيها وأجريت فيها الأنهار من الدماء، كل هذا تحت مظلة الدين كما سطروا ذلك في كتبهم المقدسة، وليبان كل هذا يحتاج الأمر إلى كتاب آخر على شكل دراسة ومقارنة للقتال في الإسلام واليهودية والنصرانية، وبهذا نرد بضاعة أهل الزيغ والضلال إليهم، ونفسد عليهم رأيهم، ونثبت في النهاية بتأصيل علمي وعقلي وواقعي أن دين العدل والرحمة والفضيلة والسلام هو دين الإسلام.

فلماذا لا ينتقد المستشرقون من اليهود والنصارى هذه النصوص وغيرها وهي كثيرة في الكتب المقدسة عندهم!!!

ولا نذهب بعيدا كذلك ففي تاريخ النصارى أدلة صريحة، وحقائق بلجاء، على التاريخ الدموي النصراني، ويكفي أن نستعرض كتب تاريخ العصور الوسطى، بل ما قبلها وما بعدها، مروراً بالحروب الصليبية الدموية، وصبوك الغفران، ومحاكم التفتيش، ومواكبتها للاستعمار والاستخراب، والتنصير القهري. أضف إلى هذا ما مارسه الكنيسة من الطغيان الديني والإرهاب في أبشع صورته، و صنوف التعذيب وألوان النكال والمجازر على مخالفيها من الموحدين عند قيام التعصب الكنسي بفرض عقيدة ألوهية المسيح -تعالى الله عن كفرهم- في مجمع نيقية الأول عام ٣٢٥م الذي حضره ألفان وثمانية وأربعون أسقفا (٢٠٤٨) من جميع بلدان العالم بقيادة الإمبراطور قسطنطين باني القسطنطينية، واتفق من

(١) الكتة: امرأة الابن.

(٢) العهد الجديد، (لوقا)، الإصحاح: ١٢، الفقرات: ٤٩-٥٣.

(٣) العهد الجديد، (لوقا)، الإصحاح: ٢٢، الفقرة: ٣٦.

أولئك الأساقفة (٣١٨) على أن المسيح ابن الله -تعالى عما يقول الكافرون علوا كبيرا- وأنه مساو له في الجوهر، ثم تكرر التعذيب والنكال عند فرض عقيدة الثالوث (الأب والإبن وروح القدس) ثلاثة أغانيم في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م، وما تلا كل هذا من مذابح على مر التاريخ.

ولكن.. يبدو أن الغرب الصليبي المتعصب يتناسى تلك الأنهار من الدماء، وما تلاها من الدمار، ويتناسى حروبه الصليبية الاستخراية وخططه الماكرة لاستئصال الإسلام منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا، كما يتناسى تجارته بالعبيد، والتي ظلت حتى القرن العشرين، وبالخصوص لأعيه التي تلاها غرس البذرة الخبيثة والغرس المسموم الكيان الصهيوني في جسم الأمة المسلمة في فلسطين، أضف إلى هذا وذاك أنه اتخذ "قارعة" الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م، وسيلة خبيثة لهدم الإسلام، واستئصال المسلمين.

ولذلك فإن فرية (انتشار الإسلام بحد السيف) التي أطلقها المستشرقون فرية خاطئة لا تستند إلى سند صحيح، ومخالفة لمقاصد الشريعة الإسلامية ولفهم القرآن الكريم؛ ويكفي للرد عليهم أن الإسلام لا يكره الناس على أن يكونوا مسلمين: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]. إلا أهل الردة فلهم عقوبتهم المقررة في الشريعة الإسلامية.

وللإشارة فقد زعم بعض المغرضين من المستشرقين وغيرهم أن هناك تعارضا بين قوله جل وعلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ [البقرة]، وقوله جل وعلا: ﴿قَنَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة]، فالأولى تمنع الإكراه في الدين، والأخرى تأمر بالقتال والإكراه في الدين؛ وهذا خطأ فاحش، لأن الآية الأولى تتحدث عن سلوك دائم إلى يوم القيامة، في عدم إكراه الناس على اعتناق دين معين، والأخيرة موضوعها قتال الكافرين كافة كما يقاتلوننا كافة؛ ذلك أن الروم الذين اتخذوا المسيحية شعارا لهم - ولم يتخلصوا من وثنيتهم - وكانوا يخططون للهجوم على دولة الإسلام في المدينة، وأصبحوا يمثلون خطرا كبيرا على مجتمع الإسلام الجديد وعلى أمنه واستقراره،

فأمر الله تبارك وتعالى المسلمين بقتالهم^(١) حتى يكفوا عن أذاهم بالخضوع لسلطان دولة الإسلام، ويعطوا الجزية في غير استعلاء.

فالآية الكريمة لم تأمر بقتال الذميين لإدخالهم في دين الإسلام. ولو كان الأمر كذلك فما الفائدة من إعطاء الجزية وكف القتال عنهم! ولكن استمرار القتال سواء أعطوا الجزية أم لم يعطوها، حتى يدخلوا في دين الإسلام أو تقطع رؤوسهم. لكن الدارس للسيرة النبوية ولتاريخ الخلافة الراشدة وما بعدها لم يجد بناتا قتال المسلمين غيرهم لإجبارهم على اعتناق الإسلام، بل كان إعطاء أهل الذمة الجزية مقابل إبقائهم في الأرض التي يفتحها المسلمون، أو حمايتهم في ديار المسلمين وعدم مشاركتهم في الخدمة العسكرية وفي القتال المفروض على المسلمين، ولو أكرهوا على القتال مع المسلمين لكان في ذلك إكراههم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها، والمسلمون يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ونصرة دين الإسلام، وفي هذا منتهى العدل، أضف إلى ذلك أن الجزية- التي فرضت على الذكور البالغين القادرين وأعفي منها الفقراء من أهل الذمة رمز للخضوع لدولة الإسلام ورمز كذلك للحرية الدينية وممارسة الشعائر العقديّة وعدم إجبارهم على تغيير دينهم، وزيادة على ذلك فإن هناك حالات اشترك فيها الذميون في القتال مع المسلمين فتم إعفاؤهم من الجزية، والتاريخ شاهد على هذا، لكن أعداء الله من المستشرقين وغيرهم دائماً يشوهون تاريخ التسامح الإسلامي الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً له.

ثم ألم يقرأ هؤلاء المستشرقون والمغرضون ما في كتبهم المقدسة من الجزية التي فرضت على الأمم التي خضعت لهم: جاء في الكتاب المقدس عند اليهود: "وأقام داود حاميات عسكرية في أرام دمشق، وأصبح الأراميون يدفعون له الجزية، وكان الرب ينصر داود حيثما توجه"^(٢). وجاء في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس في شرحه لهذه الفقرة: "الجزية ضريبة تفرض على الأمم المهزومة. وكانت هذه الضريبة تدعم حكومة إسرائيل وتثبت أن الأمة المهزومة تقع تحت سيطرة الأمة المنتصرة"^(٣).

(١) قال ابن كثير: ولما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﷻ نذب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب من سنة تسع. الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ، ص ١٠٩.

(٢) سفر صموئيل الثاني، الإصحاح: ٨، الفقرة: ٦

(٣) ص ٦٥٥.

ومما لا ريب فيه أن قتال الأنبياء ووراثهم من بعدهم غاية إخضاع العالم لسلطان الله؛ لتستقيم الحياة البشرية على صراط الله السوي، وفي هذا تمتهى العدل والرحمة والحرية.. أما إذا كان العالم خاضعا لأهواء البشر وطموحاتهم الشخصية، فإن شمله سيتفرق بين تلك الأهواء.

وقد يقول قائل: وماذا تقول في بعض كتب فقه الجهاد وفي بعض التفاسير التي قالت بأن آخر مرحلة استقر عليها حكم القتال هو الآية ٢٩ من سورة التوبة التي يسمونها بآية السيف وباقي الآيات قالوا بنسخها؛ فأجيب منبهياً بأن القرآن يجب أن يضم بعضه إلى بعض حتى تدرك معانيه وحتى يكون لنا موقف صريح ورؤية في باب القتال، ثم إن الفقيه في حاجة إلى حكمة لتنزيل الأحكام على الواقع، وفضلا عن هذا فإن الغاية من تشريع القتال لا يمكن أن تعطل بفهم جزئي لتلك الآية الكريمة ولو فسرها كبار المفسرين؛ أضف إلى ذلك أن القرآن يقول في موضع آخر: ﴿وَقَدِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]؛ ويعتبر الفتنة أشد وأنكى من القتل، لأن القتل اعتداء على البدن، والفتنة اعتداء على الروح، أي فتنة الإنسان في دينه وعقيدته..؛ فالقتال من أجل القضاء على هذه الفتنة مطلوب شرعا تقره الشرائع السماوية وحتى القوانين الوضعية وتقره القيم الأخلاقية، وتقره حتى القيم الفطرية.. فما الإشكال إذن!

ومن ثم فليس من الضروري أن نقاتل أهل الكتاب الذين لم يعتدوا علينا ولم يفتنونا في ديننا، والآية المذكورة نزلت في مجموعة معينة وجب قتلها، فالقرآن أمرنا أن نقاتل من قاتلنا واعتدى علينا أو وقف في سبيل الدعوة الإسلامية، أو منع وصولها إلى المستضعفين.. فمن سالمنا سالمناه ومن عادانا عادينا ومن حاربنا حاربناه، ومن وقف في وجه تبليغ رسالة الإسلام قاتلناه، لا لإدخاله في ديننا ولكن دفاعا عن النفس والعقيدة والدعوة، وعندنا الدستور القرآني الصريح في قوله عز اسمه: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ نَبَرُّوهُمْ وَنُقْطِعُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ حُبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٨] إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة]، وقوله عز وجل ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُّوهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ فَامْسِكُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء]، وقوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ

فَأَجْنَحَ لَهَا وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ [الأنفال]. قال الشيخ السعدي^(١) في تفسيره:
"﴿وَإِنْ جَنَحُوا...﴾ ﴿١١﴾ [الأنفال] أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿...لِلسَّلَامِ...﴾ ﴿١١﴾
[الأنفال] أي: الصلح وترك القتال.

﴿...فَأَجْنَحَ لَهَا وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ...﴾ ﴿١١﴾ [الأنفال] أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلا على
ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى
لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج
لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضا، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر؛
فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن
يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل
فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له. فصار هذا
السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن
يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم^(٢).

وقال ربنا تبارك وتعالى يخاطب نبيه الكريم ﷺ في شأن أهل الكتاب: ﴿فَلْيَدْلِكِ
فَادْعُ ۖ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ ۖ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

(١) هو: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ = ١٨٩٠-١٩٥٦م):
مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد. مولده ووفاته في عنيزة (بالقصيم) وهو أول من أنشأ مكتبة
فيها (سنة ١٣٥٨هـ) له نحو ٣٠ كتابا، منها: (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن) ثلاثة أجزاء
منه، وهو في ثمانية، و(تيسير اللطيف المنان في خلاصة مقاصد القرآن) في مجلد، و(القواعد الحسان
في تفسير القرآن) و(طريق الوصول إلى العلم المأمول من الأصول) و(الأدلة القواطع والبراهين في
إبطال أصول الملاحدين) رسالة، و(القواعد والأصول الجامعة) في أصول الفقه، و(التوضيح والبيان
لشجرة الإيمان) رسالة، و(الدرة البهية) شرح للقصيدة الثابتة لابن تيمية، و(الخطب المنبرية) مجموعة
من خطبه، و(الوسائل المفيدة للحياة السعيدة) مختصر، و(توضيح الكافية الشافية لابن القيم) شرح
لها. الأعلام للزركلي، ٣/ ٣٤٠.

(٢) تفسير السعدي، ص ٣٢٥.

بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الشورى].

ويمكن الرد كذلك على من قال بقتال أهل الكتاب وإن لم يبدووا بقتالنا بقول العلامة سعيد رمضان البوطي: "لقد جعل الله الغاية في الأمر بالقتل الخضوع لنظام الجزية، ولا ضير عندئذ في عدم الدخول في الإسلام. ولو كان القتال من أجل الكفر كما قالوا، لما قام الخضوع لنظام الجزية مقام الإسلام، وهذا واضح.

إذاً، فما المشكلة التي أنهاها نظام الجزية، حتى انتهى بسبب ذلك القتال؟

إنها مشكلة واحدة، هي مشكلة الحراية. فوجود الحراية هو المبرر للقتال، وانتهائها بالاتفاق على نظام الجزية هو الذي أنهى الحراية ومدّ رواق السلم.

إن الآية أمرت بالقتال لا بالقتل، (...) فأنت تقول: قتلت فلانا، إذا بدأته بالقتل، وتقول: قاتلته، إذا قاومت سعيه إلى قتلك بقتل مثله، أو سابقته إلى ذلك كي لا ينال منك غرة.

وبيان هذا أن الكتبيين، أو غيرهم، ربما كانوا في وضع يغيرهم بالعدوان أو التخطيط له، فما الذي يجب على المسلمين في هذه الحال؟

يجب عليهم أن يصدوا عدوانهم أو خططهم العدوانية. ولن تسري الطمأنينة والأمن بين الطرفين إلا بالتقائهما معا على مبدأ ونظام يصدقان في الانضباط له، ويجمعهما بذلك مناخ المجتمع الإسلامي الذي يشكل الحزام الواقفي من احتمال تسرب أي كيد أو عدوان خارجي ينحط بالأذى على أي من أفراد هذا المجتمع مسلماً أو غير مسلم" (١).

وفضلاً عن ذلك فقد روى الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: "قدمت قتيلة بنت العزى بنت أسعد من بني مالك بن حسل على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ وكان أبو بكر يكرها في الجاهلية، فقدمت على ابنتها بهدايا ضبابا وسمنا وإقطا، فأبت أسماء أن تأخذ منها وتقبل منها وتدخلها منزلها، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها فأنزل الله عز وجل ﴿لَا يَنْهَى كُفْرَ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبِلُوهُمُ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ

(١) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص ١٠١.

تَبْرُهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ [المتحنة] (١).

يعلق الشيخ العلامة سعيد رمضان البوطي على هذا الحديث قائلاً: "ولعلك لن تجد أصرح ولا أبين، من هذه الآية التي استشهاد بها رسول الله ﷺ دلالة على أن المشركين الذين نزلت آية القتال في حقهم، إنما أنزل الله في حقهم ذلك للحرابة التي كانوا يمارسونها لا للكفر الذي كانوا يتصفون به.

وإنا لنقرأ بعد هذه الآية سلسلة من الآيات المترابطة كلها تؤكد أن علة الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا إنما هو تفننهم في الكيد للمسلمين والترصص بهم، وعدم مراعاتهم إلاً وذمةً في حقهم.

وهكذا تتناسق الآيات الناهية عن القسر والإكراه على الدين، والأمر ببر من لم يمارس أي إساءة إلينا منهم والقسط إليهم، مع الآيات الأمرة بقتلهم وعود كل مرصد لهم؛ نظراً إلى أنهم بدؤوا الخيانة والغدر ولا يرقبون في المؤمنين إلاً ولا ذمة. ويسقط الآيات الثانية الأمرة بالقتال للآيات الأولى الناهية عنه والأمر ببرهم والقسط إليهم" (٢).

أما الحديث الذي يستشهد به من قال بقتال أهل الكتاب وإن لم يبدؤوا بالقتال: فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله" (٣).

إن تعبير النبي ﷺ ب(أقاتل) على وزن (أفاعل) وعلى هذا التعبير أجمع الرواة، يرد كل الإشكالات التي يمكن أن توجه إلى هذا الحديث في علاقته مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في باب القتال، فلم يقل الحبيب المصطفى ﷺ (أمرت أن أقتل الناس) ولكن قال: (أمرت أن أقاتل)؛ وفرق واسع بين أقتل وأقاتل، وبين قتل وقاتل (٤).

(١) المستدرک، کتاب التفسیر، تفسیر سورة المتحنة، ح ٣٨٠٤. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص ٥٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ [التوبة]، ح ٢٥.

صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ح ١٢٤.

(٤) يقول ابن منظور في لسان العرب: "وسبيل فاعل أن يكون بين اثنين في الغالب". مادة: قتل.

يقول العلامة البوطي: "إن كلمة (أقاتل) تدل على المشاركة. فهي لا تصدق إلا تعبيراً عن مقاومة من طرفين، بل هي لا تصدق إلا تعبيراً عن مقاومة لبادئ سبق إلى قصد القتل. فالمقاوم للبادئ يسمى مقاتلاً. أما البادئ فهو أبعد ما يكون عن أن يسمى مقاتلاً، بل هو في الحقيقة يسمى قاتلاً بالتوجه والهجوم أو بالفعل والتنفيذ؛ إذ لا ينشأ معنى الاشتراك إلا لدى نهوض الثاني للمقاومة والدفاع.

ألا ترى أنك تقول: لأقاتلن هؤلاء على مملكتي أو على عرضي. فلا يفهم أحد من كلامك هذا إلا أنك عازم على مجابهة العدوان منهم على ملكك أو عرضك. فقتلك لهم إنما يأتي بعد توجيههم إليك بالعدوان.

ومن هنا يتضح أن من الخطأ بمكان أن تعبر عن هذا المعنى بقولك "لأقتلن هؤلاء على مالي أو عرضي"^(١).

قال الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله: - "لا يلزم من إباحة المقاتلة إباحة القتل لأن المقاتلة مفاعلة تستلزم وقوع القتال من الجانبين، ولا كذلك القتل. وحكى البيهقي عن الشافعي أنه قال: ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله"^(٢).

وعلى ذلك "ففي الاستدلال بهذا الحديث على قتل تارك الصلاة نظر؛ للفرق بين صيغة أقاتل وأقتل. والله أعلم"^(٣).

فيصبح معنى الحديث إذن، "أمرت أن أصد أيّ عدوان على دعوتي الناس إلى الإيمان بوحداية الله، ولو لم يتحقق صد العدوان على هذه الدعوة إلا بقتال المعادين والمعتدين فذلك واجب أمرني الله به ولا يحيص عنه"^(٤).

وقيل إن المقصودين في الحديث: "مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحد. وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه"^(٥).

(١) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص ٥٩.

(٢) فتح الباري، ٢/ ٩١-٩٢.

(٣) فتح الباري، ٢/ ٩١.

(٤) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص ٥٩.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ١/ ٢١٥.

أصحابها وتبوك^(١) التي بدأها النبي ﷺ بالقتال وأمثالها كغزوة بني المصطلق^(٢) وسرية مؤتة^(٣)، ففي الحقيقة لا إشكال في هذا؛ إذا تدبرنا في أسباب تلك الغزوات كما نقلتها كتب المغازي والسير، وإذا أدركنا حقيقة العدوان والخرابة؛ ولهذا يكفي للهجوم على الأعداء وقتالهم إذا ثبت بينة وأدلة ما يخططون له من الكيد والمكر ودس الدسائس للقضاء على الإسلام أو الهجوم على داره.

فمن حق المسلمين مباغته العدو - إذا ظهر عدوانه بأدلة - لصد عدوانه وهجومه على أرضهم قبل أن يباغتهم ويهزمهم في عقر دارهم، وهذا ما فعله النبي المجتبي ﷺ في الغزوات السابقة ليفوت الفرصة على الكفار والمشركين، ويرد كيدهم إليهم، ويجعل تدبيرهم تدميرهم. وما جرى في غزوة بني المصطلق وفي غزوة خيبر وتبوك وسرية مؤتة من هذا القبيل؛ فقد كان هناك تخطيط وكيد ومكر للهجوم على دولة الإسلام في المدينة؛ إذ كان بنو المصطلق يخططون لشن هجوم على المسلمين بقيادة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار، فلما تأكد النبي ﷺ من ذلك المكر والعدوان والخرابة أمر المسلمين بالخروج إليهم.

كما علم النبي ﷺ بوجود حلف خفي قد تم بين يهود خيبر وقبيلة بني غطفان لمواجهة

=كثير، وأما حصونها: حصن ناعم، والقموص حصن أبي الحقيق، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السُّلام، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة، وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن، ولكون البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيبر.

وكان سكان خيبر، غير مجتمعين في صعيد واحد بل كانوا متفرقين في الوديان المجاورة، ويقطنون بيوتا حصينة وسط النخيل وحقول القمح. وكانت خيبر مركزاً لدسائس اليهود الذين هاجروا إليها. معجم البلدان، حرف الخاء، باب الخاء والياء وما يليها، ٢/٤٠٩. إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، لابن غازي العثماني المكناسي، ص ١٧٦. فتح الباري، ٧/٥٣٢. محمد رسول الله، محمد رضا، ص ٣١٤.

(١) تبوك: قرية بين وادي القرى والشام، بها عين ماء ونخل، وكان لها حصن خرب، وإليها انتهى النبي ﷺ من غزوته المنسوبة إليها. مراصد الاطلاع، ١/٢٥٣. معجم البلدان، باب التاء والباء وما يليها، حرف التاء، ٢/١٤-١٥. معجم ما استعجم، ١/٣٠٣.

(٢) بنو المصطلق: وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة، فجذيمة هو المصطلق وهو مفتعل من الصلّاق، وهو رفع الصوت. الروض الأنف، ٤/١٣. عيون الأثر (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي)، ٢/١٣٣.

(٣) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وبها كانت تُطبع السيوف وإليها تُنسب المشرفية من السيوف. معجم البلدان، باب الميم والواو وما يليها، حرف الميم.

المسلمين فسارع النبي ﷺ إلى الإغارة عليهم وكسر شوكتهم قبل أن يغيروا عليه^(١).

أما في سرية مؤتة فكان سببها ما ذكره ابن سعد في طبقاته قال: "بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى ملكِ بصرى بكتابه، فلما نزل مؤتة عرض له شَرْحَيْلُ بْنُ عَمْرٍو العَسَّانِي فقال: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم أنا رسول رسول الله ﷺ. فأمر به فأوثق رباطا ثم قدمه فضرب عنقه صبرا، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. وبلغ رسول الله ﷺ، الخبر فاشتد عليه وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث بن عمير ومن قتله، فأسرعوا فكان ذلك سبب خروجهم إلى غزوة مؤتة"^(٢). وقد انتشر في ذلك الوقت أن الرسل لا تتعرض لأي خطر فخرق شرحبيل هذا القانون فأمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج في سبيل الله لصد هذا العدوان وخرجوا في ثلاثة آلاف.

وفي غزوة تبوك كان الروم يخططون للهجوم على المسلمين فيبتهم النبي ﷺ بغارة مباغته قبل أن يهاجموه في مدينته، وسيأتي الحديث عن تلك الغزوات في بابه.

إذاً، تبين لنا أن حروب النبي ﷺ كانت حروبا دفاعية لمقاومة العدوان الفعلي كغزوة أحد^(٣) وغزوة بني قينقاع^(٤) وأخرى هجومية لظهور القصد العدواني من خلال أدلة ثابتة وبينة واضحة كغزوة خيبر وغزوة تبوك.

أضف إلى ذلك أن هناك حديثا آخر يزيد الأمر وضوحا: فَعَنْ أَبِي سُكَيْنَةَ -رَجُلٍ

(١) انظر مثلا تفصيل ذلك في: جوامع السيرة لابن حزم، ص ١٢٦، وخاتم النبیین ﷺ لأبي زهرة، ١٠٤١-١٠٤٢، وفقه السيرة للغزالي، ص ٢٦١.

(٢) ٣٤٣/٤.

(٣) أحد: جبل تلقاء المدينة دون قناة إليها، كانت عنده الغزوة المشهورة. وهو جبل أحمر ليس بذي سناخيب في شمالي المدينة. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، ١١٧/١. مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين عبد المومن بن عبد الحق البغدادي، كتاب الحاء، ٣٦/١. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، باب الألف والحاء، ١٠٩/١.

(٤) قينقاع: اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة، أضيف إليهم سوق كانت بها، ويقال سوق بني قينقاع وهم من موالي الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول، وكان عددهم قليلا وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، وكانت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة عداوة قديمة في الجاهلية سببها اشتراكهم مع الخزرج يوم بعثت. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص ٢٠٧.

مِنَ الْمُحَرَّرِينَ - عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "دَعُوا الْحَبْشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ"^(١).

فالحبشة كانوا نصارى من أهل الكتاب، والترك كانوا على أديان أخرى.

هذا فضلا عن أن زعماء تلك الديانات وملوكهم في عهد النبوة والخلافة الراشدة كانوا لا يسمحون لشعوبهم أن تصل إليهم دعوة الإسلام، ويقفون في وجهها، فكان واجبا على المسلمين أن يقاتلوهم لإزاحة تلك الحواجز من طريق الدعوة.. أما اليوم فيستطيع المسلمون أن يبلغوا رسالة الإسلام بشتى الوسائل ويعلم الجميع أنه لم يبق هناك بيت في الغرب إلا ودخله التلفاز أو الإنترنت؛ ولهذا فطريق تبليغ دعوة الإسلام مفتوح؛ وذلك عن طريق القنوات الفضائية والإذاعات، وشبكات الإنترنت، والرسائل المكتوبة، والمكالمات الهاتفية، والمقالات بشتى اللغات. ولا يمنعك مانع، بالعكس نحن مقصرون جدا في إبلاغ رسالة الإسلام إلى العالم، نحن محتاجون إلى ملايين الأشخاص الذين يبذلون كل الجهود والمسامحة لإسماع صوت الفطرة صوت الإسلام لتلك الديار.. ولا يخفى على أحد أن التنصير جند لحمالاته التنصيرية ٤. ٧٥٠. ٠٠٠ منصر ومنصرة في أرجاء المعمورة، ماذا عندنا نحن أمة المليار ونصف المليار لنبلغ دعوة الإسلام للعالمين؟

إذا فقد كان لغير المسلمين - ما لم يكن وثنيا من جزيرة العرب فهذا له حكمه الخاص - الحرية الكاملة في ممارسة عقائدهم وشعائهم في ظل دولة الإسلام، وقد كان يعيش في ظل دولة الإسلام أجناس مختلفة كاليهود والنصارى والمجوس، حتى البلاد التي فتحها المسلمون كانت فيها بقايا من أصحاب الملل الأخرى، ومن قرأ تاريخ الفتوحات الإسلامية يجد المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع أبناء الأرض المفتوحة تسمح لهم بممارسة عقائدهم، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب معاهدته لنصارى الشام تبين سعة صدر المسلمين وتسامحهم وقمة الحرية في الإسلام في ممارسة غير المسلمين لشعائهم الدينية دون استهزاء ولا انتقاد: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في النهي عن تهيج الترك والحبشة، ح ٤٣٠٢. وسنن النسائي، كتاب الجهاد، باب غزوة الترك والحبشة، ح ٣١٧٦. قال الألباني في السلسلة الصحيحة: حديث حسن، وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله كلهم ثقات غير أبي سكينه. ح ٧٧٢. ٢ / ٢٧٧١.

عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء^(١) من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت^(٢)؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم مأمونهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنوا على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمونهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان^(٣).

وعن جسر بن أبي جعفر، قال: شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة، قرئ علينا بالبصرة: "أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتوا وخسرانا مبينا فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض؛ فإن في ذلك صلاحا لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، كان من الحق عليه أن يقوته أو يقويه، حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك، ثم ضيعناك في كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه"^(٤).

(١) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس. قيل معناه بيت الله. معجم البلدان، حرف الهمزة والألف، باب الهمزة والياء وما يليها.
(٢) اللصوت: اللصُّ اللصُّ في لغة طَبِيْعٍ وجمعه لُصُوت. لسان العرب، مادة: لصت.
(٣) تاريخ الطبري، ٢/٥٢٥.
(٤) كتاب الأموال، لابن زنجويه، ١/١٦٩-١٧٠.

وفي سيرة ابن هشام أن وفد نجران^(١) - وكانوا نصارى - "لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر (...). يقول: بعض من رأيهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ ما رأينا وفدا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون فقال رسول الله ﷺ: "دعوهم" فصلوا إلى المشرق"^(٢).

أما فيما يتعلق بغزوات النبي ﷺ وسراياه- والتي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلى السنة التاسعة للهجرة- فقد أريق فيها أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم تتجاوز قتلى كلها ١٠١٨^(٣) قتيلًا من الفريقين^(٤)، وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلا الله، عاصمة للنفوس وأغراض لا يحصيها إحصاء"^(٥)، باسطة الأمن والسلام والسكينة والطمأنينة في أرجاء الجزيرة العربية، فاتحة عهد السعادة في العالم.

قارن هذا بنتائج الحربين العالميتين: الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) والثانية الكبرى (١٩٣٩-١٩٤٥م)؛ ففي الأولى بلغ "[عدد المصابين ٢١.٠٠٠.٠٠٠]^(٦) عدد القتولين ٦.٤٠٠.٠٠٠ نفس"^(٧)، وفي الثانية بين ٣٥.٠٠٠.٠٠٠ و٦٠.٠٠٠.٠٠٠ نفس"^(٨).

أما عن الحملات الصليبية ضد المسلمين فحدث ولا حرج... وغيرها من المذابح والفضائح التي لا تحظر ببال، وتفوق كل خيال.

فلماذا يتعامى هؤلاء عن كل هذه الجرائم ليلصقوا تهمة سفك الدماء بالإسلام! مع

(١) نجران: من بلاد اليمن، سميت بنجران بن زيد بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. الروض المعطار في خبر الأقطار، حرف النون، ص ٥٧٣.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/٤٢٨.

(٣) ويدخل في هذه الإحصائية حتى يهود بني قريظة (الذين كانوا بين الستائة والثمانائة)، فإذا استثنينا من هذه النسبة فيكون العدد أقل بكثير؛ لأن قطع رؤوس بني قريظة - حسب رأيي - لا يعد قتالا، بل هو حكم بالإعدام عليهم بما اقتضاه دستور المدينة - الذي وافقوا على بنوده- في الخيانات والمكائد. وحكم سنة الله في الجزاء من جنس العمل.

(٤) من المسلمين ٢٥٩ ومن الكفار ٧٥٩.

(٥) هذه الزيادة من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٢٩١.

(٦) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، ص ٤٢٧.

(٧) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية، ط/١٩٧٤م، ٩٦٦/١٩.

(٨) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية، ١٩/١٠١٣.

أن التاريخ لم يعرف حربا منضبطة ورحيمة كحروب المسلمين.

ونرجع إلى أصحاب فرية (انتشار الإسلام بالسيف) لنقول لهم: أليس الاعتداء حقا ما يقوم به اليهود الصهاينة من جرائم التوسع والاستيطان في الأراضي الفلسطينية الشرعية، عن طريق السرقة والاعتصاب والعدوان والظلم والتقتيل والتهجير..، وما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية اليوم في العراق من التمثيل بالقتلى وهدم المنازل واتهام الأبرياء والرمي بهم في السجون والاعتصاب.. وما يقع في أفغانستان في سياستها التوسعية الاستخرايية. هذا في الوقت الذي يحرص فيه الإسلام على حقوق الناس، كما جاء في صحيح الإمام البخاري عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ"^(١).

أضف إلى ذلك أن رسالة الإسلام هي رسالة دعوة إلى الله ورسوله والإيمان؛ كما لخصها سيدنا رباعي بن أبي عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله لرستم: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"^(٢). فنحن دعاة ولسنا جناة ولا قضاة.

و لا يعني هذا أننا لا نأخذ الأهبة والحذر، بل إننا أمرنا بإعداد القوة دائما؛ القوة الاقتصادية والتكنولوجية والإعلامية. فضلا عن القوة المعنوية أو الروحية.. فرحمة الإسلام وفضيلته وعدله وعفوه وصفحه لا يأتي من موقع الجبن والانزمام لكن يأتي من موقع قوة.. والتاريخ شاهد على ذلك.

وهذا يلزم المستشرقين جبالا من الحجارة، ليدركوا أن الإسلام هو دين العدل والدفاع عن المستضعفين وتوفير الأمن في العالمين. أما اليهودية والصهيونية العالمية والدول الاستدمارية الاستخرايية فهي التي انتشرت بالعدوان والسيف والظلم. ونصوص العهد القديم والعهد الجديد السابقة الذكر شاهدة على هذا.

ونفق مليا مع بعض معاني الجهاد كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لننقض بذلك مقولة أهل الزيغ والضلال من المستشرقين ومن سار في ركابهم الذين يحصرون الجهاد في السيف فقط.

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أراضين، ح ٣١٩٦.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ٤/ ١٦٣.

لقد وردت لفظة الجهاد في القرآن والسنة بمعاني مختلفة، حيث تفرق بين مفهوم (الجهاد) ومفهوم (القتال)، فكل مسلم يجب أن يكون مجاهدا وليس من الضروري أن يكون مقاتلا، ولقد لبث النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاما مجاهدين ولم يكونوا مقاتلين، حتى كانت الهجرة وأذن الله للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق أن يدافعوا عن أنفسهم، تقريراً لحرية الدعوة، ورفعاً لكلمة الله تعالى، ثم قرر القرآن القتال لإنقاذ المستضعفين من قبضة المستكبرين.

فالإسلام لا يتشوف إلى القتال، ولا إلى إراقة الدماء، وإزهاق الأرواح، بل إذا تم الاتفاق بين الطرفين على حل الأزمة بغير إراقة الدماء والقتال، كان ذلك أفضل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وسيدنا رسول الله ﷺ هو أشجع الناس وكان لا يخاف في الله لومة لائم ومع ذلك كان لا يحب الحرب لأنه بعث رحمة للعالمين وما بعث لإسفاك الدماء، وكان يقول لأصحابه: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا لِلَّهِ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلِ الْكِتَابِ وَمُجْرِي السَّحَابِ وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْنَهُمْ وَأَنْصِرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١).

وكان ﷺ يقول: "تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَحْبَبِ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ"^(٢).

حتى لفظة (الحرب) يكرهها الإسلام، في مقابل ذلك يجرى الإسلام على القتال وبذل النفس والأموال في سبيل الله إذا انتهكت حرمة، أو أُرعب أتباعه، أو حوربت دعوته، أو اغتصبت أرضه، أو ديست مقدساته: ﴿أَلَا نُنْفِئُكَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ أَنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة].

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب كان النبي إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول، ح ٢٩٦٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، ح ٤٩٥٠. والحديث عن أبي وهب الجشمي.

وردت لفظة الجهاد بمعنى جهاد الكلمة والحجة أو الجهاد البياني: قال الحق جل وعلا في سورة الفرقان - وهي مكية-: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرَيْنَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ، جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان].^(١) "أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته ولو رأيت منهم من التكذيب والجرأة ما رأيت فابذل جهدك واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم"^(٢).

وقال عز وجل في سورة النحل - وهي مكية كلها عند جمهور علماء التفسير- قول الله: ﴿ثُمَّ إِيَّاكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل].^(٣) "أي: ثم إن ربك الذي ربي عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس"^(٤).

كما وردت لفظة الجهاد بمعنى الجهاد بالنفس والمال؛ قال الله تبارك وتعالى التوبة - وهي سورة مدنية-: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكُمْ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة]. ولهذا فإن الجهاد بالمال والنفس تحقيق كامل لعطاء العوض عن رضى الله ﷻ وجنته.

كما ورد الجهاد بمعنى العمل المبرور والإحسان؛ فعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنها- يقول: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: «أحبي والداك» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»^(٥).

وعن الصديقة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: "لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور"^(٥).

(١) قال الشيخ الحسين بن محمد الدامغاني: في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ [الفرقان] "يعني بالقول". قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، حققه وأكمله وأصلحه: عبد العزيز سيد الأهل، ص ١١٣.

(٢) تفسير السعدي، ص ٥٨٤.

(٣) تفسير السعدي، ص ٤٥٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين، ح ٣٠٠٤.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج المبرور، ح ١٤٤٨.

وعن أم أنس رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أوصني قال: "اهجري المعاصي فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرني من ذكر الله فإنك لا تأتي الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره" ^(١).

وورد كذلك بمعنى جهاد النفس: قال الحق جل ذكره في سورة العنكبوت - وهي سورة مكية - ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت]، أي: "وَمَنْ جَاهَدَ" نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذابة المخلوقات، وَحَبَسَ النفس على مراقبة الحق في الأنفاس واللحظات، ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾؛ لأن منفعة ذلك لها" ^(٢).

وعن فضالة بن عبيدٍ يحدث قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ" ^(٣).

وورد كذلك الجهاد بمعنى القيام لله بالقسط وقول الحق، -وبلسان العصر: بمعنى الجهاد السياسي- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» ^(٤).

وعن جابر رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» ^(٥).

وجاء الجهاد بمعنى القتال باليد والمدافعة باللسان للدفاع عن حمى الإسلام، ولتأمين الدعوة والقيام بواجب تبليغ الرسالة للناس كافة، وإقامة العدل في الأرض: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه □

(١) المعجم الأوسط للطبراني، ٥١/٧. هذا الحديث عن أم أنس الأنصارية وليست بأم سليم أم أنس بن مالك لأنها امرأة أخرى من الأنصار لم يرو هذا الحديث إلا بهذا الإسناد تفرد به هشام بن عمار.

(٢) البحر المديد، ٢٩٨/٥.

(٣) سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب من جاء في فضل من مات مرابطاً، ح ١٦٢١. قال أبو عيسى في الحديث: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد، كلمة عدل عند سلطان جائر، ح ٢١٧٤، قال أبو عيسى وفي الباب عن أبي أمامة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، قال الشيخ الألباني: صحيح السلسلة الصحيحة، ١ / ٨٠٦.

(٥) المستدرک، للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، ذكر إسلام حمزة رضي الله عنه، ح ٤٨٨٤، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "جَاهِدُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ"^(١).

هذا علاوة على أن الله تعالى ما ذكر المؤمنين في موقف التعريف بأخص خصائصهم إلا ذكر الجهاد بالمال والنفس. فالجهاد مستمر إلى يوم القيامة وغايته حمل رسالة الإسلام وتبليغها للناس كافة. فإذا اعترض طريق التبليغ معترض، أو وقف في طريقها معتد، أو هدد الإسلام مهدد فالقتال آخر وسيلة لصد المعتدي وكسر شوكة العائق.

وهذا كله يوضح مدى اتساع دائرة الجهاد، وأنها ليست محصورة في القتال فقط، بل هي مرتبطة بجوانب الحياة كلها.

فيتحصل من الحديث السابق عن بعض معاني الجهاد كما جاءت في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومن وجهة نظر التأصيل العلمي أن كل قتال في سبيل الله يعد جهادا، وليس كل جهاد في سبيل الله ينبغي أن يكون قتالا.

ومن ثمَّ فإنَّ الجهاد بالمعنى المذكور متصل وماض حقا إلى يوم البعث والنشور، بينما القتال حالة استثنائية له أسبابه وعوارضه بها يقوم ويزول.

فالجهاد بمعناه الشامل قيمة عالية المقام، عظيمة القدر تمثل دعامة رئيسة في منهاج الإسلام، فضلا عن أن لتلك القيمة رنينها المجلجل في عمق التاريخ الإسلامي، وبصماتها في صفحاته المشرقة.

وهنا أقول للمتنتهين الذين يحصرون الجهاد في معناه القتالي: إن السبب في انتشار الإسلام ليس السيف، وإنما انتشر بمعجزته الخالدة -القرآن- التي تحرق جدر الصدور بروحانيتها العالية، وانتشر بأخلاقه السامية، وبرحمته وعدله وفضيلته التي لا نظير لها في العالم من قبل ومن بعد. والدليل على هذا ما هو مقرر في كتب التاريخ في أن معظم البلاد التي دخلها نور الإسلام مثل إندونيسيا والصين خصوصا وجنوب شرقي آسيا عموما، إنما دخلها عن طريق الدعاة إلى الإسلام الذين ولجوا باب تلك الديار عن طريق التجارة فأثروا في الناس بأخلاقهم وحسن معاملتهم وبحالهم ومقالمهم، أضف إلى ذلك دخول الإسلام إلى بلاد الأندلس وأوروبا، والآلاف التي تدخل في دين الإسلام اليوم أفواجا من الأوربيين والأمريكان واليابانيين.

(١) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب من خان غازيا في أهله، ح ٣١٩٢. قال الألباني: حديث صحيح.

ج) أنواع الجهاد:

كما سبق أن قلت إن الجهاد لا ينحصر في القتال فقط، بل تتعدد أنواعه وأبوابه؛ أجمل أهمها في:

١- جهاد النفس: إن المقصود بجهاد النفس في ذات الله يعني حملها على الإقبال على الله ﷻ وهجرها ما طُبعت عليه من الغفلة والبعد عن جادة الصواب. فجهاد النفس هو جهاد الهوى، وجهاد ما في بواطننا من خبائث وأدران، وتطهيرها لكي تسلم من الآفات والشبهات والشهوات، حتى تكون أهلاً للفيض الإلهي، والمدد الرباني.

٢- الجهاد بالمال: فالجهاد بالمال فيما يتعلق بالفرد هو تطهير الإنسان المؤمن من عاهة الشُّح، وهو الخطوة الأولى في طريق الفوز والفلاح. قال الباري جل جلاله: ﴿...وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

أما فيما يتعلق بالأمة فهو توفير المال اللازم لكل أبواب الجهاد وأنواعه.

٣- جهاد التعليم: الجهاد التعليمي هو إخراج الأمة من دياجير ظلام الجهل إلى نور العلم، وتعليمها دينها وشرع ربها، وحقوقها المشروعة، كما علمها سيد الوجود ﷺ الذي بُعث معلماً، وكما علمها أصحابه من بعده رضوان الله عليهم جميعاً.

٤- جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: معناه ومضمونه الذود عن الشريعة الغراء، والسهر على إقامة حدود الله تعالى، وتثبيت أركان الدين في نفوس الناس، والمراقبة الشديدة على تطبيق الشريعة.

٥- جهاد الكلمة والحجة: وأعني به بذل الجهد باللسان وبالقلم ضد كل انحراف، وضد كل من يناوىء الإسلام من المخربين فكرياً ومن الممسوخين عقائدياً؛ أصحاب الفلسفات الكافرة والجدليات الملحدة.

٦- جهاد التعبئة والبناء: إن المقصود بجهاد التعبئة والبناء هو تعبئة الأمة وتعليمها ما أمر الله تعالى به؛ بأن يكون واجبها الأول إنكار المنكر الأول وهو الحكم بغير ما أنزل الله، وبذل المساعي والجهود في إقامة دين الله في الأرض، وتطبيق كتابه المنزل على نبيه وصفوة خلقه سيدنا محمد ﷺ، وبناء مجتمع العمران الأخوي، والإسهام في تحقيق سنة الله في النصر والتمكين.

فجهاد البناء إذن، هو نقض معاقل الكفر وهدم صروح الباطل، لبناء جيل مؤمن وعقلية مؤمنة ونمط حياة ومقوماتها.

٧- **الجهاد السياسي:** هو بذل الجهد لتكون الحاكمية في الدولة لله تعالى؛ فتكون مبادئها إسلامية، وقوانينها إسلامية، وأخلاقها إسلامية، والحكم بين الناس بالقسط والعدل.

٨- **جهاد الكفر والفقير:** وأقصد بجهاد الكفر والفقير؛ محاربة الكفر الذي انتشر في مجتمعاتنا انتشار النار في الهشيم، فمعركة الحق ضد الباطل يفصل فيها طرد دعاة الكفر، كل الكفر؛ كفر الرأسمالية التي ديدنها الابتزاز، وكفر الإيديولوجية التي تخفي وراء الشعارات البراقة وجهها الحقيقي، وفداحة كفرها وكفر الطبقة، طبقة حكام الجبر الجائمين على صدر الأمة، المستأثرين بالسلطان والمال واللذة، والعباد والبلاد، ومتاع الحياة الدنيا.

بمحاربة كفر الطبقة والرأسمالية والإيديولوجية يتم القضاء على الفقر أخي الكفر.

٩- **الجهاد الاقتصادي:** وهو بذل الجهد لتحقيق القوة الاقتصادية، وإنعاش الاقتصاد، وتحقيق الكفاية المادية للأمة الإسلامية.

١٠- **جهاد التَّوْحِيد:** هو بذل الجهد لتوحيد الأمة الإسلامية، إذ الأصل فيها التوحيد لا التفرق والتشردم، قال الله جل جلاله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ١٢]. فعلى هذا، فوحدة دار الإسلام ضرورة ملحة وواجب شرعي وأمل عزيز. ووحدة الأمة المسلمة ووحدة قيادتها هما شرطا القوة ومصدر العزة لمواجهات التحديات المعاصرة والمخططات الجاهلية.

١١- **الجهاد القتالي:** أقصد بالجهاد القتالي بذل الجهد عن طريق المدافعة أو القتال في حماية دار الإسلام ودعوة الإسلام، ودين الله ﷻ، وإزالة الحواجز والعقبات من طريق الدعوة الإسلامية حتى تبلغ كلمتها إلى العالم، وردع المعتدين ومنعهم من الأذى والفساد.

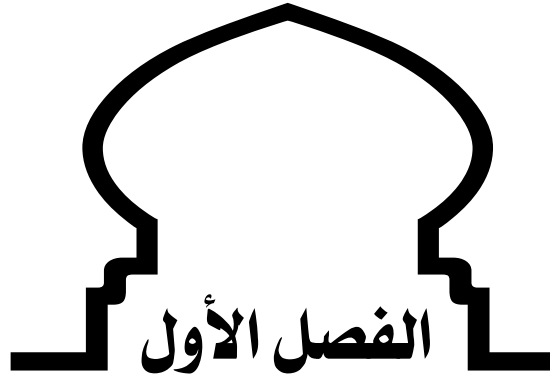
خلاصة القول

من كل ما سبق نخلص إلى هذا التعريف للجihad: "الجihad هو بذل الجهد لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها التي تشمل كل مجالات الحياة"، وبمعنى آخر: "الجihad هو استفراغ الجهود وبذل المساعي لتحقيق العدل في الأرض وحمل رسالة الإسلام إلى العالم.. هذه الغاية وهي وسيلة إلى غاية كبرى وعظمى وهي أن يعرف العبد ربه ويمثل لأمره سائراً للقاء ربه عز وجل طامعاً في رضاه".

وكل الجهود التي يبذلها الفرد المسلم والجماعة المسلمة لخدمة المجتمع سواء من جانبه التربوي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي أو العلمي أو العمراني. جهادا مشروعا؛ كصيانة دين المسلم، أو نفسه أو عرضه، أو ماله، أو عقله.

أو السعي لتوحيد الصف المسلم واسترجاع ما سلب واغتصب من هذه الأمة من حقوق مشروعة من شورى وعدل..، أو السعي لرفع الظلم عن الشعوب التي تزرح تحت استبداد الظلمة. وتوفير العمل والإنتاج وازدهار الاقتصاد، وتحقيق الأمن والتكافل الاجتماعي.. في أوقات السلم والحرب. كل هذا جهاد.

إذاً فلا يقلل من مكانة الجihad وشأنه إساءة بعض الناس توظيفه، أو ابتذاله للمصطلح باعتبار أن القيم لا ينقضها من أساء فهمها، ولا يهدم صرحها من أراد انتهاكها، وإلا لما بقيت قيمة على وجه الأرض.



سنن الله في الجهاد النبوي بمكة

(من البعثة النبوية حتى بناء المجتمع الإسلامي بيثرب)

مدخل

في هذا الفصل أستنبط فيه سنن الله من جهاد رسول الله ﷺ من البعثة حتى بناء الدولة الإسلامية بالمدينة، وقد كانت حياة النبي ﷺ كلها جهادا في سبيل الله، حيث لم يهمله يوما واحدا حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى إلى جوار ربه تبارك وتعالى في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ وهو يجهز جيشا بقيادة الحَبِّ بن الحب سيدنا أسامة بن زيدؓ إلى أرض فلسطين.

فمن خلال دراسة سنن الله في جهاد رسول الله ﷺ يتبين لنا الطريق إلى حقيقة الاتباع والتأسي والمحبة للنبي ﷺ، ويبين لنا ذلك الجهد المبذول في الدعوة إلى الله، وتربية رجال الرعييل الأول على محبة الله ورسوله ﷺ وعلى بذل الغالي والنفيس لإزهاق الباطل وإحقاق الحق، حتى تغمرنا شمس الهداية بضياؤها، وبدر التوفيق بسنائه.

وفي هذا الفصل أقتصر على بعض السنن وهي التي استنبطتها من الجهاد النبوي بمكة المكرمة وهي:

- سنة تكذيب الأنبياء؛
- ابتلاء الله للمؤمنين بنقمة الكافرين؛
- سنة عداوة الكافرين للمؤمنين؛
- وعيد الله لقريش؛
- الهجرة لله إلى الحبشة ثم إلى المدينة وما تحتها من سنن؛
- سنة التدرج.

المبحث الأول

تكذيب كفار قريش للنبي ﷺ

إن من سنن الله تعالى سنة تكذيب المرسلين، قال الله تعالى لنبية وحببيه وصفوة خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ [الأنعام]، قال الشهيد سيد قطب: "إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللاحب، ماض في الخط الواصب.. مستقيم الخطى، ثابت الأقدام. يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء.. والموكب في طريقه لا ينحني ولا يثني ولا ينكص ولا يجيد والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق" (١).

قال جل ذكره: ﴿وَلِإِن يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ ﴿٤٢﴾ [الحج]، وقال الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [المؤمنون].

وقد تحدثت سورة القمر عن الأقوام التي كذبت رسلها، قال الله عز اسمه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾ ﴿١﴾ [القمر]، قال جل ثناؤه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ﴾ ﴿١٨﴾ [القمر]، وقال جل جلاله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿٣٣﴾ [القمر]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿٣٣﴾ [القمر]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ﴿٤٦﴾ [القمر].

ثم قال جل ذكره: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٤٣﴾ [القمر]؛ "أي الكفار المعدودين قوم نوح. وهود. وصالح. ولوط. وآل فرعون، والمراد الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المحدث عنهم بالخيرية أقل عناداً وأقرب طاعة وانقياداً، وظاهر كلام كثير أن الخطاب هنا عام للمسلمين وغيرهم حيث قالوا: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ﴾ والاستفهام إنكاري في معنى النفي فكأنه قيل: ما كفاركم خير من أولئك الكفار

(١) في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ٣٤/١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢/١٠٧٧.

المعدودين بأن يكونوا أكثر منهم قوة وشدة وأوفر عدداً وعدة، أو بأن يكونوا ألين شكيمة في الكفر والعصيان والضلال والطغيان، بل هم دونهم في القوة وما أشبهها من زينة الدنيا، أو أسوأ حالاً منهم في الكفر، وقد أصاب من هو خير ما أصاب فكيف يطمعون هم في أن لا يصيبهم نحو ذلك" (١).

والحقيقة ليست فيما ذهب إليه الألوسي رحمته، وإنما قوله عز من قائل: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ﴾ معناه: فإن تبين لكم ما فعلنا بالكفار السابقين، وأن سنة الله لا تتخلف عن قوم لا يؤمنون، فكيف بكفاركم؟ ألم تتوقعوا نفس النتائج بالهلاك كهلاكهم؟ لذلك أردف سبحانه وتعالى قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ يعني ما دام الأمر على حاله ولم يصدر منه جل وعلا براءة لكم سواء في الكتب السابقة أو اللاحقة، فليس هناك ما يخالف الأمر بهلاك كفاركم.

ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ﴾ [القمر]؛ وعد كفار قريش - الذين كذبوا الرسالة المحمدية الخالدة وأنكروا دعوة الإسلام - بالهزيمة، وقد تحقق الوعد في بضع سنين في غزوة بدر الكبرى، وولى الكفار أدبارهم منهزمين من هول ما أصابهم في المعركة، قتل صناديدهم، وأسر الكثير منهم، وغنمت أموالهم.

وعليه فإن تكذيب الرسل سنة من سنن الله في الحياة، ولذلك لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ وهو بغار حراء رجع إلى بيته وفؤاده يرجف «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (٢) ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ﷺ يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: "أومخرجي هم؟!" قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل الألويسي البغدادي، ٢٧ تصحيح وتعليق: محمد شكري، إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث، بيروت، ط/د، ت، ٩٢.
(٢) توفي قبل أن يشتهر الإسلام ويؤمر النبي ﷺ بالجهاد. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجليل - بيروت، ط/١/١٤١٢هـ، ترجمة: ٦٠٧/٦، ٩١٣٧.

يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةً أَنْ تُوْفِيَ وَفَتَرَ الْوَحْيَ" (١).

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرْقَلَ قَالَ لَهُ: "سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ، فَزَعَمْتَ أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوْلٌ، فَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ" (٢).

ولهذا واجه النبي صلى الله عليه وسلم من الابتلاءات والفتن والأذى والمحن ما لا يحظر على بال، في مواقف متعددة، وكان ذلك على قدر الرسالة التي حملها، والمكانة التي تبوأها، قال الله جلَّت حكمته: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۗ﴾ [القمر]، وقال جل جلاله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ۗ﴾ [ص].

هذا، ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم تعرض لألوان شتى من الابتلاءات؛ عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ أَخْبَرَنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "بَيْنَا النَّبِيُّ يُصَلِّي فِي حَجَرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عَقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ﴿أَنْقَلْتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...﴾ [غافر] الآية" (٣).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، صَعَدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يَنَادِي: "يَا بَنِي فَهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ". لَبَطُونَ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: "أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تَغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟". قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: "فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ". فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا، فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۗ﴾ [المسد] (٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح ٣، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح ٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوتُ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة] وَالْحَرْبُ سِجَالٌ. ح ٢٨٠٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة، ح ٣٨٥٦. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، ح ٢٠٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء]، ح ٤٧٧٠.

قال الإمام محمد بن إسحاق: "ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه، وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به، مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

(...) وإن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه"^(١).

واستمر التكذيب بالرسالة المحمدية، وكل صنديد قريش يزدادون حقدا وعداوة للنبي ﷺ، وها هو الوليد بن المغيرة يجتمع بنفر من قريش، يفكرون في خطة جديدة لصد الناس وخصوصا وفود العرب عن سماع كلمة الحق، قال لهم - الوليد بن المغيرة -: "يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول كاهن؛ قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمَزَمَة^(٢) الكاهن ولا سجعته؛ قالوا: فنقول مجنون؛ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله رجزه^(٣)، وهزجه^(٤)، وقرضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرحهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم؛ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعَدَق^(٥) وإن فرعه لجناة - قال ابن هشام:

(١) السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط/ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م، ١/ ٢٠٥.

(٢) الزمزمة: صوت ضعيف كنعو ما كانت الفُرسُ تفعله في شربها الماء، ويقال أيضا: زمزم الرعد، وهو صوت له قبل الهدر، وكذلك الكهان، كانت لهم زمزمة الله أعلم بكيفيتها، وأما زمزمة الفرس، فكانت أنوفهم. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي، علق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الشوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٣، ت، ٢/ ١٣.

(٣) الرجز في الشعر أشطار معدلة. الروض الأنف، ١٢/ ٢.

(٤) الهزج: من أعاريض الشعر المعروفة عند العروضيين". الروض الأنف، ١٢/ ٢-١٣.

(٥) العَدَق: النَّخْلَةُ بِحَمْلِهَا، جِ عَدَقٌ وَعِدَاقٌ. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قدم له وعلق عليه: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ٢٠٠٤م-١٤٢٥هـ، كتاب القاف، فصل العين، ص ٩٢١.

ويقال لغدق^(١) - وما أتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدتُ لَهُ تَهْمِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۗ﴾ (٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ [المدثر] أي خصيما^(٢).

ولم يكتف كفار قريش بتكذيب النبي ﷺ فقط، وبترويح الإشاعات حول الرسالة الجديدة، بل حاولوا أن يصدوه عن الدعوة فبدلوا قصارى جهدهم في ذلك، واستخدموا أساليب ووسائل متنوعة، قال الإمام ابن إسحاق - رحمه الله -: "فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آهتهم وعامها؛ فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون، وحذب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شيء. فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب (...). فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا؛ فإما أن تكفه عنا، وإما أن تحلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولوا رقيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه"^(٣).

واستمرت الدعوة الإسلامية، ومضى النبي ﷺ لأمره يدعو الناس ويصحح عقيدتهم ويعرفهم بخالقهم ورازقهم، ومضى سيدنا رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، "ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثر قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذا مروا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه

(١) العَدَقُ: الماء الكثير. القاموس المحيط، كتاب القاف، فصل الغين، ص ٩٢٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ١/ ١٨٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ١/ ١٨٥.

أحلامنا، وعيب أهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. قالوا له ذلك ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه" (١).

ولما أكثروا على أبي طالب القول أخبر النبي ﷺ بذلك وبما يسعون إليه، وأمره أن يخفف على نفسه وعليه، فلما رأى الحبيب الأعظم والنبي الأكرم من عمه ما رأى وسمع مقالته، "ظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. قال فقال رسول الله ﷺ: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، قال فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا" (٢).

ثم إن قريشا بعد سلوكهم كل الطرق لاسترضاء أبي طالب ليسلم إليهم النبي ﷺ "تدامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه. وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو الله الملعون" (٣).

ولم يقف كفار قريش عند هذا الحد، بل فكروا في مكيدة أشد وأنكى، فلم يكفهم بقاؤهم على الكفر والشرك وعبادة الأوثان، ولم يكفهم صد الناس عن عبادة الله الواحد، ولم يكفهم تكذيبهم برسول الله ﷺ واستهزاؤهم به وتقولهم على الله، افتراؤهم الكذب على رسول الله، ولم يكفهم إيذاؤهم للمستضعفين بمكة، ولم يكفهم كل أعمالهم الشريرة

(١) سيرة ابن هشام، ١/١٨٦. الفضائل المحمدية التي فضلها الله بها ﷺ على جميع البرية، يوسف بن إسحاق، ص ٢١.
(٢) سيرة ابن هشام، ١/١٨٦.
(٣) سيرة ابن هشام، ١/١٨٨.

وقبائحهم وافراءاتهم. بل تأمروا على مكيدة شيطانية كبيرة فقد اتعدوا على قتل رسول الله ﷺ ولكن الله سلم وردهم مذمومين مدحورين خائبين.

عن الإمام موسى بن عقبة رضي الله عنه قال: "ثم إن قريشا ائتمرت رويتهم واشتد مكرهم وهموا بقتل النبي ﷺ وإخراجه، حين رأوا أصحابه يزدادون ويكثرون فعرضوا على قومه أن يعطوهم دينته ويقتلوه فأبى ذلك قومه، ومنع الله عز وجل رسوله بحمية رهطه" (١).

واستمر المشركون في إيذائهم للنبي ﷺ ومن دخل في دينه، قاموا بحملات لافتان كل من دخل في هذا الدين الجديد، كما شنوا حربا إعلامية ضروس على الدعوة الإسلامية، والغرابة تكمن في الخطوة الأخرى التي أقدمت عليها قريش لما أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فرارا بدينهم من أن يفتنهم المشركون، ونشرا للدعوة الإسلامية هناك، ولذلك "لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحزمة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفسو في القبائل اجتمعوا وائتمروا (بينهم) أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي - قال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث - فدعا عليه رسول الله ﷺ فثقل بعض أصابعه.

(...) فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شعبة واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهروهم" (٢).

(١) المغازي، موسى بن عقبة، جمع ودراسة وتخریج: محمد باقشيش أبو مالك، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر أغادير المغرب، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ط ١٩٩٤م، ص ٦٦. سيرة ابن هشام، ١/ ٢٢٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٤٤.

كان ابتداء حصارهم في الشعب "في المحرم سنة سبع من المبعث"^(١)، قال الإمام ابن إسحاق - رحمه الله -: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا، وجزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين حتى جهدوا ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية"^(٢).

والحاصل أن الله تعالى حين منع النبي ﷺ من تلك الخطة الخطيرة التي أقدمت عليها قريش قامت بخطة شيطانية أخرى؛ فجعلوا "يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونهم، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم وفيمن نصب لعداوتهم ومنهم من سمي لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار فكان ممن سمي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبد المطلب، وأم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر، فأنزل الله تعالى فيها: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَأْتَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]^(٣).

ولا يخفى على أحد أن الله تعالى إذا أراد أمرا هيا له أسبابه؛ فهاهي تلك الصحيفة المشؤومة يبيى لها الله جل وعلا نفرا من قريش قاموا بنقضها؛ وهذه سنة الله تعالى حيث لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، قال الحق سبحانه: ﴿...وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝١٤١﴾ [النساء].

قال ابن هشام: "وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: "يا عم إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو الله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان" فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما

(١) قال ابن سيد الناس: "وحصرنا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين نبى رسول الله ﷺ، وكان خروجهم في السنة العاشرة". عيون الأثر في فنون المغازي والشائيل والسير، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعموري (ت ٧٣٤هـ)، تحقيق: محمد العيد الخطرواي ومحبي الدير متو، دار التراث، المدينة المنورة، دار ابن كثير دمشق - بيروت، ط ١/١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ١/٢٢٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، عن الطبعة التي حققها عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقم أبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى، ومكتبة العلم القاهرة، ط/د، ت، ٧/٢٢٠.

(٣) سيرة ابن هشام، ١/٢٤٦.

يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهل صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهاوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها؟ وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرا. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا^(١).

لكن ذلك زاد في حقدهم وعدائهم، قال ابن إسحاق: "وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته: أبا لهب، والحكم بن العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي، وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد، إلا الحكم بن أبي العاص، فكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرا يستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى (...) يخرج به رسول الله ﷺ على العود، فيقف به على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا! ثم يلقيه في الطريق"^(٢).

وحاصل الأمر أنه لما ماتت زوجته ﷺ مولاتنا خديجة رضي الله عنها وعمه أبو طالب بالغت قريش في تكذيبه، ونالت منه ما نالت، قال ابن إسحاق: "ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب هلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها؛ وهلك عمه أبي طالب، وكان له عضدا وحرزا في أمره ومنعة وناصر على قومه وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا، (...) فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: "لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك". قال: ويقول: بين ذلك: "ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب"^(٣).

فلما بالغوا في إيذائه - صلوات ربي وسلامه عليه - «خرج رسول الله ﷺ إلى

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٦١.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٠١-٣٠٢.

الطائف^(١)، يلتمس النصره من ثقيف، والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فخرج إليهم وحده.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبیب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح فجلس إليهم رسول الله ﷺ؛ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم: هو يمرط^(٢) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا؛ لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاکتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم^(٣) ذلك عليه.

فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وأجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حبله^(٤) من عنب فجلس فيه^(٥).

وفيا ذكرت سنن إلهية كثيرة تندرج تحت سنة تكذيب المرسلين، أهمها سنة الابتلاء. وقد رأينا أنواعا كثيرة من الابتلاءات التي تعرض لها سيد الوجود ﷺ، ثم سنة الله في خاتم رسله فلم يجعل الله تعالى فظا ولا سخابا ولا فحاشا. بل جعله رحمة للعالمين، وقد رأينا ما تعرض له، ومع ذلك لم يدع عليهم، بل طلب لهم الهداية والاستقامة، والشاهد عندنا

(١) الطائف: هو وادي وج وهو بلاد ثقيف بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا. معجم البلدان، باب الطاء والألف، حرف الطاء.

(٢) يمرط: أي ينزعه ويمزقه ويرمي به.

(٣) يذئروهم: وذئروهم: اجترأ. ويقال إن شؤنك لذئرة وقد ذئره أي كرهه وانصرف عنه، والذائر الغضبان. مختار الصحاح، باب الذال، مادة: ذأر، ص ١٠٢. لسان العرب، مادة: ذأر.

(٤) الحبله: الكرمة، اشتق اسمها من الحبل، لأنها تحمل بالعنب. الروض الأنف، ٢/ ٢٣٠.

(٥) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤. أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق: محمد حميد الله، (سلسلة ذخائر العرب)، دار المعارف، القاهرة، ط ٣/ د، ت، ١/ ١٣٧.

ونحن نتحدث عن سفره إلى الطائف، فرغم ما تعرض له لم يحقد، بل قال -صلوات ربي وسلامه عليه- لما ذهبوا عنه، وأوى إلى ظل الشجرة وأسند ظهره إليها، هذه الكلمات التي وجهها إلى ربه، يطلب مدده وعونه، بقلب خافق ونداء دافئ عميق: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك" (١).

بهذه الكلمات لا غيرها توجه إلى ربه، متضرعاً، ومتوسداً عبثة الذل والانكسار والافتقار والفرار إلى مفرج الكرب عن الأبرار. فالدعاء سلاح المؤمن، ورفيق في الطريق، وباب الإمدادات الإلهية، والفيوضات الرحمانية.

بهذا لا غير رد عليهم سيد الوجود ﷺ، فكانت رحمته عظيمة في هذا الموقف العصيب، فقد كان بنو عمرو لثاماً وقساة فأغروا به سفاءهم، وحرصوا عليه عبيدهم، يسبونهم ويشتمونهم ويرمون عراقبه بالحجارة، حتى دميت عقباه، وتلطخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف -صلوات ربي وسلامه عليه-.. مع كل ذلك لم يدع عليهم، عن عروة أن عائشة رضي الله عنها -زوج النبي ﷺ- حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (٢)، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٠٤.

(٢) قرن الثعالب: بسكون الراء ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة وهو قرن أيضاً غير مضاف وأصله الجبل الصغير المستطيل المنقطع عن الجبل الكبير قاله القاضي عياض، وقال الحسن بن محمد المهلب: قرن قرية بينها وبين مكة أحد وخمسون ميلاً وهي ميقات أهل اليمن بينها وبين الطائف ذات اليمن ستة وثلاثون ميلاً. معجم البلدان، حرف الميم، باب القاف والتاء وما يليها.

الْأَخْشَبِينَ^(١)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُجْرِحَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"^(٢).

فتحققت سنة إلهية هنا، فكان النصر بعد الاستيئاس، كما قال الحق جل وعلا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ ۗ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٣) [يوسف]، فكان المدد الإلهي لما قفل من الطائف متوجها إلى مكة. قال ابن إسحاق: "ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة^(٤) قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكروهم الله تبارك وتعالى وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا. إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقصص الله خبرهم عليه ﷺ قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾^(٥) [الأحقاف] إلى قوله تعالى: ﴿... وَيُحْرِمُونَكَ مِّنْ عَدَابِ إِلَهِمْ﴾^(٦) [الأحقاف] وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...﴾^(٧) [الجن] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة"^(٨).

رفض أهل الطائف دعوة الإسلام، ولم يستجيبوا لمناادي الله، فانتقلت تلك الدعوة إلى عالم آخر، إنه عالم الجن، وهذا تكريم رباني لحبيبه وصفوة خلقه ﷺ، فسمع الجن دعوته وآمنوا به، ومضوا إلى قومهم يدعونهم إلى دين الإسلام.

فكان هذا عزاء كريها للنبي ﷺ، ومواساة رقيقة مست مشاعر النبي ﷺ، وذهبت بكثير مما خالطها من الألم والحزن، فشاع في كيانه الرضا والاطمئنان. إنه ليس وحده، وإن صوت السماء متصل به، وإن جندا من جنود الله يحفون به، ويستمعون إليه، ويؤمنون به، وبالكتاب الذي أنزل عليه.

(١) وَالْأَخْشَبُ: الْجَبَلُ الْحَشِينُ الْعَظِيمُ. وَالْأَخْشَبَانِ: جَبَلَا مَكَّةَ. الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ، بَابِ الْبَاءِ، فَصَلِ الْخَاءِ، ص ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ح ٣٢٣١.

(٣) نخلة: واد من الحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين إحدى اللتين. معجم البلدان، باب النون والحاء، حرف النون.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٠٥.

ومن هذا الذي يستمع إلى كلام الله، ويستجيب لرسوله؟ إنهم جماعة من «الجن»..
الجن الذي يُضرب به المثل في الخروج على كل نظام، والتأبي على كل نداء! (١).

فكيف لا يكون لهذا القرآن مثل هذا الأثر في نفوس الناس، وفي أصلهم ضللاً،
وأعتاهم عُتُوًّا؟

ولا شك أن ما وقع كان له أثره الكبير في التنفيس عن النبي ﷺ ومواساته، بعد تلك
المحنة والابتلاء الذي مر به في الطائف على يد سفهاء ثقيف..

فكان ذلك كالزاد تزود به النبي ﷺ ليمضي قدما في طريق دعوته وتبليغ رسالة
ربه لقومه، والصبر على مشاق الطريق لمواجهة تعنت قريش وعنادها وإنما ل زاد يتزود به
الرسول ﷺ، ويجد منه القوة على مواصلة السير في طريقه إلى قومه، وفي مواجهة تحديهم له،
وعنادهم.

فلما وصل إلى مكة وجد قومه لا زالوا في ضلالهم يعمهون، وفي عدائهم يزدادون،
ولأكاذيبهم يروجون، ورُغم ذلك المدد بإيمان الجن به، «فإنه ما زال في حاجة إلى أمداد
أخرى، تثبت قدمه، وتشد عزمه، وتلقي أضواء على هذا الظلام الكثيف المنعقد في سماء
مكة بينه وبين قومه.

لقد أبلى الرسول الكريم بلاءه في الأرض، واستنفد كل ما يُعطى ويأخذ منها ومن
أهلها، فكان لا بد من عالم آخر، يتزود منه بزاد روحي، يُشبع في كيانه قوَى مجددة، لا تنفد
على كثرة ما ينفق منها في النضال المتصل بينه وبين قومه، حتى يحكم الله بينهم بالحق، وهو
خير الحاكمين..» (٢).

بعد تلك الابتلاءات الكثيرة في عالم الثقلين، حان الموعد لبدء النبي ﷺ رحلة أخرى
إلى السماوات العلى حيث جنات المأوى إلى حضرة الباري جل وعلا، ومعناه؛ فإن لم يسمع
لك أهل الأرض يا محمد ﷺ فتعال إلى عالم أوسع من ذلك: إلى جنات ونهر ومقعد صدق
عند مليك مقتدر.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط/د، ت، ٣/٤١٩-٤٢٠.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، ٣/٤٢٠-٤٢١.

فكانت رحلة الإسراء والمعراج^(١)؛ قال الباري جل ذكره في رحلة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء]. وقال جل وعلا في رحلة المعراج: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم].

كان مسرى الحبيب المصطفى ﷺ ومعراجه «وما ذكر عنه بلاء وتمحيص، وأمر من أمر الله - عز وجل - في قدرته وسلطانه، فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء، ليريه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد»^(٢).

ولذلك لما رجع النبي ﷺ من رحلته إلى السماء إلى مكة، «غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر البين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفيزهد ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟! (...). فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر، فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس. وصى فيه ورجع إلى مكة. قال فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه؛ فقالوا بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس؛ فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه (من الله) من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم قال يا نبي الله: فصفه لي، فإني قد جئتته (...). فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئا، قال صدقت أشهد أنك رسول الله حتى (إذا) انتهى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وأنت يا

(١) قال موسى بن عقبة عن الزهري: "أسرى برسول الله إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة".
المغازي، ص ٨٨.
(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٨٥.

أبا بكر الصِّديق؟ فيومئذ ساء الصديق" (١).

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» (٢).

وبعد تلك المعجزة الباهرة، التي كذب بها المشركون وهي عادتهم دائماً، وسنة الله لا تتبدل ولا تتغير طلبوا منه أن يريهم آية تدل على صدق نبوته، عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: "أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ" (٣).

لكنهم كذبوه وقالوا سحر محمد أعيننا (٤)، قال الحق جل وعلا: ﴿أَفَتَرَبَّيْتِ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ۝١ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝٣﴾ [القمر].

وهنا يمكن أن أجهل تكذيب المشركين للرسالة المحمدية في النقاط الآتية:

كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمونه قبل بعثته الصادق الأمين.

استهزؤا به صلى الله عليه وسلم وسخروا منه؛ قال الحق جل وعلا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلهًا زُورًا ۝ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام].

اتهموه صلى الله عليه وسلم بالسحر؛ قال الحق جل وعلا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص].

تواصوا بالثبات على شركهم وكفرهم؛ قال الله عز اسمه: ﴿وَأَنْطَلِقُ اللَّامِ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص].

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كتاب المناقب، باب حديث الإسراء، ح ٣٨٨٦. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، ح ١٧٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر، ح ٣٦٣٧.

(٤) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ٢/ ١٢٥-١٢٦.

احتقروا المستضعفين الذين آمنوا بالنبي ﷺ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف].

دافعوا عن شركهم، واستبعدوا اختصاص سيدنا رسول الله ﷺ بالرسالة الخالدة؛ ولهذا توعد الله تعالى كفار قريش بالعذاب لما قالوا في الرسالة المحمدية: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلَمَلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوفُوا عَذَابِي ﴿٨﴾﴾ [ص].

كذبوا بالبعث والنشور وبيوم القيامة؛ قال الخالق سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْآ لَنُحْيِي خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد]، وقال تبارك وتعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان]، وقال الله جل جلاله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَيُبْعَثُنَّ ثُمَّ لِنُنَبِّئَنَّهُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن].

ادعى كفار قريش أن القرآن ليس كلام الله؛ قال الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكَ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان]، وقال جلت عظمته وتقدست كلماته: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصَدِّقَهُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكَ مَفْتَرَىٰ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ].

من شدة كفرهم وعنادهم طلبوا أن يكون هذا النبي المرسل إليهم ملكا، أو ينزل الله عليهم ملائكة تخبرهم بصدق الرسالة المحمدية؛ قال جل شأنه: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان]. وقال الحق جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نُنزِلَ رَبِّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان].

وبالغوا في طلبهم، فطلبوا الخوارق، رُغم ما رآه من المعجزات والآيات؛ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتَجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا

﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرْفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْيِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ [الإسراء]، كل هذا ليقبوا على عنادهم، ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿٣٧﴾ [الأنعام].

ومن شدة إنكارهم واستكبارهم طلبوا تعجيل العقوبة؛ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الحج].

ويأتي الجواب القرآني: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ [يونس]، وقال الله عز سلطانه: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُم وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ [يونس]، وقال عز من قائل: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٢﴾ [المائدة]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ [الأنعام].

تلك إذن، هي سنة الله في الدعوات؛ قال الحق جل في علاه: ﴿قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِن الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَحْمِلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الأنعام].

إن ذلك كله من ألوان الابتلاءات والمكاهرة والشدائد والمحن التي مرت بسيدنا رسول الله ﷺ بمكة لمدة عشر سنوات التي قضاها بين قومه يدعوهم جهرا و ليلا ونهارا، يقرأ عليهم القرآن، ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، والحبل المتين، لكنه ﷺ لم يسمع منهم إلا السوء والافتراء عليه والتصدي له، وتعذيب أتباعه، وتشويه سمعة رسالته. كما هي عادة أهل الضلال مع أهل الإيمان منذ القديم.

ولهذا فإن تلك الابتلاءات التي ابتلي به سيد الخلق ﷺ، من تكذيب رسالته ومعجزاته الباهرة، ورميه بالسحر. «هو إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى، وإن هذا البلاء أشبه ما يكون بعمل المحارث والفؤوس في شق الأرض، وتقليب تربتها قبل أن يلتقى فيها الحب.. فذلك هو الذي يتيح لها الجو الصالح لأن تعطي خيرا ما فيها من

عناصر الإنبات؛ لما يُلقى فيها من حَبٍّ»^(١).

إنه الصبر النبوي^(٢) وإنما الرحمة المحمدية المصطفوية، قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٣) [آل عمران]، وقال جل ذكره في حبيبهِ وصفوة خلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤) [القلم].

ومن ثم فهل هناك رحمة كهذه، وهل هناك رحمة كرحمته ﷺ «بالكافر برفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا وذلك أن الأمم السابقة كانت إذا أرسل الله رسولا فكذبوه وكفروا به جاءهم العذاب فعمهم، كما قص الله تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم وكيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا يستهزئون.

وأما كفار هذه الأمة المحمدية فقد رفع الله عنهم العذاب العام الذي يستأصلهم كما استأصل وعمّ الكفار من الأمم السابقة وذلك تكرمة لهذا الرسول الكريم ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين»^(٥).

وهكذا فإن الله تعالى بعث نبيه الكريم ﷺ بالرحمة والشفقة على الناس جميعا حتى الكفار لكن إن أبي هؤلاء الكفار قبول الدعوة ومكروا مكر السوء كان جزاؤهم ما سنراه في المعارك النبوية.

قال الحق جل وعلا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٦) [الأعراف]، "بهذا الأمر الرباني أخذ النبي الرحمة، وأعظم عفو رآه الوجود الإنساني هو عفو النبي ﷺ عن أهل مكة، لقد اضطهدوه منذ البعثة وهو في الأربعين واستمر أذاهم غير مقطوع، حتى ذرف في الستين، لا ينون عن إيذائه، ثم قتاله، ثم الدس الخبيث له ولرجالهِ فلما غلب وتغلب بعد أكثر من عشرين سنة، لم يقل ويل للمغلوب، كما يقول ساسة هذا الزمان،

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٣/٤١٧.

(٢) عن عبد الرحمن بن أبيزي، قال: "كان رسول الله ﷺ من أحلم الناس وأصبرهم وأكظمهم للغيظ". أخلاق النبي ﷺ، لابن حيان الأصبهاني، دراسة وتحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ٧١.

(٣) محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد المالكي الحسني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، ص ١١٤.

بل قال مرحبا بالإخوة وعفوا عما مضى، وإن تنتهوا يغفر ﴿...إِن يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَآ قَدَّ سَلَفَ...﴾ [الأنفال] (١).

كان العفو الشامل عن أهل مكة، ولم يباح إلا قتل تسعة منهم لكيدهم الشديد للإسلام، فمنهم من أسلم فحقن دمه، ومنهم من بقي على كيده فقتل، لكن أسلم الكثير منهم وقتل اثنان.

لقد اتصف سيدنا وسندنا رسول الله ﷺ «بالصبر، وشدة الاحتمال، والعفو عند المقدرة، كان لا يزداد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إصراف الجاهل إلا حلما، لقي في سبيل الله الشدائد، وتعرض للمكاره، وهو لا يزداد إلا ثباتا ومضاءً وإقداما» (٢) صلوات ربي وسلامه عليه.

ولهذا فإن الصور المشرقة من تودة سيدنا رسول الله ﷺ وصبره لا تعد ولا تحصى، كان رسول الله ﷺ صبورا رحيمًا قبل البعثة وأثناءها وبعدها، صبورا على الفقر، صبورا على شظف العيش، صبورا على الابتلاء، صبورا على أذى الكفار والمشركين والمنافقين، صبورا في دعوته للناس وتبليغ رسالة ربه، كذبه قومه وهو الصادق الأمين، وافتروا عليه واستهزؤوا به، وقالوا فيه وفي رسالتك ما قالوا.. وكان حليما صبورا لا ييأس من دعوتهم ولا يدعوا على أحد منهم..

وصبر على فراقه قومه وصبر وأهل الكفر يحاصرونه في شعب مكة ثلاث سنين دأبا، وصبر والأذى ينزل بجسده الشريف..

ولقد صبر سيد الوجود ﷺ على كل أذى وابتلاء، «وهو أخذ نفسه بأنهم كلما سخروا منه زادت عنايته بالدعوة، وزادت قوته في الاحتمال ورغبته في المصابرة، غير متحمل ولا يئس، فإن الصبر يبعد اليأس ويقرب الرجاء، ويهدي للتي هي أقوم، ويوقظ [النفوس]

(١) خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، اعتنى به: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، د، ت، ٢/١٢٠٧.

(٢) الذخائر المحمدية، محمد المالكي الحسني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط ١/١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ص ٢٩٢. إتخاف أهل الوفا بتهديب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض اليحصبي، عبد الله بن عبد القادر التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١/١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ص ١١٦-١١٧.

إن كانت فيها قوة الحياة، وإن الصبر للذي تشمس نفسه، يكون كالسقي والرعي يجبي ولا يमित، والملاحة تشغل النفس عن الحق، وتوجب انحياز كل إلى جانبه، فلا يرى إلا ما عنده، ويعمى عما في الجانب الآخر، فتكون النظرة الجانبية، والنظرة الجانبية لا يعيب صاحبها (...).

فكان صبره ﷺ صبرين، صبر الداعي إلى الحق يحمل في أثناؤه ما يلاقي من جفوة قاطعة لما أمر الله تعالى به أن يوصل، وصبرا على أذى القريب الواصل الذي يرى أنه كان سببا في أنه أذاق آله وأحبابه مرارة الحرمان والقطيعة»^(١).

ومع كل ذلك فلم يقل ﷺ كما قال سيدنا نوح ﷺ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي أَرْضًا مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٦٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا ۝٦٧ ﴾ [نوح]. بل قال: ﷺ "رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"^(٢).

وهنا حقيقة يجب أن نقف عندها؛ لما اشتد إنكار قريش للرسالة الخالدة، واستهزؤوا بالنبي ﷺ أمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بالارتباط الوثيق به سبحانه، ويتجلى ذلك الارتباط في قيام الليل وذكر الله والتبتل، والاعتكاف ببابه جل وعلا، والصبر الجميل على أذى المشركين، والتوكل عليه جل وعلا، قال الحق جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ۝١ قُرْآنًا لَيْلًا قَلِيلًا ۝٢ يَصْفَهُ ۝ أَوْانْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَقِيلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَلَفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَلِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ ﴾ [المزمل].

هذه الأمور المذكورة من قيام وذكر وصبر وتوكل وتبتل. تجعل الحزن سهلا، وترفع الهمم نحو المعالي، وتولد طاقة لا تقهر، ذلك الارتباط الوثيق بالسما يزود المؤمن بالإيمان الذي يعينه على تحمل الشدائد والصبر على الابتلاءات واقتحام العقبات.

وهذه سنة الله في خلقه لا تتغير ولا تتبدل، فمن أراد أن يسجل في سجل الدعوة إلى الله الحاملين لرؤية الدعوة إليه المجاهدين في سبيله فعليه بما وصى الله تبارك وتعالى به

(١) خاتم النبيين، ١/٣٠١-٣٠٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، ح ٤٦٤٦.

نبيه المصطفى ورسوله المجتبي ﷺ من قيام الليل الذي هو سلاح المؤمن، فمن لا ليل له فلا نهار له، كذلك التبتل والافتقار والانكسار لله تعالى، والفرار إليه، والإكثار من ذكره؛ (من استغفار وصلاة على النبي المختار وكلمة طيبة، وتلاوة القرآن، والنوافل بعد أداء الفرائض)، ثم التوكل عليه والاستسلام لأمره والصبر على قضائه، والاعتقاد عليه في كل شيء، والصبر على أذى الأعداء في سبيله.

المبحث الثاني

ابتلاء الله للمستضعفين بمكة بنقم كفار قريش

سن سبحانه وتعالى سنة ابتلاء الله للناس بعضهم ببعض وجعل بعضهم مسخر البعض؛ إذ سخر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض، وجعل صراع الحق والباطل فيصلا بين هذه الطائفة وتلك. وجعل تسليط الظالمين بعضهم على بعض سنة ماضية إلى يوم القيامة.

قال الحق جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ جَرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

وقال الباري جل وعلا: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْعَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ كَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر].

فالله تعالى لم يستثن من سنة الابتلاء الأنبياء والرسل -وهم أحبابه- مع قدرهم العظيم ومكانتهم الرفيعة عند الله تعالى، فالابتلاء سنة إلهية عامة، كل من صدق في إيمانه ومحبه ابتلي حسب إيمانه. قال الحق جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت]؛ نزلت الآية الكريمة "في قوم من المؤمنين بمكة؛ وكان كفار قريش يؤذونهم، ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق لذلك؛ وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفرة من المؤمنين.

قال مجاهد^(١) وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين، ليعلم الصادق من الكاذب"^(٢).

(١) هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي -مولاهم- المكي. تابعي ثقة إمام في التفسير وفي العلم من الثالثة، عن محمد بن إسحاق بن أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أفضه على كل آية أسأله كيف أنزلت وكيف كانت، قال الفضل بن ذكوان: مات مجاهد سنة اثنتين ومائة يوم السبت وهو ساجد، وقال يوسف بن سليمان: توفي مجاهد بمكة سنة ثلاث ومائة. تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، ط ٣/١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ٦٥٠. صفة الصفوة، لابن الجوزي، خرج أحاديثه: محمد بن عيادي بن عبد الحكيم وأحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ٢/٩٥.

(٢) تفسير الثعالبي، أبو زيد الثعالبي، حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث =

إن ابتلاء المؤمنين بنقم الكافرين فيه من الحكم ما لا يعلمه إلا الله، فالابتلاء للمؤمنين
"كالدواء له يستخرج الأدوية التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته،
فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدوية ويستعدُّ به لتهاجم الأجر، وعلو المنزلة.
(...)

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلمهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله
نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا. ولو كانوا
دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة؛
فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة وكونهم مغلوبين تارة"^(١).

ومنها: أنهم لو لازمهم النصر والغلبة لتسلل إلى صفهم ضعاف النفوس ومن ليس
قصده الإيثار واتباع الرسول ﷺ. ولو كانوا مغلوبين دائماً لم يدخل في دينهم أحد؛ فاقتضت
حكمة الله تعالى أن يدال لهم مرة ويدال عليهم أخرى، فيتميز بذلك الخبيث من الطيب
والصالح من الطالح، والصادق من الكاذب.

ومنها: «أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي
حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم. فله سبحانه على العباد في كلتا
الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال لا تحصل إلا بها ولا يستقيم القلب بدونها"^(٢).

وعليه، فسنة الابتلاء سنة جارية على الأمة المحمدية لا تتخلف، ثم إن ابتلاءهم
قبل التمكين لهم أمر حتمي لا مفر منه، حتى تخلص النفوس مما علق بها من حطام الدنيا
وزخرفها وغرورها. فعن أبي هريرة ؓ قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل لتكون له عند الله
المنزلة، فما يبلغها بعمل، فلا يزال يتليها بما يكره حتى يبلغه إياها"^(٣). وزاد في رواية: "تكون
له عند الله المنزلة الرفيعة"^(٤).

=العربي-بيروت، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، ط ١/١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ٤/٢٨٨.

(١) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، حققه وكتب هوامشه: محمد حامد الفقيهي، دار
الكتب العلمية، بيروت، ط ١/١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ٢/٢٠١.

(٢) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، ٢/٢٠٣.

(٣) المسند لأبي يعلى، ١٠/٤٨٢. صحيح ابن حبان، ٧/١٦٩. المستدرک علی الصحیحین، الحاكم،
١٠/٤٩٥، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي.

(٤) المسند لأبي يعلى، ١٠/٤٨٧.

ولهذا منذ جاءت الدعوة المحمدية، وأهل الكفر والضلال يتربصون بالمؤمنين الدوائر؛ ظنوا أن هذه الدعوة الجديدة بمكائدهم ومكرهم يطفئون نورها، ويذبلون زهرتها، فحاولوا ذلك، لكن ما زادت إلا نورا وهاجا، فارتدوا على أدبارهم خاسئين، وحاولوا مرات ومرات، والأمر يعود عليهم بالخيبة والخسران.

لكنهم فكروا وخططوا وواصلوا كيدهم للنيل من الدين الجديد وصد الناس عنه، فما وجدوا إلا أمرين؛ "أحدهما: الإيذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة، ولمن أثر السلام والعافية، وهذب قلبه الإيمان فاعتقد أن الإيمان يوجب عليه الصبر على البلاء، وألا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليها، وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد ﷺ، ومعه صديقه أبو بكر، ومع هؤلاء العبيد والفقراء الذين لا يملكون سطوة ولا عشيرة لهم.

ثانيهما: الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانا أدبيا على محمد عليه الصلاة والسلام وهو أبو طالب، لأنه عمه الذي كفله صغيرا وهو رأس بني هاشم وهو الذي يحميه كبيرا. فلما لم يُجد واحد من الأمرين زادوا في الإيذاء وجعلوه جماعيا ولم يجعلوه آحاديا فقط، ووجدوا بني هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد ﷺ يحميه بأنفة العشيرة، إلا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لها في جهنم وهو أبو لهب، فقد كفر بالله، وكفر بالقرابة، وكفر بالحماية حمية العشيرة والنصرة، وأسلم ابن أخيه، فضل ضلالا بعيدا^(١).

ولهذا منذ أشرقت شمس الرسالة القرآنية قرر المشركون "ألا يألوا جهدا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام. ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ورثوه عن آبائهم انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباححت في الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملا للضيم وتوقعا للويل..

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قصد بها تحذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، فرمي النبي ﷺ وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفيفة. وتألقت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله. على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما

(١) خاتم النبيين ﷺ، ١/٤٧٦.

تنشر عن الخصوم نكتا لاذعة وصورا مضحكة للحط من مكاتتهم لدى الجماهير" (١).

وبهذين النوعين من العداوة والبغضاء وقع المستضعفون بمكة بين شقي الرحي وانقلبت هذا العداة للرسالة المحمدية وللحاملين للوائها إلى تنكيل وسفك دم وتعذيب بالنسبة للمستضعفين من المؤمنين الصادقين؛ فمن ليست له عشيرة ولا عصابة تحميه وتدفع عنه الأذى والعذاب لا يعصمه من الإيذاء والتعذيب والقتل أحد، بل يجس على التعذيب والآلام حتى يرجع عن دينه أو يموت أو يسقط تحت وطأة التعذيب.

واستمر التعذيب لكل من دخل في الدين الجديد؛ فهذا سيدنا أبو بكر الصديق عليه من الله الرضوان "حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرا، حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش (٢) (٣).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال أخرجني قومي وآذوني، وضيقوا علي. قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواربي. فرجع معه، حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير. قالت: فكفوا عنه.

قالت: -أنا عائشة- وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن استبكى. قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته. قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق

(١) خاتم النبيين ﷺ، ١/٢٥٩-٢٦٠.

(٢) الأحابيش: أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في الحرب التي وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام، وحُبشي جبل بأسفل مكة يقال منه سمي أحابيش قريش وذلك أن بني المصطلق وبني الهون بن خزيمه اجتمعوا عنده فحالفوا قريشا وتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار وما أرسى حُبشي مكانه فسُموا أحابيش قريش باسم الجبل. لسان العرب، مادة: حبش.

(٣) سيرة ابن هشام، ١/٢٥٨-٢٥٩. الرياض النظرة في مناقب العشرة، للمحب الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ١/٩٦-٩٧.

وبيكي، وكانت له هيئة ونحو فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء. قالت: فمضى ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا بكر مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت؛ قال: أو أورد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردد علي جوارتي، قال: قد رددته عليك. قالت: فقام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد علي جوارتي فشأنكم بصاحبكم" (١).

ولما خرج من جواره لقيه رجل من المشركين ومن سفاه قريش، وهو عامد إلى الكعبة المشرفة، "فحشا على رأسه ترابا. قال: فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل. قال: فقال أبو بكر: ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفیه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. قال: وهو يقول أي رب ما أحلمك أي رب ما أحلمك أي رب ما أحلمك" (٢).

لقد رضي الصديق أبو بكر بالبقاء تحت وطأة التعذيب والإيذاء والابتلاء، مجاهرا بدينه وصلاته أمام بيته، أو في فنائها متوكلا على الله ومعتمدا عليه في كل شيء، ورضي بأن يكون قريبا من رسول الله ﷺ يصيبه ما يصيب حبيبه ﷺ من الأذى والمحن.

عن الفقيهة العالمة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها، قالت: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا أبح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهر فقال: «يا أبا بكر إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوصتين ويحرفها لوجهه، ونزا (٣) على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٥٩. الرياض النظرة في مناقب العشرة، ١/ ٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٣) نزا: يقال: نَزَوْتُ على الشيء أَنْزُو نَزْوًا إِذَا وَثَبْتَ عَلَيْهِ. لسان العرب، مادة: نزا.

إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب .

فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه^(١)، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير^(٢): أنظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت والله مالي علم بصاحبك .

فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب^(٣) فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت نعم .

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا^(٤)، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح .

قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم^(٥)، قال: فإن الله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله ﷺ .

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، وورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة .

(١) عذله: لأمه وعاتبه. لسان العرب، مادة: عذل.

(٢) هي: أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وقيل بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية التميمية والدة أبي بكر الصديق أسلمت قديما، وماتت أم الخير قبل أبي قحافة وكانا قد أسلما. الإصابة، ترجمة رقم: ١٢٠٠٦، ٨ / ٢٠٠ .

(٣) هي: أم جميل بنت الخطاب القرشية العدوية زوج سعد بن زيد أحد الشعرة وهي أم ولده عبد الرحمن الأكبر فكان اسمها فاطمة ولقبها أميمة. الإصابة، ترجمة رقم: ١١٩٣٢، ٨ / ١٨١ .

(٤) الدَّنْفُ المرَضُ اللازِمُ المُخامرُ، وقيل هو المرض ما كان ورجل دَنَفٌ ودَنَفٌ ومُدَنَفٌ ومُدَنَفٌ براه المرَضُ حتى أشفى على الموت. لسان العرب، مادة: دنف.

(٥) هو: الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد. يكنى أبا عبد الله، أسلم بعد ستة نفر، وكانت داره على الصفا بمكة، وفيها استتر رسول الله ﷺ، ودعا الناس فيها إلى الإسلام، وتصدق بها الأرقم على ولده. شهد الأرقم بدرًا وأحدا والمشاهد كلها، وتوفي ابن بضع وثمانين سنة في سنة خمس وخمسين بالمدينة، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص. صفة الصفوة، ترجمة رقم: ٢٦، ١ / ١٧١ .

فقال: أبو بكر بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون رجلا^(١).

نستفيد من هذه القصة ما لقيه الصحابة رضوان الله عليهم من الابتلاء والتعذيب من قبل كفار قريش الذين امتلأت قلوبهم بالحقد والبغض لكل من يدخل في دين الإسلام، وهذه سنة الله في خلقه، فأهل الضلال دائما يكيدون لأهل الإيمان ويتقمون منهم وينزلون بالمستضعفين من قومهم الأذى.

أمر آخر يستفاد من قصة سيدنا أبي بكر الصديق ؓ هو حبه الشديد لسيدنا رسول الله ﷺ، وقد رأينا لما أفاق من التعذيب ما قال: سأل عن حبيبه المصطفى ﷺ ولم يسأل عن شيء غيره، بل لم يطمئن حتى أخذوه إليه ﷺ، واعتبر ما لحقه من التعذيب هينا في سبيل محبوه، إنها المحبة التي تصنع العجائب وتربي الرجال على البذل والفداء بالمهج، إنها سنة الله في المحب والمحبوب؛ هذه هي المحبة وإلا فلا!

ثم اشتد غضب صناديد قريش، وتأجج حقدهم بعدما رأوا انتشار الدعوة الإسلامية وثبات رجالها، فعدوا على من دخل في دين الإسلام، واتبع خير الأنام ﷺ، فوثبت كل قبيلة على من أسلم منها، فجعلوا يعذبونهم ويفتنونهم في دينهم ويستضعفونهم، فصبر منهم من صبر، وافتتن من افتتن تحت وطأة العذاب الشديد.

قال ابن إسحاق: " وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود^(٢)، قال: اجتمع يوما أصحاب رسول

(١) البداية والنهاية، ٢/ ٢٢-٢٣. حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق: وليد بن محمد بن سلامة، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/ ١٤٢٣هـ، ١٩٩-٢٠٠.

(٢) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بمعجمة وفاء بن حبيب بن شمش بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل الهذلي أبو عبد الرحمن حليف بني زهرة، أمه أم عبد الله بنت ود بن سؤدة أسلمت وصحبت، أحد السابقين الأولين، أسلم قديما وهاجر المهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها ولازم النبي ﷺ، وكان صاحب نعليه وحدث عن النبي ﷺ بالكثير، كان سادس من أسلم، قال البخاري: مات قبل قتل عمر. شهد فتوح الشام وسيره عمر إلى الكوفة ليعلمهم أمور دينهم، ثم أمره عثمان على الكوفة ثم عزله فأمره بالرجوع إلى المدينة. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٩٥٧، ٤/ ٢٣٣ وما بعدها.

الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يُسمعه موه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا؛ قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه؛ قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعا بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن] قال: ثم استقبلها يقرأها. قال: فتأملوه فجعلا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك؛ فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئت لأعاديهم بمثلها غدا؛ قالوا: لا، حسبك، قد أسمعهم ما يكرهون" (١).

وكان سيدنا بلال (رضي الله عنه) مولى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، "لبعض بني جمح مولدا من مولديهم وهو بلال بن رباح، وكان اسم أمه حمامة وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له (لا والله) لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعد اللات والعزى، فيقول -وهو في ذلك البلاء-: أحد أحد" (٣). ويقول: "أنا كافر باللات والعزى، وأمية مغتاط عليه فيزيده عذاباً فيقبل عليه، فيذهب حنقه فيغشى عليه، ثم يفيق.

وعن الواقدي في إسناده أن حسان بن ثابت (٤) قال: حججت أو قال: اعتمرت

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٢١.

(٢) هو: بلال بن رباح الحبشي المؤذن وهو بلال بن حمامة، شهد المشاهد كلها، ثم خرج بلال بعد وفاة النبي ﷺ مجاهداً إلى أن مات بالشام. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٣٦، ١/ ٣٢٦.

(٣) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٢٣. محمد خاتم المرسلين، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/ د، ت، ص ٩٦.

(٤) هو: حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار، الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، شاعر رسول الله ﷺ، وأمّه الفريضة بالفاء والعين المهملة مصغراً بنت خالد بن حبيش بن لوذان خزرجية أيضاً أدركت الإسلام فأسلمت وبايعت، مات حسان قبل الأربعين في قول خليفة، والجمهور أنه عاش مائة وعشرين سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ١٧٠٦، ٢/ ٦٢ وما بعدها.

فرأيت بلالاً في حبل طويل، تمده الصبيان، ومعه فيه عامر بن فهيرة^(١)، وهو يقول: أحد، أحد، أنا أكفر باللات والعزى، وهبل وساف ونائلة وبوانة^(٢). فأضحجه أمية في الرمضاء. وعن مجاهد قال: جعلوا في عنق بلال حبلاً، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة يعني جبلها ففعلوا ذلك وهو يقول: أحد، أحد.

وعن عروة^(٣) قال: كان بلال من المستضعفين من المؤمنين، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه. فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون. وكان الذي يعذبه أمية بن خلف الجمحي^(٤). وما زال يعذبه حتى أعتقه صديق هذه الأمة سيدنا أبو بكر رضي الله عنه.

أما عامر بن فهيرة فكان من المستضعفين، «وكان يعذب بمكة ليرجع عن دينه حتى اشتراه أبو بكر، وكان حين أوى رسول الله ﷺ إلى الغار يروح بغنيمة أبي بكر فيها، فيسقيها من لبنها، وكان معها حين هاجرا إلى المدينة يخدماها»^(٥).

وكان ممن عذب كذلك آل ياسر رضي الله عنه، عن أم هانيء^(٦): "أن عمار بن ياسر^(٧)، وأباه

(١) عامر بن فهيرة: كان عامر مولداً من مولدي الأزدي، مملوكاً للطفيل بن عبد الله بن الحارث بن سخبرة بن جرثومة، من ولد نصر بن زهران. وكان الطفيل أخوا عائشة ابنة أبي بكر لأمها أم رومان، وكان عامر قديم الإسلام قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم. وقد شهد بدرًا وأحداً. ونزل بالمدينة على سعد بن خيثمة، وآخا رسول الله ﷺ بينه وبين الحارث بن أوس بن معاذ، واستشهد عامر بن فهيرة يوم بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة، وكان يوم قتل ابن أربعين سنة، وكان يكنى أبا محمد. أنساب الأشراف، ص ١٩٤.

(٢) كلها أصنام لقريش.

(٣) هو: عروة بن الزبير بن العوام، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو من الطبقة الثالثة من أهل المدينة، وكان عروة يقرأ ربع القرآن كل يوم نظراً في المصحف، ويقوم به الليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله ثم عاود من الليلة المقبلة، توفي سنة أربع وتسعين في ناحية الفرع ودفن هناك رضي الله عنه. صفة الصفوة، ٣٩/٢.

(٤) أنساب الأشراف، ص ١٨٣-١٨٥.

(٥) أنساب الأشراف، ص ١٩٤.

(٦) هي: أم هانيء بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمية ابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم قيل اسمها فاتحة وقيل اسمها فاطمة وقيل هند والأول أشهر. الإصابة، ترجمة رقم: ١٢٢٨٥، ٣١٧/٨.

(٧) هو: عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوديم بن ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر بن يام بن عنس بنون ساكنة بن مالك العنسي أبو اليقظان، حليف بني مخزوم، وأمّه سمية مولاة لهم، كان من السابقين الأولين هو وأبوه، وكانوا ممن يعذب في الله، اختلف في هجرته =

ياسراً، وأخاه عبد الله بن ياسر^(١)، وسمية أم عمار^(٢) كانوا يعذبون في الله، فمر بهم النبي ﷺ، فقال: "صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"، فمات ياسر في العذاب، وأغلظت سمية لأبي جهل، فطعنها في قلبها، فماتت. ورمي عبد الله، فسقط"^(٣).

وكان "أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه وقال تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولتفيلن رأيك، ولنضعن شرفك؛ وإن كان تاجرا قال والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به"^(٤).

أما خباب بن الأرت^(٥)، "فجعلوا يلصقون ظهره بالأرض على الرضف^(٦) حتى ذهب ماء متنه"^(٧).

= إلى الحبشة وهاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها، ثم شهد اليمامة فقطعت أذنه بها، ثم استعمله عمر على الكوفة وكتب إليهم إنه من النجباء من أصحاب محمد ﷺ، وتواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن عمارا تقتله الفئة الباغية وأجمعوا على أنه قتل مع علي بصفين سنة ٨٧ في ربيع وله ٩٣ سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ٥٧٠٨، ٥٧٥/٤.

(١) هو: عبد الله بن ياسر بن مالك العنسي، وقال أبو عمر كان عبد الله من السابقين إلى الإسلام ومات بمكة قبل الهجرة. الإصابة، ترجمة رقم: ٥٠٣٤، ٢٦٦/٤.

(٢) هي: سمية بنت خُباط، مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والدة عمار بن ياسر، كانت سابعة سبعة في الإسلام، عذبها أبو جهل وطعنها في قلبها فماتت فكانت أول شهيدة في الإسلام، وكان ياسر حليفاً لأبي حذيفة فزوجه سمية فولدت عماراً فأعتقه وكان ياسر وزوجته وولده منها ممن سبق إلى الإسلام. الإصابة، ترجمة رقم: ١١٣٣٦، ٧/٧١٢.

(٣) أنساب الأشراف، للبلاذري، ص ١٦٠. سيرة ابن هشام، ٢/٢٢٥.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/٢٢٥.

(٥) هو: خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي، ويقال الخزاعي أبو عبد الله سبي في الجاهلية فبيع بمكة فكان مولى أم أنهار الخزاعية، وقيل غير ذلك ثم حالف بني زهرة وكان من السابقين الأولين، وهو أول من أظهر إسلامه وعذب عذاباً شديداً لأجل ذلك، شهد المشاهد كلها، ونزل الكوفة ومات بها سنة ٣٧. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٢١٢، ٢/٢٥٨.

(٦) الرَضْفُ: الحِجَارَةُ الْمُحَمَّاةُ يُوغَرُ بِهَا اللَّبْنُ، كَالْمِرْضَافَةِ. وَرَضَفَهُ يَرْضِفُهُ كَوَاهُ بِهَا. القاموس المحيط، باب الفاء، فصل الراء، ص ٨٣٠.

(٧) أنساب الأشراف، ص ١٧٦.

ومر صهيب بن سنان الرومي ^(١) "وأصحابه على مجلس من قريش، فقالوا: انظروا إلى الأردال؛ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ فنزلت الآية ^(٢)" ^(٣).

وقد كان سيدنا صهيب رضي الله عنه من المستضعفين ومن المؤمني الصادقين المخلصين فعن سعيد بن المسيب، قال: "أقبل صهيب مهاجرا نحو المدينة، فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته، ونثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني أركمكم رجلاً. والله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فافعلوا ما شئتم، دللتكم على مالي وخليتم سبيلي؟ قالوا: نعم، ففعل، فلما قدم على رسول الله ﷺ، قال: "ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع". قال: ونزلت: ﴿وَمَنْ أَلْتَسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة] ^(٤).

ولا ننسى المرأة المسلمة المجاهدة التي شاركت إلى جانب الرجل في التؤدة والتحمل والصبر وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، ولنا في مولاتنا زينة ^(٥) نموذجاً ساطعاً على جهاد المرأة المسلمة زمن النبوة.

ولهذا كان أبو جهل يقول: "ألا تعجبون لهؤلاء واتباعهم محمداً؟ فلو كان أمر محمد خيراً وحقاً ما سبقونا إليه. أفسبقتنا زينة إلى رشد، وهي من ترون؟ وكانت زينة قد عذبت حتى عميت. فقال لها أبو جهل: إن اللات والعزى فعلتا بك ما ترين، فقالت، وهي لا

(١) هو: صهيب بن سنان بن مالك ويقال خالد بن عبد عمرو بن عقيل ويقال طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن خزيمه بن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس بن زيد مناة بن النمر بن قاسط النمري أبو يحيى وأمه من بني مالك بن عمرو بن تميم، وهو الرومي قيل له ذلك لأن الروم سبوه صغيراً، أسلم هو وعمار ورسول الله ﷺ في دار الأرقم، وكان من المستضعفين ممن يعذب في الله، وهاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر في تلك السنة فقدا في نصف ربيع الأول وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، قال الواقدي حدثني أبو حذيفة رجل من ولد صهيب عن أبيه عن جده قال مات صهيب في شوال سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين. الإصابة، ترجمة رقم: ٤١٠٨، ٣/٤٤٩.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام].

(٣) أنساب الأشراف، ص ١٨١.

(٤) أنساب الأشراف، ص ١٨٢.

(٥) هي: زينة كانت من السابقات إلى الإسلام، ومن يعذب في الله، وهي من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق وأنقذهم من التعذيب. الإصابة، ترجمة رقم: ١١٢١٦، ٧/٦٦٤.

تبصره: وما تدري اللات والعزى، من يعبدهما ممن لا يعبدهما؛ ولكن هذا أمر من السماء، وربى قادر على أن يرد بصري، فأصبحت من تلك الليلة وقد رد الله عليها بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشترى أبو بكر رضي الله عنه جارية بني المؤمل^(١) وزنيرة، وأعتقهما^(٢).

وكانت لُبَيْبَةُ رضي الله عنها جارية بني المؤمل ابن عدي بن كعب سبقت عمر بن الخطاب إلى الإسلام، فكان عمر يعذبها عذابا شديدا حتى، فيدعها، ثم يقول: "أما إني أعتذر إليك بأني لم أدعك إلا عدامة. فتقول: كذلك يعذبك الله إن لم تسلم.

وقال الواقدي في إسناده: إن حسان بن ثابت قال: قدمت مكة معتمراً، والنبي ﷺ يدعو الناس، وأصحابه يؤذون ويعذبون، فوقف على عمر، وهو مؤتزر يخنق جارية بني عمرو بن المؤمل حتى تسترخي في يديه. فأقول: قد ماتت، ثم يخلي عنها (...).

وكانت النهديّة مولدة لبني نهد بن زيد. فصارت لامرأة من بني عبد الدار فأسلمت، فكانت تعذبها وتقول: والله لا أقلعت عنك أو يعتقك بعض من صباؤك. فابتاعها أبو بكر أيضاً، فأعتقها (...).

وكانت أم عبيس^(٣) وبعضهم يقول أم عنيس، أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فابتاعها أبو بكر ﷺ وأعتقها^(٤).

هذا ومن المعلوم أن جهاد الدعوة الذي قام به سيدنا محمد ﷺ «عرّضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء. ومزق شمل أتباعه، فما ذاقوا منذ آمنوا به راحة الركون إلى الأهل والمال»^(٥).

(١) هي: لبيبة جارية بني المؤمل بن حبيب بن تميم بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب كانت أحد من يعذب من المستضعفين. الإصابة، ترجمة رقم: ١١٧٠١، ٨/١٠٠.

(٢) أنساب الأشراف، ص ١٩٦.

(٣) هي: أم عبيس أسلمت وهي زوج كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ولدت له عبيسا فكنيت به، وهي من السبعة الذين أعتقهم أبو بكر الصديق، الإصابة، ترجمة رقم: ١٢١٥٩، ٨/٢٥٧.

(٤) أنساب الأشراف، ص ١٩٥-١٩٦.

(٥) فقه السيرة للغزالي، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ٨/١٤٠٨-١٩٨٨ م، ص ١٠٢.

رُغم كل الاستهزاءات المتكررة ما زادت أولئك الرجال إثباتاً، وهذا من سنن الله في خلقه، حيث جعل أتباع الأنبياء المستضعفين؛ ولذلك كان أهل الكفر يستهزئون بالنبي ﷺ، ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء).

وعليه؛ فإن المشركين ظنوا أن "بطشهم بالمستضعفين، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعي الله، وظنوا أن وسائل السخرية والتهكم التي جنحوا إليها ستهدم قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً، فإن أحداً من المسلمين لم يتردد عن الحق الذي شرفه الله به، بل كان المسلمون يتزايدون؟ ولم تفلح طرق الاستهزاء في الصد عن سبيل الله أو تشويه معاملها، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرات ومخاز تستحق الفضيحة والاستئصال"^(١).

وقصص الرجولة والبطولة عند هؤلاء لا تنتهي، اكتفيت هنا بهذه النماذج التي تشع بأنوارها على صفحات التاريخ، عذبوا وقتلوا فما صدهم ذلك عن دين الله، بل كانوا كالجبال الشامخ، لا تزلزها العواصف ولا القواصم.

لقد فاز أسيادنا الصحابة رضوان الله عليهم بكل خير وفضل بصحبتهن وملازمتهم ومحبتهم للجناب الشريف الحضرة النبوية المصطفوية صلوات ربي وسلامه عليه.

"فطوبى لهم فازوا به وهو ذخرهم إذا اشتدت الغارات فهو مدافع"^(٢)

لكل ما سبق فإن نقمة أهل الضلال على أهل الإيثار سنة مطردة، وهي مهمة شيطانية لاصقة بالكفار، فهم حريصون على إخراج الناس من دينهم، وصددهم عن سبيل الله، قال الحق جل وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ مِن شَيْءٍ وَأُولَئِكَ سَمِعُوا لِقَاءَ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة]،

(١) فقه السيرة للغزالي، ص ١١٠-١١١.

(٢) ديوان الكتاني في المعارف والمدح النبوي، أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، جمع وتحقيق وتقديم: إسماعيل المساوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٢٦/١هـ-٢٠٠٥، ص ٢٣٢.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج]، وقال جل جلاله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا...﴾ [المائدة].

وقد رأينا هذه السنة واضحة جلية في انتقام كفار قريش من المؤمنين المستضعفين في مكة، في فجر الإسلام، وقد ذكرنا بعض النماذج الخالدة التي عذبت وصدت عن سبيل الله.

ذلك الانتقام لا يتوقف إلا في حالة واحدة؛ حددها قوله جل في علاه: ﴿...حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ...﴾ [البقرة].

وهنا أمر مهم لا بد أن أشير إليه، وهو سبب ذلك الثبات الذي رأيناه في قصص أولئك الرجال من الصحابة والصحابيات رضوان الله عليهم، إنه المحبة الشديدة لسيدنا وسندنا ومولانا رسول الله ﷺ، إنها كنه ذلك التحمل الشديد، والصبر الجميل على الأذى والعذاب، لما كانت محبتهم شديدة وتعلقهم شديد بصفوة خلق الله ﷺ، أثمر ذلك الثبات في ساحة الابتلاء.

المبحث الثالث

الأخذ بسنن الإعداد قبل الهجرة

إن الإيمان بالله تعالى والاعتماد والتوكل عليه لا ينافي أبدا الاستفادة من سنن الله التي جعلها الله في هذا الكون ناموسا ثابتا ومطرदा، ولا يناقض اتخاذ الأسباب المادية التي أراد الله جل وعلا أن يجعلها أسبابا في هذا الكون التوكل عليه.

ولهذا التزم النبي ﷺ بسنن الإعداد لما جاءه الأمر بالهجرة إلى المدينة، فقام بتهييء الأسباب الكاملة لنجاح الهجرة وهو متوكل على الله عز وجل في الأمر كله، متوسدا عتبة الافتقار إلى رب الأرباب، سائلا وداعيا وواقفا بالباب حتى فتح له، فكانت الثمار يانعة والنتائج مفرحة، والخطوات مسددة.

نتأمل ذلك في هذا المبحث، من خلال الأمور الآتية من الأسباب التي هيأها رسول الله ﷺ بعد وضع خطواته الأولى على الطريق وهو يدعو ربه:

١- إدراك النبي ﷺ الاستعداد الكبير للأنصار في قبول رسالة الإسلام ونشرها، فكانوا طليعة الدعوة الإسلامية في المدينة التي آتت أكلها في وقت وحين، حيث لم تبق دار من دور الأنصار إلا ودخلها نور الإسلام.

٢- بيعة العقبة الأولى^(١)، وبعث النبي ﷺ سفيره إلى المدينة^(٢) سيدنا مصعب بن عمير ؓ بعد انصراف القوم عنه ليعلم الناس دينهم، وأمور شريعتهم، ويقرئهم القرآن، فكانت ثمار ذلك يانعة، ونتائجه حسنة.

٣- بيعة العقبة الثانية أو الكبرى^(٣)، التي مهدت الطريق للهجرة بنشر الإسلام في المدينة، وبيعتهم على حماية النبي ﷺ مما يحمون به أنفسهم في المنشط والمكره.

٤- اختيار المكان المهاجر إليه وهو يثرب، واختيار الصديق الحميم المحب الرفيق في الطريق وهو سيدنا أبو بكر ؓ، وإخباره في الوقت المناسب، وكتمان أمر الهجرة، والاستعانة على ذلك بالسر والحيلة والحذر، والخروج في النهار ساعة القيلولة والهجرة وفي الحر

(١) وسيأتي الحديث عنها في المبحث القادم الذي نتحدث فيه عن التدرج في الدعوة الإسلامية.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، ٢/٣١٥.

(٣) وسيأتي الحديث عنها في سنة التدرج في الدعوة إلى الإسلام.

الشديد، وإعداد الراحلتين له ﷺ وللصديق أبي بكرؓ، وتموين الهجرة، واستئجار الدليل الماهر بالطريق، والاستفادة من خبرة المشركين، بعد الثقة الكاملة في نصر الله وتأييده وعصمته لحبيبه وصفيه من الناس؛ عن الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: "كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر^(١)، فقال رسول الله ﷺ: "أخرج عني من عندك"؛ فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي وما ذاك؟ فذاك أبي وأمي! فقال: "إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة". قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله قال: "الصحبة". قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتها لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أرقط - رجلا من بني الدليل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركا - يدلها على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما"^(٢).

قال ابن إسحاق: "فلما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما، ثم قال: اركب فذاك أبي وأمي؛ فقال رسول الله ﷺ: "إني لا أركب بعيرا ليس لي"؛ قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: "لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟" قال كذا وكذا، قال: "قد أخذتها به" قال: هي لك يا رسول الله. فركبا وانطلقا وأردف أبو

(١) هي: أسماء بنت عبد الله بن عثمان التيمية، والدة عبد الله بن الزبير بن العوام، وهي بنت أبي بكر الصديق وأمها قتيلة بنت عبد العزي قرشية من بني عامر بن لؤي. أسلمت قديما بمكة. قال ابن إسحاق: بعد سبعة عشر نفسا، وتزوجها الزبير بن العوام، وهاجرت وهي حامل منه بولده عبد الله فوضعت بقاء، وعاشت إلى أن ولي ابنها الخلافة، ثم إلى أن قتلت وماتت بعده بقليل وكانت تلقب ذات النطاقين. الإصابة، ترجمة رقم: ١٠٧٩٨، ٤٨٦/٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣٥٤/٢. البداية والنهاية، ١٨٤/٢. تاريخ الطبري، ٥٨٦/١. سيرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، سليمان الندوي، عربيه وحققه وخرج أحاديثه: محمد رحمة الله حافظ الندوي، دار القلم، دمشق، ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣، ص ٥١.

بكر الصديق ﷺ عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق" (١).

ولم يعلم بخروج النبي ﷺ أحد إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر. "أما علي فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ" (٢).

وهنا أمر هام يجب أن أشير إليه، وإن كان يدخل في سنة الله في الرجولة الإيمانية، نستنبط منه الحب الشديد الذي ملك قلب سيدنا أبي بكر ﷺ، فعن أسماء بنت أبي بكر ﷺ، قالت: "لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة (٣)، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا. قالت: فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئا، ولكنني أردت أن أسكن الشيخ بذلك" (٤).

فبشدة حبه ما ترك في بيته شيئا، بل بذل روحه وما له وأهله في سبيل الله، دفاعا عن دعوة الإسلام، وفي سبيل محبة رسول الله ﷺ.

٥- مبيت الإمام علي ﷺ على فراش الحبيب المصطفى ﷺ؛ قال ابن إسحاق: "ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا، وأصابوا منهم منعة فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٦. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٤. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٥.

(٣) هو: عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي أبو قحافة والد أبي بكر أمه أمنة بنت عبد العزي العدوية عدي قريش وقيل اسمها قبيلة، أسلم يوم فتح مكة، قال قتادة: هو أول محضوب في الإسلام وهو أول من ورث خليفة في الإسلام مات أبو قحافة سنة ١٤ وله ٩٧ سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ٥٤٤٦، ٤/ ٤٥٢.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٧. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٦.

دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه" (١).

فلما تشاوروا اتعدوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فيهم، ثم يعطون كل واحد منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إلى النبي ﷺ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه. وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فירضوا بالعقل.

قال ابن إسحاق: "فأتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسح بردي هذا الأخضر، فم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام" (٢).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: "فلما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام فقال: وهم على بابه، إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: ﴿يَس ۝١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [يس] إلى قوله ﴿...فَاعْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَّا يَبْصُرُونَ﴾ [يس]، حتى فرغ رسول الله من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم أت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدا؛ قال: خبيكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا بردي رسول الله ﷺ فيقولون والله إن هذا لمحمد

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٠. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٢. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٣.

نائما عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عليه السلام عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا"^(١).

وفي هذه الرواية نجد وعدا إلهيا آخر إضافة إلى سنة اتخاذ الأسباب المادية، وهو وعد الله بعصمة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم من الناس، قال الحق جل وعلا: ﴿...وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٧]؛ وقد رأينا كيف عصم الله نبيه صلى الله عليه وسلم من كيد الكافرين الذي خططوا لقتله والنيل منه ليستريحوا منه، فجعل الله كيدهم في نحهم، وأفسد عليهم رأيهم: يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ولما أجمع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة أتى أبا بكر الصديق، "فخرجا من خوخة"^(٢) لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر^(٣) أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيها نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر؛ وأمر عامر بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريجها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسيت بها يصلحهما"^(٤).

قال ابن إسحاق: "فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثا ومعه أبو بكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئة ناقة لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأترون به وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر صلى الله عليه وسلم يرعى في عيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٤. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٣.

(٢) خوخة: كوة في البيت تؤدي إليه الضوء. باب صغيرة كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها الضوء. لسان العرب، مادة: خووخ.

(٣) هو: عبد الله بن أبي بكر الصديق، وهو عبد الله بن عبد الله بن عثمان، وهو شقيق أسماء بنت أبي بكر، وقال أبو عمر لم أسمع له بمشهد إلا في الفتح وحنين والطائف فإن أصحاب المغازي ذكروا أنه رمى بسهم فجرح ثم اندمل ثم انتقض فمات في خلافة أبيه في شوال سنة ١١. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٥٧١، ٤/ ٢٧.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٤-٣٥٥. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٥. الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لابن كثير، الشركة الجزائرية، اللبنانية، الجزائر العاصمة، ط ١/ ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ٣٣.

اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفني عليه؛ حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاها صاحبها الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له وأتتها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسفرتهم، ونسيت أن تجعل لها عصاما^(١) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة^(٢) فإذا ليس لها عصام فتحل نطاقها فتجعله عصاما، ثم علقتها به"^(٣).

فمن قول ابن إسحاق نستنبط مجموعة الأسباب التي اتخذها النبي ﷺ في طريقه إلى المدينة؛ وهي:

- الخروج^(٤) من خوخة لأبي بكر ﷺ في ظهر بيته.
- اختيار الوقت المناسب للخروج إلى الغار، والمكوث فيه ثلاثة أيام.
- تركيز عدد الأفراد على أربعة؛ النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ، والدليل عبد الله بن أريقط، وعامر بن فهيرة.
- التخفي في غار ثور.
- إعفاء الأثر؛ كما كان يفعل عامر بن فهيرة مولى أبي بكر.
- اكتشاف حركة العدو بمكة من طرف الاستخبارات النبوية؛ تكلف بهذه المهمة عبد الله بن أبي بكر ﷺ.
- تأمين الزاد، تكلفت بذلك مولاتنا أسماء بنت أبي بكر ﷺ.
- طريق الهجرة، حيث سلك بهم الدليل أسفل مكة، ومضى بهما على الساحل.. حتى وصل إلى الغار.

(١) عصاما: المحمل شكأه وقيدته الذي يُشدُّ في طرف العارضين في أعلاهما، وقال الأزهري عصاما المحمل كعصامي المزدتين والعصام رباط القرية وسيرها الذي تحمّل به (...)، وعصام القرية والدلو والإدوة جبل تُشدُّ به وعصم القرية وأعصمها جعل لها عصاما وأعصمها شدّها بالعصام وكلُّ شيءٍ عصم به شيءٌ عصامٌ والجمع أعصمة وعُصم. لسان العرب، مادة: عصم.

(٢) السفرة طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يحمل في جلد مستدير، فالسفرة في طعام السفر كاللُّهنة للطعام الذي يؤكل بكرة. لسان العرب، مادة: سفر.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٥٥. البداية والنهاية، ٢/ ١٨٥.

(٤) كان خروجه ﷺ من مكة يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين، لأنه أقام فيه ثلاث ليال، فهي ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الاثنين. فتح الباري، ٧/ ٢٧٠.



٧- إخفاء شخصية سيدنا رسول الله ﷺ في طريق الهجرة. عن أنس رضي الله عنه "أن أبا بكر كان رديف النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، فكان يعرف وكان النبي ﷺ لا يعرف فكانوا يقولون: يا أبا بكر من هذا الغلام بين يديك قال هاد يهديني السبيل" (١).

هذه الأمور المذكورة كلها تدخل في سنن الإعداد، رغم أنه رسول الله -ﷺ- ومع ذلك لم يترك اتخاذ الأسباب، بل توكل على الله واعتمد عليه، ثم أخذ بكل الأسباب، كما ذكرنا.

وهنا تحقق وعد الله بحفظ النبي ﷺ وعصمته من الناس؛ هذه الوعد تجلي بوضوح في قصة سراقه (٢) الذي تتبع أثر النبي ﷺ، ليفوز بما وعدت به قريش لمن أتى بالنبي ﷺ حيا أو ميتا، فتابعهم سراقه حتى اقترب منهم، فعثرت به فرسه، قال سراقه: "فخررت عنها-الفرس- فقمتم، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكرهه، فركبت فرسي، وعصيت الأزام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في

(١) مصنف ابن أبي شيبة، باب ما قالوا في مهاجر النبي ﷺ، ح ٣٦٦٣.

(٢) هو: سراقه بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة الكناني المدلجي وقد ينسب إلى جده يكنى أبا سفيان كان ينزل قديدا، أسلم يوم الفتح، قال أبو عمر مات في خلافة عثمان سنة أربع وعشرين وقيل بعد عثمان. الإصابة، ترجمة رقم: ٣١١٧، ٤١/٣.

الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني ولم يسألاني إلا أن قال أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ" (١).

كما حفظه الله من كيد كفار قريش لما وقفوا على باب الغار. عَنْ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ ؓ قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَاطَأَ بَصْرَهُ رَأَى. قَالَ: "اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَانِ اللَّهُ تَالِثُهُمْ" (٢). وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِثَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة].

وخلاصة القول: إن النبي ﷺ خطط تخطيطاً محكماً رائعاً مسدداً بالوحي ملتزماً بسنة الله في الكون قبل أن يشرع في الهجرة إلى المدينة، وأخذ الحيلة والحذر والتزم السر والكتمان قبل الهجرة وأثناءها بعد ثقته الكاملة في حفظ الله له وعصمته من الناس ونصره له، فأحكم صلوات ربي وسلامه عليه خطة الهجرة، ووفر لها وسائلها، واستجمع لها أسبابها، فكانت النتائج ظاهرة فاخرة، والثمار يانعة، محفوفة بالنصر والتمكين، والظهور على الأعداء، فكان ذلك المجتمع الأخوي المتين الذي نشأ في المدينة المنورة على يد رسول الله ﷺ وفي محضن الصحبة النبوية تحت ظلال المسجد ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران].

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ح ٣٩٠٦. سيرة ابن هشام، ٢/٣٥٧-٣٥٨. البداية والنهاية، ٢/١٩١-١٩٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ح ٣٩٢٢.

المبحث الرابع

التدرج في تبليغ رسالة الإسلام للناس بمكة

إن التدرج في كل شيء سنة من السنن الإلهية، وهذه سنة إلهية مقررة في الشريعة الإسلامية بصورة لاحبة، وفي المنهاج النبوي أمثلة كثيرة، نركز حديثنا في هذا المبحث على التدرج في الدعوة الإسلامية.

وهذا هو المنهاج النبوي في الدعوة والتغيير، فقد مكث سيدنا رسول الله ﷺ ثلاثة عشرة عاما في مكة يدعوا الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وسلك سنة التدرج، فكانت الدعوة سرية ثم جهرية ثم دعوة القبائل ثم الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة وإقامة الدولة المسلمة التي تحمي الدعوة وتخدمها.

فالتدرج سنة في الآفاق، فالشريعة الإسلامية الغراء نزلت بتدرج، وخروج المسلمين من جاهلية لإسلام بتدرج، وتميزوا عن مظاهر الجاهلية ومجتمعها وقطعوا حبالها بتدرج، وبعد الهجرة إلى المدينة أقاموا مجتمعا عمرانيا أخويا ودولة إسلامية بتدرج.

وبناء على ذلك؛ فإن الذين يحسبون أن النصر والتمكين والفتح المبين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون تغيير واقع أمة الإسلام في طرف عين، دون النظر في النتائج والعواقب، ودون فهم للظروف المحيطة بهذا الواقع، والحياة العامة التي تعيشها الأمة، ودون أخذ بالأسباب وإعداد جيد للمقدمات، فنقول لهم: هل أتم أفضل من النبي ﷺ وهو سيد الوجود وأكرم السابقين واللاحقين وإمام الغر المحجلين؟ وقد التزم بسنة التدرج في الدعوة حتى حفته أجنحة النصر المبين، وانتشرت دعوته في العالمين. ولهذا فإن الذين يستعجلون النتائج دون تدرج فإنهم يبنون على غير أساس. فلا محيص إذن، عن التدرج، ﴿...وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب].

على ضوء ما سبق ذكره فإن الدعوة الإسلامية تدرجت من البعثة إلى بناء الدولة في المدينة إلى مراحل طبقا لسنة التدرج.

١- سرية الدعوة:

استغرقت الدعوة السرية ثلاث سنوات، فكانت قاصرة على بيت النبوة فأسلمت

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومولاه زيد بن حارثة^(١)، وابن عمه علي بن أبي طالب^(٢)، ومن بيت النبوة إلى من لهم صداقة بالنبي ﷺ فأسلم سيدنا أبو بكر الصديق^(٣) قبل أن يطلبه النبي ﷺ بذلك؛ لما رآه من أنوار ربانية تشع من الحضرة المحمدية، فأوى إلى هذا الركن الشديد والسراج المنير؛ ليستضيء بنوره الشريف، وبإسلام سيدنا أبي بكر^(٤) أسلم على يديه أصدقاؤه الخمسة^(٥)، ومن بيت النبوة يخرج نور الدعوة إلى العشيرة والأقربين وكل من توسم فيه خيرا.

ثم أسلم بعد ذلك عدد من الصحابة^(٦)، ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا رجالا ونساء، حتى فشا ذكر الإسلام في أرجاء مكة وتحديث به القوم.

وفي هذه المرحلة أمر النبي ﷺ أصحابه بالتزام الحيطة والحذر والسر والكتمان وعدم الدعوة إلى الإسلام إلى أن يقضي الله أمرا كان مقدورا. فكانوا إذا أرادوا الصلاة "ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص^(٧) في نفر من أصحاب

(١) هو: زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة الكلبية، وشهد زيد بن حارثة بدرًا وما بعدها وقتل في غزوة مؤتة وهو أمير، واستخلفه النبي ﷺ في بعض أسفاره على المدينة. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٨٩٢، ٢/٥٩٨.

(٢) قال ابن القيم: "كان ابن ثمان سنين". زاد المعاد، ٦١/٢.

(٣) لا نخوض فيما لا فائدة منه، ولا وقت لنا نضيعه ونضيع معه الأمة ونغرقها في حروب طائفية فيمن سبق إلى الإسلام، هل سيدنا أبو بكر الصديق^(٤) أم سيدنا علي بن أبي طالب^(٥)، تلك مسألة تتناطح عليها الطوائف، ولا ندخل معهم في الجدل، الذي يهنا هو ذلك النور الساطع من بيت النبوة، الذي حرق جدار الصدور ليلج إلى القلوب فينيرها بنور المحبة والإيمان، فتكون بذلك عدة تضاف إلى خلية الدعوة التي انطلقت في مكة لتنتشر بعد ذلك في ربوع الأرض حاملة لواء المحبة والإيمان، والعدل والإحسان، لكل بني الإنسان، لإقامة دولة القرآن؛ يعيش الناس في ظلها إخوانا؛ ليعبدوا الرحمن، كما أنزل في محكم البيان.

(٤) هم سادتنا: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأجمعين. انظر: سيرة ابن هشام، ١/١٨٠.

(٥) هو: سعد بن مالك بن أهيب ويقال له: بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري أبو إسحاق بن أبي وقاص، أحد العشرة وآخرهم موتا، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان بن حرب بن أمية روى عن النبي ﷺ كثيرا، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو أحد الستة أهل الشورى، وكان رأس من فتح العراق وولي الكوفة لعمر وهو الذي بناها ثم عزل ووليها لعثمان، وكان مجاب الدعوة مشهورا بذلك، مات سنة ٥١ وقيل ٥٦ وقيل ٥٧ وقيل ٥٨ والثاني =

رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير فشججه فكان أول دم أهرق في الإسلام^(١).

إن الإسلام ابتداء كالنور في دياجير الظلام، فأشرقت به قلوب المؤمنين، فدخلها نورها واستقر بها في وسط ظلام الوثنية والشرك والكفر، أسلم قوم مشتضعفون لكنهم ابتلوا بنقم الكافرين، ومنعوا حتى من إقامة شعائر العبادة.

وكان المستضعفون من المسلمين الأولين لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من رسول الله ﷺ دينهم ويتشربوا المحبة والإيمان من منبع الصحة النبوية الصافي، بل كانوا يجتمعون خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم، "قالوا إنه يجتمع في هذا البيت الطاهر نحو تسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر ؓ وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط، فقد كان ثمة عبيد آمنوا، وكانوا في مهنة مالكي رقابهم، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه، ويكره على الخروج منه.

ومن المؤمنين من كان يؤمن ويخفي إيمانه عن أهله: أبيه وأمه وأخيه فرارا من أن يفتن بملام أو تعذيب فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل في الإسلام يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر، ثم ينتقل المرء من اللوم إلى التعذيب، إن استرسلوا في غوايتهم، ولم يكن ما يمنعمهم من رحم شفيقة، أو قوة عزيزة ممن منحه الله تعالى الإيمان، واعتصم ببرد اليقين"^(٢).

وهكذا انطلق ذلك النور من بيت النبوة إلى خارجه، ولكن لم يذهب بعيدا عن رسول الله ﷺ، فقد ذهب يضيء قلوب المقربين منه من أهل بيته ومن أصدقائه، أما أقرباؤه الأذنون كأبي لهب فلم يتبع دينه بل عارضه وكاد له واستهزأ به وحرص عليه أهل الكفر. حتى عمه أبو طالب الذي رباه وفاض عليه من حنانه لم يؤمن به.

=أشهر، وقع في صحيح البخاري عنه أنه قال لقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام. الإصابة، ترجمة رقم: ٣١٩٦، ٣/٧٣.
(١) سيرة ابن هشام، ١/١٨٤. البداية والنهاية، ٢/٣٩.
(٢) خاتم النبيين ﷺ، ١/٤٤٤.

كل هذا يدل على نزاهة الإسلام وأنه لم يقم على العصبية وحمية الجاهلية، بل إن الإسلام جاء لمحو العصبية الجاهلية والنعرات القبلية.

بيد أن الدعوة السرية في هذه المرحلة وتواصي المسلمين بأخذ الحيطه والحذر، "وتلافي الاصطدام المباشر مع المشركين، لا يعني أن المجابهة العقديية بين الدين الجديد والشرك كانت صامتة، بل إننا نجد لها على أعنف ما تكون في القرآن الكريم نفسه وفي آياته الأولى. ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش، في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته -بعد- سوى نفر يعدون على الأصابع، ومن ثم يتبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه الرسول ﷺ والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاعي: المغيرة بن هشام المخزومي، مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق" (١): ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَنفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نَظْعُمُ... ﴿١٩﴾﴾ [العلق]. وهذا من تثبيت القرآن للدعوة المحمدية بمكة، والعظمة الخلقية التي تمتاز بها الرسالة القرآنية والجرأة الشديدة في الصدع الحق.

وعلاوة على ذلك، فإنما كانت الدعوة ابتداء سرية لبناء القاعدة الإسلامية المتينة، وإن القواعد الأولى يكون بناؤها بالسر والكتمان لأن الجهر ينقضها قبل أن تبنى.

فكل فكرة جديدة لا بد أن يلتقي حولها قلوب مؤمنة بها يتولى من بعد ذلك إعلانها والمجاهرة بها، ثم لا بد من تكوين من يتقدمون للدعوة، ومثل الدعوة الخفية كمثال تكون الجنين في بطن أمه، فإنه لا يظهر للوجود إلا حيا حياة كاملة، صالحا لأن يقاوم دواعي الفناء، والأخذ من عناصر البقاء والتغذي بكل أسباب القوة، وكذلك الدعوة إلى كل فكرة تقتضي التدبير الخفي، ثم الإعلان الجلي" (٢).

ولا ريب أن سرية الدعوة خلال السنوات الثلاث الأولى لم يكن بسبب خوف النبي ﷺ على نفسه ولا من إيذاء الكفار له، فهو حينما كلف بتبليغ رسالة الإسلام ونزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ﴿١﴾ قُوفَانِذِرًا ﴿٢﴾﴾ [المدثر] علم أنه رسول الله إلى الناس كافة، وهو لذلك يوقن بأن الله الواحد الذي ابتعثه برسالاته وكلفه بدعوته قادر على أن يدفع عنه مكائد

(١) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، ١/١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص ٥٤.

(٢) خاتم النبيين ﷺ، ١/٣٨٨.

الكفار والمشركين ويعصمه من الناس أجمعين، على أن الله عز وجل لو أمره بالجهر بالدعوة في أول يوم لما توانى في تبليغها ساعة ولو كان ثمن ذلك روحه.

"ولكن الله أهمه -الإلهام للرسول نوع من الوحي إليه- أن يبدأ بالدعوة في فترتها الأولى بسرية وتكتم، وأن لا يلقي بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب كل ذلك الاعتماد والاتكال على الله وحده"^(١).

٢- الدعوة جهراً:

بعد الدعوة السرية التي دامت ثلاث سنوات كان لابد من التدرج إلى مرحلة أخرى، وهي الدعوة الجهرية باللسان فقط التي استمرت إلى الهجرة النبوية، يقول الدكتور عماد الدين خليل: "بعد أن تم بناء القاعدة (الصلبة) للدعوة متمثلة بأولئك الرواد الأوائل من المسلمين الذين انتموا للإسلام عبر سنينه الصعبة وغربته، والذين علمتهم التجارب المقدرة الصمود بوجه الضغوط مهما غلا الثمن، والذين أنضجتهم حشود الآيات القرآنية التي كانت تنزل ﴿عَلَىٰ مَكَّةَ﴾ [الإسراء] حيناً بعد حين. أصدر الله أمره إلى رسوله الكريم أن يتجاوز المرحلة السرية للدعوة صوب الجهر والإعلان. وهذا أمر لابد منه لدعوة عالمية شاملة جاءت لكي تثبت وجودها المنظور في الأرض العربية أولاً، وفي العالم المحيط ثانياً.. كل ذلك في فترة لا تعدو ما تبقى للرسول ﷺ من سن عمره المحدود"^(٢).

قال ابن إسحاق: "ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه؛ وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه؛ ثم قال الله تعالى له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٤) وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

(١) فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام- القاهرة، دار الفكر المعاصر-بيروت، دار الفكر-دمشق، ط ١١٢/١١هـ-١٩٩١م، ص ٦٩.

(٢) دراسة في السيرة، ص ٨٨.

(٣) سورة الحجر: ٩٤.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨١) [الحجر] (١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٨١) [الشعراء] قال: "يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترؤا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيّة عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً" (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٨١) [الشعراء] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: "يا بني فهر يا بني عدي لبطن قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدّقين؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتمنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ [المسد] (٣).

هكذا استمر النبي ﷺ يدعو الناس إلى ربهم وإلى ما فيه خير الدنيا والآخرة بالصبح والغسل، وبالسر والجهر، لا يثنيه ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) [الشعراء] عن ذلك أحد ولا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يصدده عن غايته صاد، يبلغ رسالة ربه للناس في أُنديتهم وفي المواسم، وفي مواقف الحج؛ "يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده شرع" (٤) سواء، وتسלט عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء من مشركي قريش بالأذية القولية والفعلية، وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب، -واسمه عبد العزى بن عبد المطلب- وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، وخالفه في ذلك عمه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ أحب خلق الله إليه طبعاً وكان يحنو عليه ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ١٨٤. تاريخ الطبري، ١/ ٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، ح ٢٧٥٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) [الشعراء]، ح ٤٧٧٠.

(٤) شرع: أي سواء. مختار الصحاح، مادة: شرع، ص ١٥١.

دينهم وعلى خلتهم، إلا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبعيا لا شرعيا، فكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية؛ إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولا جترؤوا عليه، ولدوا أيديهم وأستنتهم بالسوء إليه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾ (٦٨) [القصص] وقد قسم خلقه أنواعا وأجناسا، فهذان العمان كافران أبو طالب وأبو لهب ولكن هذا يكون في القيامة في ضحضاح^(١) من نار، وذلك في الدرك الأسفل من النار، وأنزل الله فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر، وتقرأ في المواضع والخطب، تتضمن أنه ﴿سَيَصِلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣) وأمرأته، حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ [المسد] (٢).

ومع ما لقيه النبي ﷺ من الابتلاء والاستهزاء من قبل أقربائه وقومه لم يتوقف عن الدعوة، بل استمر في تبليغ رسالته للناس، ومنذ اليوم الذي اجتمع بها بأقربائه وعشيرته في أطراف مكة، وقابلوه بصد مخزن، منذ تلك اللحظة انفجر الصراع الواضح المكشوف بين أهل الإيثار وأهل الكفر.. وفق سنة الله في تنازع الحق والباطل المشركون، واستخدم أهل الكفر كل الأساليب والوسائل لصد الناس عن دين الله؛ لكن أهل الإيثار من المستضعفين لم يؤمروا بالرد وبالقتال -طيلة المرحلة المكية- لئلا يتعرضوا لعملية إبادة تحقق لعباد الأوثان ولأهل الكفر ما كانوا يأملونه ويرجونه.

وإلى جانب هذا وذاك كان النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى الثبات على الحق -وفق سنة الله في تثبيت المؤمنين في وقت الشدائد- ويرفع همهم ويشحذ همهم وينفخ فيهم روح المقاومة ويرسم لهم بحكمته النبوية البالغة، وبالهدى القرآني طرائق النصر والتمكين والوسائل التي تقتر بهم من هدفهم وغايتهم.

وكلما زادت شرارة الابتلاء والمحنة وكلما عظم الابتلاء ساق الله تعالى -وفق سنته في النصر بعد الإيثار- إلى الدعوة رجالا كبارا لهم مكانتهم في المجتمع ولهم وزنهم في مجرى الأحداث وقدرتهم على مواجهة التحديات والصعاب.. ومن أمثال هؤلاء إسلام أسد الله

(١) ضحضاح: وهو ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعيعين فاستعاره للنار. ماء ضحضاح بوزن خلخال أي قريب القعر، مختار الصحاح، مادة: ضحح، ص ١٦٩. النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، ٣/ ١٦٤، باب الضاد مع الحاء.

(٢) البداية والنهاية، ٢/ ٤٣.

حمزة بن عبد المطلب والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنها " أمثلة بينة على الإرادة المعجزة التي تسوق وفق منطقتها وقضائها الذي لا راد له رجالا من قلب الجاهلية، ومن صميم زعامتها، إلى ساحة الحركة الجديدة، ليسوا عاديين، وإنما قادة وزعماء [كانت لهم أهمية كبيرة] في إيجاد نوع من التوازن في القوى بين الدين الجديد والجاهلية يمكن الإسلام من أن يشق طريقه وسط ركام من العوائق والمصاعب والآلام"^(١).

ولذلك كان إسلام أسد حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بداية عهد جديد للإسلام، "كان المسلمون في الأول مستضعفين يرامون بالسوء، ولا يدفعون للسيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم، ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما، ولا مراعاة حسن جوار، أو لمودة، أو لقربى، بل يسومونهم العذاب، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا، وذوو المروءات من المشركين إن تابوا عن الأذى فلائهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة في إيذاء عبد ضعيف، أو من لا يملك ردا"^(٢).

ولما أسلم أسد الله حمزة رضي الله عنه أحس أبو جهل بالضربات الموجهة تقع رأسه، "وبالدم يسيل منه، فإن تخفف له نصراء من قومه خشي المعركة، وأن يكون ابتداءها هذا وهو يخاف نهايتها، كشأن كل من يكون ناقص المروءة، يستعدي على الضعفاء، ويخاف الأقوياء"^(٣).

ولما أسلم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت الكارثة على الوثنية والشرك وأهل الكفر، وكانت العزة والقوة والمنعة للإسلام والاعتزاز به والجهر به، ووقوف المسلمين صفا واحدا، بعد أن كانوا فرادى متفرقين بسبب ما لاقوه من المشركين.

لهذا كان سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: " ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر (بن الخطاب)، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة.

(...) إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه"^(٤).

(١) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص ٨٩-٩٠.

(٢) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ص ٤٥٢.

(٣) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ص ٤٥٢.

(٤) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٣٩. البداية والنهاية، ٢/ ٨٢.

وبذلك "ظهر الإسلام، فظهر النور، وسارت الركبان، بما اعتر به الإسلام، وانخذل الشرك، وتحول الاضطهاد من الأحاد إلى الجماعات"^(١).

٣- البحث عن قاعدة حرة للدعوة:

إن النبي ﷺ المؤيد بالوحي من رب العالمين أسوة جميع المسلمين لم يخرج عن سنن الله في هذا الكون، بل التزم بها التزاما كاملا، ويتضح هذا في اتخاذه كل التدابير والأسباب لتوسيع دائرة الدعوة الإسلامية، فلم يبق محصورا في مكة فقط، بل لما بالغ المشركون في إيذائه وإيذاء أتباعه خطط تخطيطا محكما مسددا بالوحي، ولهذا كان الأمر بالهجرة إلى أرض الحبشة لإبعاد الأتباع عن بطش الوثنية، والبحث عن قاعدة حرة آمنة لها يمكن لها أن تسير سيرها دون عراقيل.

وهنا يحق القول أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت لنشر الدعوة الإسلامية، والبحث عن قاعدة حرة لها تتمكنها من مباشرة عملها ومهامها بدون أي اضطهاد أو صد. أما القول بأن سبب الهجرة إليها هو النجاة بأنفسهم والحفاظ على أرواحهم فلا يستند إلى قرائن قوية. "فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاها وقوة ومنعة من المسلمين. غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا. إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم -في بيئة قبلية- ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة؛ وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين، منهم جعفر بن أبي طالب^(٢) (...) والزيبر بن العوام^(٣)، (...) وهاجرت

(١) خاتم النبيين ﷺ، ص ٤٥٣.

(٢) هو: جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله، ابن عم النبي ﷺ، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأخو علي شقيقه، أسلم بعد خمسة وعشرين رجلا وقيل بعد واحد وثلاثين. كان جعفر يحب المساكين ويجلس إليهم ويخدمهم ويخدمونه، فكان رسول الله ﷺ يكتنيه أبا المساكين. استشهد بمؤتة من أرض الشام مقبلا غير مدير، مجاهدا للروم في حياة النبي ﷺ سنة ٨ في جمادى الأولى. ترجمة رقم: ١١٦٨، ٤٨٥/١ وما بعدها.

(٣) هو: الزيبر بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي أبو عبد الله، حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، كانت أمه تكتنيه أبا الطاهر بكنية أخيها الزيبر بن عبد المطلب، واكتنى هو بابنه عبد الله، فغلبت عليه وأسلم وله اثنتا عشرة سنة وقيل ثمان سنين، مات شهيدا وكان قتله في جمادى الأولى سنة ٣٦ وله ست أو سبع وستون سنة، وكان الذي قتله رجل من بني تميم =

نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى ليناهن أبدا.. وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش؛ وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم، فرارا من الجاهلية، تاركين وراءهم كل وشائج القربى، في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفاً؛ وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة^(١) بنت أبي سفيان، زعيم الجاهلية، وأكبر المتصددين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها..^(٢) ولهذا فقد كانت الهجرة إلى أرض الحبشة للبحث عن أرض خصبة لزرع الدعوة وللبحث عن قاعدة حرة لها، أو آمنة على الأقل. وبخاصة حين نضيف إلى هذا ذكرناه ما ورد في الروايات الصحيحة عن إسلام نجاشي الحبشة. ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إعلانه نهائياً إلا ثورة البطارقة عليه.

فكانت الهجرة إلى أرض الحبشة^(٣) عبر مرحلتين؛

أ- الهجرة الأولى^(٤)؛

بعد الدعوة سرا ثم جهرا في مكة، حيث عُدب من دخل في دين الإسلام عذابا شديدا، كان لابد من البحث عن أنصار جدد للدعوة وعن قاعدة حرة آمنة لها، ولهذا أدرك سيد الوجود ﷺ "بعد سنتين من الجهر بالدعوة ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء ينزل بهم ليل نهار، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم، مصممة على استخدام أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدها وخنقها وهي بعد في المهد.. ورأى أن يمنح

=يقال له عمرو بن جرموز قتله غدرا بمكان يقال له وادي السباع. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٧٩١، ٥٥٣/٢.

(١) هي: رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشية الأموية زوج النبي صلى الله عليه وسلم، تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها وقيل بل اسمها هند ورملة أصح، أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاما، تزوجها حليفهم عبيد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر الأسدي من بني أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة، فولدت له حبيبة فبها كانت تكنى، ثم تنصر زوجها، فتزوجها النبي ﷺ، ماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين جزم بذلك بن سعد. الإصابة: (ترجمة رقم: ١١٩٦٣، ٨/١٨٨)، و(ترجمة رقم: ١١١٨٥، ٧/٦٥١).

(٢) في ظلال القرآن، ١/٢٩.

(٣) أرض الحبشة بالجانب الغربي من بلاد اليمن ومسافتها طويلة جدا، وهم أجناس وجميع فرق السودان يعطون الطاعة لملك الحبشة، وكان في القديم يلقب بالنجاشي. فتح الباري، ٧/٢١٨.

(٤) كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث. فتح الباري، ٧/٢١٦.

المعذبين المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم ويستعيدون قواهم النفسية والجسدية، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهم أقدر وأصلب.. وعسى الله أن يحدث—خلال ذلك—أمرا كان مفعولا. فأشار بالهجرة إلى الحبشة" (١).

قال ابن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا"، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة كانت في الإسلام" (٢).

فكان أول المهاجرين إلى الحبشة (٣) عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية (٤) بنت رسول الله ﷺ، وكان مجموع هذه الهجرة الأولى اثني عشر رجلا، وأربع نسوة (٥).

ولا ننس المرأة الصحابية وما تحملته من أعباء الاضطهاد والهجرة، جنبا إلى جنب مع المؤمنين في سبيل الله. وهنا تتبين المكانة الرفيعة التي حظيت بها المرأة شقيقة الرجل في الإسلام والمسؤوليات الجسام التي حملها إياها، بعد أن كانت تدفن وهي حية في الجاهلية الجهلاء، وتعامل كالحوانات.

(١) دراسة في السيرة، ص ٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ١/٢٢٦-٢٢٧. البداية والنهاية، ٢/٧٠. تاريخ الطبري، ١/٥٦٠. المغازي، موسى بن عقبة، ص ٦٦.

(٣) قال ابن كثير: وروى الواقدي أن خروجهم كان في رجب سنة خمس من البعثة، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة. البداية والنهاية، ٢/٧٠.

(٤) هي: رقية بنت سيد البشر ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية هي زوج عثمان بن عفان وأم ابنه عبد الله، قال ابن سعد: بايعت رسول الله ﷺ هي وأخواتها وتزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، فلما بعث قال أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته ففارقتها، ولم يكن دخل بها فتزوجها عثمان فأسقطت منه سقطا ثم ولدت له بعد ذلك ولدا فسماه عبد الله وبه كان يكنى. والذي عليه أهل السير أن عثمان رجع إلى مكة من الحبشة مع من رجع ثم هاجر بأهله إلى المدينة، ومرضت بالمدينة لما خرج النبي ﷺ إلى بدر، فتخلف عليها عثمان عن بدر فماتت يوم وصول زيد بن حارثة مبشرا بوقعة بدر. الإصابة، ترجمة رقم ٧، ١١١٨١. / ٦٤٨.

(٥) زاد المعاد، ٢/٦٣. نور اليقين، ص ٦٤.

ب- الهجرة الثانية:

وبعدما مضى على هجرة من هاجر إلى الحبشة ثلاثة أشهر رجع إلى مكة من هاجر إلى الحبشة "حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد -وفي الكثرة الأئس- وأضف إلى ذلك أنهم أشرف قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة"^(١).

قال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله: "وكانت الهجرة إلى أرض الحبشة مرتين، فكان عدد المهاجرين في المرة الأولى اثني عشر وأربع نسوة، ثم رجعوا (...)، فلقوا من المشركين أشد ما عهدوا، فهاجروا ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان فيهم عمار، ففيه خلاف بين أهل النقل، وثمانية عشرة امرأة"^(٢).

قال موسى بن عقبة: "وخرج جعفر بن أبي طالب في رهط من المسلمين عند ذلك فرارا بدينهم أن يفتتنوا عنه إلى أرض الحبشة"^(٣).

لكن قريشا لما رأَت فرار المسلمين بدينهم إلى الحبشة فكرت في خطة ماكرة لتفتن المسلمين في دينهم في أرض الحبشة، وهنا أذكر رواية ابن إسحاق -على طولها لما فيها من العبر والعظات- لما أقدمت عليه قريش. قال ابن إسحاق: "فلما رأَت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي، فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارفته ثم بعثوهما إليه فيهم"^(٤).

فوزعا هداياهما على كل البطارقة ولم يتركا واحدا منهم فلم يبق من بطارفته بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلمها النجاشي، وحرصا البطارقة على المسلمين، وأغروهم بهداياهما، فكلما النجاشي: فقالا: "له أيها الملك إنه قد ضوى^(٥) إلى بلدك منا غلمان سفهاء،

(١) نور اليقين، ص ٦٦.

(٢) عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١/٢٠٩. سيرة ابن هشام، ١/٢٥٥.

(٣) المغازي، موسى بن عقبة، ص ٧١.

(٤) سيرة ابن هشام، ١/٢٣١. البداية والنهاية، ٢/٧٢.

(٥) ضوى: وضوى ضوياً وضوياً أنضمَّ، ولجأ. القاموس المحيط، باب الياء، فصل الضاد،



فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليردهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، وردتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهن منهن، وأحسنن جوارهن ما جاوروني.

قالت -أم سلمة-: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه، قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، -وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله-، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ؓ، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام -قالت: فعدد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك؛ ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. قالت:



فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقراءه عليّ. قالت: فقرأ عليه صدرا من ﴿كَهَيْعَصَ ۝١﴾ [مريم] قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال (لهم) النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكم، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. قالت: فقال له: عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا نفعل فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا؛ قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه (من) الغد فقال (له): أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ (يقول): هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قُلتَ هذا العود، قالت: فتناخرت^(١) بطارقتة حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيوم^(٢) بأرضي، من سبكم غرم، ثم قال من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبرا^(٣) من ذهب وأني أذيت رجلا منكم، ردوا عليها هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت فخرجوا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار^(٤).

(١) النَّخِيرُ: صوت بالأنف. مختار الصحاح، مادة: نخر، ص: ٢٨٤.

(٢) الشيوم: الأمنون. سيرة ابن هشام، ١/٢٣٦.

(٣) قال ابن هشام: ويقال دبرا من ذهب ويقال فأنتم سيوم والدبر (بلسان الحبشة): الجبل. سيرة ابن هشام، ١/٢٣٦.

(٤) سيرة ابن هشام، ١/٢٣٤-٢٣٦. البداية والنهاية، ٢/٧٧-٧٨.



أ- اتخاذ الأسباب المادية:

وتتجلى هذه السنة في اختيار النبي ﷺ الأساليب المتنوعة لنشر الإسلام، والتعريف بمبادئه، فاختر مكانا مناسباً خارج مكة التي عارضت هذه الدعوة، ووقفت في طريقها، وعذبت أتباعها، فكان الاختيار الهجرة إلى أرض الحبشة، وإرسال مجموعة من الصحابة لينشروا دعوة الإسلام هناك، المتحدث باسمهم وباسم الدعوة الإسلامية هو سيدنا جعفر رضي الله عنه، وهذا يدل على الخطة المحكمة واتخاذ الأسباب اللازمة لنشر الدعوة بأفضل الطرق.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: " كان اختيار الحبشة داراً لهجرة المسلمين خطوة موفقة من خطوات الرسول المدروسة. فهناك إضافة إلى الصفة التي وصف ملكها بها (...)، تيسر السفر إليها بالسفن، ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه، فضلاً عن العلاقات المذهبية الطيبة بين الإسلام والنصرانية.. بل إنه ليخطر بالبال أن من أسباب اختيار الحبشة أمل وجود مجال للدعوة فيها وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل. ولعل ما روي عن إسلام النجاشي وغيره من الأحباش ووفادة بعضهم على النبي مسلمين مستطلعين ما يستأنس به على صحة هذا الخاطر؛ إذ يرى أثر نجاح هذه الدعوة في هاتيك الديار^(١).

ولا ريب إذن، أن الهجرة إلى الحبشة لها ثمرة أخرى غير دفع الأذى والعذاب، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أرهقوا بها عسرا، وهذه الثمرة هي التعريف بالإسلام وبمبادئه وتبليغ الدعوة الإسلامية، فقد وقف جعفر الطيار رضي الله عنه المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي يبين الحقائق الإسلامية والمبادئ القرآنية، وغاية الدعوة المحمدية، وأهم مبادئ الإسلام وما يدعو إليه دين التوحيد من صلة الرحم، والحث على مكارم الأخلاق، وما يمنعه من فساد الجاهلية ونعراتها العصبية.

هذا إضافة إلى تعريف النصارى بالإسلام، وما قاله القرآن في المسيح عيسى بن مريم رضي الله عنه، فهي تزرع الإسلام في غير أرض مكة، كما أن الهجرة من بعد ذلك إلى يثرب كان فيها تعريف اليهود بالإسلام ومبادئه ودعوتهم إليه وهم أهل كتاب وقد عرفوا الصفات المحمدية المذكورة في كتابهم. فدخل في الإسلام رجال وكفر وعاند من تكبر واستكبر.

(١) دراسة في السيرة، ص ٦٥.



ب- الاعتزاز بالله والتوكل عليه:

وقد رأينا ثبات أولئك الرجال من الصحابة لما حاول من أرسلتهم قريش ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم إلى بلادهم، لما سألمهم النجاشي أجاوبه بصدق وجرأة ما علمهم سيدنا رسول الله ﷺ بما جاء في الرسالة المنزلة عليه، ولم يخافوا لومة لائم، ولم يخافوا أن يطردهم ويرجعوهم إلى التعذيب.

فلما توكلوا على الله واعتزوا به واتقوه حق التقى أيدهم بحفظه ومدده ورعايته، فلم يمسهم سوء رغم كيد الكائدين الذين يتربصون بهم من كل حذب وصوب، قال الحق جل وعلا: ﴿... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ [٣] ﴿[الطلاق]، وقال الله جل جلاله: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [٤] ﴿[الطلاق].

ت- كبت الكفار:

وهذه سنة من السنن الإلهية، قال الحق جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَيْتُوكَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [٥] ﴿[المجادلة]، وقد رأينا كيف رجع رسولا قريش مقبوحين خاسرين صاغرين، فعادا إلى مكة خاسرين منهزمين، وكان كيد قريش في نحرها، وكان تديرها في تدميرها، زاد مكرهم الذي أرادوه بالمهاجرين إلى الحبشة اعتزازا واحتراما وشرفا.

ث- خسارة الكفر في حربه على الإسلام:

إن صناديد قريش ضحوا بكل جهودهم، وقدموا البطاريق النجاشي الهدايا الغالية، من أجل عرقلة استقرار المسلمين في الحبشة، وإرجاعهم إلى مكة أذلة صاغرين، لكن لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم، كل مخططاتهم ومؤامراتهم كانت عليهم لا لهم، رجعت عليهم بالخسران المبين، وصدق الله تعالى القائل: ﴿... وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [١٤] ﴿[النساء]، والقائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [٣٣] ﴿[الأنفال].

ج- الاتباع والصبر حتى تحقق الوعد:

رأينا في الرواية المذكورة تمسك الصحابة ﷺ بغرز نبيهم ﷺ، وهم في حالة الشدة والابتلاء، فيقننهم في الله هون في أعينهم أمر الدنيا، قالوا لما تشاوروا -كما رأينا في رواية ابن

إسحاق قيد الدرس- فيما يجيبون به النجاشي لما يسألهم: قالوا: "نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن".

فبصدق اتباعهم وصبرهم على الابتلاء، حفتهم أجنحة الرعاية الربانية، فكانت نتيجة ذلك: "وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار". إنه الصدق والصبر والاتباع حتى في اللحظات الحرجة.

ح- الإسلام نور لا تستطيع أي قوة أن تقف في وجهه:

قال الحق جل وعلا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَيْنَا أَن نُبَيِّنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٣) [التوبة]، إن كفار قريش لم يكتفوا بالكفر فقط، وإنما أعلنوها حربا ضروسا على كل من دخل في دين الإسلام، فحاولوا القضاء عليه في مهده، والنيل من أتباعه، ولما علموا بهجرة المسلمين إلى الحبشة ازدادوا حنقا وحقدا وشراسة، فخططوا- كما رأينا- ودبروا، لكن من يستطيع أن يوقف نور الإسلام؟! وقد جزم الله في الآية السابقة، أنهم لن يحققوا هدفهم ضد الإسلام ودعوته ورسالته، وأن نور الإسلام سيبقى قويا لن يضره أحد ما دامت السماوات والأرض، والله متم نوره، ومظهر لنبيه، وناصر لعباده، ومخز لأعدائه الجاحدين الكافرين.

ومن ثم، فإن "الطحالب العائمة لا توقف السفن الماخرة، وإن المعتوه إذا اعترض طريقك ووقع في عرضك بلسان حاد سمعت من يقول لك: هذا لا يقصد العدوان عليك ولكنه يستجيب لنوازع الجنون في دمه. وكذلك أولئك المشركون، إن فظاظتهم وإنكارهم تمشي مع دواعي الجحود في طباعهم قبل أن تكون انتقاصا للرجل الذي يمدتهم أو طعننا في خلقه"^(١).

٤- البحث عن سند اجتماعي للدعوة:

يقول الدكتور محمد أمخزون: "لم يغفل النبي ﷺ - مع كونه مؤيدا بالوحي مشمولا بالرعاية الإلهية- التحرك في إطار سنن الله الاجتماعية؛ لكونه بلا ريب القدوة النموذجية للمسلمين في كل العصور في علاقتهم بالكون والحياة والناس.

ولذلك قام عليه الصلاة والسلام بجملة من التدابير اتخذها لمعالجة الأمر في سياق خطته المنهجية المحكمة التي شكلت البحث عن سند اجتماعي وموقع جديد للانطلاق في بناء الدولة محورها الرئيس"^(٢).

(١) فقه السيرة، الغزالي، ص ١٠٤-١٠٥. بتصرف واختصار.

(٢) منهج النبي ﷺ في الدعوة، محمد أمخزون، دار السلام، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص ١٢٣.



ومن ثم فالدعوة في حاجة إلى سند اجتماعي لها لتتنجز مهامها المنوطة بها، ولهذا لما بالغت قریش في إيذاء النبي ﷺ هاجر إلى الطائف لعله يجد سنداً اجتماعياً قوياً لدعوته، أو أذانا صاغية لكلمة الحق، أو قلوباً واعية لوظيفتها في هذه الحياة، لكنه صلوات ربي وسلامه عليه وجد عكس ذلك، الإنكار والإيذاء، فشجَّ (١) النبي ﷺ في رأسه الشريف شجاجاً (٢)، وقعدوا له سفهاء ثقيف صفين على طريقه، "فلما مر رسول الله ﷺ بين صَفِيْهِمْ جعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رَضُخُوهُمَا (٣) بالحجارة، حتى أدموا رجله (٤)"، وكان صلوات ربي وسلامه عليه، "إذا أذلقته (٥) الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجوه وهم يضحكون (٦)"، حتى خلس منهم، ورجلاه الشريفتان تسيلان دماً، "فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظلَّ في ظل حَبَلَةٍ منه وهو مكروب موجه (٧)". وقد رأينا القصة في المبحث الأول من هذا الفصل، لما تحدثنا عن سنة تكذيب المشركين لرسالة خاتم النبيين.

بعد كل الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ لدعوة قومه إلى الإسلام، ومقابلتهم إياه بالتكذيب والإنكار والإيذاء، كان لابد من أن توسع دائرة المدعويين إلى الإسلام حسب سنة التدرج، قال ابن إسحاق: "ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به؛ فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به (٨)".

وهكذا بدأ يعرض نفسه على القبائل فيقابلونه بالإنكار، قال الإمام ابن القيم (٩):

(١) شَجَّ رَأْسَهُ يَشُجُّ وَيَشُجُّ كَسَرَهُ. القاموس المحيط، باب الجيم، فصل الشين، ص ٢٢٠.

(٢) عيون الأثر (تحقيق الخطراوري ومتو)، ١/٢٣٢.

(٣) رضخوهما: رموهما. القاموس المحيط، باب الخاء، فصل الراء، ص ٢٧٦.

(٤) عيون الأثر (تحقيق الخطراوري ومتو)، ١/٢٣٢.

(٥) أذلقته: أضعفته. القاموس المحيط، باب القاف، فصل الذال، ص ٨٩٩.

(٦) عيون الأثر (تحقيق الخطراوري ومتو)، ١/٢٣٢.

(٧) عيون الأثر، نفس الجزء والصفحة..

(٨) سيرة ابن هشام، ٢/٣٠٦. البداية والنهاية، ٢/١٤٤. أنساب الأشراف، ١/٢٣٧.

(٩) هو: أحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي (٦٥٨ - ٧٥٠ هـ = ١٢٦٠ - ١٣٤٩ م)، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ للشيخ ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضر وبا بالعصي. وأطلق بعد موت ابن تيمية. الأعلام للزركلي ٦/٥٦.

"وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم، وعرض نفسه عليهم: بَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَمُحَارِبُ بْنُ حَصْفَةَ، وَفَزَارَةُ، وَغَسَّانُ، وَمُرَّةٌ، وَحَنِيفَةُ، وَسُلَيْمٌ، وَعَبْسٌ، وَبَنُو النَّضْرِ، وَبَنُو الْبَكَّاءِ، وَكِنْدَةُ، وَكَلْبٌ، وَالْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ، وَعُذْرَةُ، وَالْحَضَارِمَةُ، فلم يستجب منهم أحد" (١).

واستمر رسول الله ﷺ على ذلك الحال من أمره، يدعو القبائل إلى دين الإسلام الله، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتبعوا رسالته، ويصدقوا بما جاء به من الله من الهدى والرحمة ودين الحق، وكان ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له شرف ومكانة إلا، وعرض عليه الإسلام ودعاه إلى الله.

عن الإمام موسى بن عقبة عن شيخه ابن شهاب قال: "وكان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه ويقول: لا أكره أحدا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كرهه فلم أكرهه، وإنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي، وحتى يقضي الله عز وجل ولمن صحبني بما شاء فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه؟ ولفظوه، فكان ذلك مما ذخر الله عز وجل للأنصار وأكرمهم به" (٢).

ولما أراد الله عز وجل أن يظهر دينه ويعز رسوله وينجز وعده، خرج النبي ﷺ في موسم الحج الذي لقيه فيه ذلك الرهط من الأنصار الذين أراد الله بهم خيرا، فعرض نفسه ورسالته وما أرسل من أجله على قبائل العرب، كما كان يفعل في كل موسم من المواسم. فبينما هو عند العقبة لقي نفرا من الخزرج.

"ولما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: "من أنتم؟" قالوا: نفر من الخزرج (٣)، قال: "أمن موالي يهود؟" قالوا: نعم، قال: "أفلا تجلسون أكلمكم؟" قالوا: بلى. فجلسوا معه،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: حمدي بن محمد بن نور الدين آل نوفل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/٢٣١ هـ - ٢٠٠٢ م، ٧١/٢.

(٢) مغازي ابن عقبة، ص ٨٦.

(٣) قال ابن إسحاق: وهم ستة نفر من الخزرج. سيرة ابن هشام، ٣١١/٢. أما موسى بن عقبة فقد ذكر ثمانية أسماء وهم: معاذ بن عفرأ، أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن بن ثعلبة، وأبو الهيثم ابن التيهان، وعيوم بن ساعدة. انظر: مغازي ابن عقبة ص ٨٩.

فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فدعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا^(١).

فلما قدموا يثرب إلى أهلهم وقومهم ذكروا لهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ وما دعاهم إليه من الهدى والحق، فبلغوا رسالة نبيهم حتى فشى ذلك في المدينة فلم يبق بيت من بيوتهم إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ وما أتى به الحق والنور المبين.

ولهذا، فقد كان الأنصار رضوان الله عليهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ مباشرة بعدما عرض عليهم الإسلام فقبلوه، ودخلوا فيه بصدق وإخلاص، فكانوا وفد الخير والحق، "والصدق، فما أن انصرفوا عائدين إلى يثرب حتى أخذوا يذكرون رسول الله ﷺ ويدعون بدعوته، حتى عمت وفشت، وتذاكر بها أهل يثرب، ومنهم من استجاب لدعوة الحق، لمجرد ذكرها، ولم يطلبوا برهاناً، لأنها دعوة إلى التوحيد، وهي في ذاتها صادقة، وكانوا يعلمون بها، إذ يؤمنون بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض وحده، وما كانوا جاهلين بالله تعالى، بل كان فيهم بقية من ملة إبراهيم، واليهود بينهم يذكرون لهم أن رسولا في مكة قد بعث، فكانت الدعوة إلى الله تعالى مستجابة لا مرأى فيها.

فشا الإسلام في المدينة، قبل أن يقدم إليها النبي ﷺ، وقبل أن يرسل مبعوثا يعلمهم الإسلام، ويتلو عليهم القرآن^(٢).

(١) سيرة ابن هشام، ٢/٣١٠. عيون الأثر (تحقيق: الخطرواي ومتو)، ١/٢٦٢. البداية والنهاية، ٢/١٥٥. مغازي ابن عتبة، ص ٨٩. أنساب الأشراف، ١/٢٣٩ وما بعدها. تاريخ الطبري، ١/٥٧٢.

(٢) خاتم النبيين ﷺ، ١/٥٩٣.

ثم استمرت الدعوة تنتشر في يثرب انتشار النار في الهشيم، "حتى إذا كان العام المقبل وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة"^(١) - وهي العقبة الأولى - فبايعوا نبي الله ورسوله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض عليهم القتال.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي مِنَ النَّبِئَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ: "بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَا نَنْتَهَبَ، وَلَا نَعْصِيَ بِالْجَنَّةِ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَانَ قَضَاءً ذَلِكَ إِلَيَّ اللَّهُ"^(٢).

قال ابن إسحاق: "فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب. وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمامة"^(٣) (٤).

ثم بعد ذلك بدأ الإسلام ينتشر، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا ودخلها نور الإسلام، وصدق الله الكريم القائل في محكم التنزيل: .

رُغِمَ كُلُّ الْمَكَائِدِ وَالْخَطَطِ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا صُنَادِيدُ قُرَيْشٍ لِإِبَادَةِ الدَّعْوَةِ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا فِي مَكَّةَ، لَكِن قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ كَانَ لَهُم بِالْمُرْصَادِ، مَا زَادَتْ تِلْكَ الْاضْطِهَادَاتُ وَالْمَكَائِدُ وَالْخَطَطُ الْمَاكِرَةَ الدَّعْوَةَ إِلَّا انْتِشَارًا، وَثَبَاتًا، وَقُوَّةً.

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣١٢. البداية والنهاية، ٢/ ١٥٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة، ح ٣٨٩٣. سيرة ابن هشام، ٢/ ٣١٣-٣١٤. البداية والنهاية، ٢/ ١٥٧.

(٣) هو: أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار أبو أمامة، الأنصاري الخزرجي النجاري، قديم الإسلام شهد العقبتين وكان نقيباً على قبيلته ولم يكن في النقباء أصغر سناً منه، ويقال: أنه أول من بايع ليلة العقبة، وذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة، كان ذلك في شوال، قال البغوي: بلغني أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأنه أول ميت صلى عليه النبي ﷺ، وأول من دفن بالبيعة. الإصابة، ترجمة رقم: ١١١، ١/ ٥٤.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣١٨. البداية والنهاية، ٢/ ١٦٥. الرحيق المختوم؛ بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل السلام، صفى الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط/ ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٤ م، ص ١٣٣.

ثم بعد بيعة العقبة الأولى التي كانت في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، كانت بيعة العقبة الثانية في موسم الحج كذلك سنة ١٣ من النبوة، قال ابن إسحاق: "ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خراج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبية، وإعزاز للإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله" ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف] (١).

وفي العام المقبل قصد الكعبة سبعون رجلاً (٢) من الأنصار (٣) "منهم أربعون رجلاً من ذي أسنانهم وثلاثون من شبانهم (...). فلقوه بالعقبة ومع رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب (٤)، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بالذي خصه الله عز وجل به من النبوة والكرامة، ودعاهم إلى الإسلام وإلى أن يبائعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، وأجابوا الله ورسوله وصدقوه وقالوا: اشترط علينا لربك عز وجل ولنفسك ما شئت، وقال رسول الله ﷺ: اشترط لربي أن لا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". فلما اطمأنت بذلك أنفسهم من الشرط أخذ عليهم العباس بن عبد المطلب

(١) مغازي ابن عقبة، ص ٩١.

(٢) قال ابن إسحاق -ووافقه الواقدي وابن كثير-: "فجميع من شهد العقبة من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، من الأوس أحد عشر رجلاً، ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً". سيرة ابن هشام، ٢/٣٣٨. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١/٢٧٧. البداية والنهاية، ٢/١٧٣-١٧٤.

(٣) الأنصار: أي من قبيلتي الأوس والخزرج.

(٤) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عم رسول الله ﷺ أبو الفضل أمه نتيلة بنت جناب بن كلب، ولد قبل رسول الله ﷺ بستين وضاع وهو صغير، فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير، فهي أول من كساه ذلك، وكان إليه في الجاهلية السقاية والعمارة، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، وشهد بدرًا مع المشركين مكرها فأسر فافتدى نفسه، وافتدى ابن أخيه عقيل بن أبي طالب، ورجع إلى مكة، فيقال: إنه أسلم وكنم قومه ذلك، وصار يكتب إلى النبي ﷺ بالأخبار، ثم هاجر قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين. وقال النبي ﷺ: "من أذى العباس فقد أذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه" أخرجه الترمذي.

كان العباس أعظم الناس عند رسول الله ﷺ والصحابة يعترفون للعباس بفضلته ويشاورونه ويأخذون رأيه ومات بالمدينة في رجب أو رمضان سنة اثنتين وثلاثين. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٥١٠، ٣/٦٣١.

المواثيق لرسول الله ﷺ بالوفاء، وعظم العباس الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ" (١).

فكان أول المبايعين لرسول الله ﷺ يوم العقبة أبو الهيثم بن التيهان (٢)، وقال: "يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً (٣) فلعلنا نقطعها ثم ترجع إلى قومك، وقد قطعنا الحبال، وحاربنا الناس فيك، فضحك رسول الله ﷺ من قوله، وقال: "الدم، الدم، والهدم الهدم"، فلما رضي أبو الهيثم بما رجع إليه رسول الله ﷺ من قوله أقبل على قومه فقال: يا قوم هذا رسول الله حقا، أشهد بالله إنه لصادق، وإنه اليوم في حرم الله وأمنه بين ظهري قومه وعشيرته، فاعلموا أنكم إن تخرجوه ترميكم العرب عن قوس واحدة، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقا، وإن خفتهم خذلانه فمن الآن. فقال عبد الله قبلنا عن الله وعن رسول الله، فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه، فقال أبو الهيثم: فأنا أول من يبايع، ثم تابعا كلهم (...). ثم صدروا رابحين راشدين إلى بلادهم، وجعل الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين ملجأ وأنصارا ودار هجرة" (٤).

وكانت البيعة الثانية بيعة قتال بعدما كانت الأولى بيعة نساء، وذلك قبل أن الله تعالى لرسوله في القتال، فلما أذن له ربه "بايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة" (٥).

(١) مغازي ابن عقبة، ص ٩١. سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٢٠. البداية والنهاية، ٢/ ١٦٧. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١/ ٢٧٢. زاد المعاد، ٢/ ٧٣.

(٢) هو: أبو الهيثم بن التيهان بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء الأنصاري الأوسي وزعوراء أخو عبد الأشهل ويقال التيهان لقب واسمه مالك وهو مشهور بكتيبته، شهد المشاهد كلها، وكان أحد النقباء ليلة العقبة الثانية، وأول من بايع، وقيل مات سنة عشرين وقيل سنة إحدى وعشرين وقيل شهد صفين وكأن الأصوب قول من قال سنة عشرين أو إحدى وعشرين، قال السهيلي: فأصح ما قيل فيه أنه شهد مع علي صفيين، وقتل معه فيها ﷺ. الإصابة، ترجمة رقم: ١٠٦٨٣، ٧/ ٤٤٩. الروض الأنف، ٢/ ٢٤٩.

(٣) والحبال: الحلف والمواثيق، مغازي ابن عقبة، ص ٩١.

(٤) مغازي ابن عقبة، ص ٩٢. سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٢٠-٣٢٥. البداية والنهاية، ٢/ ١٦٧-١٧٢. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١/ ٢٧٣. زاد المعاد، ٢/ ٧٣.

(٥) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٢٩.

فلما رجع من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية أظهروا الإسلام بها، ودعوا من كان على الشرك من شيوخهم، وبذلوا الغالي والنفيس في الدعوة إلى دين الإسلام، حتى أسلم الكثير حتى من شيوخهم.

وهكذا نلاحظ الحكمة النبوية في الدعوة إلى الإسلام، وإلى دين العدل والسلام، وإلى جنات عرضها السموات والأرض، فكانت سنة التدرج في كل مراحل الدعوة من سريتها إلى الجهر بها، إلى دعوة القبائل.

قال ابن إسحاق: "فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا أرسالا"، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة"^(١).

(١) سيرة ابن هشام، ٢/٣٤٠. البداية والنهاية، ٢/١٧٦. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١/٢٨٦. مغازي موسى بن عقبة، ص ٩٩.

المبحث الخامس

التدرج في بناء المجتمع العمراني الأخوي بيثرب

كانت الدعوة في بدايتها سرية، ثم انتقلت من مرحلة السر إلى الجهر، ثم بعد ذلك انتقلت إلى مرحلة أكبر وهي الهجرة إلى المدينة لبناء كيان يحميها من الأخطار التي تعرفل سيرها.

وهكذا يمكن اعتبار الهجرة إلى المدينة "من أهم متطلبات الدعوة إلى الله، وهي سنة الله في رسله وأنبياؤه وعباده المؤمنين، الذين هاجروا فرارا بدينهم وخوفا من بطش الظالمين"^(١).

ولذلك أخذ رسول الله ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية يحرص أصحابه على الهجرة إلى المدينة، وأهل المدينة من الأوس والخزرج يمهدون لهم الطريق بدعوتهم لأهل يثرب إلى دين الإسلام، وينشرهم للرسالة المحمدية بين أهليهم وإخوانهم حتى صاروا عددا كبيرا لا يستهان به، وصاروا هم أنصار رسول الله ﷺ، وحواريه كحاوري عيسى بن مريم ﷺ.

ومما لا ريب فيه أن الهجرة إلى المدينة كانت ترتيبا للدعوة الإسلامية، وخروجا من بلد لا قوة فيه للإسلام فيه إلى بلد يكون للإسلام فيه قوة ودولة، "فما كان من المعقول أن ينفذ النبي ﷺ مبادئ الإسلام في مكة، وهي في ظل الوثنية، ويحكمها مشركون، فالزكاة لا يمكن جمعها إلا في ظل سلطان عادل يجمعها من الأغنياء، ويردها على الفقراء، وتنفيذ مبادئ المساواة والإخاء، ودعوة المسلمين إلى التراحم ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة لبناء دولة فاضلة، ولا القصاص العادل، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل، وما كان ليحارب الربا الجاهلي، وما كان يمكن شيء من ذلك إلا في ظل الله تعالى، وبدولة إسلامية تنفذ أوامر الله تعالى، وتبعد الناس عن نواهيه، وما كان يمكنه ﷺ أن يقيم رأيا عاما فاضلا، يقوم المنحرف، ويرشد المسترشد، ويكافئ المحسن إلا في ظل دولة إسلامية، وعلى ذلك كانت أمرا مقرا، ولا بد منه لتقام دعائم الإسلام، ولتثبت أركانه، وتعم في الوجود الإنساني دعوته، وليست الهجرة بسبب حادث وقع، أو خوف متوقع"^(٢).

وهذا هو السبب الرئيس للهجرة المحمدية إلى المدينة، عكس ما ظنه كثير من كتاب السيرة والدارسين لها من أن سببها ما كانت تحطه له قريش في عتمة الليل من محاولة اغتيال

(١) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ٥١.

(٢) خاتم النبيين ﷺ، ١/٦١٦.

للنبي ﷺ^(١)، فالهجرة أمر مقرر وقضاء إلهي، وسنة من سنن الله في الدعوات، وهذا ما أدركه النبي ﷺ في أول يوم أوحى إليه، لما ذهبت به زوجته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها سلام الله ورضوانه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فقال له ورقة: "يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا أَكُونُ حَيًّا، حِينَ يُخْرَجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَوْخُرَجِي هُمْ". فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِهَا جِئَتْ بِهِ إِلَّا عُودِي"^(٢). وذلك ما نلاحظه في كثير من الآيات، حيث ما ذكر الجهاد إلا وذكرت معه الهجرة، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّصَدُّقُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ [الأنفال]، والآيات في الباب كثيرة، وعن معاوية ؓ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"^(٣).

ولذلك كانت الهجرة إلى المدينة النصر الأول للنبي ﷺ، قال الحق جل ذكره: ﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَىٰ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة]، كيف لا تكون الهجرة نصرا وقد نتج عنها فتح عظيم، هو ذلك المجتمع الأخوي الذي أقيم مباشرة بعد الهجرة، وما تلاه من فتوحات كثيرة للقلوب والبلدان.

إنه نصر ويسر بعد عسر دام ثلاث عشرة سنة في مكة، وهنا تحققت سنة الله تعالى والوعد الإلهي القرآني، الوارد في قوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح].

وهنا نستطيع أن نقرر أن "نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى يثرب! فلم تكن الهجرة تخلصا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاوننا عاما على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

(١) يمكن أن ندرج ما كانت تحطط له قريش في الأسباب الجانبية للهجرة إلى المدينة.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، ح ٦٩٨٢.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ ح ٢٤٧٩.

أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصيله ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة -بعد الهجرة إليها- نكوصاً عن تكاليف الحق، وعن نصر الله ورسوله فالحياة بها دين، لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها^(١).

خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً، وهي أحب بلاد الله إليه؛ لأن بها الكعبة البيت الحرام، ولأنها مهبط الوحي، ولأن بها العشيرة وذوي القربى، "ولأن بها مآثر إبراهيم، ولكنه انتقل مع كل هذا إلى المدينة، وما كان ذلك إلا لأنه بأمر ربه أنشأ دولة، ولأنه ما جاء لرهبانية أو روحانية مجردة، أو لتهديب النفوس فقط، بل بعث رحمة للعالمين، ولا بد من أن تقوم دولة تقيم الحق، وتخفض الباطل، وتمنع الظلم، وتجمع الإنسانية، وتنشر التعاون بين الناس، وتمحو كل الفوارق التي تجعل بعض بني الإنسان يتحكم في الآخر، وتمنع الفساد في الأرض"^(٢).

ولذلك أمر النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة لبناء المجتمع الإسلامي الأخوي يقوم على الأخوة والإيثار وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى، وتأسيس دولة تحفظ هذا الكيان وتسوس أموره وتخدم الدعوة الإسلامية وتيسر سبلها.

ومن ثم، فإن النبي ﷺ لم يغفل سنن الله في رقي المجتمعات؛ ولذلك فإن أول عمل قام به سيدنا رسول الله ﷺ لما وصل إلى المدينة المنورة بناء المجتمع العمراني الأخوي ودولته الإسلامية -بعد بناء الإنسان في مكة- على دعائم أربع: - بعد الإيذان بالله ورسوله - بناء المسجد روح الإسلام وعاصمته، ثم الصحيفة التي تم بموجبها تنظيم المجتمع الإسلامي داخلياً مع جميع طوائفه، وخارجياً في حماية هذا المجتمع من كل اعتداء، ثم الإخاء بين المهاجرين والأنصار، ثم تشكيل الجيش الإسلامي لحماية الدعوة وما تم اكتسابه، وتحقيق أهدافه الأخوية الدعوية المنشودة.

وبمعنى آخر فإن الإسلام دين ودولة؛ والإسلام "عقيدة إلهية تنبثق منها شريعة، يقوم على مبادئ هذه الشريعة نظام اجتماعي كامل وفاضل، يحقق سعادة البشر جميعاً في الدنيا والآخرة. تلك حقيقة لا ينكرها إلا مكابر يجهل حقيقة الإسلام، أو متعصب أعمى التعصب -ضد الإسلام- بصره وبصيرته"^(٣).

(١) فقه السيرة للغزالي، ص ١٦٣.

(٢) خاتم النبيين ﷺ، ٢/٦٤٥.

(٣) بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي قراءة ورؤية جديدة، عبد الشافي محمد عبد اللطيف،

هذا، ومن المعلوم أن بناء دولة الإسلام "حجة قائمة بذاتها على الذين يزعمون أن الدين علاقة بين العبد وربّه، وأنه مقصور على المساجد والكنائس والصوامع لأنه لو كان الدين كذلك ما هاجر النبي ﷺ، ولا رضى البقاء في مكة، واكتفى أن يطلب من المشركين أن يتركوه وما يعبد، وأن يتركهم وما يعبدون، ولعلمهم كانوا يرتضون بذلك، وخصوصاً أنهم كانوا يعلمون فيه الأخلاق الفاضلة والصدق وشرف المحتد، والنسب الرفيع.

ولكن النبي ﷺ كانت رسالته أبعد من ذلك أثراً، وأعم من ذلك عملاً، وإنا نقول مقالة الذين يقولون: الدين علاقة بين العبد وربّه، ولكننا نعمم العلاقة بين العبد وربّه، فنجعلها عامة شاملة، وليست خاصة، بالصلاة والصوم، إنما علاقة العبد بربه تقتضي الرحمة بعباده، والعدل بينهم أي كان جنسهم، وأي كان لوهم^(١).

وإن كل الأعمال التي يبتغي بها المسلم وجه الله تعالى - إقامة العدل والرفق بالناس وإزاحة الظلم عنهم والقضاء على الترف والتبذير وتنظيم شؤونهم. - وفيها الخير والنفع للجماعة فهي عبادة.

وعلى ضوء ما سبق فلا يمكن أن نفصل بين الدين وباقي لوازمه من إقامة الدولة الإسلامية ومطالب الشريعة الإسلامية من عدل وشورى ووحدة الأمة وغير ذلك.

ومن ثم فإن بناء الدولة الإسلامية مباشرة بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة^(٢) فيه الكثير من الدروس؛ فلا بد للدعوة من كيان يحميها ويذود عنها، ويخدمها، حتى تؤتي أكلها، وتحقق أهدافها وغاياتها. ولذلك لما وقع ذلك الفصام النكد بين الدعوة والدولة كانت النتيجة ما نراه اليوم، تسيب الدولة واختناق الدعوة، وانحلال المجتمعات الإسلامية، وفساد الأخلاق، لأن الدعوة مضطهدة ومحاصرة، والدولة تخلت عن وظيفتها في خدمة الدعوة، بل الأشد والأنكى أصبحت الدولة عقبة في طريق الدعوة وضدها.

لنتحدث بتفصيل عن تلك الدعائم الكبرى التي بُني على ذلك الكيان الإسلامي الجديد وفق سنة التدرج:

دار السلام، القاهرة، ط ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص ١٦٤.

(١) خاتم النبيين ﷺ، ٢/٦٤٧.

(٢) كان وصوله ﷺ إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١/٣١١.

أ- بناء المسجد:

بناء مسجد المدينة مركز التجمع والتآلف هو أول خطوة قام بها سيدنا رسول الله ﷺ بعد تأسيسه مسجد قباء وهو أول مسجد أسس على التقوى^(١)، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتره من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه صلوات ربي وسلامه عليه.

ومن بيت الله المسجد تنطلق الفضائل الحميدة، وتتوحد الجهود وترفع الهمم وتشحذ الذمم. قبله واحدة، وصف واحد، وقرآن واحد، ورسول واحد، وإرادة متعاونة على الخير والبر، ومسؤولية مشتركة. خمس صلوات تجمع الأرواح والأشباح خطبة جمعة، ونظام يهتم بمصير الأمة كلها، وسريان دعوة الإسلام من الأقرب إلى الأقرب.

في المسجد تعقد ألوية القتال وراياته، ومن روحانيته يكتسب المسلم قوة وعزما ومضيا في الطريق.

ذلك، علاوة على أن "التنظيم الإداري والسياسي في الدولة الإسلامية بدأ عقب وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ حيث بنى مسجده الشريف. ولم تقتصر وظيفة المسجد على كونه مكانا لأداء الصلاة فحسب، بل كان المسجد: مجمعا للشورى، ومقرا للقيادة السياسية، ونزلا لاستقبال وفود القبائل إلى رسول الله ﷺ، ومحكمة للقضاء بين المتخاصمين بما أنزل الله عز وجل، ومركزا للإنعاش الاقتصادي"^(٢).

ومن المسجد كانت تخرج كتائب الجهاد، والرسائل إلى الملوك والأمراء، وتحل مشاكل المجتمع، وتعقد الألوية والرايات، وباختصار شديد "ففي هذا المسجد اتخذت أعظم القرارات التي غيرت وجه التاريخ، وبدلت مصائر العالم، ومنه خرجت شعلة النور التي أضاءت جنبات الأرض، فلا غرو إذن إذا اعتبرت بناء مسجد المدينة من أهم ركائز الدولة الإسلامية"^(٣).

(١) مسجد قباء: هو أول مسجد صلى النبي ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظهرا، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة. ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ (التوبة: من الآية ١٠٨) فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء هذا هو ظاهر الآية. فتح الباري، ٧/ ٢٨٠.

(٢) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ٣٠٨، باختصار.

(٣) بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ص ١٦٧.



صورة مسجد قباء



صورة مسجد المدينة

ب- الإخاء بين المهاجرين والأنصار:

لقد جاء الإسلام بمبادئ راقية جعلت بين المسلمين روحا من التعاطف والمودة والتعاون بصفتهم كيانا واحدا، وجماعة واحدة، في مواجهة الوثنية ودعوة الناس إلى دين الرحمة والمحبة.

قال مؤرخ السيرة الشيخ محمد بن إسحاق رحمته الله: "وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: تأخوا في الله أخوين أخوين"^(١).

تلك الأخوة لم تكن لفظة تلو كها الألسن بل جعلها النبي صلى الله عليه وسلم أخوة حقة وعقدا نافذا، أخوة عملية ترتبط فيها الدماء والأموال، وتمتدح المواساة والمؤانسة بالمحبة والأخوة الصادقة.

"والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع لا يمكن أن يصح إخاء، أو ترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادئ رضية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التأخي الوثيق في ذات الله"^(٢).

فالغاية السامية التي اجتمعوا عليها وظلال المحبة التي تفيأوا ظلها نميا فيهم خلال الفضل وخصال الكرم والوفاء، فلم تتسرب إليهم الرذائل ولا ضن النفوس وشحها.

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إنسانا كاملا، "تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه، وداروا في فلكه، رجالا يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء.

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده، ولا يتكلف استخراجه بالآلات والأثقال، والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثر والشح والضعفة.

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين، لأنهم ارتقوا -بالإسلام- في نواحي حياتهم كلها، فكانوا عباد الله إخوانا، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض"^(٣).

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٧١. أنساب الأشراف، ١/ ٢٧٠. البداية والنهاية، ٢/ ٢٣٣. الروض الأنف، ٣٥٠/٢.

(٢) فقه السيرة للغزالي، ص ١٩٢-١٩٤.

(٣) فقه السيرة للغزالي، ص ١٩٢-١٩٤.

يقول الله جل في علاه: ﴿...هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بَصَرَهُ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال]، ويقول جلت عظمته: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَابِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح].

لقد امتاز الأنصار ﷺ بالحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين المستضعفين، وبالبدل والإيثار والمحبة والصفاء، كما امتاز المهاجرون بالتقدير الكامل لهذه الحفاوة وقدرها حق قدرها، فلم يستغلوها ولم ينالوا منها إلا بقدر ما يقيم أودهم.

"وحنفاً فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسةً حكيمة، وحلاً رشيداً لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون، والتي أشرنا إليها"^(١).

لقد بلغت المحبة بين المهاجرين والأنصار إلى أقصى درجاتها فتقاسموا المال والعمل، ومدح الله عز وجل الأنصار بأنهم ﴿...يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر].

هذه المحبة لم تكن تائهة في فيافي الدنيا وقفارها وأودية الغفلة ومفاوزها وإنما كانت اللحمة الجامعة لأعضاء المجتمع المسلم تزوده بطاقة هائلة تخلع الجبال من أماكنها.

ت- معاهدة المدينة:

بعدما قام سيدنا رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين قام بعقد معاهدة (وثيقة) أزاح بها ما كان بينهم من نعرات في الجاهلية، وما كانوا عليه من أحقاد وحمية الجاهلية، واستطاع بفضلها إيجاد مجتمع إسلامي موحد. وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس،

(١) الرحيق المختوم، ص ١٦٧. نبأ عظيم إلى جميع البشرية وإنك لعلی خلق عظيم؛ الرسول محمد ﷺ، إعداد وإشراف: صفی الرحمن المباركفوري، شارك في إعداده نخبة من العلماء والباحثين، شركة كندا للإعلام والنشر، القاهرة، ط ١/١٤٢٧هـ، ١/١٤٤١هـ.

(...) وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل^(٢)، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة^(٣) ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيدهم عليه جميعهم، ولو كان ولد أحدهم؛ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم؛ وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

(...) وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه؛ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن؛ (...)، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بها في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل؛ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، (...) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(٤) إلا نفسه وأهل بيته، (...) وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، ولا ينحجز على ثأر جرح، (...) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأتهم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

(١) قال ابن هشام: المفرح المثقل بالدين والكثير العيال.

قال الشاعر: إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة* وتحمل أخرى أفرحتك الودائع. الروض الأنف، ٢/٣٤٨.

(٢) عقل: العقل وهو الدية. الروض الأنف، ٢/٣٤٨.

(٣) دَسِيعَةٌ ظَلَمٌ: أي دَفْعًا ظَلَمٌ. غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١/١٩٨٥، كتاب الدال، باب الدال مع السين، ١/٣٣٦.

(٤) أوتغ: أهلكه، ووتغ وتغاً: هلك. أساس البلاغة، حرف الواو، مادة: وتغ، ص ٨٨٩.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، (...) وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، (...) وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره؛ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم؛ وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ" (١).

فالصحيفة أو الوثيقة تم بموجبها تنظيم العلاقات في هذا المجتمع الإسلامي الجديد سواء بين مكوناته أو بين من انضوى تحته وخاصة من كان بالمدينة من اليهود.

لقد وضعت الصحيفة المبادئ الأساسية لهذا المجتمع؛ باعتبار المسلمين أمة واحدة، بعضهم أولياء بعض، يتعاونون بينهم ويتحابون ويتراحمون، واضعين التُّعرات القبلية وحمية الجاهلية تحت أقدامهم، لا فرق بين أسود وأبيض ولا بين عربي وعجمي إلا بالتقوى.

كما بينت الصحيفة حقيقة الحرية معرضة عن التعصب. حتى ولو مع اليهود الذين أعطت لهم حقوقهم كاملة، كحق الجوار ما التزموا ببنود الصحيفة.

إن الصحيفة في عباراتها الواضحة ونصوصها العادلة تناولت المعاهدة على نصر المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة. ووافق يهود المدينة على نصوصها فيما يتعلق بعلاقة المسلمين مع غيرهم، خاصة في الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدوا، والخروج من المدينة لمن يبتغي تركها، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها. لكن هل كانت الأمة الملعونة في القرآن من اليهود صادقة في اتفاقها مع المسلمين على هذا العهد؟! هذا سؤال تجيب عنه غزوة بني قينقاع^(٢) وقريظة، وإجلاء يهود بني النضير وطردهم خير.

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٦٨-٣٧٠.

(٢) قينقاع: اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة، أضيف إليهم سوق كانت بها، ويقال سوق بني قينقاع وهم من موالي الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول، وكان عددهم قليلا وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، وكانت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة عداوة قديمة في الجاهلية سببها اشتراكهم مع الخزرج يوم بعثت. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ٢٠٧.

إن النبي ﷺ مد يده إلى أولئك اليهود مصافحا، وتحمل من الأذى ما لا تستطيع الجبال الشم أن تتحملة، لكنه كان مسامحا، لكن لما أجمعوا على التنكيل والدرس والمكر والقضاء على دين الإسلام حصدتهم سنة الله التي لا تحابي أحدا، وهذا ما سنقص أخباره في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب إن شاء الله.

هذا، ومن المعلوم أن تلك الصحيفة بينت لنا القمة التي وصل إليها المجتمع الإسلامي في السياسة والاجتماع، حيث ضم طوائف مختلفة جمعها الإسلام، وهذا لم تصل إليه المجتمعات التي تعتبر نفسها اليوم في أعلى هرم الحضارة والازدهار.

ث- تشكيل الجيش الإسلامي:

كان الصحابة رضوا الله عنهم قد مارس القتال في الجاهلية وأتقن حمل السلاح واستخدامه، ويتضح هذا جليا في قول الأنصار رضوا الله عنهم لما بايعوا النبي ﷺ: "فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كبرا (عن كابر)"^(١)، فلما نزلت الآيات التي تآذن لهم بالقتال قام النبي ﷺ بتنمية هذه القدرات وتدريبها حتى تتصدى لكل من يقف في وجه الدعوة الإسلامية، أو يعتدي على دار الإسلام، فكان تشكيل الجيش الإسلامي الذي تم توجيهه على أسلوبيين موازيين: التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

فالتوجيه المعنوي: بترغيبهم في الجهاد، ورفع همهم لنيل الدرجات العلى في مقعد الصديق عند الله تعالى التي أعدها للمجاهدين في سبيله.

أما فيما يتعلق بالتدريب العملي فيدخل فيه إتقان استعمال أنواع الأسلحة، كالرمح والسيوف والمنجنيق ومناورة ظهور الخيل، وتعلم القتال في البر والبحر. كما اعتمد في هذا الأسلوب كل طاقات المجتمع المسلم القادرة على البذل نساء ورجالا شبابا وشيوخا.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: "بهذه الإجراءات الأربع وضع القرآن والرسول ﷺ القواعد الأولى لدولة الإسلام في المدينة، وأخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوما بعد يوم، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع وإنما وفق نفس الأسلوب الذي كانت الآيات المكية تنزل فيه لكي تبني العقيدة في أذهان ونفوس الإنسان والجماعة المسلمة، وهو أسلوب يرتبط ارتباطا عضويا حيويا بالواقع

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٢٠.

الحركي والتجربة الحية المعاشة، ومن ثم تحيء معطياته أشد التصاقاً بحركة المسلمين ونمو دولتهم، وأكثر التحاماً بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعيش، وأعمق فهماً وإدراكاً لمتطلباتها وأبعادها القانونية والسلوكية، نظراً لما اكتبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم" (١).

ويلاحظ مما تقدم الأسس المتينة التي قامت عليها دولة الإسلام الأولى. كان سيدنا رسول الله ﷺ رسولاً ونبياً ينزل عليه الوحي من لدن حكيم خبير، وفي نفس الوقت كان قائداً مجاهداً ومشرفاً على إدارة شؤون المجتمع الإسلامي الجديد، وعلى هديه ومنهجه النبوي سار خلفاؤه من بعده في تدبير شؤون مجتمع الإسلام ودولته.

بهذه الحكمة وبهذه الخذاقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد المجتمع الجديد والدولة الجديدة على هدي سنن الله الاجتماعية وفي ضوئها؛ لذلك كانت صورة ذلك المجتمع الجديد ناصعة البياض، تركت بصماتها على صفحات التاريخ الإسلامي.

تلك إذن، هي الصورة الظاهرة بيانا وآثاراً للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأماجد بفضل صحبة النبي ﷺ الذي كان يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتزكية النفوس، والحض على مكارم الأخلاق، والآداب الإسلامية والمحبة والمودة والأخوة، والتعاون على البر والتقوى.

وخلاصة القول: إن سنة التدرج في الدعوة الإسلامية كانت عبر مراحل:

الدعوة سرا استمرت ثلاث سنوات بعد المبعث.

الدعوة جهراً وباللسان فقط، استمرت إلى هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

الدعوة جهراً مع قتال من وقف في طريق الدعوة الإسلامية أو المعتدي على حرمتها، أو على حرمة دار الإسلام والسلام والمسلمين، أو من نكث العهود والمواثيق التي أبرمها مع المسلمين. وعلى هذه المرحلة استقر الشرع الإسلامي وقامت عليها أحكام الجهاد القتالي في الإسلام. وسيأتي الحديث عن هذه المرحلة ضمن الفصول التي أتحدث فيها عن سنن الله في الجهاد القتالي، سواء في مواجهة النبي ﷺ لمكائد كفار قريش أم اليهود أم الروم أم باقي المعتدين من القبائل العربية.

(١) دراسة في السيرة، ص ١٣٥.

المبحث السادس

التدرج في تربية النفوس وتزكيتها

إن مراعاة التدرج كانت سمة لازمة للتربية النبوية للصحابة في مكة والمدينة، لأن تربية النفس الأمانة بالسوء وغسلها وتزكيتها وتطهيرها حتى يزول ما علق بها من شرك وجبروت وآفات ليس بالخطب الهين، كما أن ما تجذرت عليه من مألوفاتها لا يمكن إزالتها في وقت وجيز، بل الأمر يحتاج إلى تدرج ومراحل عديدة.

فالتدرج لازم لتربية النفوس؛ إذ هو سنة من سنن الله في خلقه التي يجب مراعاتها والأخذ بها، فكما بدأت الدعوة النبوية - كما رأينا في المبحث السابق - بالتدرج عبر مراحل فكذاك التربية والدعوة جزء منها، وهذا في غاية الأهمية؛ إذ لا يمكن أن نتصور تغييرا بين عشية وضحاها، فلو كان الأمر كذلك لكان سيد الوجود أولى به، وقد أخذ بسنة التدرج في كل أنواع الجهاد، من تربية ودعوة وقتال في سبيل الله وبناء المجتمع الإسلامي. لأن التربية عليها مدار كل شيء؛ إذ لا يمكن أن نتصور جهادا بدون تربية.

هذا فضلا على أن التربية تقوم بمعالجة أشخاص لهم ماض، وبيئة اجتماعية مفتونة، واستعدادات. هذه المعالجة تريد من المربي أو المصحوب أن يتدرج في التربية، وتريد منه حلما كثيرا وتؤدة، وصبرا طويلا، وتنوعا في الوسائل والأساليب، حتى تنضج الثمرة، ويشتد عود الغرس.

والله جل في علاه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق الإنسان عبر أطوار نطفة فعلقة فمضغة، وكذلك الحيوانات والأشجار والنباتات، ونزول الغيث. وكذلك نزول القرآن بالتدرج، وهو سبحانه تعالى وتقدس قادر على أن يقول لشيء كن فيكون، ومع ذلك كان الخلق في تدرج لينبها إلى أهمية هذه السنة الإلهية في الحياة، فالأمة المستخلفة في الأرض والمبشرة بالخير والمتطلعة إلى التمكين والظهور في الأرض لا بد لها أن تسلك سبيل التدرج في كل شيء.

ويبدو أن استيعاب هذه السنة الإلهية يعين على حل الكثير من المشاكل، واقتحام العقبات الكؤودة.

ولذلك مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما في مكة، وعشر سنوات في المدينة يربي أصحابه على الإيمان والمحبة والبذل والتؤدة والجهاد. مراعيًا سنة التدرج، وسنة الله في تغيير ما بالأنفس، فتدرجت التربية من صحبة النبي ﷺ، إلى الإيمان بكل أركانه، وذكر الله وعبادته، إلى اختبار الصدق والإخلاص بالابتلاء، إلى البذل والسخاء، إلى ربط العلم بالعمل، إلى التميز عن المشركين ومفارقتهم، إلى الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، إلى تجديد قصد ومضاء في الطريق، إلى اكتمال الرجولة والجهاد والموت في سبيل الله، وسأفصل هنا في أهم أسس التربية:

أ- محبة النبي ﷺ:

لقد عمد النبي ﷺ "إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غنأها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاق إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائننا وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جمادا فتحول جسما ناميا وإنسانا متصرفا. وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائدا بصيرا يقود الأمم" (١)؛ ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

وعليه، فإن الخطوة الأولى في التربية هي المحبة في الله، هي المهيح إلى النصر والتمكين، والفوز المبين في الدنيا والآخرة، بهذا تربي الصحابة ﷺ في حضانة الصحبة النبوية في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة، وفي مسجد المدينة بعد الهجرة، يسقيهم زلال محبة الله تعالى، ومحبة بعضهم بعضا، ومحبة الموت في سبيل الله، فبالصحبة يبرأ العليل ويشفى الغليل ويبدأ التغيير.

وهذا ومن المعلوم أن "النصوص وحدها لا تصنع شيئا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلا، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكا.

ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالا لا أن يلقي مواعظ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطبا، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة. أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو علي الحسن الندوي، دار الجيل بيروت، ط/ د. ت، ص ١٥٥-

القرآن الكريم، وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون"^(١).

فلما انطلق هؤلاء الرجال الأفذاذ بتلك القوة الروحانية العالية التي أمدتهم بها الصحبة النبوية رأى الناس فيهم خلقا جديدا ورجالا كالجبال لم تعهد البشرية مثلهم.

ولقد انتصر الإسلام يوم صاغ رسول الله ﷺ من فكرة الإسلام رجالا، "وحول إيمانهم بالإسلام عملا، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً. ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف القلوب"^(٢).

إن الصحابة ﷺ لم ينشأوا تنشئة عفوية على بذل الغالي والنفيس في سبيل الله، إنما تشربوا من معين الصحبة النبوية، وارتووا من نبعها، فكانوا رجالا تهاهم ملوك الدنيا وقيصرتها.

إنهم فازوا بخير الدنيا والآخرة.

إن الصحابة ﷺ ما كانوا رحماء بينهم متحابين متصافين متآخين إلا بفيض صحبتهم للمصحوب الأعظم ﷺ ومحبتهم له، لقد أحبوه ﷺ محبة شديدة، وتشربوا من معينه الصافي، فأفاض الله عليهم من بركة محبته ما صيرهم إلى أن يفتدوه بالمهج، فكانت أخلاقهم قرآنية، وتربيتهم قرآنية، ومعاملتهم للناس قرآنية، ومعاشرتهم لأهلهم قرآنية، وتربيتهم لأولادهم قرآنية، ومواقفهم قرآنية، فجميعاً، فما بلغوا ما بلغوا إليه إلا بالمحبة والصحبة وبها سموا صحابة.

لم تكن محبتهم للرسول الكريم ﷺ وصحبته له "عاطفة تؤكل بالمظاهرات والقسم، إنما كانت يقينا يسيطر على الأفئدة فيترجم في العمل إثارا وبذلا وتعرضا للأذى والموت وهجرة المال والولد، في ظروف قاسية تكالب فيه أعداء الإسلام على النبي وصحبه واشتدت الأزمات وقل النصير. لذلك كانت أعمالهم أفضل الأعمال وكانوا أفضل الأجيال"^(٣).

فبالمحبة والصحبة "بدأ بناء الجماعة المسلمة القوية محبة مركزة على شخص رسول الله ﷺ خالطت القلوب بشاشتها وحولت غلظة الأعراب رحمة ورقة، والمحبة دفعت المحبين من

(١) دراسات إسلامية، سيد قطب، ص ٢٧.

(٢) دراسات إسلامية، سيد قطب، ص ٢٧.

(٣) الإسلام غدا؛ العمل الإسلامي وحركة النهاج النبوي في زمن الفتنة، ص ١٨٩.

الأصحاب للبذل والعمل والصدق في كل ذلك، والمحبة مع التصديق كشفت عن العقول البدائية حجاب الغفلة فذكروا الله وانجلت لهم لوائح الغيب حتى كانوا من أمرهم على يقين يرون الجنة والنار والملائكة بالبصيرة رؤية أقوى من رؤية العين ولا مجاز في التعبير"^(١).

إن الصحبة في الله تحمل أُنقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً وأصلها، وتحقق لهم غايات لم يكونوا بدونها حققوها، وتبوءهم مقاعد الصدق عند الباري جل ذكره لم يكونوا لولاها متبوءيها، وهي مطية القوم التي مسراهم على ظهرها إلى الحبيب الطيب، الأواه المنيب، وسيلهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم من قريب..

لا جرم أن "المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء، ووسائل الارتقاء.

إن مشاعرك ترقى عندما تسمع النغم العذب، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصبغهم جو القصة المفتعلة، فيضحكون، ويبكون، ويهدؤون ويضجون.. فما ظنك بقوم يتبعون رجلاً تكلمه السماء، ويتفجر من جوانبه الكمال، ويسكب على من حوله آيات الطهر؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام، وإذا علقت بمسالكهم شهوة نقاها فرد عليها سناءها. إن للعظماء إشعاعاً يغمر البيئة التي يظهرون فيها، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز فتنتطوي في مجاله، وتمشي في آثاره!!"^(٢).

وقد اجتمع حول رسول الله ﷺ فريق من المؤمنين المحبين الأتقياء كانوا له تلاميذة مخلصين ومحبين صادقين، فزكت بمحبتهم له وصحبتهم لجنابه نفوسهم، وتحسنت أخلاقهم، وارتفعت همهم، وشفقت طباعهم، حسنت في الناس سيرتهم، حتى أشرق على قلوبهم من أنوار الإلهام الرباني -بفضل تلك المحبة- ما جعلها تنطق بالحكمة والسداد وفصل الخطاب.

"ولا تحسبن العقل الجبار -مهما أوتي من نفاذ- يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة؛ فإذا لم تسدده عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدي طريقاً، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينيه الضباب، إنه يحكم القيادة، ويضبط الآلات،

(١) الإسلام غدا، ص ١٩٣.

(٢) فقه السيرة للغزالي، ص ٢٠٠.

ويرسل أنوار مصابيحها في أحشاء الغيوم المتركمة. فإذا لم يتلق إرشادا يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط.. فإنه سيظل يخلق عبثاً.. ثم تهوي به الريح في مكان سحيق^(١).

وكان الصحابة ﷺ من أجل محبة ربهم -عز وجل- ومحبة نبيهم الكريم ومصحوبهم العظيم ﷺ، "يقاتلون الإخوة والآباء المشركين، وكانوا يترسون عليه في الحرب بأجسادهم، تقع السهام في نحورهم دونة ﷺ. وكانت محبة لا تستر وكانت محبة شخص ماثل. ولو لم يكن هو رسول الله ووليه ونبيه لكانت هذه المحبة أشبه أن تكون وثنية. لكنها كانت محبة صديقين لمن جاء بالصدق. والوثنية الزعامية في عصرنا ادعاءات للمحبة ومظاهرات كاذبة جوفاء ككل الطقوس الوثنية"^(٢).

لا جرم أن علاقة الصحابة ﷺ بالنبي ﷺ كانت «علاقة ملازمة ومصاحبة. طابعها التأسّي والاقتران به في القول والعمل، ومتابعة في السراء والضراء، والمنشط والمكروه واليسر والعسر»^(٣).

بفضل تلك الصحبة النبوية انتقلوا من التركيب الاجتماعي الجاهلي الذي يوالي الفرقة والعصبية إلى عمران أخوي ومجتمع إسلامي، إلى بناء عضوي روحه المحبة وعموده الفقري وهيكله الطاعة لله تعالى ولرسول الأمين ﷺ.

علاوة على أن الصحبة في الله تطوي المراحل للسالك إلى الله، وتعرفه بكنه العبودية لله تعالى.. فإن استغنى عنها أضحى فيئاً ينتهب، وهدفا يرمى من قبل شياطين الإنس والجن، حتى تهوي به الأهواء في غياهب الظلمات ودهاليز الفتن، فيغرق في أوحال الغفلة عن الله وعن ذكره جل وعلا.

تالله لقد فاز صحابة رسول الله ﷺ ومن سار على نهجهم واهتدى بهديهم بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم معية مصحوبهم ومحبوبهم أوفر نصيباً، وأقرب مقاما، وأعظم منزلة، وقد قضى ربنا جل في علاه يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، ومن أحب قوماً حُشر في زميرتهم، فيا لها من سعادة أبدية، ونعمة خالدة، ومنة ربانية ونعمة إلهية.

(١) فقه السيرة للغزالي، ص ٢٠٠.

(٢) الإسلام غدا، ص ١٩٧.

(٣) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ١٥٣.

ب- تصحيح العقيدة:

لقد عني القرآن المكي أولاً بإصلاح العقيدة، وذلك ببيان مقتضيات توحيد الله ﷻ، وتوحيد الأسماء والصفات، لأن المسلمين كانوا حديثي عهد بالجاهلية، لذلك فمن البعثة إلى هجرة سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة والآيات تنزل لتصلح العقيدة وتخلصها مما علق بها من شوائب الجاهلية، حتى تتمكن القلوب من التوحيد الصحيح لله تعالى، وتطهر النفوس من أدران الوثنية والجاهلية.

ومن ثم، فإن أول عمل بدأ به ﷺ في تربية الوافدين والداخلين في الدين الجديد هو تغيير النفس البشرية وما لصق بها من معتقدات وأفكار وتصورات. وتربيتها على التوحيد الخالص لله رب العالمين بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالك كل شيء ومدبره، ومحيط بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء صغيراً كان أم كبيراً، ومنزه عن النقائص، وموصوف بالكمال، ومصدر كل خير ونعمة في هذا الوجود، وأنه يحصي أعمال بني الإنسان بواسطة كرام كاتبين حفظة، وأنه سبحانه ينصر من نصر دينه وتمسك بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وأنه ﷻ يبتي عباده المؤمنين بالبأساء والضراء ليختبر صدقهم وثباتهم، وأن الجنة حق والنار حق والبعث حق والحساب حق.. وأن الدنيا إلى زوال، وأن الآخرة هي دار الخلد. فتطهر الصحابة ﷺ - بركة الصحبة النبوية - من كل شائبة تخالف التوحيد، وثبتوا أقدامهم في أرض الإيمان.

تربوا رضوان الله عليهم على كلمة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلا الله، "هذه الشهادة نقلة بعيدة ومعلماً فاصلاً بين حياتين لا رابطة بينهما: حياة الكفر، وحياة الإيمان، وما يستلزمه ذلك من فرائض وتعبادات ومشقات أعظم وأكبر من فريضة الصلاة والزكاة ونحوها"^(١).

ولهذا، فإن توحيد الله تعالى هو الغاية التي خُلق من أجلها الإنسان، وهو الحقيقة الكبرى لهذا الكون، لذلك "لم يكن من الصدفة أن يقضي رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يحدث الناس عن قضية العقيدة، ويربي أصحابه على تجريد التوحيد، (...) ورسخ في قلوبهم المعرفة الحققة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له، والطاعة المطلقة له، وعدم التقديم بين يديه، والرضا والتسليم بقضائه"^(٢).

(١) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ٢٦.

(٢) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ٣٣.

هكذا ترسخت العقيدة الصحيحة الصافية في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، وآتت ثمارها المباركة اليانعة في هذا الجانب؛ فكان احتكامهم إلى الله، واستعانتهم به، وطاعتهم له، واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحبوا الله، وأعطوا الله، ومنعوا الله، وسعوا إلى مرضاة الله، إلى غير ذلك من المعاني السامية والأخلاق الفاضلة، والقيم الحميدة، التي قررها القرآن الكريم والسنة النبوية في العهد المكي.

وبعد تربيتهم على هذا التوحيد الخالص انتقلت إلى أمور عقديّة أخرى، كالإيمان بالملائكة والرسول واليوم الآخر والحساب والجزاء والبعث والنشور، والقرآن ينزل في كل مرحلة يبين مقتضياتها والمطلوب فيها.

وهكذا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم "يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدهم في ذنهم ما لهم عند الله، وما دورهم ورسالتهم في الأرض. وتأثرا بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم، وما في طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كسل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع في مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة"^(١).

تلك إذن، هي العقيدة الصحيحة التي تربي عليها الصحابة الكرام رضي الله عنهم في حضن الصحبة النبوية، والجماعة المؤمنة طوال ثلاثة عشر عامًا في مكة، فكانت نتائجها باهرة، وشجرتها طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وبعد تصحيح العقيدة قام النبي صلى الله عليه وسلم بتربية أصحابه رضي الله عنهم على ذكر الله تعالى والإقبال عليه، فزكى أرواحهم بأنواع العبادات والطاعات، كالتهليل والتسبيح والتحميد، وقيام الليل، والصلاة -فرائض ونوافل- وتلاوة القرآن، ومجالس الإيمان، والتأسي بأذكاره ودعوته صلى الله عليه وسلم، والدعاء بآدابه، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والتوبة والاستغفار، والخوف والرجاء، وذكر الموت، ومكارم الأخلاق، حتى تطهرت نفوسهم من أدرانها واتصلت بخالقها.

(١) تبصير المؤمنين بفقهاء النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط ١/د، ت، ص ٢٤٤.

كما قام النبي ﷺ بتربية أصحابه ﷺ على الصدق وعلى الإخلاص في القول والعمل، وعلى العلم والعمل به، وعلى تعليم الناس.. وعلى التمييز الشكلي والمضموني عن مظهر الجاهلية والضلال ومخاطر الفتنة، وعلى الاقتصاد؛ أي إقامة الوجه لله تعالى وتجديد القصد إليه والكفاية المادية والبعد عن تبذير الجاهلين.

كما تربي الصحابة ﷺ على بذل الأرواح والمهج في سبيل نصره الإسلام، والدفاع عن خير الأنام عليه أزكى الصلاة والسلام: أخرجوا من ديارهم، وتركوا أموالهم وأهلهم في سبيل الله تعالى، وكفلوا الدعوة، وأزالوا كل طاغية ومعتد وقف في طريقها، فقرروا سلطان الله في الأرض، وأقاموا العدل فيها، وحققوا المساواة للبشرية بذلك العدل، بل رفعوا كلمة الله في الأرض، ونصروا دينهم ونبيه الكريم ﷺ، فخاضوا ﷺ جميع أنواع الجهاد وولجوا جميع أبوابه.

وبفضل تلك التربية النبوية على نور سنن الله جبلت نفوسهم على الكفاف والمواساة، والإنفاق في سبيل الله. فكان الإيثار دأبهم، والأخوة رأس ما هم، اقتحموا عقبة الدنيا والعوائق النفسية من ضن وشح وتحاسد وتنافس على حطام الدنيا الفاني، فطردوا الفقر أخا الكفر، لأن الفقر والكفر متلازمان.

وهذا آتت التربية النبوية المحمدية التي خضعت لسنة التدرج أكلها في بناء رجال صدقوا في محبتهم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا تلهيهم الدنيا وزخرفها وغرورها عن الله تعالى، مما جعلهم قاعدة جهادية قوية "قادرة بعد ذلك على تحمل ضغوط الوثنية عليها في فتنها عن دينها: اضطهادا وتعذيبا، ونفيا وقتلا، وقطيعة، وتجتاز الابتلاء بصمود وروح معنوية عالية نحو تحطيم النظام الجاهلي والتمكين للنظام الإسلامي بديلا عنه" (١).

وصدق ربنا الكريم القائل في محكم التنزيل: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ [الرعد]، لما غيّر أولئك الرجال ما بأنفسهم بفضل التربية النبوية والصحبة المصطفوية؛ فخرجوا من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن البغض والحقد إلى المحبة والصدق، ومن الغفلة عن الله إلى ذكر الله والحضور مع الله، ومن ضن النفس

(١) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ٧٦.

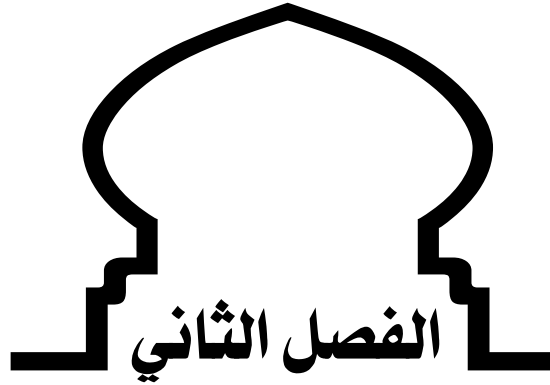
وشحها إلى البذل في سبيل الله، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن القعود والكسل واتباع الهوى إلى العمل في الكتاب والسنة، ومن الشرك إلى زُياله، ومن عادات الجاهلية إلى سمت الإسلام، ومن الغضب والاستعجال والتهور إلى التؤدة والتحمل والصبر، ومن التبذير والترف والزيغ إلى الاقتصاد وإقامة الوجه لله تعالى، ومن الأمانى المعسولة والقعود والنكوص إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ونصر دين الله ﷻ، وتبليغ رسالة دعوة الإسلام لخلق الله أجمعين.

لما غَيَّرُوا زَكَتْ نَفُوسُهُمْ وَتَطَهَّرَتْ قُلُوبُهُمْ، غَيَّرَ اللَّهُ ﷻ مَا بِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَرَفَعَ مَقَامَهُمْ فِي عَالَمِينَ، وَفَضَّلَهُمْ بِصَحْبَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِ أَزْكَى الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة] ﴿...أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١).

هذا غيض من فيض وذرة من مجرة، من حسن تربيتهم، ومن جميل محامدهم، وكريم أخلاقهم، وصور جهادهم، وصدق محبتهم.

وبإجمال؛ إن التربية النبوية للصحابة ﷻ كانت وفق هدي سنن الله في خلقه، ويكفيها أنها كانت خاضعة لسنة الله في التدرج في تزكية النفوس وتغييرها، كما خضعت لسنن أخرى لها أهمية كبيرة في بناء المجتمع الإسلامي الراقى الذي تشرَّب إليه الأعناق، ولها أهمية في النصر والتمكين، والفوز المبين في الدارين، كأهمية الصحة في صناعة الرجال العظماء، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في تلقي التربية ولم الجهود وتوحيد الكلمة، وأهمية الإيمان والعقيدة السليمة في تنزل البركات، وأهمية العلم والمعرفة في الحفاظ على كيان الأمة وازدهار العمران البشري.

(١) سورة الأنعام: ٩٠.



سنة الله في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم
لمكائد كفار قريتين والروم
وقبائل العرب

تمهيد

لقد أسلفت في الفصل الأول الحديث عن سنن الله في الجهاد النبوي بمكة، وفصلت في كل ذلك، وتتبع الآيات القرآنية التي نزلت عقب كل حدث حتى اهتديت إلى تلك السنن التي استنبطتها منها، أما عن سنن الله في الجهاد النبوي في الفترة المدنية (بعد الهجرة إلى المدينة وبناء الدولة الإسلامية) فهو يختص بالفصل الثاني والثالث المعني باستنباط واستخراج ما تبقى من سنن الله في جهاد رسول الله ﷺ.

ومن خلال الدراسة للمرحلة المدنية تم استنباط مجموعة من السنن لها أهميتها في انتشال الأمة من براثن الأزمات، وإخراجها من تلك الكهوف المظلمة التي ضلت فيها.

وكان أهم ما وقفت عليه في المرحلة المدنية أهمية التربية الإيمانية والجهاد في سبيل الله في تحقيق النصر والتمكين والظهور في الأرض، وأن الأمة الإسلامية لما تحلقت عن هذه التربية والجهاد وأقبلت على زخرف الدنيا وغرورها غافلة عن الخطر المحدق بها ضاع وجودها وكيانها فتمكن العدو منها، واستباح حماها، واستعمر أرضها، ومزق جسدها؛ إذ ليس الجهاد أمراً مرتجلاً، ولا إمساكاً بالسيف فقط، وإنما هو تربية من المهد إلى اللحد وولوج لأبواب الجهاد كلها من جهاد النفس مرورا بجهاد المال وانتهاء بباقي أبواب الجهاد.

فمع وقفة تأملية مع السنن المستنبطة والمستخرجة من العهد المدني وذلك بعد بناء دولة الإسلام بالمدينة المنورة.

المبحث الأول

تنازع الحق والباطل

ما جعل الله ﷻ الحياة بين الناس دولا متداولة بين هؤلاء وأولئك؛ إلا ليكشف لنا عن كونه سبحانه وتعالى الله الواحد القهار: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٦٥﴾ [ص].

والواحد القهار هو الذي لا ثاني له، من هنا نستنتج بأن كل قهار مقهور ولو بعد حين؛ لنخلص كيف تتحطم العناية بالقوة والاعتزاز بها، وتهدم نظرية قانون الغاب؛ لنلمس بأن للكون خالقا وهو الله الواحد القهار ليس في قانونه ظلم ولا عبثية.

وتشير هذه الحقائق بأن المرؤوس قد يضحى رئيسا والرئيس مرؤوسا، وهو ما تقرره السنن الإلهية في وعده سبحانه وتعالى: ﴿وَرُبِّدْ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [القصص].

وبعد هذا التمهيد أنتقل إلى التفصيل في هذه السنة مع ذكر السنن التي لها علاقة وطيدة بها انطلاقا من الجهاد النبوي بعد الهجرة إلى المدينة؛ فيلى البيان:

١- التدافع بين الناس:

سنة التدافع بين الحق والباطل هي من سنن الله في هذه الحياة والتي سنها سبحانه لتحكم سائر الأمم والمجتمعات وتصطبغ بها كل مظاهر الحياة الإنسانية والحيوانية، الفردية والجماعية، حتى يكون البقاء فيها للأصلح. ولئن أكد الله سبحانه وتعالى هذه الحقائق على لسان سيدنا موسى ﷺ: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأعراف] فقد أكدها لنا فيما جاءنا من المثاني: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [هود].

وإذا كانت العاقبة للمتقين كما أكدتها الآيتان السابقتان فما السبيل إلى بلوغ موعودها، حتى وإن أشارت الآيتان السالفتان إلى الصبر؟ وهذا ستأتي الإجابة عنه في ثنايا الحديث عن سنة التدافع.

وعليه؛ فبدون سنة التدافع تفسد الأرض ويسود التدهور في المجتمع؛ لذلك كان التدافع من أسباب استمرار الحياة على الوجه الصحيح؛ فإذا ما ثبت أهل الحق والخير وتحملوا الأذى في سبيل الله وصبروا وصابروا وتحقق لهم حينئذ وعد الله بالنصر والتمكين، وإزهاق الباطل وسحقه، واندحار أهله.

ولذلك فإن عدم استيعاب هذه السنة في التدافع وأثرها الفاعل في الحياة يحدث في النفس البشرية الاعتقاد بالجبر والإرجاء وتعطيل الطاقات، وتثبيط الهمم.

ولقد مضت سنة الله بتدافع الحق والباطل لقوله جل وعلا: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة]، وأن الغلبة والنصر تكون وفقا لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا الصراع والتدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل، أو الخير والشر.

ومن ثمرات السير على المنهاج المستقيم والتمسك بالحق المبين والقيام بمتطلباته أن يحصل أتباع الحق على عون الله وتأييده، ولكن يبقى التدافع والصراع يجريان وفقا لسنن الله فيهما، وفي النهاية فالجانب الجامع لكل معاني القوة اللازمة والإعداد التام هو الغالب. "فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصابة المؤمنة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفة على ما قدمه أولئك المؤمنون من قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسبابا للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه.. " (١).

ولهذا فإن المطلوب في هذا التدافع والصراع أن نفقهه ونتعامل معه على ضوء سنن الله المطردة التي خطها لنا أنبياء الله ورسله.

وهنا لا بد من القول بأن الباطل قد يخنس ويستكين؛ لكنه لا يموت نهائيا لكونه عامل صراع وتدافع، كما قد تكون لأهل الباطل جولة في غياب أهل الحق أو ضعفهم.

(١) المستفاد من القصص القرآني، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١/١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، ٢/١٣٢.

والحاصل وجود فريقين إما ظاهر بالحق لله قائم لا يخاف لومة لائم، وإما حصيد حصده عجلة التاريخ؛ لتستقر الحياة وتستمر إلى أجلها المقدر، ويمكن ما ينفع الناس في الأرض؛ إذ البقاء دائماً للأصلح، والزبد تحمله الوديان ويذهب جفاء.

وعلى ضوء ما سبق، فإن هذه السنة الإلهية نجدها في كل الغزوات والسرايا النبوية، فغزوة بدر الكبرى مثلاً كان من أسبابها "وجود حق وباطل يتمثل في معسكريه، حق أتى به محمد ﷺ من ربه يدعوهم إليه وترك ما عداه، وباطل يتمسك به قريش من عادات الآباء وتقاليدهم، فلا بد من الصراع الطويل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل"^(١).

وفي غزوة السويق^(٢) كانت سنة التدافع بين الحق والباطل حاضرة؛ فقد نذر أبو سفيان بعد بدر "أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه حتى جاء المدينة ليلاً واجتمع بسلام بن مشكم سيد النصير فعلم منه خبر الناس، ثم خرج في ليلته فبعث رجلاً من قريش إلى المدينة فأتوا العريض فحرقوا في نخلها وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له، واسم الأنصاري معبد بن عمرو وعادوا، ورأى أن قد بر في يمينه. وجاء الصريخ، فركب رسول الله ﷺ وأصحابه فأعجزهم، وكان أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب السويق"^(٣) يتخفون منها للنجاة، وكان ذلك عامة زادهم، فلذلك سميت غزوة السويق"^(٤).

فكانت نتيجة هذه الغزوة إرهاب المشركين، وإشعارهم بيقظة أهل الإيمان، وحذرهم من ألا يؤخذوا على غرة.

وكان من نتيجة هذه الغزوة أيضاً أن علم أهل الشرك أن طريق تجارتهم غير مأمون، "وأنه يتربص بهم الدوائر، فازدادوا خوفاً على الخوف الذي ولدته الهزيمة، وأحسوا بذلك

(١) مرويات غزوة بدر، أحمد محمد العلمي باوزير، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط ١/١٤٠٠ هـ ص ٩٠.

(٢) كانت في ذي الحجة بعد بدر بشهرين. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للبيهقي، ١٦٤/٣. طبقات ابن سعد، ٢/٣٠.

(٣) السَّوِيق: ما يُتَّخَذُ مِنَ الحِنْطَةِ والشَّعِيرِ. لسان العرب، مادة: سوق.

(٤) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٢/١٤٠. سيرة ابن هشام، ٣/٥. جوامع السيرة، ص ٩٢. تاريخ الطبري، ٢/٥٢. أنساب الأشراف، ١/٢١٠. الروض الأنف، ٣/٢٢٠. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٩٨-٩٩. كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ)، حققه وقدم له وعلق عليه: محمد أبو الأحناف وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة-بيروت، المكتبة العتيقة-تونس، ط ١/١٤٠٤ هـ-١٩٨٢ م، ص ٢٧٥.

أن الإسلام صار قوة للحق لا ينال منه بغرة، وإذا كانوا قد قتلوا اثنين في حرثها فما كان ذلك منالا لأبطال"^(١).

أما غزوة الخندق، فلم يكن الباعث إلا خصومة اليهود للإسلام وحقدهم على المؤمنين، وإشفاقهم من امتداد الفتح الإسلامي، وبسط نفوذه في ربوع الأرض، مما تتوارى معه الظلال اليهودية، وتنطفئ شمعتهم، ويضمحل سلطانهم، مما ينقض عقيدتهم في أنهم "شعب الله المختار".

ولهذا حزبوا الأحزاب على المسلمين، وأضرمو نيران العداوة، وأوقدوا نار الحرب، ففضلوا الشرك على التوحيد الذي يدعو إليه الإسلام، ليضربوا الإسلام وليقوضوا أركانه.

وقس على ذلك باقي الغزوات - وقد بلغت سبعا وعشرين غزوة عند إمام أهل السير محمد بن إسحاق رضي الله عنه - التي وقع فيها القتال تسع غزوات: بدر الكبرى وأحد والخندق (الأحزاب) وبنو قريظة وبنو المصطلق^(٢) (المريسيع) وخيبر والفتح الأعظم لمكة المكرمة وحنين^(٣) والطائف.

والتي لم يقع فيها قتال هي باقي الغزوات^(٤): كغزوة ودان^(٥) وهي غزوة الأبواء^(٦)

(١) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ٢/٨٠٩.

(٢) ١- بنو المصطلق: وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة، فجذيمة هو المصطلق وهو مفتعل من الصلّق، وهو رفع الصوت. الروض الأنف، ٤/١٣. عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، لابن سيد الناس، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط ٣/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ٢/١٣٣.

(٣) حنين: هو واد قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا. معجم ما استعجم، ٢/٤٧١. مراصد الاطلاع، كتاب الحاء ١/٤٣٢. معجم البلدان، باب الحاء والنون حرف الحاء ٢/٣١٣.

(٤) من الغزوات التي لم يقع فيها القتال أستنبط سنة أخرى من سنن الله تعالى الوارد ذكرها في قوله سبحانه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ...﴾ [الفتح]، وقوله جل ذكره وعز ثناؤه: ﴿...وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

(٥) ودان: موضع بين مكة والمدينة قرية جامعة من نواحي الفرع، بينها وبين هرشى ستة أميال، وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال قريبة من الجحفة، وهي لضمرة وغفار وكنانة. معجم البلدان، باب الواو والبدال وما يليهما، حرف الواو، ٥/٣٦٥.

(٦) غزوة ودان هي أول غزواته صلى الله عليه وسلم. قال ابن إسحاق: حتى بلغ ودان، وهي غزوة الأبواء، يريد قريشا وبنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فوادعته فيها بنو ضمرة، وكان الذي وادعه منهم عليهم نخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم في زمانه ذلك. ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلق =

وهي أول غزواته ﷺ. قال الإمام ابن سعد ﷺ: "وكانت في صفر على رأس اثني عشر شهرا من مهاجره، وحمل لواء حمزة بن عبد المطلب، وكان لواء أبيض واستخلف على المدينة سعد بن عباد، وخرج في المهاجرين وليس فيهم أنصار"^(١).

وغزوة بواط^(٢): وكانت "في شهر ربيع الأول يريد قريشا"^(٣)، قال الإمام ابن سعد -ﷺ: "على رأس ثلاثة عشر شهرا من مهاجره، وحمل لواء سعد بن أبي وقاص، وكان لواء أبيض وخرج في مائتين من أصحابه يعترض لغير قريش"^(٤).

وغزوة العشيبة^(٥): قال الإمام ابن سعد -ﷺ: "وكانت ذا العشيبة"^(٦) في جمادى

= كيدا، فأقام بها بقية صفر وصدرا من شهر ربيع الأول. قال ابن هشام: وهي أول غزوة غزاها. سيرة ابن هشام، ٥/٣-٦. طبقات ابن سعد، ٨/٢. جوامع السيرة، ص ٥٩-٦٠. السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد بن محمد بن شعبة، محمد بن محمد بن شعبة، دار القلم، دمشق، ط ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ١١٧/٢. تاريخ الطبري، ١٤/٢. أنساب الأشراف، ١/٢٨٧. جيش النبي ﷺ، محمود شيت خطاب، ص ٥٤. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٦٢. تاريخ ابن خلدون، المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م)، دار ابن حزم، بيروت، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ١/٨١٨. عيون الأثر، لابن سيد الناس (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت)، ١/٢٧٠.

(١) طبقات ابن سعد، ٨/٢.

(٢) قال ابن هشام: واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون. قال ابن إسحاق: حتى بلغ بواط، من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

وبواط: هي جبال من جبال جهينة من ناحية رضوى، وهي من ذي خشب مما يلي طريق الشام، وبين بواط والمدينة نحو من أربعة برد. سيرة ابن هشام، ٢/٤٤٥. جوامع السيرة، ص ٦٠. السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد بن محمد بن شعبة، ١١٧/٢. تاريخ الطبري، ١٤/٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، يوسف بن عبد البر النمري (٣٦٨-٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، د، ص ٦٤. أنساب الأشراف، ١/٢٨٧. معجم ما استعجم، ١/٢٨٣.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢/٤٤٥.

(٤) الطبقات، ٨/٩.

(٥) العشيبة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع. مراصد الاطلاع، ٢/٩٤٣. معجم البلدان، باب العين والشين حرف العين ٤/١٢٧.

(٦) قال ابن هشام: ثم غزا قريشا، فاستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد فيما قال ابن هشام. فأقام بها جمادى الأولى وليال من جمادى الآخرة ودعا فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدا. سيرة ابن هشام، ٢/٤٤٥-٤٤٦. جوامع السيرة، ص ٦٠-٦١. السيرة=

الآخرة على رأس ستة عشر شهرا من مهاجره، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواء أبيض، وخرج في خمسين ومائة، ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب ولم يكره أحدا على الخروج"^(١).

وغزوة بحران: معدن بالحجاز^(٢)، "لست خلون من جمادى الأولى على رأس سبعة وعشرين شهرا من مهاجره، وبحران بناحية الفرع وبين الفرع والمدينة ثمانية برد، وذلك أنه بلغه أن بها جمعا من بني سليم كثيرا، فخرج في ثلاثمائة رجل من أصحابه (...). وأخذ السير حتى ورد بحران فوجدهم قد تفرقوا في مياهم، فرجع ولم يلق كيدا، وكانت غيبته عشر ليال"^(٣).

وغزوة بدر الآخرة أو الموعد^(٤): وكانت هذه الغزوة "في شعبان سنة أربع"^(٥) خرج النبي ﷺ "في ألف وخمسمائة"^(٦).

-
- =النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد بن محمد بن شهبة، ١١٨/٢. تاريخ الطبري، ١٤/٢-١٥. أنساب الأشراف، ١/٢٨٧. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٦٤.
- (١) طبقات ابن سعد، ١٠/٢.
- (٢) ثم غزا رسول الله ﷺ يريد قريشا، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فيما قال ابن هشام. قال ابن إسحاق: حتى بلغ بحران معدنا بالحجاز من ناحية الفرع، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا. سيرة ابن هشام، ٧/٣. جوامع السيرة، ص ٩٢. التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ استراتيجية الرسول السياسية والعسكرية، علي معطي، مؤسسة المعارف، بيروت، ط ١/١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص ٢٨٠. تاريخ ابن خلدون، ١/٨٢٣.
- (٣) طبقات ابن سعد، ٣٥/٢.
- (٤) قال ابن إسحاق: ثم خرج في شعبان إلى بدر، لمعاد أبي سفيان حتى نزل. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الأنصاري.
- قال ابن إسحاق: فأقام عليه ثمان ليال ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة، من ناحية الظهران؛ وبعض الناس يقول قد بلغ عسفان، ثم بدله في الرجوع فقال يا معشر قريش: إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جذب فساهم أهل مكة جيش السويق، يقولون إنما خرجتم تشربون السويق. سيرة ابن هشام، ٣/١٤٩.
- جوامع السيرة، ص ١١١. تاريخ الطبري، ١٠٣/٢-١٠٤. أنساب الأشراف، ١/٣٣٩. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٩٩.
- (٥) طبقات ابن سعد، ٥٩/٢.
- (٦) الروض الأنف، ٣/٤١٠.

هذا، إضافة إلى السرايا النبوية التي تفاوتت واختلفت أهدافها ومهاتها حسب الظروف والأهداف المحيطة والحادثة، والتي تندرج جميعا ضمن سنة التدافع بين أهل النور وأهل الظلمة، والإيمان والكفر، والحق والباطل؛ فكانت تلك السرايا في البداية عبارة عن دوريات استكشافية واستطلاعية وجس نبض العدو، ثم تطورت إلى سرايا اعتراضية ترهب العدو وتوقع الرعب والفرع في قوافل قريش، ومحاصرتها اقتصاديا، وذلك قبل غزوة بدر الكبرى.

وبعد المعركة الفاصلة في غزوة بدر الكبرى قويت شوكة المسلمين، وأصبحت مهمة بعض السرايا والبعوث تنصب في تصفية المندسين في صفوف المسلمين من أعداء الدولة الإسلامية الذين كانوا يدسون الدسائس، ويضرمون نيران العداوة والحرب بين المسلمين وأعدائهم ويجرّسونهم عليهم.

لكن عندما انقلبت الأمور الارتياضية^(١) لغير صالح المسلمين بعد معركة أُحُد طمع الأعراب في خيرات المدينة واستهانوا بالمسلمين؛ غيرَ النبي ﷺ تبعاً لذلك ارتيادته العسكرية، فانتقلت تلك السرايا والبعوث من قريش إلى الأعراب لتأديبهم وإرهابهم، بطريقة صارمة وذلك بمهاجمة الأعراب قبل تحشدهم وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين. أذكر من هذه السرايا التي استنبطت منها سنة الله في تدافع -أو صراع- الحق والباطل:

- سرية عبيدة بن الحارث^(٢) ﷺ إلى بطن رابع^(٣): وهي "أول راية عقدها رسول الله

(١) الارتياضية: الاستراتيجية.

(٢) هو: عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبى أسلم قديما وكان رأس بني عبد مناف حينئذ مع أن العباس وإخوته كانوا في التعداد أقرب، وكان مع النبي ﷺ بمكة ثم هاجر وشهد بدرا وبارز فيها مع حمزة وعلي عتبة وربيعة والوليد، وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ عقد لعبيدة بن الحارث راية وأرسله في سرية قبل وقعة بدر فكانت أول راية عقدت في الإسلام، وأما الواقدي فذكر أن أول لواء عقده رسول الله ﷺ كان لحمزة، قلت ويمكن الجمع على رأي من يغير بين الراية واللواء والله أعلم. الإصابة، ترجمة رقم: ٥٣٧٩.

(٣) قال ابن سعد: في شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ،... (في ستين رجلا من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، فلقي أبا سفيان بن حرب، وهو في مائتين من أصحابه، وهو على ماء يقال له أحياء من بطن رابع على عشرة أميال من الجحفة. طبقات ابن سعد، ٧/٢.

ﷺ، ولم يكن فيها قتال" (١)، إلا أن "سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمي به في الإسلام" (٢).

- سرية سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى الخَرَّار (٣): في "ذي القعدة على رأس تسعة أشهر في عشرين من المهاجرين، يعترضون عيرا القريش، ولم يلق كيدا" (٤).

- سرية حمزة بن عبد المطلب (٥) ﷺ إلى سيف البحر من نَاحِيَةِ الْعَيْصِ (٦): هذه السرية لم يكن فيها قتال، وكانت "في شهر رمضان على رأس سبعة عشر شهرا من مهاجره" (٧).

- سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَةِ: من مياه نجد لملاقاة قريش فأصاب فيها العير وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ (٨)، "وكانت لهلال جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهرا من مهاجر رسول الله ﷺ، وهي أول سرية خرج فيها زيد أميراً" (٩).

- سرية عبد الله بن أنيس ﷺ (١٠) إلى سفیان بن خالد بن نبیح الهذلي بعُرنة (١١): خرج عبد الله بن أنيس ﷺ من المدينة "يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا من مهاجر رسول الله ﷺ، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن سفیان بن خالد الهذلي ثم اللحياني وكان ينزل عُرنة وما والاها في ناس من قومه وغيرهم، قد جمع الجموع لرسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ، عبد الله بن أنيس ليقتله فقال: صفه لي يا رسول

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٤٤٠. البداية والنهاية، ٢/ ٢٤١.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٤٤٠.

(٣) الخرار: وهو موضع بالحجاز يقال: هو قرب الجُحفة، وقيل واد من أودية المدينة وقيل ماء بالمدينة وقيل موضع بخيبر. معجم البلدان، باب الخاء والراء وما يليها، حرف الخاء.

(٤) زاد المعاد، ٢/ ١١٧.

(٥) سيرة ابن هشام، ٢/ ٤٤٣. البداية والنهاية، ٢/ ٢٤١.

(٦) العيص: وهو موضع في بلاد بني سُليم به ماء يقال له دَبْنان العيص. معجم البلدان، باب العين والياء وما يليها، حرف العين.

(٧) زاد المعاد، ٢/ ١٦٦.

(٨) سيرة ابن هشام، ٣/ ٩.

(٩) طبقات ابن سعد، ٢/ ٣٦.

(١٠) هو: عبد الله بن أنيس الجهني أبو يحيى المدني حليف بني سلمة من الأنصار، وكان أحد من يكسر أصنام بني سلمة من الأنصار، مات بالشام سنة أربع وخمسين، شهد العقبة وما بعدها، الإصابة، ترجمة رقم: ٤٥٥٣، ٤/ ١٥.

(١١) عُرنة: من أودية مكة المكرمة. تاريخ مكة المكرمة قديما وحديثا، محمد إلياس عبد الغني، ص ١٢٠.

- سرية سعد بن زيد رضي الله عنه ^(١)^(٢) إلى العرنيين ^(٣):

وكانت "في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله" ^(٤)، وكان "قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من عرينة وكانوا مجهودين" ^(٥) مضرورين قد كادوا يهلكون فأنزلهم عنده، وسألوه أن ينجيهم من المدينة فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى لقاح ^(٦) له بفيفاء ^(٧) الخَبَار ^(٨) من وراء الجماء ^(٩) فيها مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى يسارا فقتلوه ثم مثلوا به ^(١٠)، واستاقوا لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم فأدركوا فوق المنقى ^(١١) فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هو: سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الأنصاري الأشهلي ذكره موسى ابن عقبة وابن إسحاق وغيرهما فيمن شهد بدرًا وقال الواقدي شهد العقبة. الإصابة، ترجمة رقم: ٣١٦٠، ٣/٦١.

(٢) وفي سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد أن أميرهم كرز بن جابر الفهري. سيرة ابن هشام، ٤/٣٩٣. طبقات ابن سعد، ٢/٩٣.

(٣) العرنيون: عرينة بطن من بجيلة، وقال أبو زياد: جيلة هضبة طولها مسيرة يوم وعرضها مسيرة نصف يوم وليس فيها طريق إلا طريقان فطريق من قبل مطلع الشمس وهو أسفل الوادي الذي يجيء من جيلة وبه ماء لعرينة يقال لها سلعة وعرينة حي من بجيلة حلفاء في بني كلاب وطريق آخر من قبل مغرب الشمس يسمى الخليف وليس إلى جيلة طريق غير هذين. معجم البلدان، باب الجيم والباء وما يليها، حرف الجيم.

(٤) طبقات ابن سعد، ٢/٩٣.

(٥) وكانوا مجهودين: جُهدَ الرجل فهو مجهود من المشقة يقال أصابهم قحوط من المطر فجهدوا جَهْدًا شديدًا وجاهد عيشهم بالكسر أي نكد واشتد. لسان العرب، مادة: جهد.

(٦) اللقاح: الإبل بأعيانها الواحدة لقوح وهي الحلوب. لسان العرب، مادة: لقح.

(٧) فيفاء: المفازة التي لا ماء فيها من الاستواء والسعة فإذا أنت فهي الفيفاء وجمعها الفيافي. الفيء من الأرض مختلف الرياح وقيل: الفيفاء الصحراء المساء، وقد أضيف إلى عدة مواضع منها فيفاء الخبار. معجم البلدان، باب الفاء والهاء وما يليها، حرف الفاء.

(٨) الخَبَار: موضع قريب من المدينة وكان عليه طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج يريد قريشاً قبل وقعة بدر والخبار في كلامهم الأرض الرخوة ذات الحجارة وهو فيفاء الخبار ويقال: فيفاء الخبار. معجم البلدان، باب الخاء والباء وما يليها، حرف الخاء. معجم البلدان، باب الجيم والميم وما يليها، حرف الجيم.

(٩) والجماء: جبل من المدينة على ثلاثة أميال من ناحية العقيق إلى الجرف، والجماء: جبل بالمدينة سميت بذلك لأن هناك جبلين هي أقصرهما فكأنها جماءً.

(١٠) قال ابن سعد: فقتلوه ثم مثلوا به. معجم البلدان، باب الميم وما يليها، حرف الميم. طبقات ابن سعد، ٢/٩٣.

(١١) المنقى: بالضم وتشديد القاف من نقيت الشيء فهو منقى أي خالص: طريق للعرب إلى الشام كان في الجاهلية يسكنه أهل تهامة. والمنقى بين أحد والمدينة. معجم البلدان، باب الميم والميم وما يليها، حرف الميم.

فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت^(١) أعينهم^(٢).

- سرية ابن أبي العوجاء^(٣) ﷺ: وكانت "في ذي الحجة سنة سبع في خمسين رجلا"^(٤)؛ بعثهم رسول الله ﷺ "إلى أرض بني سليم فقتل هو وأصحابه [ﷺ]"^(٥).

- سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى ذات السلاسل: وهي "وراء وادي القرى"^(٦) وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت في جمادي الآخرة سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعا من قضاة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعه ثلاثون فرسا، (...) فسار الليل وكمن النهار فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا فبعث رافع بن مكيث الجهني^(٧) إلى رسول الله ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يخلتا، (...) حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعا فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا، ثم قفل وبعث عوف بن مالك الأشجعي^(٨) بريدا إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم وما كان في

(١) سملت: سَمَلُ الْعَيْنِ فَنَقُوها يقال: سَمَلْتُ عَيْنَهُ تُسْمَلُ إِذَا فُتِنَتْ بِحَدِيدَةٍ مُخْمَاةٍ. لسان العرب، مادة: سمل.

(٢) مغازي ابن عقبة، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) هو: الأخرم بن أبي العوجاء السلمي ويحتمل أن يكون هو محرز بن فضلة. الإصابة، ترجمة رقم: ٣٧/١، ٥٨.

(٤) طبقات ابن سعد، ٤/ ٢٧٥.

(٥) مغازي ابن عقبة، ص ٢٦٢.

(٦) وادي القرى: وهو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، والنسبة إليه وادي. معجم البلدان، لياقوت الحموي، حرف الواو، باب الواو والألف وما يليها، ٥/ ٣٤٤.

(٧) هو: رافع بن مكيث بن عمرو بن جراد بن يربوع بن طحيل بن عدي بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة؛ أسلم وشهد الحديبية مع رسول الله ﷺ، وبايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، ورافع بن مكيث أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جهينة الأربعة التي عقدها لهم رسول الله ﷺ، يوم فتح مكة. وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات جهينة يصدقهم، وكانت له دار بالمدينة ولجهينة مسجد بالمدينة. طبقات ابن سعد، ٤/ ٣٤٥.

(٨) هو: عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي مختلف في كنيته قيل أبو عبد الرحمن وقيل أبو محمد وقيل غير ذلك، شهد الفتح وكانت معه راية أشجع وسكن دمشق، مات سنة ثلاث وسبعين في عهد عبد الملك. الإصابة، ترجمة رقم: ٦١٠٥، ٤/ ٧٤٢.

غزاتهم" (١).

- سرية عيينة بن الحصن الفزاري (٢) إلى بني تميم، "وكانوا فيما بين السقيا" (٣) وأرض بني تميم، وذلك في المحرم سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ، (...) في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار فهجم عليهم في صحراء فدخلوا وسرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولوا وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، ووجدوا في المحلة (٤) إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً فجلبهم إلى المدينة" (٥).

- بعث خالد بن الوليد (٦) ﷺ إلى "أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل" (٧): (٨) بعث

(١) طبقات ابن سعد، ١٣١/٢. مغازي ابن عقبة، ص ٢٦٧.

(٢) هو: عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جوية بالجيم مصغراً بن لوزان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة الفزاري أبو مالك، يقال كان اسمه حذيفة فلقب عيينة لأنه كان أصابته شجة فحفظت عيناه، أسلم قبل الفتح وشهدها وشهد حنيناً والطائف، ثم كان ممن ارتد في عهد أبي بكر ومال إلى طلحة فبايعه ثم عاد إلى الإسلام وكان فيه جفاء سكان البوادي في كتاب الأم للشافعي في باب من كتاب الزكاة أن عمر قتل عيينة بن حصن على الردة، ولم أر من ذكر ذلك غيره؛ فإن كان محفوظاً فلا يذكر عيينة في الصحابة، لكن يحتمل أن يكون أمر بقتله فبادر إلى الإسلام فترك فعاش إلى خلافة عثمان والله أعلم. الإصابة، ترجمة رقم: ٦١٥٥، ٤/٧٦٧.

(٣) السقيا: قرية جامعة من عمل الفرع بينها ممالي الجحفة تسعة عشر ميلاً. معجم البلدان، باب السين والكاف وما يليهما، حرف السين.

(٤) المحلة: الموضع الذي يُحَلُّ به. معجم البلدان، باب الحاء والميم وما يليهما، حرف الحاء.

(٥) طبقات ابن سعد، ١٦٠/٢. سيرة ابن هشام، ٤/٤٧٩.

(٦) هو: خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، ويكنى أبا سليمان، وأمه عصماء وهي لبابة الصغرى بنت الحارث بن حرب بن بجير بن الهزم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة وهي أخت أم الفضل بنت الحارث أم بني العباس بن عبد المطلب. وكان خالد من فرسان قريش وأشدائهم، وشهد مع المشركين بدرًا وأحداً والخندق، ثم قذف الله في قلبه حب الإسلام لما أراد الله به الخير، أول يوم من صفر سنة ثمان، ولقبه النبي ﷺ بسيف الله، توفي ﷺ بحمص سنة إحدى وعشرين وأوصى إلى عمر بن الخطاب، ودفن في قرية على ميل من حمص. طبقات ابن سعد، ٣٩٧-٣٩٧/٧.

(٧) دومة الجندل: سميت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم؛ وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ، وسميت دومة الجندل: لأن حصنها مبني بالجندل. معجم البلدان، باب الدال والواو، حرف الدال، ٤٨٧/٢. معجم ما استعجم، ٥٦٤-٥٦٥. الإشارة إلى سيرة المصطفى ومن بعده من الخلفاء، مغلطي بن قليج، حقق نصوصها وخرجها وعلق عليها: محمد نظام الدين الفُتَيْح، دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت، ط ١/١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص ٢٤٩.

(٨) ودومة الجندل اليوم شمال المملكة العربية السعودية.

النبي ﷺ سيف الله المسلول خالد بن الوليد ؓ إلى دومة الجندل وأكد ملكهم " في أربعمئة وعشرين فارساً في رجب سنة تسع" (١)، فاستأسره خالد وأخاه، فأتى بهما النبي ﷺ فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلي سبيلهما، وكتب رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمنهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ بظفره (٢).

فكانت نتيجة تلك الغزوات والسرايا والبعوث ما ذكرت منها وما لم أذكره - اللاتي أدرجتها في سنة التدافع - : إزهاق الحق للباطل، وانتصار المؤمنين المجاهدين على الكفار والمشركين المنكرين، وحفظ الله ﷻ نبيه ﷺ من كيد الكائدين، ورفع ذكره في العالمين، وإرضائه في الأولين والآخرين، وعصمته من الناس أجمعين.

٢ - وعد الله بعصمة نبيه ﷺ من الناس:

إن حفظ الله تعالى لنبيه محمد ﷺ خاتم الرسالات السماوية وعصمته من الناس ومنعه من أن يناله الأعداء بسوء وعد من وعوده القرآنية، لقوله جل وعلا: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رَسُولَتَهُ وَاللَّهُ يَعَصُوكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ أَلَّفَ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة]، وقوله عز اسمه: ﴿... فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة]، وقد رأينا تجليات هذه السنة الإلهية لما تحدثت عن الجهاد النبوي في الفترة المكية، وأحدثت عنها هنا في حديثي عن الجهاد النبوي في الفترة المدنية، وأستنبط هذه السنة الإلهية من غزوة ذات الرقاع (٣).

(١) طبقات ابن سعد، ١٦٦/٢.

(٢) مغازي ابن عقبة، ص ٢٩٧-٢٩٨. سيرة ابن هشام، ٤٠٦/٤-٤٠٧. باختصار شديد.

(٣) ذات الرقاع: قال ابن سيد الناس: "وروي في صحيح البخاري من حديث أبي موسى، أنهم نقبت أقدامهم فلفوا عليها الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع". وقد رجح الإمام السهيلي رواية الإمام البخاري في سبب تسمية الغزوة. واختاره النووي في شرحه على مسلم.

قال ابن حجر: "هذه الغزوة اختلف فيها متى كانت، واختلف في سبب تسميتها بذلك. وقد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر، ومع ذلك فذكرها قبل خيبر فلا أدري هل تعتمد ذلك تسلياً لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها، أو أن ذلك من الرواة عنه، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسماً لغزوتين مختلفتين كما أشار إليه البيهقي، على أن أصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون في زمانها، فعند ابن إسحاق أنها بعد بني النضير وقبل الخندق سنة أربع، وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت في المحرم سنة خمس، بل الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة، لأنه تقدم أن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع فدل على تأخرها بعد الخندق، جمهور أهل المغازي على أن غزوة ذات الرقاع هي غزوة =

هذه الغزوة^(١) أصيب فيها الصحابة ﷺ بشدة، لكن "حينما تقوى الروح المعنوية تفتت جميع القوى، ويتهاوى كل شيء دونها: قوي إيمانهم، ورسخ يقينهم، واتصلوا بأعظم قوة في الوجود قوة رب العالمين، فتضاءل الوجود أمامهم، فخضدت الأشواك، وتكسرت الحجارة، وانطفأ لهيب الرمال، وتغلب الصحابة على هذه الظواهر المادية الطبيعية بأيسر الأسباب فألقوا على أقدامهم الحرق، ولفوها بها"^(٢).

في تلك الغزوة المذكورة وقعت حادثة ذلك الرجل الذي أراد قتل النبي ﷺ، يروي الإمام محمد بن إسحاق -ﷺ- عن سيدنا جابر بن عبد الله ﷺ: "أن رجلا من بني محارب يقال له غورث. قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمدا؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. قال: فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيف رسول الله ﷺ في حجره، فقال: يا محمد أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم - وكان محلي بفضة فيها قال: ابن هشام - قال: فأخذه فاستله ثم جعل يهزه ويهم فيكيبته الله ثم قال: يا محمد أما تخافني؟ قال: لا، وما أخاف منك؟ قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يمنعني (الله) منك. ثم عمد إلى سيف رسول الله

=محارب كما جزم به ابن إسحاق، هكذا استدل به -البخاري-، وقد ساق حديث أبي موسى بعد قليل، وهو استدلال صحيح، وسيأتي الدليل على أن أبا موسى إنما قدم من الحبشة بعد فتح خيبر في "باب غزوة خيبر" ففيه في حديث طويل "قال أبو موسى: فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر" وإذا كان كذلك ثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، ولزم أنها كانت بعد خيبر. وعجبت من ابن سيد الناس كيف قال: جعل البخاري حديث أبي موسى هذا حجة في أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر، قال: وليس في خبر أبي موسى ما يدل على شيء من ذلك انتهى. وهذا النفي مردود والدلالة من ذلك واضحة كما قررته. وأما شيخه الدمياطي فادعى غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه، وقد قدمت أنهم مختلفون في زمانها، فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الحديث الصحيح".

وقال البخاري: "ذات الرقاع وهي بعد خيبر، لأن أبا موسى جاء بعد خيبر". وقال ابن القيم: "غزوة ذات الرقاع بعد خيبر وأن من جعلها قبل الخندق فقد وهم وهما ظاهرا. انظر: عيون الأثر، ٧٢/٢. الروض الأنف، ٤٠١/٣. صحيح مسلم بشرح النووي، ٤١٠/٦. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذات الرقاع، ح ٤٦٩٩. فتح الباري، ٤٧٩/٧-٤٨٠. زاد المعاد، ١٥٤/٢. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع.

- (١) انظر تفاصيل أحداثها في: سيرة ابن هشام، ١٤٣/٣-١٤٨. جوامع السيرة، ص ١١٠. طبقات ابن سعد، ٦١/٢-٦٢. تاريخ ابن خلدون، ٨٢٩/١. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١١٩-١٢٠. أنساب الأشراف، ١/٣٤٠. تاريخ الطبري، ١٠٣. زاد المعاد، ١٦٥/٢.
- (٢) صور وعبر من الجهاد النبوي بالمدينة، محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص ١٧٥.

ﷺ فرده عليه، قال: فأنزل الله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ
 أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
 [المائدة] قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان^(١): أنها إنما أنزلت في عمرو بن جحاش،
 أخي بني النضير وما هم به. فالله أعلم أي ذلك كان^(٢).

ومن هذه الحادثة ندرك حفظ الله تعالى لنبية من كيد الكائدين، رغم كيد الأعداء
 الذين يتربصون به الدوائر في كل حين، فإنهم لن يستطيعوا إلى التخلص منه سبيلا.

فهذه الحماية الإلهية لنبية الكريم ﷺ كما رأينا في تلك الحادثة، "لهي أبلغ علامة على
 أن الله رعاه وحماه لمكانته العظيمة عنده، وليؤدي المهمة الجليلة التي أوكلها الله إليه مما ثبت
 صدق نبوته. لقد عصم الله رسوله وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده. فقد أنجز الله له
 وعده الذي وعد ﴿...وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ [المائدة] فأقام لذوي البصائر دليلا
 آخر على نبوته بتحقيق إخباره عن ضمان سلامته. ومن أصدق من الله حديثا..!!^(٣).

ولذلك كلما حاول الكفار المنكرون محاولة اغتيال النبي ﷺ، إلا وكانت نتيجتها الفشل
 الذريع والخيبة والحرمان، وردهم الله على أذبارهم خاسرين مدحورين لم ينالوا خيرا.

٣- خسارة الكفر في حربه للإسلام:

إن الكفار خاسرون في حرب الإسلام، فمهما كادوا للإسلام فلن يستطيعوا أن
 ينالوا منه شيئا، وهذه سنة من سنن الله الكونية، وخير نموذج لهذه السنة الربانية ما وقع
 يوم الأحزاب؛ يقول الله تعالى في وصف أحداث هذه الغزوة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا
 نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
 ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ
 بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب]. إلى قوله: ﴿وَرَدَّ

(١) هو: يزيد بن رومان الأسدي، أبو روح، مولى آل الزبير بين العوام: عالم بالمغازي، ثقة. من أهل المدينة
 ووفاته بها سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٧م)، حديثه في الكتب الستة. الأعلام للزركلي، ٨/ ١٨٢. وفيات
 الأعيان، ترجمة رقم: ٨١٥، ٦/ ٢٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ١٤٦. تاريخ الطبري، ١٠٢. البداية والنهاية، ٢/ ٤٤٢.

(٣) نبوة محمد ﷺ في القرآن، حسن ضياء الدين عتر، دار النصر، حلب، ط ١/ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م،
 ص ٢٨٦.

اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمِنَ الْإِنْسَانِ خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِبَا صِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب].

نلمح من الآيات السابقة أن غزوة الأحزاب من أهم الغزوات التي واجهها رسول الله ﷺ وأصحابه معه، فقد الغزوات السابقة يواجه فيها المشركين فرادى، أما في هذه الغزوة فقد اجتمع عليه أهل الكفر والشرك والنفاق، لذا سميت هذه الغزوة بغزوة الأحزاب.

إنها من أخطر المعارك وأحسمها في تاريخ الإسلام؛ "إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة، أو جبل ممدود، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه، لهوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق، ممزق الأعضاء، ممزق الأشلاء! ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجذيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرق ليلاً أو نهراً"^(١).

إن سبب غزوة الأحزاب يرجع تأليب اليهود لأهل الكفر والشرك على الإسلام؛ فقد قام نفر من اليهود، منهم سلام بن مشكم، وابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضريون، وهوذة بن قيس، وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير، ومن بني وائل، في تحزيب الأحزاب على رسول الله ﷺ؛ حيث "خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة يدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ، قالوا: إنا نكون معكم حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود! إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله فيهم قوله: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّوْا هَدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ ﴿٥١﴾ [النساء] إلى قوله: ﴿... وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ [النساء]. فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعواهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له"^(٢).

(١) فقه السيرة للغزالي، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) عيون الأثر (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي)، ٧٧/٢. مغازي ابن عقبة، ص ٢١٤-٢١٥. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٢١. أنساب الأشراف، ١/٣٤٣.

وبعدما حرضوهم وأججوا أحقادهم خرجوا حتى جاءوا قبيلة غطفان من قيس عيلان، فحرضوهم على قتال النبي ﷺ، "وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه. فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحرث بن عوف المري في بني مرة، ومسعود بن رخيلة فيمن تابعه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، وبما أجمعوا له من الأمر، ضرب على المدينة الخندق فعمل رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه، فدأب ودأبوا^(١).

ثم قفل رسول الله ﷺ إلى أصحابه المجاهدين وهم في هم وبلاء يخافون أشد من يوم أُحُد، فقالوا: "حين رأوا رسول الله ﷺ مقبلاً: ما وراءك يا رسول الله؟ قال: خير فأبشروا، ثم تقنع بثوبه فاضطجع ومكث طويلاً، واشتد عليهم البلاء والخوف حين رأوا رسول الله ﷺ اضطجع، وعرفوا أنه لم يأتهم من بني قريظة خير، ثم إنه رفع رأسه فقال: أبشروا بفتح الله ونصر، فلما أصبحوا دنا القوم بعضهم إلى بعض فكان بينهم رمي بالنبل والحجارة"^(٢).

قال الإمام محمد بن إسحاق رحمته: "كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس"^(٣)، "وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق أمامهم"^(٤).

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الظروف القاسية كان اليهود يخططون ويدسون الدسائس ليستأصلوا جذور المسلمين ويقضوا عليهم نهائياً، فخرج "عدو الله حيي بن أخطب النضري، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي: ويحك يا كعب افتح لي؛ قال ويحك يا حيي: إنك امرؤ مشئوم وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض

(١) عيون الأثر (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي)، ٧٧/٢. مغازي ابن عقبة، ص ٢١٥-٢١٦. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٢١٦١٢١.

(٢) مغازي ابن عقبة، ص ٢١٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ١٥٣/٢.

(٤) زاد المعاد، ١٦١/٢. سيرة ابن هشام، ١٥٧/٢.

ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا؛ قال ويحك افتح لي أكلمك؛ قال: ما أنا بفاعل قال والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك^(١) فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبيحر طام^(٢) جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة؛ وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنن نغمي^(٣) إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه. قال: فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبيجهام^(٤) قد هراق ماؤه فهو يردد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب^(٥) حتى سمح له على أن أعطاه عهدا (من الله) وميثاقا: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ^(٦).

فلما وصل الخبر إلى المسلمين، عظم عند ذلك الخطب، واشتد الأمر، وأتاهم أعداؤهم من كل حذب وصوب، ومن فوقهم ومن أسفل منهم، وتربصوا بهم الدوائر، حتى ظن المؤمنون الظنوننا، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأخرجوا ما وارته صدورهم أيام السلم. فما كان من سيدنا رسول الله ﷺ وهو المؤيد بالوحي إلا أن يحاول مفاوضة غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ويرجعوا إلى حال سبيلهم محاولة منه التخفيف من الشدة والخوف الذي أصاب المسلمين، فكتب الكتاب ولم يبق إلا الإشهاد، - لكن قدر الله تعالى

(١) الجشيشة: جشَّ الحَبَّ يَجْشُّه جَشًّا وَأَجَشَّه دَقَّه وَقِيلَ طَحَنَهُ طَحْنًا غَلِيظًا جَرِيشًا. لسان العرب، مادة: جشش.

(٢) طام: طَمَّ المَاءُ يَطْمُو طُطْمًا وَيَطْمِي طُطْمِيًّا ارْتَفَعَ وَعَلَا وَمَلَأَ النَهْرُ فَهُوَ طَامٌ وَكَذَلِكَ إِذَا امْتَلَأَ الْبَحْرُ أَوْ النَّهْرُ أَوْ الْبَيْتُ وَفِي حَدِيثِ طَهْفَةَ مَا طَمَّ الْبَحْرُ وَقَامَ تِعَارٌ أَيْ رَتَفَعَ مُوجَّهً وَتِعَارٌ اسْمُ جَبَلٍ. لسان العرب، مادة: طام.

(٣) ذنب نغمي: موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب. معجم البلدان، باب النون والقاف وما يليها، حرف النون.

(٤) الجهَامُ الْجَهَامُ: السحاب الذي فرغ ماؤه. لسان العرب، مادة: جهم.

(٥) يفتل في الذروة والغارب: هذا مثل وأصله في البعير، يَسْتَصْعَبُ عَلَيْكَ فَتَأْخُذُ الْقُرَادَ مِنْ ذَوْرَتِهِ وَغَارِبِ سَنَامِهِ، وَتَفْتَلُ هُنَاكَ؛ فَيَجِدُ الْبَعِيرَ لَذَّةً فَيَأْنَسُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَضْرَبَ هَذَا الْكَلَامَ مِثْلًا فِي الْمِرَاوِضَةِ وَالْمَحَاتِلَةِ. الروض الأنف، ٤٢٢/٣.

(٦) سيرة ابن هشام، ١٥٩/٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٢٣. مغازي ابن عقبة، ص ٢١٦.

الذي إذا أراد شيئاً هياً له أسبابه - جاء سيده الأوس والخزرج سيدنا سعد بن معاذ^(١) وسيدنا سعد بن عبادة^(٢) ﷺ فعارضوا الصلح.

جاء في سيرة ابن هشام: " فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه فقالا له يا رسول الله أمرنا نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: "بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب؛ فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما"؛ فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك". فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا^(٣).

إنها مواقف صاغها القدر لتكون لنا دروساً نموذجية وعبراً غالية حتى لا تجربنا الحرفية والجهل بالنفوس البشرية وبشريعة الإسلام إلى سلوك حديدي نعجز معه عن الحركة في العالم وعن التعامل السليم مع أهل الإسلام، وما كان ذلك من رسول الله ﷺ إلا لينخف مما حل بالمسلمين وهو على يقين من نصر الله له.

(١) هو: سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس الأنصاري الأشهلي سيد الأوس، وأمه كبشة بنت رافع لها صحبة، ويكنى أبا عمرو، شهد بدرًا باتفاق، ورمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة وأجيب دعوته في ذلك ثم انتقض جرحه فمات ذلك البخاري وذلك سنة خمس، الإصابة، ترجمة رقم: ٣٢٠٦، ٣/٨٤.

(٢) هو: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن حرام بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري، سيد الخزرج يكنى أبا ثابت وأبا قيس، وأمه عمرة بنت مسعود لها صحبة ومات في زمن النبي ﷺ سنة خمس، وشهد سعد العقبة، وكان أحد النقباء واختلف في شهوده بدرًا فأثبته البخاري، وكان يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي فكان يقال له الكامل وكان مشهوراً بالجلود، وخرج إلى الشام فمات بحوران سنة خمس عشرة وقيل سنة ست عشرة. الإصابة، ترجمة رقم: ٣١٧٥، ٣/٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢/١٥٩-١٦٠.

فأقام رسول الله ﷺ ومعه أصحابه على هذه الحال والمشركون متربصون بهم من كل جانب "بضعا وعشرين ليلة، قريبا من شهر، لم تكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصار"^(١). إلى أن هيا الله تعالى للمؤمنين أسباب النصر وفق سنته في النصر بعد الاستئناس؛ فخذل الله بين كفار قريش ويهود بني قريظة على "يد نعيم بن مسعود الأشجعي"^(٢) فاختلفوا، وأرسل الله عليهم ريحا عاصفة في ليل شديدة البرد فجعلت تقلب آتيتهم، وتطفئ نيرانهم، وتكفأ قدورهم، حتى أشرفوا على الهلاك. فارتحلوا متفرقين في كل وجه، لا يلوي أحد على أحد"^(٣). وكفى الله المؤمنين القتال ورد الذين كفروا بغيظهم وحتهم أذلة صاغرين مدحورين، مولين أدبارهم، حاملين معهم الفشل والخيبة، والخسران الميين.

وصدق ربنا القائل في محكم التنزيل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١﴾ [الأحزاب]: "يقول الله تعالى مخبرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بها أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين لكانت الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد، ولكن قال: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ... ۝٣٣﴾ [الأنفال]، فسلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، وردد هم خائنين خاسرين بغيظهم وحتهم، لم ينالوا خيرا لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمنم، ولا في الأخيرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالعداوة، وهمهم

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ١٥٩. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٢٦.

(٢) هو: نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن خلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع يكنى أبا سلمة الأشجعي صحابي مشهور له ذكر في البخاري أسلم ليالي الخندق وهو الذي أوقع الخلاف بين الحيين قريظة وغطفان في وقعة الخندق فخالف بعضهم بعضا ورحلوا عن المدينة، ولداه سلمة وزينب، قتل نعيم في أول خلافة علي قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل وقيل مات في خلافة عثمان والله أعلم. الإصابة، ترجمة رقم: ٨٧٨٥، ٦/ ٤٦١.

(٣) كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي (دفين الإسكندرية ٦٥٦هـ-١٢٥٨م) عن نسخة نادرة بخط الرحالة المغربي ابن بطوطة بالمدسة العزيزية بدمشق عام ٧٢٧هـ-١٣٢٧م، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط ١/ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م/ ٣٤٣. مغازي ابن عقبة، ص ٢٢٠-٢٢١.

بقتله، واستئصال جيشه، ومن هم بشيء وصدق هَمَّهُ بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله"^(١).
لقد أخذ المسلمون بقانون الأسباب في مواجهة الأحزاب الكافرة، وهكذا مضت سنة
الله أن النصر بعد الشدة والضيق، وأن المنحة مع المحنة، وكلما قرب النصر اشتد البلاء.
وهنا نجمل نتائج هذه الغزوة التي كانت فيها سنة الله في التدافع وخسارة الكفارة
في حرب الإسلام جلية وواضحة:

أهم نتائجها:

خسارة أحزاب الشيطان في حربهم على المسلمين وتفرق شملهم ورجوعهم
مدحورين بغيظهم قد خابت أمانتهم وآمالهم ومساعيهم.
انتصار المسلمين وتحقيق وعد الله لهم بالنصر، ولم يستشهد في هذه الغزوة التي
تكالبت فيها الأحزاب على الإسلام إلا ستة نفر من المسلمين.
تغير الموقف لصالح المسلمين وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: "الآن نغزوهم
ولا يغزونا"^(٢).

كشفت هذه الغزوة مكائد يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم
فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في وقت الشدة وجيوش الكفر تحيط بهم من كل جانب.
كانت غزوة الأحزاب محكا بين صدق المؤمنين المجاهدين وادعاء المنافقين الجبناء،
وخبث يهود بني قريظة.

كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، تم فيها معاينة يهود بني
قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها، طبقا لدستور المدينة
الذي وافقوا على بنوده.

وبينت هذه الغزوة سنة من سنن الله التي لا تتخلف ولا تتغير وهو جعل العاقبة
لعباده المؤمنين، والهزيمة لأعداء الدين.

(١) عمدة التفسير، ٣/ ٤٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ح ٤١١٠. والحديث عن سيدنا سُلَيْمَانَ بْنِ
صُرَدٍ رضي الله عنه.

كما بينت الحاجة الملحة في التأسي بسيدنا رسول الله ﷺ في الأوقات الحرجة، التأسي بصبره ويقينه في نصر الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب].

هذا فضلا عما تحقق فيها من سنن الله التي ردت أهل الكفر على أعقابهم ناكسين خاسرين؛ أذكر منها مثل:

أ - تثبيت الله لعباده المؤمنين المجاهدين عند الشدائد: قال الحق جل وعلا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم]، فكما ثبتت عبادة المجاهدين يوم بدر ثبت كذلك عبادة المجاهدين الصادقين يوم الأحزاب وفق سنته تعالى في تثبيت المؤمنين الصادقين المجاهدين عند الشدائد.

وعليه؛ فرغم ذلك العدد الهائل الذي جمع كل المناوئين والمعادين للإسلام؛ من قريش ويهود وقبائل العرب؛ إذ جاءهم كفار قريش وغطفان من فوق، ويهود بني قريظة من أسفل، وأطبقوا عليهم من كل جانب، زاغت أبصار المؤمنين وبلغت قلوبهم الحناجر من هول هذا الموقف، وظنوا بالله الظنونا، لكن سرعان ما ذهب كل ذلك، فثبتوا وقويت عزائمهم ووثقوا بنصر الله ووعدهم لهم، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقال عز وجل يصف تثبيته لأولئك الرجال الذين لما رأوا تلك الجيوش الجرارة التي ملأت عليهم كل الجوانب لم يربعوا ولم يخافوا وإنما قالوا: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق]؛ وقال جل ثناؤه وعز سلطانه في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال]؛ فكما جعل الله تعالى للمؤمنين المتقين مخرجا في غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان؛ جعل كذلك للمؤمنين المتقين مخرجا في غزوة الخندق وفق سنته الماضية بنصر المتقين وتيسير المخرج لهم عند اشتداد الأزمات.

ولذلك لما اشتدت الأزمات وبلغت القلوب الحناجر يوم الأحزاب، وفرح العدو بالفرصة الثمينة - التي طالما انتظرها وضحى في سبيلها - ليستأصل فيها جذور الدعوة الإسلامية تدخلت إرادة الله - وهي فوق كل إرادة -، فخثت آمال الأحزاب وبار مكرها،

فيسر للمؤمنين سبيل النصر بإسلام نعيم بن مسعود الأشجعي ﷺ الذي ساقته يد القدرة ليشتت الأحزاب، ويزرع الخلاف والشقاق بينها؛ ليتحقق وعد الله وسنته: (وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ﴿١﴾،... وَالَّذِينَ يَمَكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٠﴾ [فاطر].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه لما أحاطت الأحزاب بالمسلمين تريد الانقضاض عليهم وكسر شوكتهم، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا؛ في هذا الموقف العظيم يبشر النبي ﷺ أصحابه ﷺ ليس بالانتصار على الأحزاب فقط، بل بفتح بلاد الشام والمغرب واليمن والمشرق؛ قال الإمام ابن إسحاق -رضي الله عنه-: "وحدثت عن سلمان الفارسي ﷺ أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني؛ فلما رأي أني أضرب ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة؛ قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى؛ قال: ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى. قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: "أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟" قال: قلت: نعم؛ قال: "أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن؛ وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب؛ وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق" قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة ﷺ أنه كان يقول، حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك" (٢).

ففي كل ضربة يقدم سيدنا رسول الله ﷺ للمؤمنين المجاهدين بشرى بالنصر في المستقبل؛ ففي الأولى بشرهم بفتح اليمن، وفي الثانية بفتح الشام والمغرب، وفي الثالثة بفتح المشرق. جاءت هذه البشائر في وقت الشدة والضيق والحصار، والمنافقون يثبطون العزائم، ويخذلون بين المجاهدين ويدعونهم إلى ترك مواقعهم.

ب- الله ﷻ يدافع عن المؤمنين: لقد خيب الله آمال الأحزاب الذين أرادوا القضاء على الإسلام فأمكن الله منهم، وردهم مدحورين خاسرين، وهنا تحقق وعد الله في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ ﴿٣٨﴾ [الحج].

(١) سورة الأنفال.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/١٥٦-١٥٧. مغازي ابن عقبة، ٢١٥-٢١٦.

ث) الاستضعاف والاستكبار: لما استضعف الأحزاب الفئمة المؤمنة واتعدوا على حربها والقضاء عليها كانت إرادة الله فوق كل إرادة، وكانت سنته المطردة للأحزاب بالمرصاد، قال الحق جل وعلا بعدما وضعت الحرب أوزارها وانتصر المسلمون وأحبطت كل خطط الأحزاب ومكائدهم؛ يبين لنا سنته في نصر عباده المستضعفين الذين آووا إلى ركنه الشديد: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ۝٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ [الأحزاب].

٤- وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ:

إن الكفار والمنكرين ينكرون الحق، ويتمسكون بالباطل، وهم في عداوة دائمة للمؤمنين، وفي كيد مستمر لهم، وفي حرب شرسة عنيفة ضد رسالة الإسلام، فمن عداوتهم وبغضهم للمسلمين أنهم لا يحبون أن ينال المسلمون خيرا ولا عزا، وهذا من سنن الله في الدعوات، فسبحانه جل وعلا يبتلي عباده المؤمنين بالكافرين، يقول الحق جل ذكره: ﴿... وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ [البقرة].

وقد شهد المسلمون في عهد النبي ﷺ حربا واعتداء يقودها مجموعة من المعتدين من قبائل العرب ومن الروم، فواجه النبي ﷺ تلك العداوة والحرب حتى رد الله المعتدين بغيظهم لم ينالوا خيرا؛ ولنا في غزوات النبي ﷺ التي خاضها بنفسه، وسراياه التي بعث فيها أصحابه دليل على عداوة الكافرين لرسالة الإسلام والمسلمين. فإلى ثنايا تلك الغزوات والسرايا النبوية التي تظهر فيها عداوة الكفر للإسلام جليا واضحا:

- غزوة سفوان^(١): وهي بدر الأولى يطلب النبي ﷺ كرز بن جابر، قال ابن إسحاق: "ولم يقيم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه^(٢)". (حتى

(١) سفوان: واد من ناحية بدر. معجم البلدان، باب السين والفاء، حرف السين.

(٢) واستعمل على المدينة زيد بن حارثة فيما قال ابن هشام. سيرة ابن هشام، ٤٤٨/٢. جوامع السيرة، ص ٦١. أنساب الأشراف، ٢٨٧/١. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٦٤.

بلغ واديا، يقال له سفوان، من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه). (ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة"^(١)).

- غزوة بني سليم^(٢): ثم غزا ﷺ يريد بني سليم، حتى بلغ الكُدْر "ماء من مياهه، أقام عليه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدا"^(٣).

- غزوة بني لحيان من هذيل: وهم "الذين كانوا غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع"^(٤)، وتسبوا في قتلهم جميعا، قال ابن سعد رضي الله عنه: "في شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجرة"^(٥)، وقال ابن حزم رضي الله عنه ^(٦): "والصحيح أنها السنة الخامسة"^(٧)، خرج النبي ﷺ فيها "مطالباً بئراً المقتولين بالرجيع"^(٨)، فكان لا بد من تأديبهم وأخذ الثأر منهم؛ لأنهم انتهكوا الحرمات، وأزهقوا الأرواح، واعتدوا على الدعوة، فلا بد أن ينزل بهم ما يجعلهم عبرة لغيرهم، حتى لا يغدروا بالمسلمين مرة أخرى ويرتكبوا الخديعة والحيلة باسم الدخول في الإسلام.

(١) سيرة ابن هشام، ٤٤٨/٢. جوامع السيرة، ص ٦١. أنساب الأشراف، ٢٨٧/١. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٦٤.

(٢) غزوة بني سليم سهاها ابن سعد بغزوة قرقرة الكدر، ويقال قرارة الكدر، وكانت في النصف من المحرم على رأس ثلاثة وعشرين شهرا من الهجرة. طبقات ابن سعد، ٣١/٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ٥/٣. جوامع السيرة، ص ٩١. طبقات ابن سعد، ٣١/٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٩٨. سيرة ابن إسحاق، ص ٢٩٤. الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٢١٩.

(٤) الرجيع: ماء لبني لحيان من هذيل بين مكة وعسفان. الروض المعطار في خبر الأقطار، حرف الراء، ص ٢٦٧.

(٥) طبقات ابن سعد، ٧٩/٢.

(٦) هو: أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره وأحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ كانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف، فصار فقيها حافظا يستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية، وكان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه (المعروف بالمذهب الظاهري)، توفي ببادية لبلة ببلاد الأندلس سنة ٤٥٦هـ. له عدة مصنفات مفيدة، منها: المحلى بالآثار وهو كتاب في الفقه، والفصل في الملل والنحل، والإحكام، وجوامع السيرة... تذكرة الحفاظ، ١١٤٦/٣. نفع الطيب، ٣٦٤/١، وفيات الأعيان، ١/٣٤٠.

(٧) جوامع السيرة، ص ١٢٠.

(٨) طبقات ابن سعد، ٧٩/٢. تاريخ الطبري، ١٢٣-١٢٤. أنساب الأشراف، ٣٤٨/١. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٣٥-١٣٦. كتاب الجامع في السنن والآداب، ص ٢٨٣. تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، دار سعد مصر، القاهرة، ط/ رمضان ١٣٧٤هـ - مايو ١٩٥٥م ٣١٦/٢. جوامع السيرة، ص ١٢٠.

وفي هذه الغزوة لم يرجع رسول الله ﷺ بالغنائم المادية، "بل رجع بالغنيمة الكبرى، وهي نشر الدعوة، ومعرفة الذين يدعوهم وبسط سلطان الله في الأرض العربية؛ ليعمها الإسلام، ثم يكون من بعد ذلك لمن وراءها من أرض الشام وغيرها"^(١).

- غزوة غطفان: وهي غزوة ذي أمر؛ في شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرا من مهاجره، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن جمعا من بني ثعلبة ومحارب بندي أمر قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ جمعهم رجل منهم يقال له: دعثور بن الحارث من بني محارب، فندب رسول الله ﷺ، المسلمين وخرج لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول في أربعمئة وخمسين رجلا^(٢).

- غزوة دومة الجندل "في شهر ربيع الأول سنة خمس"^(٣)، وهي كذلك من الغزوات التي ظهرت فيها سنة استمرار عداوة الكافرين للمؤمنين جلية.

قال الإمام ابن سعد رضي الله عنه: "بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعا كثيرا وأنهم يظلمون من مر بهم من الضافطة^(٤) وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، (...) فندب رسول الله ﷺ الناس، (...) وخرج في ألف من المسلمين فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة يقال له مذكور، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، وإذا آثار النعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحدا فأقام بها أياما وبث السرايا وفرقها فرجعت ولم تصب منهم أحدا، وأخذ منهم رجلا فسأله رسول الله ﷺ عنهم فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم، فعرض عليه الإسلام فأسلم ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدا لعشر ليال بقين من شهر ربيع الآخر"^(٥).

(١) خاتم النبيين ﷺ، ٩٦٥-٩٦٦.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد، ٣٥/٢. جوامع السيرة، ص ٩٢. دلائل النبوة، لليبهي، ١٦٧/٣. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٩٩. كتاب الجامع في السنن والآداب، ...، ٢٧٦. سيرة ابن إسحاق، ص ٢٩٣. الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٢٢٤.

(٣) سيرة ابن هشام، ١٥٢/٣. جوامع السيرة، ص ١١١. زاد المعاد، ١٥٥/٢. تاريخ الطبري، ١٠٦/٢.

(٤) الضافطة والصفاط: الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن وكانوا يومئذ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما. لسان الرعب، مادة: ضفط.

(٥) طبقات ابن سعد، ٦٣/٢.

- غزوة بني المصطلق؛ هذه الغزوة اختلف في تاريخها؛ فإمام أهل السير محمد بن إسحاق - (رحمه الله) - يرى أنها كانت في السنة السادسة من الهجرة النبوية، وعامة المحققين^(١) يرون أنها كانت في شهر شعبان من السنة الخامسة من هجرة رسول الله ﷺ، والصحيح ما ذهب إليه عامة المحققين، والدليل على صحة قولهم حضور سيدنا سعد بن معاذ - (رضي الله عنه) - في هذه الغزوة، والمشهور عند كتاب السيرة أنه توفي في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة النبوية بجرحه من يوم الأحزاب، فكيف يتصور بقاء سيدنا سعد بن معاذ - (رضي الله عنه) - حيا بعد سنة من وفاته وقد كان حيا في غزوة بني المصطلق وله قصة في حديث الإفك الذي كان في هذه الغزوة؟

تلك الغزوة كان سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن "بني المصطلق تجمعوا له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ، فلما سمع بهم خرج إليهم فلقبهم بماء لهم يقال له المريسيع بناحية قديد، فاقتلوا، فانهزم المشركون وقتل منهم من قتل وأصيب رجل من المسلمين (...)، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا كثيرة فقسمها في المسلمين"^(٢).

وفي هذه الغزوة أستنبط سنة أخرى من سنن الله وهي: سنة الله في كبت^(٣) الكافرين وإذلالهم وردهم مدحورين خائبين في حربهم على الإسلام؛ قال الحق جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَّا كَمَا لَعَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة]^(٤)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَيَقَطَّعَ طَرَفًا مِمَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران].

- (١) كاليهقي عن عروة، وابن سيد الناس وابن كثير وغيرهم. انظر: البداية والنهاية، ٢/ ٥١٨-٥١٩.
- (٢) كتاب المغازي للواقدي، ١/ ٤٠٤. مغازي ابن عقبة، ص ٢٢٩. طبقات ابن سعد، ٢/ ٦٣.
- (٣) الكامل في التاريخ، ٢/ ١٩٢. تاريخ الطبري، ٢/ ١٣٠. سبل الهدى والرشاد، ٤ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحى الشامي (ت ٩٤٢هـ)، تحقيق: إبراهيم التريزى وعبد الكريم العزبادى، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى، جمهورية مصر العربية، ط/ ١٤١١هـ- ١٩٩٠م/ ٤٨٦. إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين أحمد بن علي المقرئى، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، ط/ ١٩٤١م، ١/ ١٩٥-١٩٦.
- (٣) كبت: الكَبْتُ الصَّرْعُ كَبْتَهُ يَكْبِتُهُ كَبْتًا، وكتبه؛ خيبه فلم يظفر، وقيل هو الصرف والإذلال. لسان العرب، مادة: كبت.
- (٤) كبتوا: أذلوا وأخزوا وأهلكوا. تفسير البغوي، ٨/ ٥٤. تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/ ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ١/ ٨٤٥.

وقد كبت الله الكفار المعتدين على عهد النبي ﷺ كما رأينا في هذه الغزوة وكما نقرأ ذلك في أسفار السير والمغازي، خاصة في غزواته ﷺ وسراياه، فكم من محاولة للقضاء على دعوة الإسلام إلا وُردت خائبة ومدحورة.

- غزوة الغابة^(١): وكانت "في شهر ربيع الأول سنة ست"^(٢)؛ هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاح رسول الله ﷺ بالغابة. وغزوة الغابة^(٣) هي أول غزوة لرسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية^(٤) وقبل غزوة خيبر. وكانت نتيجة هذه الغزوة أنهم أدركوا العدو فهزموه وقتلوا رؤساءه واستنقذوا اللقاح. وقيل بعضها ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد^(٥).
وكما تظهر عداوة الكافرين للمسلمين في الغزوات السابقة تظهر كذلك في السرايا النبوية:

- سرية بئر معونة^(٦): "بعث رسول الله ﷺ أصحاب بئر معونة في صفر على رأس

(١) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة. يبعد عن المسجد النبوي الشريف نحو ١٢ كيلو مترا، ويعرف بالخليل ومجتمع السيول لأن أودية المدينة تجتمع وتصب فيه. معجم البلدان، باب الغين والألف وما يليها، حرف الغين. تاريخ المدينة المنورة، ص ١٢٩
(٢) طبقات ابن سعد، ٢/ ٨٠.

(٣) غزوة الغابة هي ذي قرد؛ انظر أحداثها: عند الطبري وقع فيها القتال. تاريخ الطبري، ٢/ ١٢٤.
سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٠٨-٢١٠. جوامع السيرة، ص ١٢٠-١٢١. طبقات ابن سعد، ٢/ ٨٠.
أنساب الأشراف، ١/ ٣٤٨. دلائل النبوة، لليهقي، ٣/ ١٧٠-١٧١. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٣٦-١٣٧. الرحيق المختوم، ص ٣٣١.

(٤) الحديبية: هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. معجم البلدان، باب الحاء والذال حرف الحاء، ٢/ ٢٢٩.

وسميت الغزوة بالحديبية لأن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيحاته الأولى "محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخية"، أكرم ضياء العمري، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية. ط ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م، ٢/ ١٢٧.

(٥) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص ٢٧٧.

(٦) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة. الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحِميري، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت - طبع على مطابع دار السراج، ٢/ ١٩٨٠ م، حرف الميم، ص ٥٥٥.

أربعة أشهر من أحد. (...).

قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك؛ فقال رسول الله ﷺ: "إني أخشى عليهم أهل نجد"، قال: أبو براء. أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك" (١).

فبعث رسول الله ﷺ أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين، "فساروا حتى نزلوا بيئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحره بني سليم، كلا البلدين منها قريب وهي إلى حره بني سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل؛ فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدا وجوارا؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم (من) عصبية ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحاهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار (٢) فإنهم تركوه وبه رمق فارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا، ﷺ" (٣).

فلما وصل الخبر إلى النبي ﷺ قال: "هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارها متخوفا"، فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليه إخفار (٤) عامر إياه، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره" (٥).

(١) سيرة ابن هشام، ٣/ ١٢٩. تاريخ الطبري، ٢/ ٩٧.

(٢) بنو النجار: من الخزرج، وهم أحوال النبي ﷺ، حيث تزوج جده الأعلى هاشم من بني النجار سلمى بنت عمرو فولدت له عبد المطلب. ويطلق بنون النجار على كل من بني عدي بن النجار وبني مالك بن النجار وبني مازن بن النجار وبني دينار بن النجار وأبنائهم. تاريخ المدينة المنورة المصور، محمد إلياس عبد الغني، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط ١/ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص ١٠٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/ ١٢٨.

(٤) إخفار: الحفارة الذمة وانتهاكها إخفار. لسان العرب، مادة: خفر.

(٥) سيرة ابن هشام، ٣/ ١٢٩.

فَظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو عَلَيْهِمْ لَمَا قَتَلُوا خِيَارَ الْمُسْلِمِينَ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: "دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بئرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ صَبَاحًا يَدْعُو عَلَى رِجْلِ وَذَكَوَانَ وَحِيَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" (١).

- سرية زيد بن حارثة ﷺ: في "جمادى الآخرة سنة ست" (٢) إلى حِمْيَ من أرض جُذَام "الذين قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي القادم من عند قيصر صاحب الروم حيث بعثه رسول الله ﷺ إليه ومعه تجارة له. فلما وصل الخبر إليه بعث إليهم زيد بن حارثة إلى الضيلعان - بطن من جذام - وبعث معه جيشاً" (٣).

- سرية عبد الله بن أبي حدرد ﷺ (٤): بعثه النبي ﷺ لقتل رِفَاعَةَ بْنِ قَيْسِ الْجُشَمِيِّ، كان هذا الأخير يريد أن يجمع قيسا على حرب رسول الله ﷺ، أقبل في بطن عظيم من بني جشم ونزل بهم ومن معه بالغابة، فقتلوه واستاقوا إبلا عظيمة وغنما كثيرة (٥).

وخلاصة القول: إن الصراع الذي دار بين النبي ﷺ والكفار والمشركين إنما هو سنة من سنن الله في الأرض في تنازع الحق والباطل والتدافع بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وعداوة الكفر للإسلام.

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، ح ١٥٤٥.

(٢) عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ١٥٢ / ٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ٤ / ٤٧٢ - ٤٧٣.

(٤) ونسب ابن سيد الناس السرية إلى أبي قتادة بن ربعي الأنصاري الذي بعثه النبي ﷺ ومعه خمسة عشر رجلا إلى حُضْرَةَ، وهي أرض محارب بنجد في شهر شعبان من السنة الثامنة للهجرة. انظر: عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، ٢ / ٢١٩.

(٥) سيرة ابن هشام، ٤ / ٤٨٥ باختصار.

المبحث الثاني

سنة الله في أخذ المكذبين من قريش

فالممتع لسنن الله الكونية ليندهش اندهاشا كبيرا لانضباط وعيد الاستدراج والهلاك وتحقيقه في بضع سنين، وبيان ذلك بتفصيل كما يأتي:

١- رفعه ﷺ الإنذار عاليا: نزل قوله عز من قائل: ﴿قُلْ يَوْمَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥) [الأنعام]، وعلمت قريش بأنه ﷺ ما كان كلامه عبثا، ولا هو يتوعدهم باطلا.

٢- لم يكتف القرآن بالإنذار فقط، بل جاء برسالة تامة بينة التقاسيم واضحة المعالم: ﴿وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٤١﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٤٢﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ [الشعراء]. كانت هذه الرسالة دعوة صريحة جامعة في مضمونها، كاملة في مقصدها، بينة في محتواها، لم تبق لبسا للمتبس.

٣- وككل الناس حيننا يصيبهم ما يذهلهم أو يتحداهم تبحث قريش عن مبرر لهذا الحدث فجاءوا بقولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠٣) [المؤمنون] فالذي يتكلم عن الغيب كان مشاعا لديهم أن هذا الفعل لا عدو أن يكون من تأثير الجن والتي كانت قبل نزول الوحي تلتقط خبر السماء وتوحي به إلى شياطين الإنس، فبرروا بأن أمر النبي ﷺ ما هو إلا من هذا القبيل.

٤- وعوض أن يلتفتوا لهذا الإنذار الثقيل الذي يحمل بشرى ذهاب ريجهم تساءلوا في كبر يدفعه استغراب الظروف الراهنة والتي لا توأكب ثقل هذا البلاغ: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ (٢٠٣) أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرَبَةٍ إِلَّا هُمْ مُنذَرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيْطِينَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَدْبَعِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُونَ ﴿٢١٢﴾ [الشعراء]. وجاءت هذه الآيات تثبيتا لسيدنا محمد ﷺ ووعيدا صادقا

لقريش. أدركت قريش أنها مقصودة وأنه عليها أن تصفي حساباتها مع هذا النبي ﷺ قبل تحقيق وعده عليها، فأجمعوا أمرهم وتشاوروا وقرروا التأمر عليه ضربة رجل واحد رغم تعدد أنسابهم وتشعبها.

٥ - ويأتي الإخبار الرباني بخروج النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال].

٦ - النبي ﷺ يؤمر بالخروج من مكة: فالنبي ﷺ الذي رفع النداء عاليا -سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار- يؤمر بالخروج من مكة ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ [الأنفال]؛ نعم فريق من المؤمنين كرهوا خروج النبي ﷺ وهو الذي رفع التحدي عاليا، يخرج شأن من ينسحب بالاستقالة من المهمة؟

٧ - وإذا كان الموقف السابق يوضح كراهية المؤمنين خروج رسول الله ﷺ، فإن الله تبارك وتعالى -الذي يعلم ما تخفي الصدور- ما كان ليترك المؤمنين في حيرة تناوشها الوسواس؛ إذ سرعان ما تدخل الغيب لتثبيت المؤمنين موضحا أن وعد عاقبة الدار لا زال ساريا مفعولا وسيعود النبي ﷺ إلى مكة لتحقيقه. إنها البشارة ليطمئن القلب ويستكين بباب مولاه ووعد عاقبة الدار ساريا مفعولا: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص]، نزلت " هذه الآية بالجحفة"^(١) أثناء الهجرة، والمعاد هنا ذلك الوعد الذي توعد قريشا بأن عاقبة الدار له لا لقريش، ولكن بعد بضع سنين كما سبق في الوعيد.

٨ - ويأتي التفسير الرباني للحادث برمته بمزيد بيان وتأکید لأجل المحتوم: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]، تلك سنة الله تتأكد مرارا وتكرارا وهو ما يشد نفسية رسوله الكريم ﷺ ويثبت فؤاده، ويزداد يقينا مرة بعد أخرى بهلاك الكافرين المتغطسين في بضع سنين،

(١) الجحفة: بالحجاز قرية جامعة لها منبر بينها وبين البحر ستة أميال وبينها وبين مكة نحو ستة وسبعين ميلاً، وهي منزل عامر أهل فيه خلق ولا سور عليه، والجحفة ميقات أهل الشام ومصر والمغرب، وبين الجحفة وعسفان غدير خم. وسميت الجحفة جحفة لأن السيول أجحفتها. الروض المعطار، حرف الجيم، ص ١٥٦.

(٢) تفسير البغوي، ٦/٢٢٧.

بيان واضح مكشوف معروف لدى الخاص والعام، ليست خطة مستورة حتى تحتاج إلى من يحذر قريشا من مجيئهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون، ولا يأتيهم إلا بعد أن يصيبهم عذاب الأليم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ (٢٠٢) أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿أَفَرَبَّتْ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ (٢٠٧) [الشعراء]، وقد ذاق صناديد قريش العذاب في الدنيا - في غزوة بدر الكبرى كما سنرى في أحداثها - بسيف الحق التي حصدت رؤوس الشرك ليلقى بها في النهاية في القليب، وما ينتظرها عند الله من العذاب الأليم أشد وأنكى!

٩- رغم كل التنبهات والبيانات والوعيد لبضع سنين ظلت قريش في مأمن كأن لا تنتظرها عواقب تذهب بريحتها، حتى جاء وعد الله وتعاقد النبي ﷺ الصلح مع قريش في عمرة الحديبية، وكان هذا الصلح استدراجا لكفار قريش وعين النصر للمسلمين، ومضى على عام الصلح ورجع المسلمون إلى مكة في عمرة القضاء، فاعتمروا، وأذن مؤذن النبي ﷺ بأن لا يبقى بعد الثلاث أحد بمكة؛ لكن بعد ذلك غدرت قريش ونقضت بنود الصلح، فكان ذلك سبب الهزيمة والاستسلام المطلق وفق سنة الله في استدراج الظالمين ثم استئصالهم وكسر شوكتهم. فداهمت الجيوش النبوية مكة في محاصرة ناجحة، فكان الفتح الأعظم للبلد الحرام في بضع سنين في العام الثامن للهجرة.

١٠- ويبرر الحق سبحانه وتعالى لماذا لم يلحق بقريش هزيمة نكراء بقوله تعالى وتقدس: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّهُ. وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَرَأَيْتَهُمْ أَنْ تَطُوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بَعِيرٌ عَلِيمٌ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥) [الفتح].

وهنا نقف وقفة إجلال وتعظيم لرب رؤوف رحيم بالمؤمنين، لقد كان بمكة رجال ونساء مؤمنون لا يعلمهم أهل المدينة الذين جاءوا مكة يوم الحديبية، ويقول سبحانه وتعالى عنهم: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّهُ. وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَرَأَيْتَهُمْ أَنْ تَطُوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بَعِيرٌ عَلِيمٌ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ (٢٥) [الفتح] لو مست الجيوش النبوية المؤمنين بمكة لمسهم عذاب عظيم. هذا

وعيد من الله شديد لمن أذى المؤمنين بغير علم؛ فكيف بنا في زماننا يقتل فيه المسلم أخاه المسلم بتفجيرات في الحفلات والشوارع والأسواق وحتى في المساجد كما يحدث في العراق المكروب، وفي أفغانستان وباكستان والجزائر وباقي دول المسلمين؟! ويقول سبحانه وتعالى: ﴿...لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٥٥﴾ [الفتح] وهذا ما يثبت أن المؤمن له حرمة عند ربه عظيمة، بسببه قد يرفع الله العقاب عن القوم الذين وجد فيهم، وهذه نكتة لطيفة، وإشارة بليغة تهز قلوبا متدبرة للقرآن، متعظة به متذكرة به.

وبعد هذه النظرات في سنة الاستدراج والإهلاك وعلاقتها ببضع سنين، أنتقل إلى التفصيل فيها في النقاط الآتية:

١- سيهزم جمع الكفر:

لقد انهزمت قريش في غزوة بدر في بضع سنين^(١) بعد نزول قوله تعالى: ﴿سِيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيَوْمَئِذٍ نُنزِلُ الْقُرْآنَ﴾ [القمر]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في نزول هذه الآية الكريمة: "كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين، فالآية على هذا مكية"^(٢).

وقال سبحانه وتعالى في سورة الروم المكية التي نزلت في السنة السادسة من المبعث: ﴿الْعَرَبُ غَلِبَتِ الرُّومَ ٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم]، ففي الآية وعدان: الأول: انتصار الروم على الفرس^(٣) في بضع سنين، والثاني: انتصار المسلمين على المشركين، فتحقق الوعدان، وانتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر الكبرى بعد تسع سنوات من نزول السورة.

(١) قال مجاهد رضي الله عنه: "البضع"، ما بين الثلاث إلى التسع. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الشهير بتفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد عبد الرزاق البكري ومحمد عادل محمد ومحمد عبد اللطيف خلف ومحمود مرسي عبد الحميد، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد المنعم المذكور، نسخة مقابلة على مخطوط كامل ومراجعة على نسخة الشيخين: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، دار السلام، القاهرة، ط ٢/١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ٦/٤٥٥٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الشهير بتفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تقديم: هاني الحاج، حققه: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر، د، ت، ١١٣/١٧.

(٣) والقرآن الكريم سمي انتصار الروم على الفرس غلبة ولم يسمه نصراً؛ وفرق بين الغلبة والنصر؛ فالنصر ظلال التكريم الإلهي، يخص به عباده المؤمنين المجاهدين.

وهذه -البضع سنين- سنة من سنن الله، فكما لبث سيدنا يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، وكما انتصر الروم الكتائبون على الفرس المشركين في بضع سنين؛ فإن صنديد قريش لما بالغوا في إيذائهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن آمن به من المستضعفين حصدتهم سنة "بضع سنين" التي لا تتوقف ولا تتخلف، فكان كبتهم ومحققهم وإهلاكهم ودمغهم بعد الهجرة إلى المدينة بستتين في غزوة بدر الكبرى التي حصدت رؤوس صنائديهم، رُغم قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم، وما كان عليه كفار قريش من القوة بسواغ الحديد والخيل المسومة والعدة الكاملة.

وقد انتصر الحق على الباطل في بضع سنين في الغزوات الآتية:

- غزوة بدر الكبرى: عاند الكفار الحق واستكبروا، وكلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بآية أعرضوا عنها واستهزؤوا به واتهموه، قال الله تعالى في سورة الأنعام المكية يخبرنا عن استهزاء كفار قريش المعاندين المكذبين بآياته والمستهزئين بنبيه الكريم، يبين لنا سنته الماضية في المكذبين والمستهزئين: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام]، وقال عز من قائل في نفس السورة: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام]؛ وأنجز الله وعيده لقريش فقطع دابرهم وأمكن الله منهم في بضع سنين وتحقق ما توعدهم به سبحانه في زمن قصير وهو بضع سنين في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فتحقق الخبر الصادق في انتصار الإسلام وهزيمة الكفر.

لنقف ملياً مع بعض أحداث غزوة بدر الكبرى التي تؤكد لنا هزيمة قريش في بضع سنين وفق سنة الله الكونية، قال الإمام محمد بن إسحاق -رحمه الله-: "ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون (...).

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم^(١) وقال: "هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها". فانتدب

(١) قال ابن سعد: فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان على رأس تسعة عشر من مهاجره. وقال ابن حزم: وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة لثمان خلون من رمضان. وعند ابن هشام: في يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان. طبقات ابن سعد، ١٢/٢. جوامع السيرة، ص ٦٣. سيرة ابن هشام، ٤٥٦/٢.

الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حربا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تحوفا على أمر الناس؛ حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمر أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة (...).

فتجهز الناس سراعا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا. وأوعبت^(١) قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أبا لهب بن عبد المطلب تخلف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة وكان قد لاط له^(٢) بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها، فاستأجره بها على أن يجزي عنه بعثه فخرج عنه وتخلف أبو لهب^(٣).

فلما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بقدم قريش استشار أصحابه في ملاقاته قريش، فقال: "أشيروا علي أيها الناس" وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: "أجل" قال: فقد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق،

(١) أوعبت: وأوعبَ القومُ حشدوا وجاءوا مُوعبين أي جمَعوا ما استَطاعوا من جَمْع. لسان العرب، مادة: وعب.

(٢) لاط له: أي أربى له، وسمي الربا لياطا لأنه ملصق بالبيع، وليس ببيع، وقيل لأنه لاصق بصاحبه لا يقضيه ولا يوضع عنه، وأصل هذا اللفظ من اللصوق. الروض الأنف، ٣/ ٥١.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٤٥٢-٤٥٤. الكامل في التاريخ، ١/ ١١٦. حياة رسول الله، محمود شلبي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط ٢/ د. ت ص ٨٧. سبل الهدى والرشاد، ٤/ ٣١. المغازي النبوية، محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري (٥١-١٢٤هـ)، حققه وقدم له: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط ١/ ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ٦٢-٦٣. الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ ما بعده من الخلفاء، مُغلطاي بن قليج، ص ١٩٧. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، جمع وترتيب: أحمد فريد، دار ابن القيم، الإسكندرية، ط ١/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص ١٨٣.

وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا، على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك. ثم قال: "سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين^(١) والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم"^(٢). فواصل رسول الله ﷺ طريقه إلى بدر، "ونزل أدنى بدر عشاء ليلة جمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان"^(٣).

وخرجت قريش في بطونها، لكن بطنا من بطونها وهم بنو زهرة لما سمعوا بأن أبا سفيان أحرز عيره رجعوا فلم يحضر المعركة منهم زهري واحد، وأرسل أبو سفيان إلى قريش يقول لهم: "إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكان بدر موسما من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا"^(٤).

وواصل كفار قريش المسير "حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، (...) وبعث الله السماء وكان الوادي دهسا، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير وأصاب قريشا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى السماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به"^(٥).

(١) إحدى الطائفتين: إحداهما طائفة أبي سفيان بن حرب، وهي عيره المقبلة من الشام بالتجارة، والثانية: جماعة قريش النافرة مع أبي سفيان. وفيها جرى المثل: لست في العير ولا في النفير. أي: لست مع أبي سفيان، ولا في نفير أبي جهل، لأن وجوه الناس وسراهم لم يخل أحد منهم من إحدى الطائفتين والله أعلم. تفسير مبهمات القرآن، ١/٥٠٦. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى الحلبي القاهرة، ط/١٣٩٨هـ، ٣/١٦٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/٤٥٨. حياة رسول الله، شلبي، ص ٨٨. مغازي ابن عقبة، ص ١٢٧-١٢٨. كتاب المغازي، محمد بن عمر بن واقد (٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ١/٤٨-٤٩.

(٣) طبقات ابن سعد، ٢/١٥.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/٤٦١. طبقات ابن سعد، ١/١٤.

(٥) سيرة ابن هشام، ٢/٤٦٢. طبقات ابن سعد، ١/١٥.

ما وعدني ربي حقاً".

فقال له أصحابه: يا رسول الله أتكلم قوما موتى؟ فقال لهم: " لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق"^(١).

إن غزوة بدر الكبرى هي المعركة العظيمة التي فرّق الله فيها بين الكفر والإيمان والحق والباطل، وأعز دين الإسلام وأزهق الباطل " ودمغ الكفر وأهله، وجمعت الآيات الكثيرة والبراهين الشهيرة: بتحقيق ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين: وما أخبرهم به من ميلهم إلى العير دون الجيش؛ ومجيء المطر عند الالتقاء وكان للمسلمين نعمة وقوة وعلى الكفار بلاء ونقمة؛ وإمداد الله المؤمنين بجنده من السماء حتى سمعوا أصواتهم حين قالوا: أقدم حيزوم^(٢)؛ ورأوا الرؤوس ساقطة من الكواهل من غير قطع ولا ضرب؛ وأثر السياط في أبي جهل وغيره؛ ورمى الرسول ﷺ المشركين بالحصى والتراب حتى عمّت رميته الجمع"^(٣).

ودعا المشركون الله لينصر أحب الطائفتين إليه ﴿إِنْ تَسْتَفْتِنَا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كُثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١١]. "قال المشركون - يوم بدر - : اللهم انصر أحبّ الفئتين إليك، فاستجاب دعاءهم ونصر أحبّ الفئتين إليه.. وهم المسلمون، فسألوا بألسنتهم هلاك أنفسهم، وذلك لانجرارهم في مغاليط ما يُعلّقون من ظنونهم، فهم توهموا استحقاق القرية، وكانوا في عين الفرقة وحكم الشقوة، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم، والوقوع في شقائهم؛ فباختيارهم مُنّوا ببنو أريهم.

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزّلوا، فلما كُشِفَ السُّرُّ خابوا وذلّوا، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا في ظنهم وضلوا"^(٤).

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط ١/١٤١٧هـ، ٢/٣٨. سيرة ابن هشام، ٢/٤٧٧. المغازي النبوية، للزهري، ص ٦٥.

(٢) وحيزوم: اسم فرس جبريل ﷺ، قال الجوهرى حيزوم اسم فرس من خيل الملائكة. لسان العرب، مادة: حزم.

(٣) إمتاع الأسع، ١/٦٠.

(٤) تفسير القشيري المسمى: لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: سعيد قطيفة، قدم له: منيع عبد الحليم محمود، المكتبة التوفيقية، ط/د، ت، ٢/٣٠٠.

كان عدد المشركين يوم بدر بين "التسعمائة والألف"^(١)، قتل من رؤوس الكفر أمية بن خلف، وأبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وغيرهم وقد بلغ عدد قتلهم "سبعين مشركاً"^(٢)، وأسراهم سبعين كذلك.

وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وأربعة عشر، قال ابن إسحاق: " فجميع من شهد بدرا من المسلمين من المهاجرين والأنصار من شهدها منهم ومن ضرب له بسهمه وأجره ثلاثة مئة رجل وأربعة عشر رجلا، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا، ومن الأوس واحد وستون رجلا، ومن الخزرج مئة وسبعون رجلا"^(٣). واستشهد من الصحابة " من قريش ستة نفر، ومن الأنصار ثمانية نفر"^(٤).

فحسنت المعركة بانتصار المسلمين الذين فتحوا عيونهم على بشاشة الفوز والنصر الإلهي، فاستبشروا وشكروا ربهم على نعمه وآلائه، أما أهل مكة استنكروا الخبر ولم يصدقوه، وحسبوه هذيان مجنون، فلما استبان لهم صدقه صعق نفر منهم، وأصبحوا في أمر مريج من هول الخطب.

وكما استبعد أهل مكة انتصار المسلمين وهزيمة صنائدهم فجوبهوا بعارها؛ استبعد يهود المدينة ومنافقوها ومشركوها ما قرع آذانهم من بشائر النصر والفلاح، وأنكروا ذلك أشد الإنكار، وظلوا يكابرون حتى وصلهم أسرى المشركين مقرنين في الأصفاد، وتأكدوا من صدق الخبر، فولوا خائئين مدحورين.

فكانت للمسلمين بعد ذلك هيبة يهزمون بها الجموع، ويكسرون بها الجيوش، ويهزمون بها الشجعان، ويرهبون بها الأعراب الآخرين.

وهكذا، فرغم ذلك البون الواسع بين العدد والعدد، فإن الله تعالى ناصر من نصر دينه، وإن كانوا قلة، إذ العدة المادية ليست هي التي تقرر المصير وتحسم المعركة؛ إذ الله

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) محمد بك الخضري، اعتنى به: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط/ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص ١١٤.

(٢) جوامع السيرة، ص ٨٨.

(٣) سيرة ابن هشام، ٥٢٦/٢. سيرة ابن إسحاق المسماة: بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار) ٨٥- ١٥١هـ، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله، تقديم: محمد الفاسي، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، مطبعة محمد الخامس، فاس- المغرب، ط/ ١٣٩٦هـ-١٩٧٩م، ص ٢٨٨.

(٤) مغازي ابن عقبة، ص ١٤٣. سيرة ابن إسحاق، ص ٢٨٨-٢٨٩.

مع الذين اتقوا وتوسدوا عتبه ووقفوا بفنائهم منكسرين، والذين هم لدينهم ناصرون. وهكذا مضت سنة الله بتعذيب المكذبين بعد التبليغ والتبيين، وهذه سنة ماضية لا تتخلف، وللمكذبين أن يختاروا الطريق الذي يسلكوه.

ولهذا فإن غزوة بدر الكبرى تبقى منارا ساطعا على التاريخ البشري. وتقرر عوامل النصر وتكشف عن أسبابه الحقيقية، وهذا ما يجعلها حدثا تاريخيا خالدا، ونموذجا لسنة الله في النصر، وكتابا مفتوحا تقرؤه الأجيال عبر التاريخ، تتكرر كلما توفرت شروطها ومقوماتها. فهي آية من آيات الله، وسنة من سننه المطردة، ما دامت السماوات والأرض.

- القرآن يتوعد أبا لهب بالتياب والموت على الكفر: كان أبو لهب وزوجه يتعاونان على الإثم والعدوان، فكانا شديدي الأذى للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى سورة المسد المكية يتوعد بالخسارة والهلاك والموت على الكفر ودخول نار جهنم يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]؛ فتحقق ما توعد به القرآن من الإهلاك والخسران بعد غزوة بدر الكبرى، حيث مات أبو لهب على الكفر.

- فتح مكة: وتحققت سنة "بضع سنين" في فتح مكة كذلك، قال الضحاك: "لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ...﴾ [٨٥] ﴿القصص﴾ [١] إلى مكة" (٢).

وقد صدقه الله وعده، فأعاده إلى مكة في العام الثامن من الهجرة، في بضع سنين بعد حوالي تسع سنوات من نزول الآية، حيث عاد إلى مكة فاتحاً، ولما دخلها ودخل الكعبة حطم الأصنام التي كانت بداخلها وهو يتلو آيات الوعد التي نزلت عليه قبل حوالي تسع سنوات: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء]. ويقول: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيَنَّ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ]. وعن جابر رضي الله عنه، قال: "دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً يعبدون من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ

(١) عن ابن عباس: ﴿...لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ...﴾ [٨٥] ﴿القصص﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها.
تفسير ابن كثير، ٤٠٩/٣.
(٢) تفسير ابن كثير، ٤٠٩/٣.

فأكبت لوجهها، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٨١﴾ [الإسراء] (١).
فالباطل زاهق لكن شريطة وجود حق فعلي.

إن رسالة القرآن هي المعجزة الخالدة المنزلة على النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ من قبل رب العالمين ليلبغها للناس أجمعين وخالق الناس أجمعين: وكان أول من خوطب بتلك المعجزة الإلهية كفار قريش وصناديدها، فلما استداروا وواجههم للدعوة الإسلامية بالاستهزاء والإيذاء والاستفزاز جاءت الآيات القرآنية تترى تتوعدهم بالإهلاك والحسران:

نحو قوله تعالى وتقدس في تحدّ سافر لطغاة قريش ورؤوس الكفر فيها: ﴿قُلْ يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ [الأنعام].

تحقق وعد الله تعالى فدخل المؤمنون مكة حاجين وبعدها فاتحين معززين ومكرمين، وتسقط راية الكفر، ويزهق أهل الباطل، وأصبحت مكة خاضعة للنفوذ الإسلامي ورجع النبي ﷺ إلى معاد مكة المكرمة تحقياً لسنة الله ووعده، وتحققت سنة الله بنصر المستضعفين في الأرض: ﴿وَرُبُّدَانٌ نَّمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ [القصص].

٢- إمهال الظالمين ثم إهلاكهم:

إن إمهال الظالمين واستدراجهم ثم إهلاكهم سنة من سنن الله الجارية، ولذلك فحين تستبين سبيل المجرمين ويتبين مكرهم وكيدهم تقع المعركة، وقد تبين فريق أهل الإيمان وفريق أهل الكفر والطغيان، ﴿...لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِهِ...﴾ ﴿٤٢﴾ [الأنفال]، وعندئذ تتحقق سنة من سنن الله بإهلاك الظالمين واستئصالهم.

قال الحق جل وعلا في سنة الإمهال والاستدراج: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّئِهِمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّئِهِمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَدَاؤُكُمْ هِينٌ﴾ ﴿١٧٨﴾ [آل عمران]. وقال جل جلاله: ﴿...وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ ﴿٣١﴾ [الرعد]، وقال عز من قائل: ﴿لَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿١٦١﴾ [متنوع قليل ثم ما أولئهم جهنم ويئس المهاد] ﴿١٧٧﴾ [آل عمران].

(١) تفسير ابن كثير، ٣/٦٣.

وقال الباري تعالى وتقدس في سنة الإمهال والهلاك: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال]. وقال عز سلطانه: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال]؛ وهذه الآيات الكريمة نزلت عقب غزوة بدر الكبرى التي استأصل الله فيها جذور الكافرين، وقطع دابر صنديد قريش الذين طالما تربصوا بالدعوة الإسلامية وأتباعها الدوائر، واستهانوا بآيات الله، وآذوا رسوله الكريم، وأنكروا المعجزات، فحصدتهم سنة الهلاك كما حصدت آل فرعون الذين فعلوا بأبيائهم وأتباعهم مثل ما فعلت قريش بالمستضعفين من المؤمنين، فحقت عليهم كلمة العذاب.

وعلى ضوء ذلك؛ فإن سنة الله في الكفار المكذبين لا تتخلف، وقد تتأخر إلى أجل لأسباب تتعلق باستواء المؤمنين على مهيعهم الصحيح ومنهاجهم النبوي، أو تتعلق بتهييء ظروف النصر لإحقاق الكافرين، ولهذا أخبر الباري جل وعلا الصحابة الذين بايعوا سيدنا رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان في الحديبية أنه لو قاتلهم كفار قريش في الحديبية لانهمزوا أمامهم، وفقا لسنته في الكافرين؛ حيث لا ينتصرون على المؤمنين، لأن نصر الله يستحقه عباده المجاهدون الصادقون، فإذا ما غلب الكفار المسلمين في معركة من المعارك أو جولة من الجولات فلأن المسلمين أحلوا بشروط النصر ومقوماته، ولم يقدموا بها أوجه الله عليهم من الأسباب. وصدق الله تعالى وتقدس القائل في حقيقة هذه السنة: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَفْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَحْجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح].

إن صلح الحديبية^(١) آية من آيات الله للمؤمنين، "هذه الواقعة التي كرهوها في أول الأمر، وثقلت على نفوسهم. فالله يخبرهم أنها ستكون آية لهم، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم؛ مما ثبتت في نفوسهم أنها شيء عظيم، وخير جزيل، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين"^(٢).

(١) كان صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ست. وكان جابر بن عبد الله يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة. وقال ابن حزم: وخرج في ألف ونيف، المكثر يقول: ألف وخمسمائة لا تزيد أصلا؛ والمقلل: ألف وثلاثمائة؛ والمتوسط يقول: ألف وأربعمائة، وقد قال بعضهم: كانوا سبعمائة، وهذا وهم شديد البتة، والصحيح بلا شك بين الألف والثلاثمائة إلى ألف وخمسمائة. سيرة ابن هشام، ٢٢٩/٣-٢٣٠. جوامع السيرة، ص ١٢٣. الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص ٢٧٦.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/٣٣٢٧.

نستحضر أحداث عمرة الحديبية التي تحققت فيها سنة الله تعالى بإهلاك الظالمين، والقضاء على جمعهم وكسر جيشهم، قال الإمام ابن إسحاق رضي الله عنه: "خرج [رسول الله صلى الله عليه وسلم] في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً. (...) واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليامن الناس من حربته وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له" (١).

قال الإمام الزهري رضي الله عنه (٢): "وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعسفان (٣) لقيه بشر بن سفيان الكعبي (٤) - قال ابن هشام: ويقال بسر - فقال: يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل (٥) قد لبسوا جلود النمرود وقد نزلوا بذى طوى (٦)، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم (٧). قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة". ثم قال: "من رجل

(١) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٣٠. طبقات ابن سعد، ٢/ ٩٥. جوامع السيرة، ١٢٣.

(٢) هو: محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش (٥٨- ١٢٤هـ = ٦٧٨-٧٤٢م)، أبو بكر: أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعي، من أهل المدينة. كان يحفظ ألفين ومائتي حديث، نصفها مسند. نزل الشام واستقر بها. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه. قال ابن الجزري: مات بشغب، آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين. الأعلام للزركلي، ٧/ ٩٧.

(٣) عسفان: قال أبو منصور: عسفان، منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وقال غيره: عسفان بين المسجدين وهي من مكة على مرحلتين وقيل: عسفان قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكة وهي حد تهامة. معجم البلدان، باب العين والسين وما يليهما، حرف العين.

(٤) هو: بسر بن سفيان بن عمرو بن عويمر بن صرمة بن عبد الله بن عمير بن حبشية بن سلول الخزاعي، أسلم سنة ست. الإصابة، ترجمة رقم: ٦٤٦، ١/ ٢٩٢.

(٥) العوذ المطافيل: يريد النساء والصبيان. لسان العرب، مادة: عوذ.

(٦) ذو طوى: موضع عند مكة. معجم البلدان، باب الطاء والواو وما يليهما، حرف الطاء.

(٧) كراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة. معجم البلدان، باب الغين والميم وما يليهما، حرف الغين.

يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟" فقال رجل من أسلم: "أنا يا رسول الله" (١). فسلك بهم الطرق والشعاب.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ جرت بينه وبين قريش الرسل والسفراء، وأخبرهم سيدنا رسول الله ﷺ بأنه لم يأت لقتال وإنما أتى زائراً للبيت، وطال التنازع والتراجع، حتى أرسل إليهم ذا النورين عثمان بن عفان ؓ، فبلغه لما أرسله أنهم قتلوه فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، قال الإمام الزهري -رحمه الله-: "ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤي، إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأثاب سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: "قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل" فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح" (٢).

فكان ما وقع استدراج للمشركين ليتم إهلاكهم، كما قضت سنة الله تعالى بإهلاك المكذبين ونصر المؤمنين.

كان الصلح تمهيداً للفتح الأعظم الذي نكس رؤوس الشرك، وحطم الأوثان، ورفع راية الإسلام، وأذل المستكبرين، وأعز المستضعفين؛ ولهذا اعتبر الله تعالى وتقدس هذا الصلح فتحاً مبيناً فقال جل ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۗ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۗ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۗ﴾ [الفتح].

وعلى ضوء ما تقدم فقد كان لهذا الصلح آثار جلية؛ منها:

تهدم حجة قريش الأساسية في تأليبها العرب على رسول الله ﷺ؛ "إذ أن قريشا أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها لهذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم؛ فلما سار رسول الله ﷺ معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأي العام كثير من الحجب.

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول ﷺ من العرب الذين يسرون في فلك قريش غيرهم، وأن تفرغ لليهود فأناهم من جزيرة العرب سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، ومن

(١) سيرة ابن هشام، ٣/٢٣١. إمتاع الأسعاع، ١/٢٧٤-٢٧٥. الدرر في اختصار المغازي والسير،

ص ١٤٠-١٤١. تاريخ الطبري، ٢/١٣٨. حياة الرسول ﷺ، شلبي، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/٢٣٧. طبقات ابن سعد، ٢/٩٧.

آثار هذه العملية أن اقتنعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد ﷺ يومها وهم حلفاء قريش المشركة" (١).

ومن آثار هذا الصلح فتح المجال أمام قبائل العرب للتحالف مع رسول الله ﷺ ولولا ذلك الصلح لما أتاحت الفرصة لأولئك، فتحالف من قبائل العرب مع رسول الله ﷺ من شاء.

ومن آثار هذا الصلح دخول الناس في دين الإسلام أفواجا، وانقطاع أملهم من الوثنية والجاهلية، فلا غلبة إلا بالإسلام ولا انتصار إلا بتطبيق مبادئه.

ومن آثار هذا الصلح أن تفرغ رسول الله ﷺ لتبليغ دعوة الإسلام وفتح آفاق أمته على العالم؛ وذلك بتبليغ رسالة الإسلام إلى ملوك وأمراء عصره.

ومن نتائج هذا أن خمدت نيران فتن أهل النفاق الذين كانوا يؤازرون أهل الكفر في كل شيء، وانكسرت شوكة قريش وهمدت حدتها، وجنحت إلى السلام، وتبعثر أهل الشرك من قبائل العرب، وتوسع المسلمون في أحلافهم وتكثير سوادهم.

ومن آثار هذا الصلح الفتح الأعظم لمكة المكرمة؛ "إذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدت على حلفاء رسول الله ﷺ من بني خزاعة عمد رسول الله ﷺ إلى مكة فاتحا. لولا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد رمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقريشها، ولكن صلح الحديبية والآثار التي ترتبت عليه لم يبق بقية من الحمية لا عند قريش ولا عند غيرها لها، فكان أن فتحت مكة صلحا، بل لقد فتحت مكة يوم دخلها المسلمون في العام التالي للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة وتظاهرهم التي أرهبت من رآها" (٢).

لقد كان صلح الحديبية ضربة سياسية قاسية للكفر وأهله ومن سار في ركابه، أحكم وثاقها رسول الله ﷺ، وفشل الأعداء في كل تصرفاتهم، وهكذا أمر الله تعالى إذا أراد شيئا هيا له أسبابه.

(١) الرسول ﷺ؛ دراسة منهجية هادفة حول الأصول الثلاثة: الله، الرسول، الإسلام، سعيد حوى، ط/ دون تاريخ ودون ناشر، ١/ ٢٣٩.

(٢) الرسول ﷺ؛ دراسة منهجية هادفة حول الأصول الثلاثة: الله، الرسول، الإسلام، سعيد حوى، ١/ ٢٤٠.

وهكذا والعناية الإلهية تحوط المؤمنين وتلازمهم، والمؤمنون عازمون على دخول مكة للرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ التي كانت ابتلاء لهم تمحص سرائرهم وقوة محبتهم للنبي ﷺ، وكان حبس ناقة رسول الله ﷺ - التي حبسها حابس الفيل - تمهيدا لذلك الصلح.

فكان كل ذلك لتتحقق سنة الله تعالى في إمهال الكافرين واستدراجهم ثم محقتهم وردهم مدحورين خائين، قال الحق جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف،] وقال جل وعلا: ﴿قَدْ رَفِيَ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم،] وهكذا حسم الله المواجهة بين الرسل والمكذبين لرسالته، فكانت سنة الله التي لا تتخلف هي الحاسم لتلك المعركة، قال الله تعالى في هذه السنة الربانية الجارية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣] وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم،] وهو سنة من سنن الله ووعد من الله لرسله بإهلاك أعدائهم، واستخلافهم في الأرض من بعدهم، وهذا ما حدث في عمرة الحديبية التي استدرجت المشركين، ثم أعقبها فتح مكة الذي كسر شوكة المشركين، وأزال هيبتهم، وردهم على أعقابهم ناكسين.

إنها سنة الله المطردة في المشركين المعرضين عن دعوة الحق، المنكرين لآيات الله تعالى، الصادين عن سبيل الله تعالى، قال الحق جلست حكمته في سنته الجارية والمطرودة في المشركين المعرضين عن طريقه المستقيم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُغْلُوبٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْيَهَادُ﴾ [آل عمران،] [١٢]

المبحث الثالث

الأسباب ومسبباتها

إن الله جل علاه جعل لكل شيء أسبابا تؤثر في مجراه، وتغيره من النقيض إلى النقيض، ومع هذا فإنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد، قد يخرق الأسباب عند تعارض الأسباب مع عهوده الربانية، مثلا: تعهد الله بأن يجعل للمتقين خرجا؛ وها هو سيدنا موسى ﷺ وقومه استجابوا لربهم وفروا من فرعون وعمله، وحاصرهم البحر وقوم فرعون أتبعوهم مشرقين، وتراءى الفريقان، وظن أصحاب موسى ﷺ أنهم مدركون، ويقين موسى في ربه ثابت ثباتا راسخا، لا يتزلزل: وقال كلم الله موسى ﷺ قوله تثبت المؤمنين معه ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء].

عندما تجلت التقوى وكان اعتمادهم كله على الله بعد انقضاء كل الأسباب جاء الفرج وحن المخرج وجاء الأمر الرباني ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه]، أن يضرب لهم طريقا في البحر يبسا تلك هي الغرابة، ولا عجب في أمر الله القادر على كل شيء.

والغرابة الأكبر هي سفاهة السفهاء وقد رأوا آية من أكبر الآيات الكونية، رأوا البحر قد انفلق كالطود العظيم، وانفتحت سبيلا يابسة، وفر موسى ومن معه عبرها، لم تكن هذه الآيات لتحد من بطش فرعون وقومه فيولوا الدبر ويراجعوا أنفسهم، لكن الغطرسة والظلم توأمان لم يبقيا للعقل من سبيل وقد أخذتهم نشوة التمكن من نبي الله موسى ﷺ ومن معه، ودفعهم الكبر فاقحموا البحر ورحبت بهم أمواجه في قبض العدو على عدوه في ضم لا انفكاك له حتى الموت.

وفي سنة الله في الأسباب والمسببات أتكلم انطلاقا من الجهاد النبوي في الفترة المدنية في النقاط الآتية:

١- ارتباط الأسباب بمسبباتها:

إن سنن الله تبارك وتعالى تكمن في كلمات الله التامات وعهوده الربانية لكل شيء في هذا الوجود؛ إذ لا محيد لأحد عما أذن به الحق جل وعلا، ليندرج الكل في انسجام بديع

بين مختلف مكوناته؛ إذ الحق جل جلاله سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وجعل بعضنا لبعض سخرياً، فكان بهذا تسخير الكون وما فيه لخدمة الإنسان، وأمرنا بالعبادة طاعة له وانسجاماً مع ذرات هذا الكون لنخضع لجلاله سبحانه، ولنعرف الله تعالى بحق ولنجله حق قدره.

من هنا كانت سنن الله ذات أهمية قصوى تزيدنا معرفة بالله - سبحانه وتعالى - وانضباطاً بسننه؛ إذ هو القادر على كل شيء ومع ذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام تبيناً لنا لاتباع السنن والسير على عهدها وهداياها.

هذا، ومن المعلوم أن كل مسلم يعتقد بأن النصر من عند الله تبارك وتعالى، وهذا ما يجب أن يعتقد كل إنسان، لقوله تعالى وتقدس: ﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران]، لكن يجب أن يعتقد كذلك كل مسلم بأن هذا النصر جعل الله له سنناً وأسباباً ومسببات، لقوله تعالى وتقدس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نَصْرُوا اللَّهَ نَصْرَكُمُ وَيُنَازِلُ اللَّهُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد]، وقوله جلت حكمته: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال]، فكل هذه جعلها الله من أسباب النصر، والله در القائل: "إرادتك التجريد"^(١) مع إقامة الله إياك في الأسباب^(٢) من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن المهمة العلية^{(٣)(٤)}.

ولذلك فإن المسلم يأخذ بالأسباب ولا يعتقد بأن الأسباب هي المنشئة للمسببات، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به ﷻ وحده بعد توفير الأسباب، وأداء واجبه في السعي والكدح والعمل طاعة لأمر الله ﷻ.

-
- (١) التجريد: عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب الدنيوية. غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبّاد النَّفْرِي الرَّنْدِي (ت ٧٩٢هـ)، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٧.
- (٢) الأسباب هاهنا عبارة: عما يتوصل به إلى غرض، مما ينال في الدنيا. غيث المواهب، ص ٧.
- (٣) ومن أقامه الحق تعالى في التجريد وأراد هو الخروج منه إلى الأسباب، فذلك انحطاط همته وسوء أدبه. غيث المواهب، ص ٧.
- (٤) غيث المواهب، ص ٧.

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم، حافل بالآيات التي تدعو المسلمين إلى الأخذ بسنة الأسباب في الحياة، ألم يقل ربنا تبارك وتعالى لمريم العذراء عليها السلام: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِمِجْذِجِ النَّخْلَةِ فُسِّطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم،] وهو قادر أن يقول للشيء كن فيكون، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب.

ولله درُّ القائل:

ألم تر أن الله أوحى لمريم
ولو شاء الله أحنى الجذع من غير هزه
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
إليها ولكن كل شيء له سبب^(٣)

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم، إلا بكسلها وخمولها، واكتفائها بالأمانى المعسولة والأحلام، وعدم الأخذ بأسباب النصر والتمكين، فكان حالها ما نرى اليوم من الخطوب التي تلهب ظهرها بكرة وعشيا.

ولأهمية سنة اتخاذ الأسباب لم يغفل عنها سيد الوجود ﷺ وهو المؤيد بالوحي في جهاده، وكان يوجه أصحابه الكرام ﷺ دائما إلى مراعاتها في كل أمورهم الدنيوية والأخروية، وهذا يتضح جليا حينما نتأمل في غزواته ﷺ:

- غزوة بدر الكبرى: لم يدع النبي ﷺ اتخاذ الأسباب المادية والمعنوية اللازمة؛ بعدما أعد العدة الكاملة وتوكل على الله جل وعلا. فلما اجتمع الأخذ بالأسباب والوقوف بباب رب الأرباب كان النصر المبين وتأييد رب العالمين لجنده المؤمنين، فولى جيش الكفر فرارا يجر أذيال الخيبة والهزيمة والخسران، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله تعالى وتقدس.

ولذلك فإن الأمة التي تأخذ بمقومات النصر وأسبابه لا بد أن تنقض صروح الباطل وتنتصر عليه، ولذلك كانت سنة التداول بحسب الأخذ بالأسباب.

ولذلك فإن ترك الأسباب جهل بالدين؛ لأن سنة الأخذ بالأسباب لها علاقة وطيدة بسنن أخرى كسنن الرزق والهدى والتغيير وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

ولنا في سيد الوجود ﷺ أسوة حسنة يوم بدر الكبرى في لزومه لباب ربه وتوكله عليه بعد أخذه بالأسباب؛ ولذلك لما همي وطيس المعركة، واستدارت رحى الحرب، واشتعلت

(١). روح المعاني، ٥٨/٦١.

نيرانها، واشتد القتال بالسنان، أخذ سيدنا رسول الله ﷺ في الدعاء، والتضرع، والاستغاثة بربه، والوقوف بفنائه، مفتقرا ومنكسرا ومبتهلا، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق الأكبر ﷺ، وقال: "بعد مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك"^(١).

عن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ قال: "لما كان يوم بدر قاتلت شيئا من قتال ثم جئت مسرعا إلى النبي ﷺ، لأنظر ما فعل، فإذا هو ساجد يقول: يا حي يا قيوم! يا حي يا قيوم! لا يزيد عليهما، ثم رجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال، ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك، ففتح الله عليه"^(٢).

فوفر المسلمون شروط النصر ومقوماته، وفوضوا أمرهم إلى الله تعالى، وتوكلوا عليه، ووقفوا بابابه خاشعين ومفتقرين ومستغيثين، فجاءتهم أمداد النصر، وأنزل الله جنده، وأيد رسوله الكريم ﷺ وحزبه المجاهدين، ومنحهم أكتاف المشركين أسرا وقتلا، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، وقاتلت معه الملائكة^(٣)، وفي هذا المضمار يقول الشيخ تقي الدين السبكي^(٤): "سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وستتها التي أجزاها الله تعالى في عبادته، والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم"^(٥).

(١) زاد المعاد، ٢/١٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد، ٢/٢٦. جامع الأصول من أحاديث الرسول، لابن الأثير، ٩/١٤٦.

(٣) عن جبير بن مطعم قال: "رأيت قبل هزيمة القوم ببدر مثل النجاد الأسود أقبل من السماء كالنمل فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم". فتح الباري، ٧/٣٥٧.

(٤) هو: حبر الأمة وأستاذ الأئمة في زمانه، شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي الأنصاري الخزرجي السبكي، كان ﷺ ذا فراسة صادقة وذلاقة نافذة، وله تصانيف مشهورة: كالعمدة، والطبقات الكبرى، والوسطى والصغرى، توفي ﷺ بدمشق وزاد المحقق في هامش الكتاب: أحد الحفاظ المفسرين المناظرين، ولد في سبك من أعمال المنوفية بمصر سنة ٦٨٣هـ، وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام. وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ، ومرض فعاد إلى القاهرة، فتوفي فيها سنة ٧٥٦هـ. وهو والد التاج السبكي. طبقات الشافعية، أبو بكر بن هداية الله الحسيني (ت ١٠١٤هـ)، ضمن سلسلة ذخائر التراث العربي، حققه وعلق عليه: عادل نويض، منشورات دار الوفاق الجديدة، بيروت، ط ١٩٧٩م، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٥) فتح الباري، ٧/٣٥٨.

ومن الأسباب كذلك التي أخذ بها ﷺ استشارة أصحابه قبل خوض المعركة، و"المهارة الفائقة في فن الحرب والقتال، وفي رسم الخطط العسكرية وأعمال المبادرة، ومفاجأة العدو، وتسديد الضربات، وسرعة الحركة إلى جانب الإيمان بالنصر"^(١).

وهنا يحق القول: بأن النصر في بدر لم يكن حدثاً فريداً يستحيل تكراره، وإنما كان سنة من سنن الله المطردة؛ القابلة للتكرار، وإن لم يكن بنفس الصورة التي وقعت في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

- غزوة بدر الآخرة: قال الإمام ابن إسحاق -رضي الله عنه-: "ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان حتى نزله.

(...) فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة^(٢)، من ناحية الظهران^(٣)؛ وبعض الناس يقول قد بلغ عسفان، ثم بدا له في الرجوع فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جذب فساهم أهل مكة جيش السويق، يقولون إنما خرجتم تشربون السويق"^(٤).

وتتجلى سنة اتخاذ الأسباب في الدروس المستنبطة من هذه الغزوة، فأهم دروسها: "قوة التصميم والسهر على القضية؛ فمن المعروف أنه في كل قضية من القضايا تجد الناس بين متردد ومُتَمَدِّم، وههنا تأتي مهمة القيادة في اتخاذ القرار لتحسم التردد، وبعد اتخاذ القرار تجد ناساً يثبطون الهمم وههنا تأتي مهمة القيادة في الحسم والتصميم ورد كل التردد والقضاء عليه، فلا تعطي فرصة لمؤجل أو مسوف أن يفسد الموقف"^(٥).

(١) ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، ص ١٦٦.

(٢) مجنة: اسم سوق للعرب كان في الجاهلية، وكان ذو المجاز، ومجنة وعكاظ أسواقاً في الجاهلية. قال الأصمعي: وكانت مجنة بمر الظهران قرب جبل يقال له: الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها. معجم البلدان، باب الميم والحاء وما يليهما، حرف الميم.

(٣) الظهران: موضع على مرحلة من مكة. معجم البلدان، باب الميم والراء وما يليهما، حرف الميم.

(٤) سيرة ابن هشام، ٣/١٤٩. طبقات ابن سعد، ٢/٥٩ جوامع السيرة، ص ١١١. تاريخ الطبري، ٢/١٠٣-١٠٤. أنساب الأشراف، ١/٣٣٩. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٩٩.

(٥) الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩ م، ٢/٦٥٣.

وكل هذا متجسد برسول الله ﷺ في كل المواقف والمعارك، ويتضح ذلك جليا في معركة بدر الآخرة، موقف القيادة الربانية المصممة امتاز بالثبات والحسم والمضي في طريق الجهاد، أما موقف القيادة الوثنية فقد غلب عليه التردد وتولي الأدبار.

ومن غزوة بدر الآخرة "نأخذ الدرس الآخر درس السهر على القضية؛ لقد عقد الموعد للمواجهة أبو سفيان يوم أحد، ولقد عقده من موقع القوة في زعمه، وهو بذلك يتحدى، ولكن كيف تصرفه عندما حان الموعد، وكيف تصرف رسول الله ﷺ؟

ههنا سهر وهناك بطر، والعجيب أنك لا تجد في جيش أبي سفيان من عارض، ولا تجد أن أبا سفيان قد استشار (.)، قارن هذا كله ببعض ما نحن فيه: إن الكفر الآن ساهر على قضاياه، وله مؤسساته، وعنده تصميم على أمور كثيرة وهذا يقتضي منا سهرا وتصميما^(١).

فكانت الأسباب حاضرة، لم يخلد النبي ﷺ إلى الراحة وانتظار الموعد، بل كان يسهر ويربي جنده ويزكي نفوسهم إعدادا للمواجهة، وتحملا للأمانة، وتحقيقا لوعد الله تعالى في ظهور دين الإسلام على الدين كله.

- غزوة أحد^(٢): كان المؤمنون في بدر الكبرى "واثقين بنصر الله لنبيه وإظهار دينه، لم يضعف إيمانهم بذلك قتلهم وضعفهم، ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم، ولما رأوا تباشير النصر ازدادوا إيمانا بأنهم المنصورون، وأن جندهم هم الغالبون، ولكن خيل إلى الكثير منهم أن النصر سيكون بالآيات، وخوارق العادات، من غير التزام السنن الإلهية التي جعلها الله في هذا الكون، وبنى عليها نظم الحياة، وأن وجود الرسول بين ظهرانيهم، ودعاه ربه واستغاثته إياه أشد نكالا بالعدو من اتباع السنن الظاهرة التي من أهمها التزام النظام العسكري وإطاعة القائد، وجودة التعبئة، وحسن الحيلة، والتدبير في وضع الخطط الحربية، إلى نحو ذلك"^(٣).

وفات هؤلاء أن دين الإسلام دين الفطرة، دين اتخاذ الأسباب لا الاعتقاد فيها، دين الإعداد التام، لا دين خوارق العادات، وسلوك طريق المعجزات.

(١) الأساس في السنة وفقهها، سعيد حوى، ٦٥٣/٢-٦٥٤.

(٢) كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث، يوم السبت لإحدى عشر ليلة خلت منه. عيون الأثر تحقيق: الخطراوي ومتمو، ٥/٢. سيرة ابن هشام، ٥٦/٣.

(٣) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، ط/د، ت، ٦١/٢.

فلما قصر المسلمون في الأخذ بأسباب النصر يوم أُحد دالت عليهم الأمور وظهر عليهم العدو، ونيل من رسول الله ﷺ، وإن كان هو لم يقصر ولم ينهزم ولم ينكسر، ولكن البلاء إذا نزل يعم الجميع ولا يقتصر على من كان السبب في نزول كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٥) [الأنفال] وكان هذا الدرس عظيماً وعبرة للمؤمنين عاينوه بأعينهم ولا مسوه بأيديهم، وعلّموا أن سنة الله لا تحابي أحداً مؤمناً كان أم كافراً.

لقد جاءت غزوة أحد درساً للمسلمين وتعليماً لهم، "عبر دروب صراعهم المرير ضد الأعداء. وكأن إرادة الله شاءت أن يكبو المسلمون هذه الكبوة بعد سلسلة الانتصارات التي حققوها قبل بدر وبعدها، لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة لنوع من اليقين الأعمى والالتكالية السالبة ويحشر في صفوفهم الكثير الكثير من ضعاف الإيمان وطالبي الغنائم؛ فلا بد من هزة عنيفة تنخل المتتمين إلى الدعوة وتسقط عنهم أولئك الذين لا يقفرون على الصمود ومجاهدة الخطر وجهاً لوجه، وممارسة الموت بإيمان" (١).

ثم مضى القرآن المنزل يذكر المؤمنين ما تنكبوه من سنن، وبما نسوا من ذلك، فبيّن أن الكل سواسية في ميزان سنة الله، وأن "المؤمن مهما عظمت بالله صلته فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن أن قوانينها الثابتة طوع يديه! كلا فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له، وأن شيئاً منها لم يكن عليه، وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهضة، فقد سار في طريق الفشل الذريع" (٢).

هذا، وقد أراد الله سبحانه أن يعلم عباده المؤمنين أن للنصر أسبابه، وللهزيمة أسبابها كذلك، ولا يحدث ذلك عبثاً، "وأن الله لن يتخلى عن المؤمنين ما داموا يخلصون له النية والعمل، فإذا ما شغلهم عنه شاغل من أعراض الحياة الدنيا فإنه يتخلى عنهم بمقدار ما يشغلهم من ذلك الشاغل، ولا يكون معهم حتى يكونوا معه بقلوبهم وحواسهم وظاهرهم وباطنهم.

(...) وإنما هي سنن مرسومة، وآجال معلومة؛ فمن أخذ بأسباب النصر كان له النصر، ومن جاءه أجله سعى إلى مضجعه من الأرض طائعا، ليموت حيث كتب الله له

(١) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص ٢٠١.

(٢) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص ٢٠٢.

أن يموت"^(١).

وعلى ضوء ما تقدم ذكره؛ فإن القرآن الكريم لما تحدث عن انكسار المسلمين في معركة أحد بعد أن ظفروا بالنصر الحاسم في بدر الكبرى، لم يقل بأن رسالة الإسلام السماوية خسرت المعركة بعدما ربحت في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في بدر، لم يقل ذلك لأن رسالة السماء فوق المقاييس المادية، في النصر والهزيمة، رسالة السماء لا تهزم ولا تنكسر أبداً، رسالة السماء هي العليا دوماً، أما الذي يهزم وينكسر فهو الإنسان، هذا الإنسان ولو كان مجسداً لرسالة السماوية، لأن هذا الإنسان تتحكم فيه سنن الحياة.

انتصر المسلمون في بدر حين توفرت فيهم شروط النصر، وانكسروا في أحد حين غابت تلك الشروط، بحسب منطق سنن الله في النصر والهزيمة.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ...﴾ [آل عمران].

"لا تتخيلوا أن النصر حق إلهي لكم، وإنما النصر حق طبيعي لكم، بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً لا تشريعياً، وحيث إنكم في غزوة أحد لم تتوفر لديكم هذه الشروط خسرت المعركة. فالكلام هنا كلام مع البشر، مع عملية بشرية لا مع رسالة ربانية"^(٢).

ومن هنا فإن القرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الحياة، يردهم إلى قدر الله الذي على وفقه يدبر كل شيء في هذا الوجود، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، يردهم إلى ارتباط النتائج بالمقدمات، والأسباب بالمسببات، "فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها؛ تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبين لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"^(٣).

(١) صور من حياة الرسول، أمين دويدار، دار المعارف، القاهرة، ط ٤/د، ت، ص ٣٦٨-٣٧٣.

(٢) المجموعة الكاملة للسيد باقر الصدر، ١٣/٤٩-٥٠.

(٣) في ظلال القرآن، ١/٤٧٨.

ومما لا ريب فيه أن الله تعالى قادر على نصر رسوله الكريم ﷺ والمؤمنين، بدون حركة قتال، ولا قعقعة سنان، وببذل النفس والمال في سبيل الله، ولكن اقتضت سنته في النصر أن يجاهد المسلمون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، ويصبروا ويصابروا ويرابطوا ويبذلوا كل ما في وسعهم، وعندئذ يتنزل النصر من عند الله العزيز الحكيم.

إن الذين ينتظرون النصر والتمكين، وهم متواكلون أو قاعدون متقاعدون هم أبعد ما يكونون عن نصر الله الذي جعل للنصر أسبابا ومقومات، ولو نصر الله المتقاعسين الناكسين عن فريضة الجهاد لعطل سنته، وغير حكمه؛ ولو أنه انتصر أحد بغير بذل الجهود والمساعي لكان سيد الوجود ﷺ وصحابته الكرام ﷺ أولى ذلك.

وهاهم أولاء يتلقون دروسا غالية في الانتصار والانكسار؛ حتى أدركوا حكمة الله وعلموا أن النصر لمن وفر شروطه، وأن الجهاد بمفهومه الشامل ماض حقا حكمه أبداً، وأن ثمن النصر بذل الغالي والنفيس في سبيل الله؛ من دم مهراق، ومال براق، وأرواح زكية، وشهداء يزفون إلى رياض الجنان.

إذ النصر ليس في الانتساب إلى دين الإسلام، ولا التمسح بمسوح المجاهدين مع القعود، ولكن النصر في تطبيق أحكامه وحدوده، وليس النصر في ادعاء الإيمان، ولكن النصر في تحقيق معاني الإيمان في الروح والكيان.

وبإجمال: لقد ترك درس أخذ بصماته في قلوب المؤمنين؛ ولذلك مباشرة بعد غزوة أحد رجع المسلمون إلى ما نسوه من سنن الله في الأسباب والمسببات، فأدركوا خطأهم وما غفلوا عنه من الأسباب، فسارعوا مباشرة بعدما سمعوا منادي رسول الله ﷺ ينادي بملاحقة المشركين إلى حمراء الأسد متوكلين على الله تعالى ليغيروا ما حل بهم - بسبب من عند أنفسهم - من مصائب إلى انتصار جديد وذلك بعد أخذهم بالأسباب التي غفلوا عنها في المعركة، وهذا درس للأمة في سائر العصور؛ وكان هذا من أروع ما تربت عليه الأمة المسلمة على يد المربي الأعظم ﷺ، فلا استسلام للعجز ولا للاعتقاد في الأسباب، بل الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى وتقدس.

- غزوة الخندق: أخذ النبي ﷺ بسنن النصر فشارك ﷺ بنفسه بحفر الخندق حول المدينة، واستشار أصحابه في الخروج والقتال، وكانت خطته العسكرية محكمة، هذا فضلا

عن الدعاء ومناجاته ربه لينصره ويحقق له ما وعده به؛ عَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ - يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْعُو عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعِ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمِهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ" (١).

وخلاصة القول: لقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متفهما في سنن الله الكونية وآخذا بها، ومدركا لأهميتها، وكان جهاده كله مستضيئا بنورها، وفر كل مقومات النصر وأسبابه؛ من الإعداد قبل خوض المعارك؛ ويشمل تربية الرجال روحيا وجسديا، وإعداد القوة؛ من سلاح وخطط عسكرية..، والتركيز على الروح المعنوية في خوض المعارك، إضافة إلى سرية التحركات والاستعدادات والتعمية على العدو ومفاجأته كما وقع في بدر الكبرى حيث فاجأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفار قريش بنظام الصفوف المتراسة كالجُدُرِ المتينة التي يصعب خرقها، فضلا عن متانة العقيدة والتحام القيادة والجند، والقيادة المثلى القادرة على اقتحام العقبات ومواجهة التحديات، والشجاعة في ساحة الوغى، والحكمة كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لم يبدأ القتال في مرحلته المكية، حتى استقر الأمر وبنى مجتمع الإسلام، هذا علاوة على صفات المجاهدين وأخلاقهم وصدقهم وثباتهم.

هكذا كان المنهاج النبوي في التحرك الجهادي وعلينا اتباعه في خطه الرئيس لا نميل ولا نزيغ عنه، حتى ينصرنا الله كما نصره هو وأصحابه.

٢- طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عين النصر:

إن من سنن الله في النصر طاعة رسل الله عليهم السلام، فهي منجاة من الهلاك والخسران، وسبيل الفوز والأمان، قال الحق جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٦﴾﴾ [النور]، وقال جل وعلا يحذر من مغبة عصيان الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنفُسُكُمُ تُذْهِبَ بِمُحْكَمٍ وَأَصْرُكُمْ إِنَّا أَنَا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]؛ ولهذا لما حادت قريش عن جادة هذه السنة الإلهية وقعت في حماة الهلاك والخسران، فكانت طعما لسيف القدر الإلهي.

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ح ٤١١٦. سنن الترمذي كتاب الجهاد، باب ما جاء في الدعاء عند القتال، ح ١٦٧٨ (قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ. وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ). صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، ح ٤٥٤٣.

وكذلك لما كره المسلمون بنود صلح الحديبية الذي أجراه رسول الله ﷺ ورضي به؛ ندّموا على ذلك لما رأوا نتيجته وثمرته التي لم يكونوا يتوقعونها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿...وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ [البقرة]، وقوله جل وعلا: ﴿...فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء]، فكان في بنود الصلح الذي كرهه المسلمون ولم يسلموا لنبيهم في ذلك حيث كادوا أن يهلكوا بكراهيتهم وغضبهم لتلك الشروط، وخاصة الشرط الذي يقول بأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه؛ فعز ذلك على المسلمين واعتبروه إجحافاً لهم، وإسقاطاً لهبتهم، وأمر لا يرضاه دينهم، ولا يقبله رأيهم وهم أهل الشجاعة والقوة! فلما أدرك سيد الوجود ﷺ أنه عز عليهم أفهمهم أنه عبد الله ورسوله فلن يخالف أمره ولن يضيعه الله.

فتسربت البلبلية إلى خواطر بعض المسلمين عندما علموا أنهم صدوا عن زيارة البيت الحرام، وقد فاتهم أن وراء علمهم المحدود علماً آخر لا حد له، وسننا ثابتة تهديهم إلى سبيل الرشاد، فلما رجعوا إلى أنفسهم وتثبتوا في أمرهم، وأطاعوا رسول الله ﷺ جعل الله لهم فرجا ومخرجا وفتحا مبينا، وتبين لهم فيما بعد أن تلك البنود كانت سببا من أسباب تعجيل النهاية المرتقبة للشرك والوثنية في الجزيرة العربية، وأن هذا الصلح كان الخطوة الأولى للفتح الأعظم^(١) والقضاء على نخوة الوثنية والجاهلية، وأنزل الله تعالى في هذا الصلح سورة الفتح تبشرهم بكونه فتحا مبينا لهم، فسر المؤمنون بذلك.

عن الإمام موسى ابن عقبة عن الإمام شهاب الزهري -رحمهما الله- قال: "أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعا، فقال رجال من أصحاب رسول الله: ﷺ ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت، وصد هدينا، وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية ورد رجلين من المسلمين خرجا إليه، فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك: أن هذا ليس بفتح، فقال رسول الله ﷺ: "بئس الكلام هذا أعظم الفتح؛ لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله ﷻ عليهم، وردكم سالمين، غانمين، مأجورين، فهذا أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد إذ

(١) عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ». صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ح ٤١٥٠.

تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في آخركم؟ أنسيتم يوم الأحزاب؟ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟" قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله -عز وجل- وبالأمر منا. وأنزل الله عز وجل سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح] إلى قوله: ﴿...صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح].

فبشر الله ﷺ نبيه ﷺ بمغفرته وتمام نعمته وفي طاعة من أطاع ونفاق من نافق، ثم ذكر ما المنافقون معتلون به إذ أتوا رسول الله ﷺ وأخبرهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وإنما منعهم من الخروج معه أنهم ظنوا أن لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا وظنوا السوء، ثم ذكر أنهم إذ انطلقوا إلى مغانم ليأخذوها التمسوا الخروج معهم لعرض الدنيا^(١).

إنها بشائر النصر بفتح مبین، وأمارات شمس صبح ونصر وتمكين، وغفران شامل، وإتمام كامل للنعمة الربانية على المؤمنين، وهداية وقيادة دائمة ومستمرة ما تمسكت الأمة بشرعها، ولزمت غرز نبيها، ونصر عزيز قوى شوكة المسلمين، وهذه منح إلهية عامة، وفيوضات ربانية على عباد الله المؤمنين، لا تفسر بالماديات الفانية وحسب، وإنما تفسر أيضا-ومن باب أولى- بالمعاني الروحية السامية في أبهى صور التجليات الإلهية، ولذلك فإننا حينما نتحدث عن الفتح الأعظم لمكة المشرفة لا تحتل المسائل الحربية المادية المكانية الأولى في الموضوع، وإنما يحتل ذلك المثل العليا من الصور الأخلاقية النبوية المحمدية الراقية-باعتبارها عصارة لجهد طويل المدى- ويحتل ذلك السمو النفسي والكمال البشري الممثل في الرحمة المهداة والنعمة المسداة-باعتبارها قطوف دانية حان قطافها- من الله إلى الإنسانية، أي في سيد السادات ﷺ.

فكان ما وقع درسا بليغا للأمة الإسلامية في سائر الأزمان أن النجاة في طاعة سيدنا رسول الله ﷺ ولو بدا الأمر شاقا على النفوس في ظاهره، لكنه يحمل في باطنه ما لم يخطر ببال إنسان كما وقع في الحديدية، بل كان الفتح الذي تلا ذلك الصلح مفتاحا للفتوحات الإسلامية التي تعاقبته.

(١) مغازي ابن عقبة، ص ٢٤٠.

لندخل إلى بستان السيرة العطرة نقطف من أشجارها مزيدا من أحداث الحديدية لنستنبط الدروس والعبر ولنتبين لنا سنة الله تعالى التي لا تتخلف قال ابن إسحاق: " ثم دعا رسول الله ﷺ - [بعدهما اتفق ﷺ هو وسهيل بن عمرو على الصلح] - علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم؛ فقال رسول الله ﷺ: "اكتب باسمك اللهم" فكتبها؛ ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو؛ قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أفاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك؛ قال فقال رسول الله ﷺ: "اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو"، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة^(١) وأنه لا إسلال^(٢) ولا إغلال^(٣) وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم وأنتك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل^(٤) خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها"^(٥).

فبينما رسول الله ﷺ يكتب وثيقة الصلح هو ومبعوث قريش وسهيل بن عمرو،

(١) عَيْبَةٌ مَكْفُوفَةٌ: أراد به الشَّرُّ بيننا مَكْفُوفٌ كما تُكْفَى العَيْبَةُ. لسان العرب، مادة: عيب.

(٢) الإِسْلَال: السَّرَقَةُ الخَفِيَّة. لسان العرب، مادة: سلل.

(٣) الإِغْلَال الخِيَانَةُ. وقيل الإِغْلَال السَّرَقَةُ والإِسْلَال الخِيَانَةُ. لسان العرب، مادة: غلل.

(٤) فكانت عمرة القضية أو القضاء أو القصاص في العام القابل للحديبية.

(٥) سيرة ابن هشام، ٣/٢٣٧. جوامع السيرة، ص ١٢٤. طبقات ابن سعد، ٢/٩٧-٩٨. المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، محمد الديك، دار الفرقان، ط ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص ٢٧٠ وما بعدها. محمد رسول الله ﷺ؛ منهج ورسالة - بحث وتحقيق، مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي، كتاب القرن الرابع عشر الهجري، محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، دمشق، ط ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ٤/٢٥٣. تاريخ الطبري، ٢/١٤٥.

"إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو^(١) و^(٢)يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ؛ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه ثم قال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك^(٣) قبل أن يأتيك هذا؛ قال: "صدقت"، فجعل ينتره^(٤) بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم" قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدي قائم السيف منه. قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه؛ فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

فلما فرغ ﷺ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين^(٥).

وبعد انتهاء الصلح قال النبي ﷺ للصحابة: "قوموا فانحروا، ثم احلقوا". قال: فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل

(١) هو: أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي العامري، قيل اسمه عبد الله وكان من السابقين إلى الإسلام ومن عذب بسبب إسلامه، وذكره أهل المغازي فيمن شهد بدرا؛ وكان أقبل مع المشركين فانحاز إلى المسلمين، ثم أسر بعد ذلك وعذب ليرجع عن دينه، واستشهد أبو جندل باليامة وهو ابن ٣٨ سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ٩٦٨٧.

(٢) يَرْسُفُ: وَيَرْسُفُ رَسْفًا وَرَسْفًا وَرَسْفَانًا مَشَى مَشْيَ الْمُقَيَّدِ وَقِيلَ هُوَ الْمُشْيِيُّ فِي الْقَيْدِ رُوَيْدًا. لسان العرب، مادة: رسف.

(٣) لجت القضية بيني وبينك: أَي وَجَبَتْ. لسان العرب، مادة: لجح.

(٤) النَّتْرُ: الْجَذْبُ بِجَفَاءِ نَتْرِهِ يَنْتَرُهُ نَتْرًا. لسان العرب، مادة: نتر.

(٥) سيرة ابن هشام، ٣/٢٣٧-٢٣٨. طبقات ابن سعد، ٢/٩٧-٩٨. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٤١. تاريخ الطبري، ٢/١٤٥-١٤٦. مغازي ابن عقبة، ص ٢٤٣-٢٤٥.

على أم سلمة^(١)، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك! أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك، نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يلحق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما^(٢).

وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يروي قصته يوم الحديبية، وما وقع في نفسه من ذلك الصلح قال: " أَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: "بَلَى". قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: "بَلَى". قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي". قُلْتُ: أَوْلَيْسَ كُنْتَ تَحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: "بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟". قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: "فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ". قَالَ: فَاتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ: بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ: عُمَرُ فَعَمِلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا^(٣).

(١) هي: أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية أم المؤمنين؛ اسمها هند وقال أبو عمر يقال اسمها رملة وليس بشيء واسم أبيها حذيفة وقيل سهيل ويلقب زاد الركب، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية من بني فراس وكانت زوج بن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة فمات عنها، فتزوجها النبي ﷺ في جمادى الآخرة سنة أربع وقيل سنة ثلاث، وكانت ممن أسلم قديما هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فولدت له عمر ودرة وزينب.

قال الواقدي: ماتت في شوال سنة تسع وخمسين وصلى عليها أبو هريرة، وقال ابن حبان: ماتت في آخر سنة إحدى وستين بعد ما جاءها نعي الحسين بن علي، وقال ابن أبي خيثمة: توفيت في [إمارة] يزيد بن معاوية، قلت وكانت [إمارته] في أواخر سنة ستين، وقال أبو نعيم: ماتت سنة اثنتين وستين وهي من آخر أمهات المؤمنين موتا، قلت بل هي آخرهن موتا". الإصابة، ترجمة رقم: ١٢٠٦١، ٢٢١/٨.

(٢) تاريخ الطبري، ١٤٧/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ح ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

قال الإمام محمد بن إسحاق رضي الله عنه: "فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية^(١)، وكان ممن حبس بمكة فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب الأزهر والأخنس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق إلى قومك"؛ قال يا رسول الله: أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: "يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا".

فانطلق معها، حتى إذا كان بذي الحليفة^(٢) جلس إلى جدار وجلس معه صاحباها فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت. قال: فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله وخرج المولى سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم طالعا، قال: "إن هذا الرجل قد رأى فزعا"؛ فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ويحك ما لك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي. فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: وقت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعث بي. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَيْلٌ لِّأُمَّهٍ مِّمَّ حَرْبٌ" ^(٣) لو كان معه رجال".

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص^(٤)، من ناحية ذي المروة، على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بصير ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال فخرجوا إلى أبي

(١) هو: عتبة بن أسيد بالفتح بن جارية بن أسيد بالفتح أيضا بن عبد الله بن غيرة بن عوف بن ثقيف أبو بصير بفتح الموحدة الثقفي حليف بني زهرة مشهور بكنيته متفق على اسمه. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٣٣/٤، ٥٤٠١.

(٢) ذو الحليفة: ويقال له: أبيار علي، وهو ميقات أهل المدينة ومن مر به يبعد ٤١٠ كم عن مكة المكرمة في جهتها الشمالية و ١٠ كم عن المسجد النبوي الشريف. تاريخ مكة المكرمة قديما وحديثا، محمد إلياس عبد الغني، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط ١/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص ٢٦.

(٣) مِحْشُ حَرْبٍ: مَوْقِدُ نَارِهَا وَمُؤَرِّثُهَا طَبْنٌ بِهَا. لسان العرب، مادة: حشش.

(٤) الْعَيْصُ: وهو موضع في بلاد بني سليم به ماء يقال له ذَنبَانُ الْعَيْصِ. معجم البلدان، باب العين والياء وما يليها، حرف: العين.

بصير بالعيص فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلا، وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأل بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم. فأواهم رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة" (١).

قال الإمام الزهري رحمه الله: "فما فتح في الإسلام فتحا قبله كان أعظم منه" (٢)، إنما كان القتال حيث التقى الناس؛ فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر" (٣).

فكانت ثمار ذلك الصلح يانعة وقطوفه دانية؛ إنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم -لمكة- الذي رفع الله به راية دينه، وأعز به رسوله وحزبه، ودخل به الناس في دين الإسلام أفواجا، وظهر من كان يخفي إسلامه، وأسمع الناس القرآن، والدعوة الإسلامية، فتحقق أعظم الفتوح التي لم تخطر ببال أولئك الذين غضبوا الشروط الصلح، فأعطتهم درسا بليغا، ووعتهم حقيقة الطاعة لخاتم الرسالة.

فكان سيدنا رسول الله ﷺ واثقا بنصر الله وأن سنته في رسله لا تتخلف؛ بكون العاقبة لهم، وأن تلك البنود هي عين النصر وإن بدت في ظاهرها مجحفة حق المسلمين، فكان تدبير كفار قريش تدميرهم، ومكرهم عليهم، فحفروا قبورهم بأيديهم، وعجلوا بنهايتهم، وانقلب العز بالكفر الباطل ذللاً بحق، وتحققت سنة الله في هزيمة المشركين المستكبرين أمام جند الله المجاهدين، وصدق الله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (٤)، إنها سنة الله التي جعلت الهداية والفلاح في طاعة الرسل عليهم السلام، والفوز والفلاح والنجاة من الخسران في لزوم غرضهم واتباعهم.

(١) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٤١-٢٤٢. جوامع السيرة ص ١٢٥. طبقات ابن سعد، ٢/ ٩٧-٩٨. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٤٢-١٤٣. تاريخ الطبري، ٢/ ١٤٨. مغازي ابن عقبة، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) قال ابن هشام: "والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ١٤٠٠، -في قول جابر- ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في ١٠٠٠٠". سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٤١.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٤١.

(٤) سورة النور: من الآية ٥٤.

٣- النصر من عند الله ﷻ:

إن المتأمل في حديث القرآن الكريم عن الغزوات النبوية يجد أن الله تعالى نسب النصر إلى نفسه، فأمر المسلمين باتخاذ الأسباب، ثم نهاهم عن الاعتقاد في الأسباب لكونها مسخرة من فعال لما يريد.

ففي غزوة بدر الكبرى:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٧٣) ﴿آل عمران﴾، وقال جل وعلا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَيُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) ﴿ذِكْرُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كِيدَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨) ﴿الأنفال﴾، وقال جل ذكره ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٦) ﴿الأنفال﴾؛ فبعدما وفر المسلمون شروط النصر نبههم إلى أن النصر ليس نتيجة تلك الأسباب التي أخذوا بها، ولكنه من عند الله تعالى، وهو القادر على كل شيء.

لما صدق المؤمنون المجاهدون في جهادهم وقتالهم وتضرعوا إلى ربهم واستغاثوا به أمدهم بجنود من السماء تقاتل معهم العدو، وتحصد رؤوس المشركين، قال الباري تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ (١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) ﴿الأنفال﴾.

ولذلك فإن النصر بيد الله تعالى وتقدس ومن عنده، فالظواهر ما كانت تشير إلى انتصار المسلمين؛ لقلّة عددهم وعددهم، فوجئوا بالقتال فأجمعوا أمرهم عليه، وربطوا الإيمان على قلوبهم، وتعلقوا بالله ﷻ، وأووا إلى ركنه الشديد ولاذوا به، واستماتوا في القتال طلباً للشهادة في سبيله، وحرصهم سيدنا رسول الله ﷺ وبشرهم بإحدى الحسنين النصر أو الشهادة، أو الحسينين معاً، فاستجابوا لنيهم وداعي ربهم، فبذلوا أرواحهم وكل جهودهم واتخذوا جميع الأسباب، فبعدما حمى الوطيس بدأت أجنحة النصر ترفرف فوقهم، وظلال الأمداد الربانية تفيض عليهم من كل حذب وصوب، فكان النصر، وانتهت المعركة الفاصلة بنصر عباد الله المجاهدين.

فنصر الله ﷺ نبيه وصفيه ﷺ ومن معه من المؤمنين الصادقين، وأذل رقاب المشركين والمنافقين، فلم يبق بالمدينة منافق ولا يهودي إلا ورقبته خاضعة لوقعة بدر، وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرق الله تعالى بين الشرك والإيمان والحق والباطل والخير والشر.

وقالت اليهود تيقنا: " إنه النبي الذي نجد نعته في التوراة، والله لا يرفع راية بعد اليوم إلا ظهرت" (١).

وفي غزوة أحد:

يقول الحق جل وعلا: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران) [فهذه سنة من سنن الله تعالى في نصر عباده المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله لا من أجل حطام الدنيا الزائل، والذين يلزمون أمر نبيهم ﷺ].

وقد رأينا تجلي هذه السنة الربانية في غزوة أحد في بداية المعركة؛ لما التزم المؤمنون بغرز نبيهم ﷺ وأخذوا بأسباب النصر فكان نصر الله حليفهم، ونسب الله النصر إليه وأنه من عنده وأنه صدقهم وعده لما فعلوا ذلك، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ (٢) ولما خالفوا أمره ﷺ حلت بهم الهزيمة؛ قال الحق جل وعلا: ﴿...حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران).

وفي إجلاء يهود بني النضير (٣):

نسب الله ذلك النصر إلى نفسه وأن ما وقع من إجلائهم وإخراجهم وقذف الرعب في قلوبهم بقدرته وسنته التي تدافع عن المؤمنين وتجعل العاقبة للمتقين، وترد الكاذبين المستهزئين على أدبارهم خاسرين؛ فقال جل ذكره وعز اسمه: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

(١) مغازي ابن عتبة، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ١٥٢.

(٣) بنو النضير: هم قبيلة كبيرة من اليهود، وكان رئيسهم حبي بن أخطب. فتح الباري، ٧/ ٣٧٨. الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، يوسف بن إسماعيل النبهاني (١٣٥٠هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ص ٥٢.

أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَسْرِ مَا ظَنَّكُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ [الحشر].

وفي غزوة الأحزاب:

التي سمى الله انتصار المؤمنين فيها نعمة ونسبه إلى نفسه فقال الحق تعالى وتقدس: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْرُوعًا نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب] إلى قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

ولذلك كانت دروس غزوة الأحزاب تربية نفسية لأولئك الرجال الذين سيحملون راية الدعوة بعد مرحلة النبوة، تستهدف التؤدة وتحمل الأذى والصبر المير على المحن الكثيرة من الجوع المقعد، وفقدان الزاد المؤنس، وتربص الأعداء من كل جانب، والدأب على أشق الأعمال في حصار مضروب مستحكم من الأعداء، يملك على كتائب جند الله كل المنافذ والشغرات، مع دسائس أهل النفاق ومكائدهم وتسللهم لو اذا متعللين بالأكاذيب الفاجرة والحيل الماكرة، إلى جانب حماية النساء والصبيان والشيوخ والعجائز، وهم من وراء جند الله في حصون المدينة وأطامها، خوفا عليهم من خيانة اليهود وغدرهم وخبث مكائدهم.

وقد كان لهذه الدروس القاسية في أحلك اللحظات وأصعبها الأثر الكبير في موقف جماعة المسلمين أمام أعدائها في قوتهم المادية الهائلة وحشودهم الكثيرة التي أعدوها لمهاجمتها في عقر دارها وعاصمتها.

من وسط هذا الركام من الخطوب بزغ فجر النصر، وأيد الله تعالى جنده بمدده وعونه، فذكرهم نعمته، وأن ذلك من فضله وتوفيقه لعباده المؤمنين الصادقين.

وتتضح كذلك سنة الله في النصر جليا في سرية غالب بن عبد الله الليثي^(١) إلى بني الملوح بالكديد^(٢): "في صفر سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ"^(٣). فعن جندب بن مكيث

(١) هو: غالب بن عبد الله الكناني الليثي، له ذكر في فتح القادسية وهو الذي قتل هرمز ملك الباب، وكان ولي خراسان زمن معاوية. الإصابة، ترجمة رقم: ٦٩٠٩، ٥/٥١٥-٥١٧.

(٢) الكديد: موضع بين مكة والمدينة، بين منزلتي أمج وعسفان، وهو ماء عين جارية، عليها نخل كثير لابن مخرز المكي. معجم ما استعجم، حرف الكاف، ٤/١١١٩.

(٣) طبقات ابن سعد، ٢/١٢٤.

الجهني^(١) قال: "بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي - كلب بن عوف بن ليث - في سرية كنت فيها، وأمره أن يشن الغارة على بني الملوحة، وخرج صريخ القوم فجاءنا دهم لا قبل لنا به، ومضينا بالنعيم، (...) وأدركنا القوم حتى قربوا منا، فما بيننا وبينهم إلا وادي قديد، فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى، من غير سحابة نراها، ولا مطر فجاء بشيء ليس لأحد به قوة ولا يقدر على أن يجاوزه فوقفوا ينظرون إلينا، وأنا لنسوق نعمهم ما يستطيع منهم رجل أن يجيز إلينا، ونحن نحدوها سراعا، حتى فتناهم فلم يقدروا على طلبنا قال فقدمننا بها على رسول الله ﷺ"^(٢).

وفي صلح الحديبية:

الذي كان تمهيدا لفتح مكة كان الفتح بأمر الله تعالى وتوفيقه قال الحق جل ثناؤه:
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح]^(٣).

وفي فتح مكة:

قال الحق تقدست أسماؤه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر]. نصر الله وفتح نبيه وللمؤمنين، فالفتح والنصر بيد الله جل وعلا يؤيد به عباده في الوقت الذي يريد والمكان الذي يختار، وعلى يد عباده مجريه، فكان الفتح الأعظم لمكة المكرمة على يد الحبيب المصطفى والنبي المجتبي ﷺ ومعه أصحابه الكرام ﷺ؛ هذا الفتح العظيم حرر البلد الحرام من رق العبودية لغير الله، وطهره من الأصنام والأوثان والشرك والطغيان، وجعله بلدا آمنا مطمئنا وقبلة يتجه إليها المسلمون بقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم في صلواتهم، ومتعبدا توحيديا لله الواحد الأحد، كما أرادها الله تبارك وتعالى منذ خلقه يوم خلق السموات والأرض.

هذا الفتح المبين أعاد رسول الله ﷺ إلى بلده - كما وعده ربه في أول يوم أخرجوه منه - آمنا عزيزا منصورا، سالما مشرفا بفضل الله عليه وعلى من اتبعه وآمن به من المؤمنين.

(١) هو: جندب بن مكيث بن عمرو بن جراد بن يربوع بن طحيل بن عدي بن الربعة بن رشدان الجهني أخو رافع بن مكيث. الإصابة، ترجمة رقم: ١٢٣٠، ١/٥١٣.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٤٧١.

(٣) قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح]: قضينا لك قضاء بيننا، وحكمنا لك بتقوية دين الإسلام، والنصرة على عدوك، وأكرمناك بفتح ما انغلق على قلب من هو غيرك - من قبلك - بتفصيل شرائع الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه. تفسير القشيري، ٥/٤١٧.

هذا الفتح العظيم والنصر المبين حرر مجتمع الإسلام من البغي والطغيان والظلم والجهل، ووجه أمة الإسلام بقوتها المعنوية والمادية إلى الجهاد في سبيل الله، ورفع راية الإسلام في أرجاء المعمورة، وتبليغ الدعوة الإسلامية للناس أجمعين.

كان لفتح مكة المشرفة منزلة عظمى ومكانة فضلى في التاريخ الإسلامي، وذلك لما اشتمل عليه من أمور وآداب وفوائد جمّة.

وفي غزوة حنين^(١):

قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]؛ في هذه الآية الكريمة "يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعددهم، ولا بعددهم ونهبهم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر"^(٢).

نقف هنا ملياً نتأمل أحداث هذه الغزوة؛ قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "كان الله عز وجل قد وعد رسوله وهو صادق الوعد أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن^(٣) ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا ل حرب رسول الله ﷺ والمسلمين، ليظهر أمر الله وتماز إغزازه لرسوله ونصره لدينه ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر الله - سبحانه - رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين وتبدو للمتوسمين"^(٤).

(١) كانت غزوة حنين في شوال سنة ثمان. مغازي ابن عقبة، ص ٢٨٣. طبقات ابن سعد، ١٤٩/٢.

(٢) عمدة التفسير، ١٥٥/٢.

(٣) هوازن: جمع هَوْزَن، وهو ضرب من الطير، وقد سمّت العرب هَوْزَنَا، فولد "هوازن" بكر بن هوازن، فمنهم: بنو سعد بن بكر بن هوازن، استرضع النبي ﷺ فيهم، فجاءته بنت حليمة، أخته من الرضاة [وهي الشياء]، يوم حنين فطرح لها صِنْفَةً رذائه، وأعتق لها سبي قومها أجمعين. ومن بني سعد بن بكر: قُطْبَة، وكان شريفاً من قواد الشام. وأما معاوية بن بكر فولد جُشَم، ونصراً، وصُغْصَعَة، والسَّبَاق، وحجشاً، وعوفاً، ودُحَيْنَة، وانقرض هؤلاء. جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، ص ٢٦٤ وما بعدها.

(٤) زاد المعاد، ٢٥٤/٢.



وعلى ضوء ذلك فإن هوازن لما سمعت بما فتح الله على رسوله من مكة "جمعها مالك بن عوف النصري من بني نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم النبي ﷺ بعد فتح مكة، وقالوا: لا مانع من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا"^(١).

فلما وصل الخبر إلى النبي ﷺ وتيقن من صدق الخبر تجهز للخروج، واستعار أدرعا وسلاحا من صفوان بن أمية - وهو يومئذ مشرك-، فخرج إليهم في جيش عدته اثنا عشر ألفا، "ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة"^(٢)، فأعجب المسلمون بكثرتهم، وقالوا: "لن نُغلب اليوم عن قلة"^(٣)، وغفلوا عن سبب النصر الأول، "فلما أتى وادي حنين، (...) وهوازن قد كمنت في جنبتي الوادي، وذلك في عمارة الصبح (قبل انتشار الضوء)، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولى المنهزمون لا يلوي أحد على أحد"^(٤).

فكانت الهزيمة في بداية المعركة، وفر الكثير منهم ولم يثبت مع النبي ﷺ إلا فئة قليلة من الصحابة، ثم نصرهم الله بعد ذلك نصرا عزيزا مؤزرا.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: "أيهما الناس؟ هلموا أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله"، قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته"^(٥).

وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، أخو بني عبد الدار قلت: "اليوم أدرك تأري من محمد، وكان أبوه قتل يوم أحد، اليوم أقتل محمدا. قال: فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله فأقبل

(١) الكامل في التاريخ، ٢/٢٦١. عيون الأثر (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، ٢٤٣. سيرة ابن هشام، ٤/٣٣٩. طبقات ابن سعد، ٢/١٤٩-١٥٠. تاريخ الطبري، ٢/١٩٧-١٩٨. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٦٥-١٦٦. إمتاع الأسماع، ١/٤٠١. أنساب الأشراف، ١/٣٦٤-٣٦٥. غزوات الرسول ﷺ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ)، خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، ص ٣٣٦. حياة رسول الله ﷺ، شلبي، ص ٢٠٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٣٤٢. طبقات ابن سعد، ٢/١٥١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٨/٨٦.

(٤) جوامع السيرة، ص ١٤١. تاريخ الطبري، ٢/١٩٩. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٦٧. المغازي النبوية، الزهري، ص ٩٢.

(٥) سيرة ابن هشام، ٤/٣٤٣. طبقات ابن سعد، ٢/١٥١.

شيء حتى تغشى فؤادي، فلم أطق ذاك وعلمت أنه ممنوع مني" (١).

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: "إني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، قال: وكنت امرأ جسيما شديد الصوت، قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين رأى ما رأى من الناس "أين أيها الناس؟" فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: "يا عباس اصرخ" يا معشر الأنصار: يا معشر أصحاب السمرة (٢)، قال فأجابوا: لبيك لبيك! قال: فيذهب الرجل ليشني بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه؛ ويأخذ سيفه وترسه (٣)، ويقتمحم عن بعيره، ويخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلوا الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار. ثم خلصت أخيرا: يا للخزرج. وكانوا صبرا عند الحرب فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركائبه. فنظر إلى مجتلد (٤) القوم وهم يجتلدون فقال: "الآن حمي الوطيس" (٥)، ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: "انهزموا ورب محمد!" قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال فوالله ما هو إلا أن رماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحصياته ثم ركب فإذا حدهم كليل وأمرهم مدبر حتى هزمهم الله" (٦).

وقاتلت الملائكة في هذه المعركة كما قاتلت في بدر (٧)، فانهزم المشركون، وفروا إلى "الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس (٨)، وتوجه بعضهم نحو نخلة" (٩).

(١) سيرة ابن هشام، ٤/ ٣٤٤.

(٢) السُّمْرَة: هي شجرة الرضوان التي بايعه تحتها أصحابه بيعة الرضوان بالحديبية. وكانوا بايعوه ألا يفروا، فلما سمعوا النداء، تذكروا العهد، فارتجعوا رجعة واحدة، كرجل واحد وهم يلبئون النبي

صلى الله عليه وسلم. كتاب المفهم، ١/ ٣١٦-٣١٧. صحيح مسلم بشرح النووي، ٦/ ٣٣٤.

(٣) ترسه: التُّرس من السلاح المتوقى بها معروف وجمعه أتراسٌ وتِرَاسٌ وتِرَاسَةٌ وتُرُوسٌ. لسان العرب، مادة: ترس.

(٤) مُجْتَلِدٌ: أي إلى موضع الجلاذ وهو الضرب بالسيف في القتال. لسان العرب، مادة: جلد.

(٥) سيرة ابن هشام، ٤/ ٣٤٥. تاريخ الطبري، ٢/ ٢٠٠. المغازي النبوية، الزهري، ص ٩٢.

(٦) طبقات ابن سعد، ٤/ ١٩. حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، يوسف بن إسماعيل البهاني، تحقيق: محمد عزت، المكتبة التوفيقية، ط/ د، ت، ص ٦٣٦.

(٧) انظر: سيرة ابن هشام، ٤/ ٤٤٨.

(٨) أوطاس: واد في ديار هوازن، وهناك عسكروا هم وثقيف، إذ أجمعوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتقوا بحنين. معجم ما استعجم، ١/ ٢١٢.

(٩) سيرة ابن هشام، ٤/ ٣٥١.

ولما قدم فل ثقيف مدينة الطائف^(١) أغلقوا عليهم أبوابها، وتحصنوا في آطامها، وصنعوا الصنائع للمواجهة والقتال. ثم سار النبي ﷺ ومن معه من الصحابة ﷺ إلى الطائف حين فرغوا من حنين، "حتى نزل قريبا من الطائف، فضرب به عسكره، فقتل به ناس من أصحابه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانت النبل تنالهم ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة. قال ابن هشام: ويقال سبع عشرة ليلة"^(٢).

ولما طال الحصار دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ "تحت دبابه"^(٣) ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون"^(٤).

ولم يؤذن للنبي ﷺ في فتح الطائف فقفل راجعا إلى المدينة، ومعه غنائم حنين؛ "وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، فاستأنى رسول الله ﷺ بالسبي أن يقدم عليه وفدّهم

(١) من أهل السير من يفصل غزوة الطائف عن حنين، لكنها في الحقيقة امتداد لها، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف لجأوا إلى الطائف بعد هزيمتهم مع أميرهم مالك بن عوف وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد انتهائه من حنين وجمع الغنائم، قبل رجوعه إلى المدينة.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٣٧٠-٣٧٣. طبقات ابن سعد، ٢/١٥٨. تاريخ الطبري، ٢/٢٠٥. إمتاع الأسراع، ١/٤١٧. أنساب الأشراف، ١/٣٦٦. حياة رسول الله ﷺ، شلبي، ص ٢٠٩. تاريخ الإنسانية وأبطالها، محمد رضا، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص ٣٦٣.

(٣) الدبابه: آلة من آلات الحرب، يدخل فيها الرجال، فيدبون الأسوار لينقبوها، وهي شبه برج متحرك، له أحيانا أربعة أدوار. السلاح في الإسلام، عبد الرحمن زكي، دار المعارف، القاهرة، ط/١٩٥١. حرف الدال والميم. الفن الحربي في صدر الإسلام، عبد الرؤوف عون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط/١٩٦١م، ص ١٦٨. القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، عبد الله محمد الرشيد، دار القلم، دمشق، ط ١/١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص ٤٠٥. نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية، عبد الحى الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١/٣٧٤.

(٤) سيرة ابن هشام، ٤/٣٧٤. تاريخ الطبري، ٢/٢٠٥.

وبدأ بالأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس^(١)(٢).

ولما رد السبايا إلى أهلها وقسم الغنائم لم يعط الأنصار شيئا من تلك الغنائم، فلما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله ﷺ، لأولئك - من الغنائم - تكلموا في ذلك؛ فعن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عباد، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: "فأين أنت من ذلك يا سعد؟" قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. قال: "فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة". قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: "يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم"، قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال "ألا تحببونني يا معشر الأنصار؟" قالوا: بياذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: "أما والله لو شئتم لقلت، فلصدقتكم ولصدقتكم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأوينناك، وعائلا فأسينناك. أو جدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب

(١) قال ابن حجر رحمه الله: "واقترضت حكمة الله أن غنائم الكفار لما حصلت ثم قسمت على من لم يتمكن الإسلام من قلبه لما بقي فيه من الطبع البشري في حجة المال فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع على محبته، لأنها جبلت على من أحسن إليها. ومنع أهل الجهاد من أكابر المهاجرين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاتهم لجميعها لأنه لو قسم ذلك فيهم كان مقصورا عليهم، بخلاف قسمته على المؤلفة لأن فيه استجلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضي رئيسهم، فلما كان ذلك العطاء سببا لدخولهم في الإسلام ولتقوية قلب من دخل فيه من قبل تبعهم من دونهم في الدخول، فكان في ذلك عظيم المصلحة. فتح الباري، ٦٥١/٧.

(٢) طبقات ابن سعد، ١٥٢/٢.

الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟^(١) فالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا، لسلك شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار".

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا"^(٢).

ولما رجع النبي ﷺ من الطائف أتاه وفد هوازن وقد أسلموا، فرد إليهم نساءهم وأبناءهم، ثم أسلم قائدهم مالك بن عوف، واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه.

ولذلك فقد أعطت غزوة حنين للمسلمين درسا بليغا في العقيدة الإسلامية، وسنة الله في الأسباب والمسببات؛ فإذا كانت غزوة بدر الكبرى قررت للمسلمين أن قلة عددهم - (٣١٤ مجاهدا) - لا تضرهم شيئا في جنب أعداد أعدائهم الهائلة - التي بلغت الألف -، إن لموا غرز نبيهم، وتمسكوا بحبل الله تعالى، وكانوا صابرين ومتقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة لا تغني عنهم شيئا إذا لم يتمسكوا بحبل الله تعالى، ويكونوا صابرين ومتقين، ومتوكلين على الله وحده، ومعتقدين أن النصر من عنده وبتوقيفه، لا بكثرة العدد والعدة.

قال الحق جل ذكره وعز اسمه: ﴿...وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة].

أنزل الله تعالى وتقدس آيات بينات في كتابه العزيز تذكر المؤمنين بفضل الله عليهم، أنهم لما أثابوا إلى ربهم واستجابوا لنداء نبيهم أمدهم بالنصر المبين، وبالطمأنينة والسكينة؛

(١) التاريخ كله يدور على زخرف الدنيا وغرورها ولعاعة الدنيا الزائلة يسابق إليها الناس ويتنافسون عليها؛ فكان لا بد من موقف إيماني عظيم؛ يطفى غائلة حب الدنيا والتسابق إليها من قلوب مؤمنة صادقة؛ ويربط تلك القلوب بالحب السرمدى المتمثل في النبي ﷺ، ليبين لهم أن حب الدنيا وحب النبي ﷺ لا يجتمعان في قلب واحد، فأدرك المؤمنون هذا المعنى، فاختاروا سيدنا رسول الله ﷺ على حطام الدنيا الفاني.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٣٨٦-٣٨٧. طبقات ابن سعد، ٢/١٥٤. تاريخ الطبري، ٢/٢١١. مغازي ابن عقبة، ص ٢٨٨. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٧٥-١٧٦.

لتعلم الفئة المؤمنة أن النصر من عند الله، لا بكثرة العدد. فقال الباري تبارك وتعالى:
﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة].

وعلى ضوء ما سبق ذكره؛ فما النصر -مهما توفرت الأسباب والمقومات- إلا من عند الله تعالى وبتوقيفه، وهذه سنة من سننه في عباده.

ومجمل القول: إن المراحل التي مرت بها غزوة حنين تشير إلى أنها من تدبير عليم حكيم؛ فقد أرادت العناية الإلهية أن تدك آخر قلاع الشرك ومعاقله في الجزيرة العربية، وتخضعهم للإسلام، ورغم ما كان في بداية المعركة من ابتلاء وتمحيص وتطهير الصف، إلا أنها تلت هذه السنن -التمحيص والابتلاء وتمييز الصادق من الكاذب- سنة النصر المؤزر، ورد كيد الظالمين الباغين إلى نحورهم؛ فانكسرت شوكة هوازن على صخرة الإسلام، فكانوا وأمواهم غنيمة للمسلمين، فكانت هذه الغزوة بحق مذلة للشرك، وما حقة له، وقاهرة لجموعه.

المبحث الرابع

مداولة الأيام بين الناس

لقد جعل الله ﷻ تعالى مداولة الأيام بين الناس سنة من سنته الكونية؛ ليميز سبحانه صادق الإيمان من المدعي، وينكشف النفاق المدسوس المتقاعد، فقال جل ذكره: ﴿...وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران].

وفي هذا المبحث سأفصل في سنة التداول من خلال الجهاد النبوي؛ وأتناول ذلك من خلال النقاط الآتية:

١- الحرب سجالات والأيام دول:

إن سنة التداول تقع ضمن سنن الله في عبادته، فمن شمر على ساعد الجد وأخذ بأسباب النصر ومقوماته دالت له الأيام، ومن نكص عنها دالت عليه الأيام، وربنا تبارك وتعالى لا يظلم أحداً.

فسنة التداول لها ارتباط وثيق بسنة النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، ولهذا عاب الله تعالى على المنافقين جهلهم كنه سنته في تداول الأيام بين الناس فقال جل ذكره: ﴿...وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَجِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران].

فله سبحانه وتعالى حكمة في كل ما يحدث، شاءت حكمته جل وعلا وفق سنته الكونية في التداول أن يخسر المسلمون المعركة يوم أحد، وتكون الدولة عليهم، ليعلم الأمة أن لا نصر مع خرق شروطه وأسبابه.

ولذلك فإن تداول الأيام بين الناس من نصر إلى هزيمة، ومن شدة إلى رخاء، ومن هزيمة إلى نصر من السنن الإلهية، وهذه السنة - التداول - كما لها ارتباط وثيق بسنن النصر والتمكين لها ارتباط كذلك بسنة تغيير ما بالأنفس، وسنة النعم وتغييرها، قال الحق جل

وعلا: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ [١١] ﴿[الرعد]، وقال الله عز اسمه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال]، ولذلك لما أطاع الصحابة ﷺ النبي في بداية المعركة والتزموا بما أمرهم الله به صدقهم الله وعده فكان النصر، ولما خالف الرماة أمره ونزلوا من أعلى الجبل كَرَّ عليهم العدو فكانت الهزيمة. فلما غيروا تحول ذلك النصر إلى الهزيمة، وهذه سنة لا تتخلف في سائر الأزمان.

فالدولة "تكون لأفضل الفريقين استعداد وصبرا، وإن لم يكن على حق. فهذه قوانين من أخذ بها انتصر ولو كان على الباطل. العاقبة للمتقين ما استمسكوا بحقهم وعملوا له، وإن طال الطريق. وعلى طريق الجهاد تتجلى معادن الرجال وتبرز العناصر الكريمة، ويتقبل الله شهداء الحق، ويستحق الجزاء من ربه من بذل الجهد الصابر من أجل الحق" (١).

والقرآن الكريم في غير موضع يؤكد أنه كما أن لهذا الكون سننا ونواميس، وكذلك للنصر والهزيمة سنن ونواميس؛ وما وقع في غزوة أحد كان وفق سنن إلهية ثابتة، ولم يكن الأمر مجرد صدفة أو عشوائية في تغيير نتائج المعركة لصالح العدو. لتتبه الأمة وتأخذ الدروس والعبر:

فإما أن تأخذ بسنن النصر ومقوماته فيكون لها النصر، وإما تتهاون بهذه السنن كلها أو بعضها، فتحصدها الهزيمة وتدور عليها الدائرة ويغلبها عدوها، وفق تلك السنن التي لا تحابي أحدا.

وهنا لا بد أن أقف عند أحداث غزوة أحد كما روتها كتب السيرة، أستنبط منها سنة التداول؛

أبدأ بذكر سبب الغزوة ثم باقي أحداثها.

لما أصيب كفار قريش بهزيمة نكراء في غزوة بدر الكبرى، وقتل من قتل من صناديدهم وأشرفهم تأججت نار العداوة في قلوبهم، حتى جاشت بالانتقام وأخذ الثأر، حتى إنهم منعوا النساء من البكاء على قتلاهم، ومنعوا الاستعجال في استرجاع أسراهم عن طريق الفداء؛ لكي لا يتفطن المسلمون إلى ما أصابهم من الويل والشبور والخسارة والعار،

(١) دروس من غزوة أحد، عبد العزيز كامل، دار المعارف، القاهرة، ط ٤/د، ت، عبد العزيز كامل، ص ١٣٠.

ثم ليتهيأوا ل حرب شاملة ضد المسلمين؛ جاء في سيرة ابن هشام: " لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بغيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آبأؤهم وأبنأؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا.

قال الإمام ابن إسحاق - رحمه الله -: ففيهم كما ذكر لي بعض أهل العلم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: (٣١)].^(١)

وما جاء في الآية الكريمة سنة من سنن الله تعالى التي لا تتخرم ولا تتوقف، فقد وقع ما جزم به الآية الكريمة، فخرس كفار قريش أموالهم التي رصدها في معاركهم ضد سيدنا وسندنا رسول الله ﷺ؛ في غزوة أحد وفي غزوة الأحزاب وغيرهما، وانتهت الحرب بقطع دابر الكفر وأهله، وفتح مكة المكرمة وإسلام أهلها.

وهذه السنة ليست خاصة بإنفاق الكافرين أموالهم على عهد سيدنا رسول الله ﷺ، بل جارية وعامة وماضية إلى يوم القيامة في صراع الحق والباطل، حيث تنطبق على الكفار في كل عصر ومصر، ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وتجزم بخسارتهم وحسرتهم وردهم بحقنهم خائبين.

هذا، واجتمع كفار قريش لحرب رسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله، وأنفقوا أموالهم في ذلك، "فخرجت قريش بحدها وجددها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة، (...).

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله ﷺ للمسلمين: "إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقرا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي^(٢) ثلماً،

(١) سيرة ابن هشام، ١٧/٣. طبقات ابن سعد، ٣٧/٢. جوامع السيرة ص ٩٣. سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠١. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٣. مغازي ابن عتبة، ص ١٨٣. تاريخ الطبري، ٦٨/٢. غزوة أحد دراسة دعوية، محمد عيظة، دار إشبيلية، ط ١/١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ٧١.
(٢) ذباب السيف: حدّثه. أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، اعتنى به وراجعته: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط/ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ١٤١.

ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة".

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال: رأيت بقرا لي تذبح؟ قال: " فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل"^(١).

عند ذلك قال النبي ﷺ لأصحابه: " فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها"، (...). وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج؛ فقال رجال من المسلمين - ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره ممن كان فاته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جبننا عنهم وضعفنا؟ (...). فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة. وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو، أحد بني النجار فصلى عليه رسول ﷺ ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: " ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل" فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه"^(٢).

وخرج سيدنا رسول الله ﷺ إلى أرض المعركة، حتى إذا كان في طريق بين المدينة وأُحد انخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ممن اتبعه من قومه من المنافقين، ورجع بهم إلى المدينة.

ومضى سيدنا رسول الله ﷺ في طريقه إلى أرض المعركة، وتعباً ﷺ للقتال "وهو في سبع مئة رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير"^(٣)، أخا بني عمرو بن عوف وهو معلم

(١) سيرة ابن هشام، ٣/١٩. طبقات ابن سعد، ٢/٣٧. جوامع السيرة ص ٩٣. سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٣. مغازي ابن عقبة، ص ١٨٤. تاريخ الطبري، ٢/٦٩. غزوة أحد دراسة دعوية، محمد عيظة، ص ٧١.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/١٨. طبقات ابن سعد، ٢/٣٨. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٣. تاريخ الطبري، ٢/٦٩-٧٠.

(٣) هو: عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري أبو عبد الله وأبو صالح أخو خوات بن جبير، قال البخاري حديثه في أهل =

يومئذ بثياب بيض والرماة خمسون رجلا، فقال: "انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك" وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، أخي بني عبد الدار"^(١).

وقال للرماة: "قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا"^(٢).

وجيش كفار قريش "ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى مسيرتها عكرمة بن أبي جهل"^(٣).

ثم دنا الفريقان بعضهم من بعض وجها لوجه والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبال، "فتولى هوازن فصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء من يبارز فبرز له علي بن أبي طالب ﷺ، فالتقيا بين الصفيين فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته، فوقع وهو كبش الكتبية، فسر رسول الله ﷺ بذلك، وأظهر التكبير وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نغضت صفوفهم"^(٤).

وبدأوا يقتلون فيهم حتى قتلوا جميع أصحاب اللواء "فلما قتل أصحاب اللواء، انكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شيء ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا حتى أجهضوهم عن العسكر، ووقعوا ينتهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم، وتكلم الرماة الذين على عينين^(٥) واختلفوا بينهم، وثبت أميرهم عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة مكانهم، وقال: لا أجاوز أمر رسول الله ﷺ، ووعظ أصحابه وذكرهم أمر رسول الله ﷺ؛ فقالوا: لم يرد رسول الله ﷺ هذا، قد انهزم المشركون فما مقامنا هاهنا، فانطلقوا يتبعون العسكر ينتهبون معهم،

=المدينة شهد العقبة وبدرا واستشهد بأحد وكان أمير الرماة يومئذ، ثبت ذكره في حديث البراء بن عازب في الصحيح وفيه أن المشركين لما انهزموا ذهبت الرماة ليأخذوا من الغنيمة فنهاهم عبد الله بن جبير فمضوا وتركوه. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٥٨٥، ٤/٣٥.

(١) سيرة ابن هشام، ٢٢/٣. طبقات ابن سعد، ٣٨/٢.

(٢) طبقات ابن سعد، ٤٠/٢. مغازي ابن عقبة، ١٨٦. تاريخ الطبري، ٧٢/٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢٢/٣. طبقات ابن سعد، ٣٨/٢.

(٤) طبقات ابن سعد، ٤١/٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٥.

(٥) انظر صورة جبل عينين-جبل الرماة-ح(في ملحق الخرائط والصور.

وخلوا الجبل، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخیل وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وقتل أميرهم عبد الله بن جبیر رضي الله عنه، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم وحالت الريح فصارت دبوراً، وكانت قبل ذلك صبا ونادى إبليس لعنه الله أن محمداً قد قتل، واختلط المسلمون فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضاً ما يشعرون به من العجلة والدهش، وقتل مصعب بن عمير فأخذ اللواء ملك في صورة مصعب، وحضرت الملائكة يومئذ ولم تقاتل، ونادى المشركون بشعارهم يا للعزى يا لهبل، وأوجعوا في المسلمين قتلاً ذريعاً، وولى من ولى منهم يومئذ وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزول يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا، ويرمي بالحجر، وثبت معه عصابة من أصحابه أربعة عشر رجلاً سبعة من المهاجرين فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسبعة من الأنصار حتى تهاجزوا ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ما نالوا، أصيبت رباعيته وكلم في وجنتيه وجهته، [ودخلت حلقات المغفر في وجنته، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي عمل أبو عمر ليقع فيها المسلمون] ^(١)، وعلاه ابن قميئة بالسيف فضربه على شقه الأيمن، واتقاه طلحة بن عبيد الله ^(٢) بيده فشلت إصبغه وادعى ابن قميئة أنه قد قتله وكان ذلك مما رعب المسلمين وكسرهم ^(٣). حتى قتل من المسلمين سبعون رجلاً ^(٤)، منهم أعز الناس على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهم إلى قلبه أسد الله سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ووقعت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، ونسوتها، "يمثلن بالقتلى من أصحاب

- (١) الزيادة من: سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٤. وسيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٦-٣٠٧.
- (٢) هو: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي أبو محمد، أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذي أسلموا على يد أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان عند وقعة بدر في تجارة الشام فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره، وشهد أحداً وأبلى فيها بلاء حسناً، ووقى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه عن قيس بن أبي حازم أن مروان بن الحكم رأى طلحة في الخيل -يوم الجمل- فقال هذا أعان على عثمان فرماه بسهم في ركبته فما زال الدم يسيح حتى مات. وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين من الهجرة، وروى ابن سعد أن ذلك كان في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة وله أربع وستون سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٢٧٠، ٣/ ٥٢٩-٥٣٢.
- (٣) طبقات ابن سعد، ٢/ ٤٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٥.
- (٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره في التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه/ ح ٣٠٣٨.

رسول الله ﷺ يجرد عن الآذان والأنف حتى اتخذت من آذان الرجال وأنفهم خدماً وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشياً، غلام جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها" (١).

وبعد انتهاء المعركة أمر رسول الله ﷺ بدفن القتلى، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة.

فكان ما أصاب المسلمين في نهاية المعركة جزءاً وفقاً لهذا الاختلاف وذلك الخروج عن طاعة القائد وتحقيقاً لسنة الله في النعم وتغييرها وتداول الأيام بين الناس، قال الحق جل ذكره: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال].



ذلك أن اختلاف الرمادة وخروجهم عن طاعة قائدهم ناشئان عن الطمع في الغنيمة حيث تركوا مواقعهم بغية جمع الأسلاب التي تركها الكفار لما ولو أدبارهم خائبين خاسرين في بداية المعركة؛ والله قد كتب النصر في معارك القتال لمن يجاهدون في سبيله وينشغلون به، ولا يلتفتون إلى عرض دنيوي زهيد. وتحقيقاً كذلك لسنة أخرى من سنن الله في خلقه وهي سنة التداول. فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافاً؛ وإنما تكون الدولة للمؤمنين يوماً حين يوفرون مقومات النصر وأسبابه ولأولئك يوماً حين تحتل الشروط. ومن ثم يتميز أهل الإيمان والصدق من أهل النفاق والكذب، وتتكشف الأخطاء، وينجلي اللبس، لكن تكون العاقبة دائماً لأهل الحق حين تتوفر فيهم الشروط، والأعمال بخواتيمها.

(١) سيرة ابن هشام، ٤٦/٣. سيرة ابن إسحاق، ص ٣١٢. تاريخ الطبري، ٨٣/٢.

نال المشركون من سيدنا رسول الله ﷺ حتى أصيب بجراحات دامية، وبقيت تنبض بالدم الزكي الشريف والمعركة تبلغ نهايتها، وجراحات أصحابه ﷺ تستن، وصدورهم لها أزيز كأزيز المرجل، والأوجاع والآلام تلهب ظهرهم وهم صابرون محتسبون لأنهم علموا أن ما وقع من عند أنفسهم.

لكن الله تعالى الرحيم بعباده ما تركهم على هذه الحال، بل أنزل من الآيات البينات ما جبر كسر قلوبهم، وشدد عزمهم، وذكرهم بسنته في خلقه، وأن الأيام دول، والعاقبة لهم، وهم الأعلون في الدنيا والآخرة إن اتقوه حق التقى واعتزوا به ونصروه واتبعوا نبيه الكريم ﷺ، فقال جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجْرٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجْرٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ [آل عمران].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله-: "الوهن الضعف في العمل وفي الأمر وكذا في الرأي. والحزن ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب، أي لا تضعفوا عن القتال وما يلزمه من التدبير بما أصابكم من الجرح والفشل في أحد ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم، ويصح أن يكون هذا النهي بمعنى الخبر، أي إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهنا لأمركم ومضعفا لكم في عملكم ولا موجبا لحزنكم وانكسار قلوبكم، فإنه لم يكن نصرا تاما للمشركين عليكم، وإنما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم ﷺ في تدبيره الحربي المحكم وفشلكم وتنازعكم في الأمر وذلك خروج عن سنة الله في أسباب النصر، وهذه التربية تكونون أحقاء بأن لا تعودوا إلى مثل تلك الذنوب فتكون التربية خيرا لكم من عدمها، بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتا بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم والبصيرة وإحكام العزيمة واستيفاء الأسباب في القتال وغيره وأن تعلموا أن الذين قتلوا منكم شهداء وذلك ما كنتم تتمنونه" (١).

على ضوء ما تقدم ذكره من الأحداث؛ فإن غزوة أحد كانت درسا تربويا بالغا ألقته العناية الربانية والمشية الإلهية على "المجتمع المسلم بكل ما فيه من شدائد ومرائر، وأحداث قواصم منكيات، وكوارث عاصفة موجعات. أصابت من المسلمين حوازم أعصابهم

(١) تفسير القرآن الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر بمصر، ط ٤/ ١٣٧٤هـ، ١/ ١٤٤-١٤٥.

ومداخل أفئدتهم، حتى كان منهم ما لم يكن من شيمتهم ولا هو معروف في خلائقهم، ولا أنست به سجايهم ولا لهم به عهد، إذ ولو الأدبار فراراً عن رسول الله ﷺ، وتركوه في معمة المعركة وقد استعر أوارها وحيداً إلا من فئة قليلة لا تغني عن نفسها شيئاً^(١).

كانت مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ هي السبب المباشر لذلك البلاء الذي نزل بالمسلمين، "والمعول الذي فك عرى صفوف المسلمين؛ لأن هؤلاء المخالفين من الرماة لم يطبقوا الصبر على تجرع مرارة الطاعة المطلقة عن تعسف التأويل لأوامر القيادة العظمى، قيادة النبي ﷺ؛ إذ أنهم لم يكادوا يرون معالم النصر تلوح في أفق جيش المسلمين حتى تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله ﷺ، وأمرهم ألا يبرحوها حتى يأذن لهم، وركضوا إلى الدنيا يريدونها، ونزلوا إلى مشاركة الجيش المنتصر في جمع الغنائم واحتيازها، وتركوا أميرهم عبد الله بن جبير ؓ الذي ذكرهم بأمر رسول الله ﷺ فلم يعبأوا بتذكيره، وتشبثوا بأهداف التأويل المتعسف، ولم يبق مع قائد الرماة إلا فئة قليلة صبرت معه حتى استشهدوا ﷺ، وتنزلت المحنة وأقبلت عواصف القواصف"^(٢).

إن ما وقع في أحد إنما كان بسبب أخطاء بعض المجاهدين في هذا المعركة أخطاء نالت من نفوسهم نيلاً وحصتهم تمحيصاً، وأبعدتهم قليلاً عن سواء القوة الإيمانية التي كانت سبباً للنصر في كل معاركهم.

فكان ما وقع درساً للمسلمين أن يلزموا غرز نبيهم في المستقبل ويطيعوه في كل شيء، وينفذوا أوامره بحذافيرها في حياته وبعد انتقاله إلى ربه.

فكانت تلك المخالفة لأمر القائد المجاهد وتلك الخطيئة لا تطهرها وتكفرها إلا الشهادة في سبيل الله تعالى، فاستشهدوا جميعاً، لتكون الشهادة شافعاً لهم مما صدر عنهم عن حسن نية.

ولذلك فإن الحاسم للنصر والهزيمة في غزوة أحد ليس "هو الإسلام أو الشرك، لم يكن حب الله لنيبه وصحبه، وبغضه سبحانه لعبدة الأوثان، لم ترجح الكفة لافتات مرفوعة، أو حقوقاً مكتسبة، ولكن العامل الحاسم في النصر أو الهزيمة هو الأداء الجيد، هو استئثار عناصر الموقف إيجابياً لصالح الهدف المرجو.

(١) محمد رسول الله ﷺ، عرجون، ٨/٤.

(٢) محمد رسول الله ﷺ، عرجون، ٩/٤.

نعم، إن الإيمان إذا وقر في القلب، والذي صدقه العمل عندما اجتماعا لم تقف قوة في الأرض أمام المسلمين، لكن الإيمان بغير عمل كما ينبغي لم يغن عن المسلمين شيئا، ولم يحل دون أن ينفذ قانون السماء العادل، المنزه عن أي انحياز.. حتى لنبي الله و صفيه وصحابته الأبرار"^(١).

هكذا نجد أن سنة الله تجري بترتيب النتائج على المقدمات. وفق إرادة الله وقدره ومشيئته التي ترتب النتائج على الأسباب، ولا حتمية بين النتائج والأسباب. الكل بمشيئة الله. فالمطلوب من الإنسان أن يبذل جهده ويعمل ويوفر الأسباب وهكذا يجب أن يعتقد؛ فالمسلم لا يحتتم أمراً بعينه على الله، فهو يعتقد أن النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره. هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء وكيفما يشاء.

فمشيئة الله تعالى في خلقه تسير على سنن حكيمة من تمسك بها واستضاء بنورها ظفر، ومن تنكبها خسر، ولذلك فإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب الفلاح ومقومات النجاح وأخذها ورعاها حق رعايتها.

وبسنة التداول يستقر نظام الحياة، ويتحقق العدل، ويدرك المتأمل في هذه السنة الربانية أنها لا تحايي أحدا، مؤمنا كان أم كافرا.

وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه، "كما مضى قضاؤه في كتابه، أن يعامل عباده حسب ما عملوا إن خيرا فخيرٌ وإن شراً فشرٌ"^(٢).

وإن أدل ما يدل على ذلك أن القرآن الكريم سجل أحداث غزوة أُحد لا لذكر القصة وتسجيلها كما جاءت، وهذا لا بد منه في التاريخ، لكن إنما تجاوز ذلك ليعين للمؤمنين سنة الله في خلقه، ليأخذوا الدروس والعبر من تلك الأحداث، وأن ما وقع لأولئك بسبب المخالفة سيقع لمن سلك نفس الطريق، وفق سنته الكونية.

إنها سنن ونواميس من سار على نورها وصل إلى مقصده، وحقق غايته ونال مبتغاه في الدنيا والآخرة.

(١) القرآن والسلطان، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط ٤/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٩٦.
(٢) أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٢/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص ٢١.

٢- الابتلاء والاختبار لتمحيص السرائر:

إن الابتلاء والاختبار والامتحان سنة من سنن الله تعالى في خلقه، وتظهر هذه السنة جلية في الجهاد القتالي في سبيل الله؛ لذلك جاءت آيات كثيرة تدل على ما في الجهاد القتالي في سبيل الله من الامتحان والاختبار والتمحيص؛ إذ فيه التعرض للموت في كل مرحلة أو جولة من جولاته، في إنفاق الأموال وبذل النفس في سبيل الله.

وبالابتلاء تتحقق سنة أخرى من سنن الله ألا وهي سنة التمييز، تمييز الصادقين من الكاذبين، والمجاهدين من القاعدين، والمؤمنين من المنافقين، ومن يقاتل للدين ومن يقاتل للدينا، هذا فضلا عن تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين، واتخاذ الشهداء من المؤمنين.

هذا، علاوة على ما في الابتلاء من حكم حجة، وأسرار بالغة، ودروس قيمة، وعبر غالية؛ إذ هو الطبيب الذي يعالج ما حل في النفس البشرية من أدران العجب والركون إلى العاجلة، وحب الراحة الذي تجده في النصر الدائم، فشاءت الأقدار الإلهية أن تبلى هذه الأمة -وذلك وفق سنن الله- بعد ما أخلت بشرط النصر والتمكين؛ ليكون هذا الابتلاء تكفيرا لذنوبها ورفعاً لدرجاتها، وشحذاً لذمها، ورفعاً لهممها، حتى لا تركز إلى النفس وما تطلبه من الخمول، وحتى يقطع كل الأشواك التي نبتت في أرضها.

ولهذا لما سئل الإمام الشافعي رحمه الله فقيل له: "يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل: أن يُمَكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يُمَكَّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة"^(١).

على ما سبق؛ فإن سنة الابتلاء والاختبار سنة ماضية في العباد، وهي من أهم السنن الإلهية التي نبه إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وجعلها سنة ماضية إلى يوم القيامة، في ميزانها يتم فرز المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب المدعي، "فحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس، بل يحتاج إلى قوم مختارين، وهم الصفوة الذين يعدون لهذا الأمر إعداداً خاصا ليحسنوا القيام به"^(٢).

(١) الفوائد، ابن قيم الجوزية (٦٩٨هـ-٧٥١هـ)، حققه وعلق عليه: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط/د، ت، ص ٢٥٧.

(٢) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص ٣٩.

ولهذا فإن من ظن أنه يصل إلى مبتغاه في الدنيا والآخرة من دون مقاساة الشدائد والمحن ألقته أمانيه في مهواة الهلاك، وإن من عرف قدر مطلوبه سَهَّلَ عليه بذل مجهوده، ومن عرف ما قصد هان عليه ما وجد.

وتلك هي "الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان، وتتعرض للابتلاء؛ وتتكشف فيها خفايا النفوس؛ كما تتميز فيها الصفوف. تحت مطارق الابتلاء ومشقة التجربة ومرارة الآلام"^(١).

فلا مفر من قدر الله وسنته في خلقه، ولهذا يجب الإمام بجوهر الحقائق، حتى لا ننتبه في الفيافي والقفار، فكل من خالف سنة الله أو لم يدرك لها معنى، تاه في الطريق تعوزه الحيلة، وتقض مضجعه الخيبة والحرمان، ويحيق به الهلاك والخسران.

لذا ينبغي أن نسعى السعي الحثيث لإدراك ما تقتضيه سنن الله الكونية لتحقيق النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، حتى نسير على بصيرة من أمرنا، ونُهْدَى للتي هي قوم.

وبتأملنا في أحداث السيرة النبوية العطرة نرى سنة الابتلاء والتمحيص جلية في جهاد النبي ﷺ عموماً وفي غزواته وسراياه خصوصاً.

أذكر من هذه الغزوات:

- غزوة أحد:- في هذه الغزوة تم تمحيص المؤمنين بسنة التداول كما سبق الحديث عنها؛ يقول الإمام ابن إسحاق -رضي الله عنه-: "كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحن به المنافقين ممن كان يظهر الإيثار بلسانه وهو مستخف بالكفر في قلبه ويوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته"^(٢).

يقول الله تعالى وتقدس: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾^(٣)؛ أي نداول الأيام بين الناس "ليتميز الصادقون من المنافقين، وتظهر نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها، فتصير تبرا خالصا لا كدورة فيه، فإن الإنسان كثيرا ما يشبهه عليه أمر نفسه، ولا تتجلى له حقيقتها إلا بالتجارب الكثيرة،

(١) هذا الدين، سيد قطب، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط/١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، ص ١١.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/٦٠.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١٤٠.

والامتحان بالشدائد العظيمة، فهي التي تمحصها وتنفي خبثها وزغلها، كما أن تمحيص الذهب يميز بهرجه من خالصه.

فالمعتقد في دين أنه الحق قد يخيل إليه وقت الرخاء أنه سهل عليه بذل ماله ونفسه في سبيل الله ليرفع راية ذلك الدين ويدفع عنه كيد المعتدين، فإذا جاء البأس ظهر له من نفسه غير ما كان يتصور، انظر إلى الذين خالفوا أمر النبي ﷺ يوم أحد وطمعوا في الغنيمة، وإلى الذين انهزموا وولوا الأديبار، كيف محصهم الله بتلك الشدائد فعلموا أن المسلم ما خلق للهو واللعب، ولا للكل والتواكل، ولا لنيل الظفر ونيل السيادة بخوارق العادات، وبتبديل سنن الله في المخلوقات، بل خلق ليكون أكثر الناس جدا في العمل، وأعظمهم تفانيا في أداء الواجب اتباعا للنواميس والسنن التي وضعها الله في الخليقة.

وقد تجلى أثر هذا التمحيص في الغزوات التي تلت الواقعة؛ ففي غزوة حمراء الأسد أمر النبي ﷺ ألا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد فامتثل المؤمنون أمره بقلوب مطمئنة، وعزائم صادقة، وهم على ما هم عليه من الجراح المبرحة، والقلوب المنكسرة^(١).

وما تعرضت له الجماعة المؤمنة يوم أحد لا يعني أن قريشا كانت في راحة كاملة، وفي زهو وغرور، بل تعبت تعباً شديداً من شدة أهوال ذلك اليوم العصيب، وما طمعت في المسلمين إلا بعد أن أدب لها.. لكنها لما أرادت أن تجعل المعركة حاسمة قاصمة ومستأصلة وجدت المسلمين أصلب عوداً وأشد قوة وتحملاً، فاكتفت مما ظفرت بالإياب.

ولا يفوتني القول بأن الشدة بعد الرخاء والرخاء بعد الشدة هما اللذان يميزان الخبيث من الطيب ويكشفان عن معادن النفوس وطبائع القلوب وما يعترها من الكدر والصفاء والهلع والصبر، ودرجة ارتباطها بالله والثقة بوعده وعهده، أو القنوط من رحمته والاستسلام للواقع أو البرم به والجموح!

عندئذ تظهر حقائق هؤلاء وهؤلاء وينكشف الزيف والادعاء ويظهر الصدق والإيمان، وتتضح دخائل نفوس الناس جلية ويتطهر الصف من ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من ذلك الاختلاط المبهم في الصف ومن قلة التناسق بين مكوناته وأفراده ومن المندسين فيه المظهرين للإيمان والمبطنين للنفاق!

(١) تفسير المنار، ٢/ ٨١-٨٢.

والله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم المؤمنين والمنافقين وما تنطوي عليه صدورهم وما يصول ويجول في غياهب نفوسهم، ولكن ستنى التداول والابتلاء بالأحداث تكشف المستور المخبوء وتجعله واقعا ملموسا في حياة الناس وتحول الإيمان القلبي إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق المدسوس كذلك إلى تصرف ظاهر يتعلق به الحساب والجزاء؛ والجزاء من جنس العمل.

ولله در الشهيد سيد قطب رحمه الله القائل: "ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء محك لا يخطئ وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة. وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تراخى بالرخاء وتنحل. والنفوس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء وتتجه إلى الله في الحالين وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فيأذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة - وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية - فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء والابتلاء بالهزيمة المريعة بعد الابتلاء بالنصر العجيب - وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابها ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة الله وتوكلاً عليه والتصاقاً بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين"^(١).

إن محنة أحد كانت وفق حكمة الله وقدره وستته في رسله والمؤمنين بهم؛ فقد جرت بأن يدال لأهل الحق مرة ولأهل الكفر أخرى، لكن العاقبة دائماً للمتقين، فإنهم لو كان النصر حليفهم دائماً لدخل معهم الصادقون والمدعون، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو غلبوا دائماً، لم تحصل الغاية من البعثة والرسالة، فاقضت حكمة الله الأزلية وستته الكونية أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز الخبيث من الطيب والصادق من المدعي، ومن ينضم إليهم للحق ومن ينضم من أجل النصر والغلبة.

ثم إن الحكمة من محنة أحد أيضاً "أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار.

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٤٨١.

ومنها: أنه سبحانه هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيتها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يجب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو^(١).

ومنها: أن سنة الله سبحانه في إهلاك الظالمين تقضي بأن يفعل العدو ما يستوجب محقه وإهلاكه، فقيض لهم سبحانه وتعالى من الأسباب التي يستوجبون بها الهلاك والخسران، ومن أعظمها بعد كفرهم بالله وبرسوله وبرسالة القرآن بغيتهم وطغيانهم وتجبرهم ومبالغتهم في إيذاء سيدنا رسول الله ﷺ ومن اتبعه من المستضعفين، ومحاربتهم وتعذيبهم وقتلهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك المؤمنون وتتطهر نفوسهم ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب إهلاكهم.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم؛ وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين وتنقيتهم وتخليصهم وتهذيبهم من الشوائب والذنوب ومن آفات النفوس وتزيين الشيطان، ومن الغفلة وحكم العادة، وتخليص صفهم ممن انضم إليه من المنافقين. فلو تركت تلك النفوس في عافية دائمة مستمرة لم تتمحص ولم تتخلص من تلك الشوائب والعاهات، ولم يتمحص من المندسين فيه المنضمين بأجسادهم مع خبث قلوبهم، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم وسنته في التمييز والتطهير أن قيض لها من الابتلاء والمحن ما يكون كالدواء المر لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بوصفة طيبة ودواء ناجع تزيل عنه ما علق بجسده من الأمراض، كان مصيره الضياع والهلاك، وهكذا النفوس لا بد لها من اختبار وتمحيص لإخراج ما في مكنونها من الدخيل والدغل وتركها صافية نقية واضحة مستقرة على الحق بلا لبس ولا ضباب، فكانت نعمة الباري جل وعلا على الفئة المؤمنة بهذا الابتلاء وذلك الانكسار وقتل من قتل -من خيار الصحابة- تعادل نعمة الله عليهم بالنصر والظفر على العدو، فله عليهم النعمة التامة في الحالتين.

(١) زاد المعاد، ٢/١٣٨-١٤٨. باختصار.

كانت غزوة أحد امتحاناً ثقيلاً الوطأة مزق النقاب مما وارتته الصدور، ومحص السرائر فكشف الستار عن النفاق المخبوء، فتميز الصادقون من الكاذبين، وظهر أمر النفاق جلياً، وظهرت مراتب الإيمان، فبين الذين لهم بعض الميل إلى حطام الدنيا من الغنائم، وتبين من باين الدنيا.

والمؤمنون الصادقون أدركوا خطأهم فتابوا إلى ربهم، واستغاثوا به ليغفر لهم ويثبت أقدامهم في ساحة الوغى، وهذا ما نلمحه من تلك الآيات الكريمة التي نزلت وواست الصحابة عليهم رضوان الله، والتي نحصل من خلالها على نتائج ثلاث:

قال تعالى وتقدس: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ يقابلها: عكوفهم بباب ربهم ليغفر لهم ولإخوانهم الذي خالفوا أمر نبيهم.

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ يقابلها: دعاؤهم ربهم لثبيت أقدامهم في ساحة المعركة حتى يتحقق النصر وترفع راية الدين.

﴿وَمَا اسْتَكْبَرُوا﴾ يقابلها: النصر المبين.

وما تلك الأحداث إلا لتمحيص المؤمنين واختبار قوة صبرهم على الشدائد، قال الله تعالى بعد ذكر أحداث غزوة أحد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران]؛ والتمحيص فرز وتمييز.

والإنسان كثيراً ما يجهل نفسه "ومخابئها ودروبها ومنحنياتها. وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها وحقيقة ما استكن فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير!

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله - سبحانه - بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص.. ثم إذا هو يكشف - على ضوء التجربة العملية وفي مواجهة الأحداث الواقعية - أن في نفسه عقابيل لم تمحص. وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سببها من جديد على مستوى

الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة! ^(١).

أضف إلى ذلك أن ما وقع في أحد كان تربية للجماعة المؤمنة المختارة لقيادة البشرية والأخذ بيدها إلى بر السلامة والأمان.

إن المحنة قد تكون للابتلاء والتمحيص والفرز.. ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة ربانية، استكمالاً لحقيقة الإيمان، ورفعاً للدرجات؛ فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والاختبار، جاء النصر والتمكين وتحقق وعد الله تعالى عن يقين.

أضف إلى ذلك أن حقيقة الهزيمة أشمل من نتيجة معركة من المعارك، والانكسار في غزوة من الغزوات، ولكن الأمر أشمل فالهزيمة هزيمة الروح.. وكلال الهزيمة، وخمود جذوة الإيمان في القلوب. فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت بصماتها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً واستسلاماً للعدو. فأما إذا رفعت الهمم، وشحذت الذمم، وأذكت الشعلة، وبصرت بالمزائق، وبينت الثغرات، وكشفت عن طبيعة الإيمان وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق، وكيف تقتحم العقبات.. فهي السبب المباشر للنصر والتمكين مهها طال الطريق!

وعلى كل حال، فإن الأقدار تنزل بالأمة إما لتذكرها لتنهض من كبوتها، أو لتمتحنها لتزيد ثباتاً ومضياً في الطريق، أو لتعمل على سنن العامة في الإدالة عليها عند استحقاقها لذلك وإبدال لأمة أخرى استحققت الدولة والقيادة.

ولذلك فإن أهم دروس غزوة أحد أنها الدرس المقابل -الذي لا بد منه- لغزوة بدر الكبرى، ففي الأولى (أحد) بينت سنن الهزيمة وفي الأخيرة (بدر) بينت سنن النصر، فلو كانت غزوة بدر الكبرى هي الدرس الوحيد للمسلمين لدفعهم ذلك إلى الغرور والمغامرة دون حدود، وإلى اليأس والقنوط إذا حدث فشل أو هزيمة، ولكن أن تقع غزوة أحد بعد غزوة بدر فذلك هو الذي أوجب التوازن في التصور الإسلامي والتفكير العسكري على مر التاريخ، فالله ينصر عباده المؤمنين المتقين وجنده المجاهدين الصادقين، ولكن لهذا النصر شروط وأسباب منها المعنوية ومنها المادية، وربنا يفعل ما يشاء، ولا راد لقضائه.

(١) في ظلال القرآن، ١/٤٨٢-٤٨٣.

بدروس غزوة بدر الكبرى وعبرها وسننها وبدروس غزوة أُحُد وعبرها وسنن الله فيها انطلق المسلمون ولا زالوا ينطلقون في اقتحام العقبة إلى الله، وبروحانية بدر وبروحانية أُحُد يجب أن يتحرك المسلمون لاستقبال الموعود النبوي بعودة الخلافة على منهاجه المستقيم.

وعلى نور سنة الله في ابتلاء المؤمنين وتمحيص سرائرهم وقوة تحملهم للشدائد تتحقق سنة أخرى، وهي سنة التمكين بجعل العاقبة للمتقين، فلا تمكين بلا ابتلاء واختبار وتمحيص، قال الحق جل ذكره: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ولقد فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت]، وقال جل جلاله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؕ الْآلَاءُ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (١١٤) [البقرة]. هكذا نجبرنا جل وعلا عن سنة الابتلاء، وعن تمحيصه واختباره لعباده؛ ليعلم الصادقين من الكاذبين والمجاهدين من القاعدين.

إنه المنهاج القرآني في تربية الجماعة المؤمنة المجاهدة على النصر والهزيمة، يذيقها تارة حلاوة النصر فتستبشر وتزيد ثقة بربها وعكوفاً ببابه شكراً له على نعمائه المتواليمة، ويذيقها أخرى مرارة الهزيمة والكره والشدة لترجع إليه وتتمسك بأذيال رحمته وقدره، وتعرف أنذاك مواضع ضعفها ومنافذ اضمحلالها، ومزالق أقدامها، فصحيح المسار، وترجع إلى جادة الصواب. وفي كلتا الحالتين تخرج بالزاد العظيم والنفع العميم، وتمضي سنة الله لا تتخلف ولا تحيد ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) [غافر].

إن النفس البشرية لا تنتصر في المعارك القتالية إلا حين تنتصر على المطامع الداخلية من شهوات ومعاص وملذات. إذ لا قيمة للانتصارات ما لم تقم على أساس المنهاج النبوي في الانتصار على النفس، ليكون النصر لله ولرفع راية الدين، ولإعزاز كلمة الحق، وتحقيق العدل في الأرض. وما دون هذا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية ولا خير من ورائها يرجى.

ولا قيمة للنصر وفي صفوف المسلمين طائفة من المنافقين يثبطون الهمم، وينخذلون في القتال، ويدسون الدسائس، فلا تمكين ولا نصر حتى يتطهر الصف المسلم من هذه الجرائم السامة، وحتى يتميز الإيذان من النفاق المدسوس، وصدق الله تبارك وتعالى القائل

في محكم التنزيل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ (١٧١) [آل عمران].

٣- سنة التمييز (كشف المنافقين):

إن من سنن الله في الجهاد القتالي أن جعله مفرزة لكشف النفاق المدسوس؛ ذلك أن المسلمين في حال الرخاء والسعة يدخل في صفهم الكثير من المنهزمين والمنافقين ممن يطمعون في تحقيق مصالحهم المادية وأغراضهم الدنيوية وهم لا يريدون إعزاز كلمة الله ونشر دعوة الإسلام، وقد يتصنعون الصدق والإخلاص، فيظهرون المحبة ويبطنون البغضاء، فيخفي أمرهم على كثير من المسلمين الصادقين وأكبر كاشف لهم هو الجهاد في سبيل الله؛ لأن في الجهاد في سبيل الله بذلاً لأعلى ما يملكه الإنسان - غير دينه - وهو روحه؛ والمنافق ما نفاق وما تظاهر بالإيمان والإخلاص والمحبة إلا ليحفظ روحه ويوفر لنفسه ما تشتهيه من زخرف الدنيا وغرورها، فإذا نادى منادي الجهاد والخروج لقتال أعداء الله المتربصين بالمؤمنين الدوائر الذي قد يعرضه ذلك الخروج والنفير لفقد روحه ومشتهيات نفسه انكشف نفاقه المدسوس للناس، قال الحق جل ذكره: ﴿...فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ

[محمد].

ولذلك فإن معرفة العدو الداخلي فيه فوائد لا تحصى؛ لأنه قد يكون أخطر من العدو الخارجي، فالعدو الخارجي عداوته ظاهرة، أما هؤلاء فيبطنون ما لا يظهرون، ولذلك لما ينكشف أمرهم يمنعون من الخروج للقتال مع المسلمين، لأن في خروجهم تثبيطاً للمؤمنين، قال الله عز اسمه في المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خَلْقَكُمْ يُغْوَوْنَكُم بِالْفِتْنَةِ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) [التوبة].

لا جرم أن المنافقين من أخطر أعداء الدعوة الإسلامية، وأشد المعوقات لسيرتها وتقدمها، فهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، ليندسوا في صفوف المسلمين، من داخله يكيدون للإسلام ويتآمرون ضده، ويوجهون ضرباتهم إليه، يظهرون للمؤمنين أنهم معهم ليدفعوا عن أنفسهم ما يستحقون من الجزاء والعقاب، وليحققوا مبتغاهم في محاربة الإسلام، من غير أن ينكشف أمرهم أو توجه إليهم الأنظار، ليضمنوا بذلك

استمرار كيدهم للإسلام والمسلمين وحرهم للدعوة الإسلامية، وهذا أشد أثرا في نخر كيان المجتمع الإسلامي وتخريبه من ضرب الكفار المجاهدين، الذين يحسبون حسابهم، ويمكن الوقوف أمامهم، والاستعداد لمواجهةهم، والحد من ضررهم، لوضوحهم أمام المؤمنين، ووضوح أماكنهم ووسائلهم.

لهذا فالمنافقون هم أعوان كل عدو للمسلمين وأولياؤه، ولذلك حذرنا ربنا تبارك وتعالى منهم ومن شرورهم ودسائسهم: ﴿...هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ [المنافقون].

فوجب على المسلمين أن يتحاطوا من المنافقين ويأخذوا حذرهم منهم ويجاهدوا هؤلاء الأعداء جهادا غليظا بالحجة والبيان والكلمة الدامغة.

وحسبنا دليلا على نفاقهم المدسوس ما حدث في غزوات النبي ﷺ وسراياه التي فضحتهم، وكشفت عن حقيقتهم وخبائهم:

- في غزوة بدر الكبرى:

أحزبهم ذلك النصر الذي حازه المسلمون، فأجمعوا كيدهم، وأعلن رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول "أن الأمر قد توجه، فأظهر إسلامه، ودعا جنده لإظهار إسلامهم، واستمر عملهم الخفي لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم وهم على علم بما يبتغون من حقد، وبما تخفي نفوسهم من شر، فالإيمان لم يدخل قلوبهم، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضد المسلمين عندما تنهياً لهم الفرص، وقد أظهروا الإسلام خوفاً وتخطيطاً وعملوا بجانب اليهود"^(١).

- وفي غزوة أُحد:

كان حزب النفاق بالمرصاد للدعوة الإسلامية؛ حيث انخذل رأس النفاق ابن أبي بن سلول ومعه ثلاثمائة مقاتل -ما يشكل ثلث العسكر- قبل طلوع فجر يوم المعركة، استهانة منه بالإسلام في أحلك الفترات، ولا عجب في هذا؛ لأن هذه من أبرز خسائس المنافقين، فأراح الله المسلمين منهم، وطهر الله الصف المسلم من المنافقين وذوي العقيدة المزعجة.

(١) التاريخ الإسلامي، الجزء الثاني (السيرة)، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط ٢/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ٢/٢٢٣.

وكان انسحاب عبد الله بن أبي بن سلول درسًا لم ينسه المسلمون أبدًا، حتى أن خليفة رسول الله ﷺ سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ لم يسمح للمرتدين بعد وفاة سيد الوجود ﷺ بالانضمام إلى جيوش الفاتحين.

فكشفت انسحاب أهل النفاق من المعركة عن حقيقة أولئك الذين يتظاهرون بلباس الإيمان، فافتضح النفاق بسماته المتجلية في النكوص والجبن وتولية الأدبار.

أما أهل الإيمان الذين حلّقوا عاليًا لم يزعزعهم ذلك الانخزال والانسحاب، بل واصلوا الجهاد القتالي، وثبتوا مع رسول الله ﷺ، فهؤلاء هم الذين يكتبون التاريخ المشرق بدمائهم الزكية.

هذه هي الرجولة التي تبني دعائم العزة والكرامة، وتجعل العدو يولي دبره ويستسلم لبسالة وشجاعة أولئك الرجال الأفاضل الذين قام بهم صرح الإسلام، بتفانيهم في بذل الغالي والنفيس في سبيل الله، وإيثارهم لما عند الله وتقديم أرواحهم في سبيل حب حبيب الله ﷺ.

أما أهل النفاق والخيانة والغدر والخذلان فلا يأتي منهم خير، بل خروجهم مع المؤمنين يزيدهم خبالًا وتثييطًا للهمم.

وفي هذه الغزوة شَمِتَ المنافقون بما أصاب النبي ﷺ وأصحابه ﷺ من القرع، وقالوا كلمتهم كعادتهم وكما هو من صفاتهم التي جبلوا عليها في المكر والشهامة والوقية.

- وفي غزوة بني قينقاع:

ظهر ذلك الحقد والحسد الذي ملأ شغاف قلوب المنافقين، إزاء المسلمين وقيادتهم، ولذلك لما نقض أهل الغدر من يهود بني قينقاع عهدهم مع رسول الله ﷺ حاصرهم النبي ﷺ حصارًا شديدًا دام خمسة عشر يومًا، فنزلوا على حكمه ﷺ، فأمر بهم فكتفوا.. فما كان من أهل النفاق إلا ليتدخلوا في هذه اللحظة ليعملوا لصالح اليهود؛ فتدخل زعيمهم ابن أبي بن سلول كعادته في الكيد لدعوة الإسلام، فألح على رسول الله ﷺ بأن يحسن في مواليه من اليهود، وكرر عليه ذلك، والنبي ﷺ يعرض عنه، والخبيث مصر على ذلك، فلما أساء الأدب وتجراً على مقام النبوة قال رسول الله ﷺ: "خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم! وتركهم من القتل وأمر بهم أن يجلوا من المدينة"^(١).

(١) طبقات ابن سعد، ٢/٢٩.

- وفي إجلاء بني النضير:

سنة أربع من الهجرة: تم الكشف عن نوايا المنافقين، وخططهم الماكرة، وأساليبهم الخبيثة للقضاء على الدعوة الإسلامية، ولذلك لما سمعوا ما يراد بإخوانهم وأولياهم من يهود بني النضير "أرسلوا إليهم فقالوا لهم: إنا معكم محيانا ومماننا إن قوتلتهم فلکم علينا النصر وإن أخرجتم لم نتخلف عنكم، وسيد اليهود أبو صفية حيي بن أخطب، فلما وثقوا بأمانى المنافقين عظمت عزتهم ومناهم الشيطان الظهور، فنادوا النبي ﷺ وأصحابه: إنا والله لا نخرج ولن قاتلتنا لقاتلتك.

فمضى النبي ﷺ لأمر الله تعالى فيهم فأمر أصحابه فأخذوا السلاح ثم مضى إليهم وتحصنت اليهود في دورهم وحصونهم فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أزقتهم وحصونهم كره أن يمكنهم من القتال في دورهم وحصونهم، وحفظ الله عز وجل له أمره وعزم على رشده فأمر بالأدنى فالأدنى من دورهم أن تهدم وبالنخل أن تحرق وتقطع، وكف الله تعالى أيديهم وأيادي المنافقين فلم ينصروهم، وألقى الله عز وجل في قلوب الفريقين كلاهما الرعب" (١).

- وفي يوم الرجيع:

قال المنافقون كلمتهم كعادتهم في بث الشكوك؛ ولذلك: " لما أصيبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من الخير بالذي أصابهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة] أي لما يظهر من الإسلام بلسانه ويشهد الله على ما في قلبه وهو مخالف لما يقول بلسانه ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة] أي ذو جدال إذا كلمك وراجعك" (٢).

- وفي غزوة بني المصطلق بالمريسيع:

هذه الغزوة "إن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف، من حيث الوجهة العسكرية، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي،

(١) مغازي ابن عتبة، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ١١٩.

وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبيل والكرامة وطهارة النفس^(١).

اندلعت فتنة بين المهاجرين والأنصار، كان سببها أهل النفاق ورأس المنافقين ابن أبي بن سلول محاولة منه استهداف وحدة الجماعة الإسلامية، ولولا التدخل النبوي السريع لأضرت نار فتنة عظيمة لا يخبو أوارها، وحرب استنزافية لا يعلم حدودها إلا الله.

قال ابن هشام: "فبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء-[المريسيع]- وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود^(٢) يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسان بن وبر الجهني^(٣)، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين؛ فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال: أو قد فعلوها، قد نافرنا وكاثرنا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله ﷻ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل^(٤) ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر^(٥) فليقتله، فقال له رسول

(١) الرحيق المختوم، ص ٢٩٨.

(٢) هو: جهجاه بن سعيد وقيل بن قيس وقيل بن مسعود الغفاري شهد بيعة الرضوان بالحديبية شهد غزوة المريسيع، وعاش جهجاه إلى خلافة عثمان. الإصابة، ترجمة رقم: ١٢٤٧، ١/٥١٨.

(٣) هو: سنان بن وبر الجهني كان حليفا في بني سالم من الأنصار. شهد المريسيع مع رسول الله ﷺ. طبقات ابن سعد، ٤/٣٤٩.

(٤) سورة المنافقون: من الآية ٨.

(٥) هو: عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل، كان: يكنى أبا بشر، وقيل: كان يكنى أبا الربيع، وأمه فاطمة بنت بشر بن عدي بن أبي بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج حلفاء بني عبد الأشهل. وأسلم عباد بالمدينة على يد مصعب بن عمير وذلك قبل إسلام أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ. شهد بدرًا وكان فيمن قتل كعب بن الأشرف، وشهد أحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى بني سليم ومزينة يصدفهم فأقام عندهم عشرة وانصرف إلى بني المصطلق من خزاعة، وشهد يوم اليمامة وكان له يومئذ بلاء وغناء ومباشرة للقتال وطلب للشهادة حتى قتل يومئذ شهيدا سنة اثنتي عشرة وهو يومئذ ابن خمس وأربعين سنة. طبقات ابن سعد، ٣/٤٤٠-٤٤١.

الله ﷺ "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" لا ولكن أذن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال ولا تكلمت به. - وكان في قومه شريفا عظيما -، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه^(١).

ولتنطفئ نار الفتنة التي أضرمها رأس النفاق مشى النبي ﷺ بالمسلمين "يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي"^(٢).

فأنزل الله تعالى عقب ذلك سورة المنافقين وما كان من أمر رأس النفاق، فلما نزلت "أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: "هذا الذي أوفى الله بأذنه"^(٣).

لقد دبرَ المنافقون وراء جُدُرِ النفاق والفجور دسيسة - كما رأينا - لإشعال نار الفتنة بين المسلمين، لكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، جعل مكرهم عليهم، وكيدهم في نحورهم، وأفسد عليهم رأيهم، فكلما جاؤوا من كثرة خبثهم وسوء مكرهم بواحدة من تلك الدسائس أتاهم الله ﷻ بحكمة تدبيره على يد رسوله الكريم ﷺ بما يبطل كيدهم ومكرهم، ويرغم أنوفهم، ويذل غرورهم، ويفسد عليهم رأيهم، ويجعل تدميرهم في تدبيرهم.

- حديث الإفك^(٤) -

وفي غزوة المريسيع قام المنافقون بمؤامرات للطعن في الإسلام ونبى الإسلام، فتكلموا في شرف العفيفة النقية الطاهرة العاملة الفقيهة المحدثة الصديقة بنت الصديق أم

(١) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢١٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢١٧.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢١٧. مغازي ابن عقبة، ص ٢٣٠.

(٤) انظر هذه الحادثة بتفصيل في: المغازي النبوية للزهري، ص ١١٦ وما بعدها. طبقات ابن سعد، ٢/ ٦٥ وما بعدها.

المؤمنين عائشة عليها من الله الرضوان، وكانت قد خرجت مع النبي ﷺ في هذه الغزوة؛ كعادته في اصطحاب أحد أزواجه معه في غزواته.

ومجمل القصة: أن الجيش لما قفل راجعا إلى المدينة بعد انتهاء المعركة ذهبت العفيفة الطاهرة أم المؤمنين لقضاء حاجتها وتأخرت لعقد لها فقدته، فجعلت تبحث عنه، ولما عادت وجدت جنود المسلمين قد رحلوا بهودجها ظنا منهم أنها بداخله وكانت خفيفة الوزن، فبقيت في مكانها حتى نامت، وكان صفوان بن المعطل رضي الله عنه ^(١) متأخرا عن الجيش فأناخ لها راحلته فركبت وما كلمها بكلمة واحدة، حتى ألحقها بالجيش، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل واحد على حسب ظنه، واستغل الموقف عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول وقال كلمته الخبيثة، - لا ألوث قلبي بذكرها-، فأثار الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، فكان في ذلك إيذاء لرسول الله ﷺ وأهله، وهو حديث الإفك الذي كان في ذاته إثما عظيما، وإفكا مبينا، وفي آثاره خطيرا في المجتمع، من شأنه أن يشيع الفاحشة في المجتمع، ويدنسه بظهور الخبث والرذيلة فيه، وفوق ذلك هجوم على الحضرة النبوية، وفيه استهانة بمقام صاحب الرسالة الخالدة النبي الخاتم ﷺ الذي أكرمه الله تعالى في السموات وفي الأرض، ورفع ذكره في العالمين وجعله إسوة وقدوة. وقال فيه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب].

وقد تولى كبر هذا الحديث رأس المنافقين ابن أبي بن سلول، فأنزل الله تعالى قرآنا يتلى إلى يوم القيامة يبرئ العفيفة الطاهرة أمنا عائشة رضي الله عنها، ويفضح المنافقين ويتوعدهم بالعذاب الشديد، قال الحق جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُم خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور].

ويعتبر حديث الإفك من أفسى المحن التي تعرض لها النبي ﷺ، فلقد حاول النفاق المدسوس أن يقتلع الإسلام من جذوره، ولكن مشيئة الله تعالى وقدرته وسنته في نصر رسله كانت لهم بالمرصاد: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا...﴾ [الأحزاب]، ﴿...وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال].

(١) هو: صفوان بن المعطل بن ربيعة بن خزاعي بلفظ النسب بن محارب بن مرة بن فالج بن ذكوان السلمى ثم الذكواني، سكن المدينة وشهد الخندق والمشاهد، واتهمه المنافقون في حديث الإفك، قتل صفوان في خلافة عمر في غزاة أرمينية شهيدا سنة ١٩ هـ. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٠٩٣، ٤٤٠/٣.

- وفي غزوة الأحزاب؛

أثار المنافقون الاضطراب والقلق، وألقوا الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين يومها، قال الحق جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]؛ محاولة منهم من التنقيص من قيادة المسلمين وقائدهم الأعظم ﷺ، ولذلك نجدهم في هذه الغزوة يتسللون لوإذا إلى أهليهم ليتحصنوا في منازلهم بغير إذن من رسول الله ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٦٣].

ففي هذه الغزوة تميز أهل الإيثار بإيمانهم وصدقهم وانكشف أهل النفاق بجبنهم وتخاذلهم وفق سنة التمييز.

وهنا لا يفوتني القول أن من وسائل المنافقين "لخدمة الكفر والقضاء على هذا الدين التخذيل عن الجهاد والتشكيك بوعد الله بالنصر، وإشاعة روح اليأس والهزيمة في الأمة وحثهم في ذلك أنهم لا يستطيعون مواجهة جيوش المشركين واليهود تدمهم فارس والروم - كما يقول المنهزمون اليوم: اعترفوا بإسرائيل - لأنهم عاجزون عن الجهاد والمواجهة"^(١).

- وفي غزوة خيبر:

قام أهل النفاق يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين ابن أبي بن سلول إلى يهود خيبر: "أن محمدا قد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهودة بن قيس إلى غطفان: يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين. وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين"^(٢).

(١) "من أنصاري إلى الله؟"، إبراهيم زيد الكيلاني، افتتاحية مجلة الفرقان الأردنية، السنة الثامنة، العدد ٥٨، شوال ١٤٢٧هـ - تشرين ثان ٢٠٠٦م.

(٢) الرحيق المختوم، ص ٣٣٤.

- وفي غزوة تبوك (١):

هذه الغزوة التي فضحت دسائس المنافقين وخبائهم، هذه الفئة الخبيثة التي نبتت في المجتمع الإسلامي، المستهزئة بالفئة المؤمنة المستضعفة، وفي هذه الغزوة ثبت المنافقون بعضهم بعضاً، وقال بعضهم لبعض لا تنفروا في شدة الحر وجذب الأرض، وقد أخبر سبحانه وتعالى عما بيته أولئك فقال فيهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة].

وفي هذه الغزوة نزلت سورة التوبة التي تمثل دستوراً كاملاً للجهاد للقتالي، وبيانا شاملاً لنظامه، ودرسا وافيا لدواعيه، وإعلانا خالدا لرفع رايته، وتفصيلا واضحا لضوابطه، ومنشورا عسكريا في تفصيل مهماته ووظائفه.

بمناسبة هذه الغزوة التنظيمية وقع فرز الخبيث من الطيب وتمييز المؤمنين المجاهدين الصادقين الذين نافحوا ودافعوا بأرواحهم وأموالهم عن رسول الله ﷺ والمنافقين الأعراب المتخلفين عن سيدنا رسول الله ﷺ الذين رغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ حسب التعبير القرآني. ولم ينهضوا مع رسول الله ﷺ في غزوته الشاقة تلك التي كانت في وقت العسرة، ولم يواسوه، ولم يقدوه بأنفسهم، ولم يبذلوا جهدا في نصرته وإعلاء رسالته.

هذه الغزوة -غزوة العسرة- التي جاءت بعد سنوات جذب وجاءت في عز الصيف، وشدة الحرارة، وصيف الجزيرة، وجاءت وقت طيب التمر، وقصدت مسافة طويلة عبر الرمال الحارة القاحلة إلى مشارف الشام. كانت المحك العملي في تمييز المؤمن من المنافق، والمجاهد من القاعد.

مسجد الضرار: من أساليب المنافقين للكيد لهذا الدين التظاهر بزي المؤمنين، والتمسح بمسوح الصالحين؛ فبهذه الوسيلة بنوا مسجد الضرار بجوار مسجد قباء محاولة خطيرة لهدم الإسلام والتفريق بين المؤمنين، كل ذلك تحت ستار التجمع على العبادة، فكان أصحاب أولئك المسجد لما تجهز النبي ﷺ للخروج إلى تبوك أتوه فقالوا له: "إنا قد بنينا

(١) تبوك: قرية بين وادي القرى والشام، بها عين ماء ونخل، وكان لها حصن خرب، وإليها انتهى النبي ﷺ من غزوته المنسوبة إليها. مراصد الاطلاع، ١/٢٥٣. معجم البلدان، باب التاء والباء وما يليهما، حرف التاء، ٢/١٤-١٥. معجم ما استعجم، ١/٣٠٣.

مسجدا لذي العلة والحاجة وليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه؛ فقال: إني على جناح السفر، وحال شغل"^(١).

ولكن الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى أخبر نبيه ﷺ بخطرتك تلك الخطئة الخبيثة، وذلك الشعار المرفوع باسم الإسلام ليتم به محاربة الإسلام وتقويض أركانه، ولذلك لما انتهى النبي ﷺ من تبوك وقفل راجعا إلى المدينة، حتى كانت بينه وبين المدينة ساعة من نهار أنزل عليه سيدنا جبريل ﷺ بالوحي يخبره بمسجد الضرار: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ سُبْحَانَ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨) [التوبة]، ونهي عن الصلاة فيه: ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ سُبْحَانَ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨) [التوبة].

فدعا النبي ﷺ "مالك بن الدخشم"^(٢)، أخا بني عوف ومعن بن عدي^(٣) أو أخاه عاصم بن عدي^(٤)، فقال: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلها، فاهدماه وحرقاه"^(٥).

ومجمل القول: لقد سلك سيد الوجود ﷺ مع الذين يبتغون الكفر ويتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء؛ يقبل منهم أذارهم المختلفة ويستر خبثهم ومكرهم، ويتكرم عن فضحهم وكشف خباياهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة لخير من

(١) سيرة ابن هشام، ٤/٤١٠.

(٢) هو: مالك بن الدخشم ابن مالك بن الدخشم بن مرضخة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج وأمه عميرة بنت سعد بن قيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج. شهد مالك بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. طبقات ابن سعد، ٣/٥٤٩.

(٣) هو: معن بن عدي بن الجد بن العجلان البلوي حليف الأنصار وهو أخو عاصم بن عدي، ذكره ابن إسحاق فيمن شهد أحدا، قتل معن بن عدي يوم اليمامة شهيدا. الإصابة، ترجمة رقم: ٨١٦٤، ١٩١/٦.

(٤) هو: عاصم بن عدي وشهد عاصم بن عدي بن الجد بن العجلان، قال محمد بن عمر: كان يكنى أبا بكر، شهد أحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات سنة خمس وأربعين بالمدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ؓ، وهو ابن خمس عشرة ومائة سنة. طبقات ابن سعد، ٣/٤٦٦.

(٥) سيرة ابن هشام، ٤/٤١٠.

مشى على الأرض وسلم عليه الحجر والشجر. فإذا تلبس أحدهم بخيانة تهدر دمه، وتزهق روحه؛ تجاوز عنه حتى لا يقال: إن محمداً يقتل أصحابه وما لهم حظ من الصحبة، ولا أدركوا لها معنى، ولكن هكذا سيقول الناس.

ولو أن هذه الفئة المنافقة كان في قلبها ذرة من خير لأسرتهم هذه الرحمة وذلك الحلم وتركوا مكرهم وكيدهم وخبثهم وانخلعوا من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين وأعلنوا توبتهم أمام الناس أجمعين، لكن تلك الأخلاق النبوية المحمدية وذلك الأسلوب الراقي في التعامل معهم لم يزداهم على الله ورسوله إلا استكباراً وجرأة فزاد اقتياتهم وربت شرورهم، وأضرت نيران العداوة في قلوبهم، ولم يبق بد من كشف خبثهم، وإظهار دسائسهم، وإشعار المجتمع المسلم بما تنطوي عليه سريرتهم وغياهب نفوسهم.

وقد نزلت الآيات القرآنية أخيراً تندد بما فعل أهل النفاق، وتهدم الأسوار التي يتسترون خلفها؛ وكانت ألعابهم وتحاييلهم قبل "غزوة تبوك" وبعدها هي القشة التي قصمت ظهر البعير، والنهاية الحاسمة للساحة المحمدية التي صالوا وجالوا بين جوانبها، ومرحوا في سعتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها فأمر سيد الوجود ﷺ أن يعلن على الناس ذبذبتهم وهروبهم، ويكشف دسائسهم، وكلف ألا يقبل منهم وألا يصلي عليهم أبداً، وألا يستغفر لهم، بل عرف بأنه مهما استغفر لهم فلن يجاب استغفاره، ثم طوبل المؤمنون كافة أن يقاطعوه.

هكذا كشفت سنة الجهاد النقاب عن وجه أولئك الذين يدسون الدسائس، ويضرمون نيران الفتن، ويوالون الكافرين.

ولهذا أمرنا الله سبحانه وتعالى بجهادهم عندما يفتضح أمرهم، فقال الحق جل وعلا: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [التحریم].

إن علماءنا الجللة الذين كانوا حديثي العهد بجهاد النبي ﷺ اعتبروا أن الغلظة على المنافقين والاكفهرار في وجوههم مواجهة كافية، لها أثرها في ردعهم، وجهاداً ناجعاً يجد من مكائدهم. ولا شك أن قدراً كبيراً من إغلاظ الكلام للمنافقين يصبح ضرورة في مستقبل الإسلام المرتقب لفضح المنافقين ودسائسهم وألعابهم وخداعهم. ونحذر من المنافقين

بين ظهرانينا ونحترز منهم، حتى إذا أبدوا صفحة وجههم، وكشفوا سترهم، وظهرت دسائسهم، وفعلوها مآكرة مكر السيئ أو عنيقة مُعتدية أو مآكرة خبيثة، كان حد السنان عليهم هو الرفق، وسيف الإسلام وحدوده هي الصدق.

٤- النصر للتقوى والعاقبة للمتقين:

إن من سنن الله المطردة أن النصر للتقوى والعاقبة للمتقين؛ قال الحق جل وعلا: ﴿...وَكَاثَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) [الروم]، وقال جل ثناؤه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) [القصص]؛ ولا بد لتتحقق هذه السنة الإلهية في نصر المؤمنين وجعل العاقبة والخاتمة للمتقين من بذل الجهود في مدافعة أهل الباطل، والابتلاء في طريق الحق ليتحقق النصر؛ لأن الأمور بخواتمها والعاقبة للمتقين، والنصر لعباد الله الصالحين، وقد يتأخر النصر لحكمة إلهية ومشيتة ربانية، كما حصل في صلح الحديبية، تأخر النصر ليتحقق نصر أكبر من الذي انتظره المؤمنون. وما يفعل ربنا تبارك وتعالى إلا خيرا.

إن سنة الله تعالى "في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذبهم أو كذب عليهم، فأولئك ينصرهم ويعزهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة"^(١).

فالعاقبة للمتقين؛ لأنهم هم أهلها، وهم الذين يصلحون لوراثة الأرض بإيمانهم وتقواهم، وينشرون فيها الحق ويقومون لله بالقسط، ويقتحمون العقبة إلى الله، وينشرون في الأرض القيم الحسنة والحقائق والمبادئ الفاضلة، ويطردون الكفر ومعه الفقر، وينقضون صروح الظلم والبغي والعدوان. أما المستكبرون الذين يعيشون في الأرض فسادا فلا عاقبة لهم في الأرض، لأنهم يهلكون الحرث والنسل، وينشرون الرذيلة ومبادئ الظلم والباطل والطغيان، وأول ما يدمرون أنفسهم ويستأصلون دولتهم ويهلكون أشخاصهم.

إنها سنة من سنن الله الماضية في عباده لا تتخلف ولا تحيد على مر التاريخ الطويل: العاقبة للمتقين.

(١) كتاب النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: أبو صهيب الرومي وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط ١/١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢ م، ص ٣٦١.

- غزوة أُحُد:

ابتليت الفئة المؤمنة ثم كانت العاقبة لها بعدما استمرت في الجهاد ولاحقت الكفار إلى حمراء الأسد؛ ولذلك "لما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو؛ فأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن. فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم" (١).

فخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين الصادقين حتى انتهى إلى حمراء الأسد، "فأقام بها الاثني والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة" (٢).

قال الحق جل وعلا في شأن غزوة أُحُد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران]؛ أي أيها المؤمنون: "أنتم الأعلىون بالنصر والظفر في العاقبة وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة وإن جندنا لهم الغالبون أو أنتم الأعلىون شأننا لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقاتلهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر أو لأن قتالكم في الجنة وقتلهم في النار" (٣).

ولتعتبر الأمة من غزوة أُحُد وصف القرآن الكريم أحداثها وصفا دقيقا، سلط عليها أنواره البهجة لتستبين بأحداثها ووقائعها الأمة المسلمة في كل زمان ومكان، وقد دعا القرآن الكريم أثناء حديثه عن الغزوة المؤمنين إلى التأمل في مصير الأمم الغابرة التي

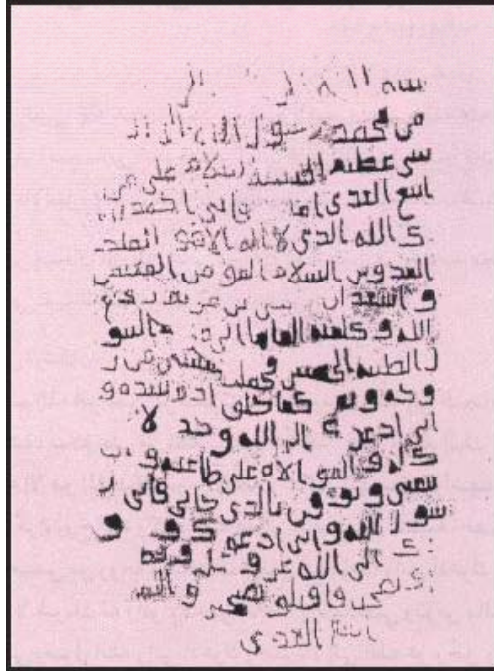
(١) سيرة ابن هشام، ٥٦/٣. طبقات ابن سعد، ٤٨/٢-٤٩. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١١٣. تاريخ الطبري، ٨٩/٢-٩١. تهذيب الخصائص النبوية الكبرى للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، هذبه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١٤١٠هـ، ص ١٥٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ٥٧/٣-٥٨. طبقات ابن سعد، ٤٨/٢-٤٩. جوامع السيرة، ص ١٠٦.

(٣) تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/د، ت، ١/١٨٤.

حقت عليها كملة العذاب، كما ذكرهم بسنن الله وبين لهم الحكمة فيما وقع في تلك الغزوة، يتتلون فتكون العاقبة لهم، كما ضرب لهم الأمثال بالمجاهدين السابقين الذين قاتلوا مع أنبيائهم ورسلمهم، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ونصرة دينه، وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم، وما رضخوا واستكانوا للعدو، بل ثبتوا وواصلوا جهادهم في سبيل الله، ونصرتهم لدين الله.

-مكاتبة الملوك والأمراء^(١):

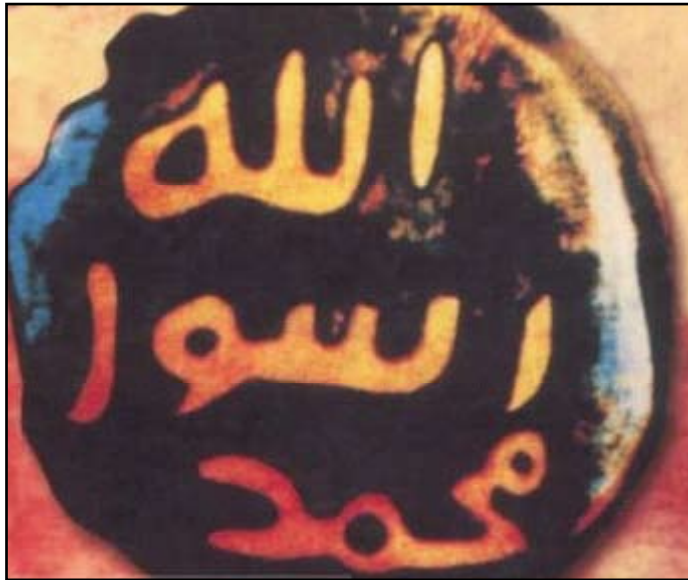


وفي شهر ذي الحجة الحرام من العام السادس من الهجرة النبوية كتب سيد الوجود ﷺ رسائله إلى أمراء وملوك عصره: إلى هرقل عظيم الروم، والمقوقس في مصر، والنجاشي في الحبشة، وكسرى في فارس، والمنذر بن ساوي العبدي بالبحرين، والحارث بن أبي شمر الغساني، وجيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان، وإلى سادة العرب ووجهائها..

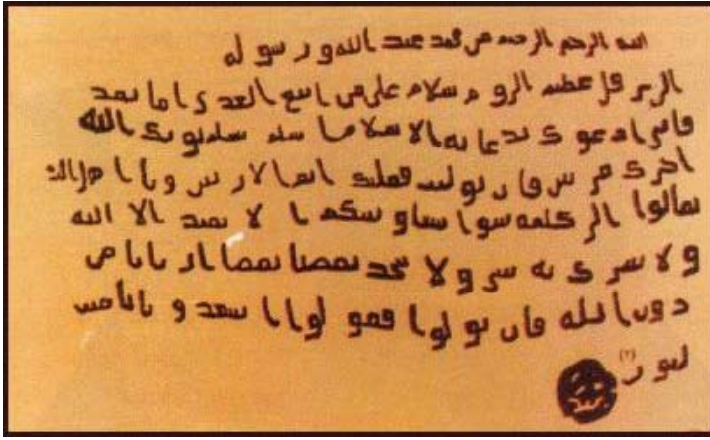
(١) خريطة كتب الرسول الأعظم إلى الملوك والأمراء منقولة من: أطلس السيرة النبوية، شوقي أبو الخليل، ص ١٦٣.



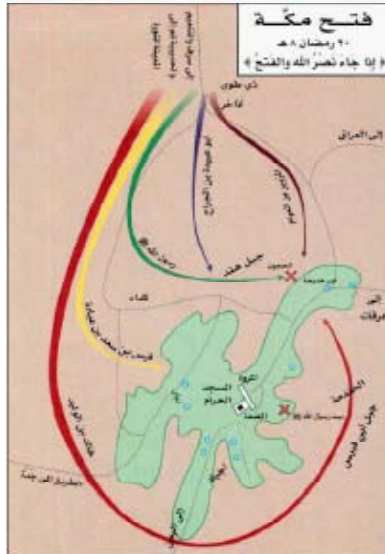
وكانت تلك الرسائل محتوما نقشها: (محمد رسول الله) لأنه كان من عادة الملوك لا يقرؤون إلا كتابا محتوما، وكان من يحمل تلك الرسائل يعرف لغة القادة والأقوام الذين حمل إليهم تلك الكتب.



ولم تمر سوى أعوام قليلة حتى خضعت تلك الأقوام والإمبراطوريات العظيمة التي وصلتها كتب النبي ﷺ لدين الإسلام دين الرحمة والسلام، وتفيأت ظلال عدله وسهاحة شريعته، وتحققت سنة الله بإظهار الدين في العالمين، وجعل العاقبة للمتقين، كما تحققت ما بشر به النبي ﷺ أصحابه من ظهور الإسلام وسريان نوره في ربوع الأرض.



-الفتح الأعظم لمكة المكرمة^(١):



(١) خريطة فتح مكة نقلتها من: أطلس السيرة النبوية، ص ١٩٨، أطلس القرآن، شوقي أبو الخليل، ص ٢٥٩.

ثم توالى الغزوات وكانت العاقبة فيها للمتقين، حتى كان الفتح المبين - في شهر رمضان سنة ثمان -، فرفعت راية الإسلام، وانكسرت شوكة الشرك والكفر، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وهنا لا بد من وقفة عند أحداث هذا الفتح نتأمل فيها لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً هياً له أسبابه؛ كان سبب الفتح كما ذكر أهل السير أن نقضت قريش ذلك الصلح والعهد والميثاق الذي أبرمته مع النبي ﷺ حيث تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة التي انضمت يوم الصلح إلى رسول الله ﷺ، وذهب أبو سفيان إلى المدينة ليسترضي رسول الله ﷺ ويعتذر عما وقع، لكن أمر الله كان قدراً مقدوراً، كان ذلك سبباً للفتح الأعظم.

أمر النبي ﷺ أصحابه بالتهيؤ لدخول مكة فتجهز الناس، ومضى رسول الله ﷺ لسفره، "وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ، وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكُدَيْدِ، بين عسفان وأمَج (١) أفطر" (٢).

ثم مضى رسول الله ﷺ "حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين فسبعت (٣) سليم وبعضهم يقول ألفت (٤) سليم وألفت مزينة. وفي كل القبائل عدد وإسلام وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران (٥)، وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ" (٦).

ولما رأى العباس بن عبد المطلب جيش المسلمين قال: "واصبح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر" (٧).

(١) أمج: بلد من أعراض المدينة. معجم البلدان، باب الهمزة والميم وما يليهما، حرف: الهمزة والألف.
(٢) سيرة ابن هشام، ٣٠٨/٤. تاريخ الطبري، ١٨٢/٢-١٨٣. في مهبط الوحي، محمد بديع شريف، ص ٨٥. المغازي النبوية، للزهري، ص ٨٦. أنساب الأشراف، ٣٥٣/١.

(٣) أي صارت سبعمائة.

(٤) أي صارت ألفاً.

(٥) مرّ الظهران: موضع بينه وبين البيت [الحرام] ستة عشر ميلاً، سميت مر لمرارة مياهها. الروض المعطار، حرف الميم، ص ٥٣١.

(٦) سيرة ابن هشام، ٣٠٩/٤. طبقات ابن سعد، ١٣٤-١٣٥. عيون الأثر، (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، ٢/٢١٧. إمتاع الأسماع، ١/٣٥٧. المغازي النبوية، للزهري، ص ٨٦.

(٧) سيرة ابن هشام، ٣١٠/٤.

بينما رسول الله ﷺ في ذلك المكان جاءه أبو سفيان مع العباس بن عبد المطلب فدخل في الإسلام فحقت دمه ودم قومه، فدخل سيدنا رسول الله ﷺ مكة وأعطى الأمان كل من لم يقاتل تعظيماً لبيت الله الحرام، فدخل كثير من الناس في الإسلام منهم رؤوس أهل مكة، فطاف رسول الله ﷺ بعد دخوله بالبيت سبعا، وتوضأ بماء زمزم.

قال الإمام ابن سعد -رحمه الله-: " وطاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً؛ فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فيقع الصنم لوجهه، وكان أعظمها هبل وهو وجه الكعبة، ثم جاء إلى المقام وهو لاصق بالكعبة فصلى خلفه ركعتين، ثم جلس ناحية من المسجد وأرسل بلالا إلى عثمان بن طلحة^(١) أن يأتي بمفتاح الكعبة، فجاء به عثمان، فقبضه رسول الله ﷺ وفتح الباب ودخل الكعبة، فصلى فيها ركعتين، وخرج فأخذ بعضادتي الباب والمفتاح معه، وقد لبط بالناس حول الكعبة؛ فخطب الناس يومئذ ودعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال: "خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم"، ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب وقال: "أعطيتمكم ما ترزأكم ولا ترزؤونها"^(٢).

ولا خلاف أنه لم يجر في فتح مكة قسم ولا غنيمة ولا سبي، وذلك لما عظم الله من حرمة البيت الحرام، وما شرفها به.

ولما استقر الفتح الأعظم لمكة "أمن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر؛ فإنه أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة؛ وهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابه، وهبار بن الأسود، وقيتان لابن خطل؛ كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

(١) هو: عثمان بن طلحة بن أبي طلحة واسمه عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار العبدي، حاجب البيت أمه أم سعيد بن الأوس قتل أبوه طلحة وعمه عثمان بن أبي طلحة بأحد ثم أسلم عثمان بن طلحة في هدنة الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد وشهد الفتح مع النبي ﷺ فأعطاه مفتاح الكعبة، سكن المدينة إلى أن مات بها سنة اثنتين وأربعين قاله الواقدي وابن البرقي. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٥٠/٤، ٥٤٤٤.

(٢) طبقات ابن سعد، ١٣٧/٢.

فأما ابن أبي سرح فأسلم، فجاء به عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله ﷺ فقبل منه، بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل فاستأمنت له امرأته بعد أن فر، فأمنه النبي ﷺ فقدم وأسلم وحسن إسلامه. أما ابن خطل والحارث ومقيس وإحدى القيتتين فقتلوا، وكان مقيس قد أسلم ثم ارتد وقتل ولحق بالمشركين، وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر ثم أسلم وحسن إسلامه. واستؤ من رسول الله ﷺ لسارة وإحدى القيتتين فأمنهما فأسلمتا^(١).

فاطمأن الناس لهذا الفتح العظيم، وأنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين، واستبشر سيد الوجود ﷺ بالفتح المبين، وارتاح إلى جمع شمل العرب، وأيقن أنه سيعدهم لبناء مجتمع عمراني أخوي، لنشر عقيدة السماء في أرجاء العالم، ورفع راية الإسلام في ربوع الأرض، وازداد ﷺ استبشارا وسرورا لما طهر الكعبة من رجس الشرك، وأدران الوثنية، ونقلها من دياجير الظلام إلى عالم يشع بالنور ويضيء الكون.

إنه الفتح الأعظم، الذي أعز الله به نبيه الكريم ﷺ وجنده المؤمنين المجاهدين ورفع به لواء الدين، واستتقذ به البلد الحرام وبيته المشرف - الذي جعله هدى للعالمين وموطنا للحجاج الميامين - من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به الملائكة الأعلى، ودخل الناس ببركته في دين الإسلام أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا.

وهنا لا يفوتنا أن نشير إلى سنة من سنن الله تحققت في هذا الفتح وهي وعده سبحانه جل وعلا في نصر المستضعفين^(٢) ووراثتهم للأرض؛ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص].

(١) زاد المعاد، ٢/ ٢٢٣.

(٢) وهي سنة الله في استفزاز الأقوام واستضعافهم؛ فاستضعاف الكفار للمؤمنين وإخراجهم من ديارهم وأمواهم كان من الأسباب المباشرة التي ورثت المؤمنين أرضهم وديارهم، فدخلوا مكة فاتحين لله شاكرين حامدين.

إنه قانون السنن الذي لا يحميد ولا يميل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَجِدُوكَ حَلِيلًا﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّكَ تُرْكُنُ إِلَيْهِمْ سَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥) [الإسراء].

ثم بعث سيدنا رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى، وكانت بنخلة، وكانت بيتا يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، فلما سمع صاحبها السلمي بمسير خالد إليها علق عليها سيفه، وأسند في الجبل الذي هو فيه.

(...) فلما انتهى إليها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ^(١).

- سرية مؤتة^(٢):-

هذه السرية كانت في "جمادى الأولى سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ"^(٣). كان نصر الله للمؤمنين بعد مخاض عسير، وابتلاء شديد، قتل أصحاب اللواء، وأخذ اللواء سيف الله خالد بن الوليد ﷺ فأضرمت نيران الحرب وحمي وطيس المعركة، فقتل من قتل من المسلمين، كر الآخرون راجعين إلى المدينة، فكان النصر ليس كما عهدته البشر وليس بطواهر الأحداث، ولذلك لما وصل جيش المسلمين إلى المدينة واستقبلهم الصبيان بقولهم: "يا فرار! أفررتم في سبيل الله؟"^(٤)، لكن الحبيب المصطفى ﷺ الذي أدرك حقيقة الانتصار في هذه المعركة أجابهم بقوله: "ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله"^(٥)؛ ولهذا فإن النصر لا يكون دائما بطواهر الأحداث، ولا بالغنائم الكثيرة والأسارى المقرنين بالأصفاد.

وهنا أمر من الأهمية بمكان أشير إليه؛ وهو لما طعن سيدنا عبد الله بن رواحة^(٦)

(١) سيرة ابن هشام، ٤/٣٣٩.

(٢) مؤتة: قرية من قرى اللقاء في حدود الشام وبها كانت تُطبع السيوف وإليها تُنسب المشرفية من السيوف. معجم البلدان، باب الميم والواو وما يليها، حرف الميم.

(٣) طبقات ابن سعد، ٢/١٢٨. مغازي ابن عقبة، ص ٢٦٣-٢٦٥. تاريخ الإسلام، المجلد الأول (المغازي)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٦٦١هـ)، حققه وقدم له وأعد فهرسه: محمد محمود حمدان، ودار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط ١/١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ١/٤٠١.

(٤) طبقات ابن سعد، ٢/١٢٩.

(٥) طبقات ابن سعد، الجزء نفسه والصفحة ذاتها.

(٦) هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي. الشاعر المشهور، يكنى أبا محمد، ويقال كنيته أبو رواحة، ويقال أبو عمرو. وأمّه كبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة خزرجية أيضا، وليس له عقب. من السابقين الأولين من الأنصار، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٦٧٩، ٤/٨٢-٨٣.

صاحب اللواء- فقتل "أخذ اللواء رجل من الأنصار ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال: إلي أيها الناس! فاجتمع إليه الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد فقال له خالد: لا آخذه منك أنت أحق به؛ فقال الأنصاري: والله ما أخذته إلا لك!"^(١).

ولذلك لما أبى ذلك الرجل من الأنصار القيادة^(٢)، وأخذ اللواء سيف الله خالد بن الوليد^(٣)؛ وشرع في القتال حاول التخلص من هذا المأزق الضيق؛ ثلاثة آلاف من الجنود تواجه فيالق تربو عليهم سبعين ضعفا حاول الانسحاب "وقتل الانسحاب شاق مرهق، خصوصا وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطة.

(...) والعجيب أن الرومان أعياهم القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة؛ بل إن بعض فرقهم انكشف، وولى مهزوما. واكتفى خالد بهذه النتيجة، وآثر الانصراف بمن معه.

(...) والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغت حدا لم تعرفه أمة معاصرة، وقد أكسبهم هذا الروح العالي إقداما حقا أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرا، تصول وتجول لا يوقفها شيء"^(٣).

هذا، ومما لا ريب فيه أن انسحاب سيدنا خالد بن الوليد^(٤) كان انتصارا للمسلمين وإن بدا في ظاهره هزيمة، "لأن الثبات في وجه العدو يكون مطلوبا إذا أدى إلى هزيمة العدو والاستيلاء على أرضه، فإذا خلا من هذه الغاية، وصار وسيلة لفناء الثابتين صار الثبات غير مطلوب، ربما صار محظورا، ويكون النجاح في تخليص الجيش من قبضة العدو أو من أسره لجنوده. وهذا ما حققه خالد بانسحابه الجريء المنظم، وهذا ما لاحظته سيد العارفين محمد^(٥) (...) فقد حفظ خالد قوته وجيشه لمعارك أخرى قادمة يكون النصر فيها قريبا من المسلمين إن شاء الله تعالى"^(٤).

(١) طبقات ابن سعد، ٢/١٣٠.

(٢) أبى ذلك الأنصاري^(٦) القيادة لا هروبا من الاستشهاد ولا نكوصا عن الموت، بل شعورا بوجود الأكفأ منه في الصف، وحمله الراية خشية أن تسقط من صور الشجاعة وآيات الجرأة في أحلك اللحظات وفي هذا الموقف العصيب. وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس فينزلهم منازلهم التي يستحقونها، فلا يكلف أمته أن تحمل سوء قيادته وعجزه وأثرته.

(٣) فقه السيرة، الغزالي، ص ٣٩٨-٤٠٠.

(٤) المستفاد من القصص القرآني، ٢/٣٨٣.

ومجمل القول: فإن مقياس النصر لا يكون دائما من خلال ظواهر الأحداث، ولا بالنتائج المادية في نهاية المعارك؛ كسحق قوات العدو واحتلال دياره وجمع الغنائم، وإنما قد يكون من خلال ظواهر أحداث قد لا تسرّ عامة المسلمين، وإن كانت هذه الأحداث في لبها هي عين النصر، وإن كان في الآجل وليس في العاجل. وخير دليل على هذا ما وقع في صلح الحديبية، فقد كره المسلمون الصلح ولكنه كان عين النصر والتمكين في الآجل وعلى غير النمط والأسلوب والكيفية التي رغب فيها المسلمون، ولذلك سمى الله تعالى ذلك الصلح مع قبائل قريش "بالفتح" كما جاء في سورة الفتح.

وكذلك انسحاب سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، وتخليص جيش المسلمين من الهلاك ومن قبضة الأعداء، وإبقاؤهم لمعارك قادمة، كان ذلك نصرا حقيقيا للمسلمين.

فعلى جند الله أن يفقهوا ذلك ولا يحسبوا النصر بها تشتتة أنفسهم، فإن الغيث النازل من السماء رحمة للناس، ولكن لا يشترط أن يبقى على سطح الأرض حتى يروه، فهو رحمة وإن اختفى في باطن الأرض، وإن نصرهم وظهورهم بقدر بذل جهودهم ومساعدتهم وطاقاتهم وإخلاصهم في عملهم.. ورب تأخير الوصول إلى تحقيق المقصود خير من التعجل في الوصول إليه يتبعه انكسار ونكسة وتراجع.

- غزوة تبوك:

التي كانت "في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف"^(١)^(٢). وهي آخر غزواته صلى الله عليه وسلم، ومن أهمها وأكثرها عددا؛ ذلك أن سرايا التي كان يبعثها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجهات والنواحي المختلفة "لم تكن لتستوعب المسلمين كلهم، وإن الأمة المسلمة أمة مجاهدة لا يمكن أن تتوقف عن الغزوة والجهاد أبدا حتى ينتهي الظلم من سطح الأرض كلها؛ لذا كان لابد من الإعداد لغزوة تضم المسلمين جميعا لكي يبقى كل مسلم على استعداد دائم للحركة والانتقال من ساحة إلى ساحة، ولكيلا تميل النفوس إلى الفتور، وترغب في الاستقرار والرخاء"^(٣).

(١) انظر أحداثها بتفصيل: عيون الأثر (تحقيق: لجنة إحياء التراث بيروت)، ٢/ ٢٧٧-٢٨٤. مغازي ابن عقبة، ص ٢٩٤-٣٠٦. إمتاع الأسماع، ١/ ٤٤٥-٤٤٦. أنساب الأشراف، ١/ ٣٦٨. غزوات

الرسول صلى الله عليه وسلم، ابن كثير، ٣٧٩-٣٩١. حياة رسول الله، شلبي، ص ٢١٨.

(٢) فتح الباري، ٧/ ٧٢٠.

(٣) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ٢/ ٢٥٢.

فكانت غزوة تبوك التي جمعت ذلك العدد الكبير من المسلمين، مباركة، تحققت فيها سنة الله في أن النصر للثقوى والعاقبة للمتقين، وهذا ما نستنبطه من نتائجها؛ كانت الدعوة إلى الإسلام هي جوهرها وهدفها، فقد نشر الإسلام بها في شمال البلدان العربية، واستأنس به العرب في هذه الأقاليم، وأخذ ينتشر في الشام ذاته، مما كان تمهيدا للفتوحات الإسلامية.

وهذا الذي حدث في فترة الخلفاء الراشدين الذين فتحوا تلك البلاد ونشروا الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية إلى تخوم الشام، فحققوا فتحا باهرا وسلطانا عزيزا وأعلاما مرفوعة منشورة في ربوع الأرض.

هذا هو سبب غزوة تبوك نشر الدعوة الإسلامية ورد اعتداء المعتدين، أما ما ذكره بعض أهل المغازي من أن سببها تسهيل طريق التجارة، فما كانت غزوات الحبيب الأكرم والقائد الأعظم ﷺ لتسهيل طريق تجارة مادية، إنما كان قتاله في الغزوات والسرايا لتسهيل طريق الدعوة الإسلامية، وإخراج العباد من ظلم الشرك إلى نور التوحيد، ومن اتباع الهوى والضلال إلى اتباع الهدى والحق، هذه هي التجارة التي سهل النبي ﷺ طريقها وهي تجارة لن تبور، وفيها رضى الله تعالى وتقدس.

ولذلك فإن الرومان بعد سرية مؤتة قد رأوا أن الدعوة الإسلامية ودين الإسلام ينتشر في الناس انتشار النار في الهشيم، وأصبحت أحكامه وشرائعه تغزو البلاد والعباد، ففكروا في خطة للقضاء على الدين الجديد، والحد من مد انتشار الدعوة الإسلامية، فأعدوا العدة للقضاء على الإسلام، فلما وصل خبر استعدادهم إلى النبي ﷺ ما كان ليتركهم حتى يغزوه في عقرب داره، بل أعد العدة وحث وحض على المضي في سبيل الله والبذل لمواجهة هذه الجموع من الأعداء.

فاستجاب الصحابة ﷺ للنداء، وخرجوا خفافا وثقالا، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك "أتاه يُحَنِّه صاحب إيلة^(١)، فصالح رسول الله ﷺ، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء^(٢)

(١) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام. وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. معجم البلدان، باب الهمزة والياء وما يليهما، حرف الهمزة.

(٢) الجرباء: كأنه تأنيث الأجر، موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز وهي قرية من أذرح معجم البلدان، باب الجيم والراء وما يليهما، حرف الجيم.

وأذُرْحُ^(١) فأعطوه الجزية، وكتب لهم ﷺ كتاباً، وهو عندهم، وكتب ليحنه بالمصالحة"^(٢).

وبعدما أرسى سيد الوجود ﷺ قواعد الإسلام في تلك النواحي وبسط هيبة دولة الإسلام وأخضع لها من هناك عرباً ونصارى ويهوداً، قفل بعناية الله عزيزاً منصوراً ومؤيداً بعد أن أقام بضع عشرة ليلة بتبوك وكان يقصر الصلاة فيها، وقد جعل من المدينة إلى تبوك في طريقه مساجد يقيم فيها شعيرة الصلاة وقد بلغ عددها خمسة عشر مسجداً.

لقد حقق الله تعالى لنبيه وصفوة خلقه النصر المبين دون حرب وقتال ومواجهة تلك البقاع من اليهود والنصارى ودون غدر ولا خيانة منهم، "وعاملهم بما يستحقونه على هدى الله ووحيه ولم يكرههم على الدخول في الدين، بل قبل منهم الجزية وأقرهم آمنين، ومن غدر وخان نال عقوبته دون هواده ولا تقصير ليكون عبرة للمعتبرين.

لقد كانت غزوة تبوك شاقة ولكنها في غاية النفع والإفادة، وتطهير المجتمع من داخله، وإقرار هيبته وتأمينه من خارجه، ولقد كانت محطة متميزة على طريق الإسلام الطويل، ولهذا احتلت مكانة مرموقة في أي الكتاب العزيز، ونصوص السنة وكتب السير، وأحكام الفقه والتشريع.

وستبقى معينا ثراً لمن يطلب الحق ويسلك طريق السواء!!"^(٣).

- عام الوفود^(٤):-

في العام التاسع من الهجرة النبوية: كانت ثمار الجهاد النبوي بمكة والمدينة يانعة؛ فبعد عودته من غزوة تبوك توافدت عليه بالمدينة المنورة سيول الراغبين في الدخول إلى الإسلام. وتتابعت الوفود العربية من كل أوب و صوب، "ينبون عن قبائلهم ويبادرون بإسلامهم، وجاءوا وفوداً كبيرة وصغيرة، وقد فاقت الوفود مائة وفد، والنبي ﷺ يستقبلهم ويكرمهم ويعلمهم مدة بقائهم عنده، ويؤمر عليهم من يراه أهلاً، ويمحضهم النصح، ثم يعودون إلى أهلهم وقبائلهم، وقد كان لكل وفد مع رسول الله ﷺ موقف وخبر، وحديث يؤثر،

(١) أذُرْحُ: وهو اسم بلد في أطراف الشام من أعمال السراة ثم من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز.. معجم البلدان، باب الهمزة والبدال وما يليها، حرف الهمزة.

(٢) عيون الأثر، (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي ببيروت)، ٢/٢٨٤. مغازي ابن عقبة، ص ٣٠٠.

(٣) العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ط ١/١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص ٢١٩.

(٤) تم نقل الخريطة من كتاب أطلس السيرة النبوية، ص ٢٢٠.

وحكاية تذكرك، وكان يسألهم ويسألونه، ويسطون أمامه أحوالهم وأخبارهم، فيضعهم على الطريق المستقيم، وأسلمت الجزيرة كلها قيادها لرسول الله ﷺ^(١).

وتحقق وعد الله تعالى بأن العاقبة للتقوى، والنصر والتمكين لعباده المؤمنين المتقين المجاهدين الصادقين.

- البشري بإكمال الدين وإتمام النعمة: في العام العاشر من الهجرة المحمدية: كانت هذه الحجة مسك الختام وحمل فيها النبي ﷺ مسؤولية الدعوة وتبليغ الرسالة لأمته إلى يوم القيامة. وفيها حقق الله وعده لنبيه الكريم ﷺ بوراثته الأرض، وإكمال الدين وإتمام النعمة، وظهور دين الإسلام على الدين كله، قال الحق جل ذكره في وعده الذي حققه، وفي سنته في نصر المؤمنين وجعل الخاتمة والعاقبة للمتقين: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة، ٣]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح].

لقد ختم الله رسالته برسالة القرآن والنبي العدنان ﷺ، وأكمل الله تبارك وتعالى دينه بالإسلام، وأتم به نعمته على الناس أجمعين، فاستغنوا بدين الإسلام عما سواه، ولم يعودوا بعده بحاجة إلى ملل جديدة أو دين جديد. فقد اشتمل الإسلام على كل صغيرة وكبيرة مما يحتاج إليه الناس من تعاليم وتشريعات في مختلف جوانب الحياة كلها، بحيث يكتفي الناس بشريعة الإسلام، ولا يتشوفون إلى شريعة أخرى يلتمسون فيها الهداية، أو يبحثون عن مبادئ ضالة وأفكار مستوردة وقوانين دخيلة بدعوى استكمال نقص في دينهم ومبادئهم، أو استدراك على قانون من قوانينهم أو حكم من أحكامهم، أو نحو ذلك من ترهات وأباطيل لا صلة لها بالدين، ولا تليق بأمة سيد المرسلين، ولا تصدر إلا عن جاهل ومتجاهل بكنه الشريعة أو كافر أو مغرض يخدم مصالح الأعداء، أو خبيث النية والمقصد اتخذ الشيطان وليا من دون الله، أو مسيء لفهم هذه الشريعة الغراء العظيمة.

في حجة الوداع والبلاغ تحقق الوعد الإلهي وسنته بإظهار دين الحق على الدين كله، وإتمام نور الإسلام رغم أنف المعتدين الذين طالما حاولوا إطفاءه والكيد له.

(١) أيام في حياة الرسول ﷺ، فاروق حمادة، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص ٢٠٠.

وانتهت كل العهود التي أبرمت مع المشركين، وحظر عليهم دخول المسجد الحرام، فأصبح أهل الموسم من المؤمنين الموحدون لا يعبدون إلا الله ﷻ، وأقبلت وفود الله من كل فج عميق قاصدة البلد الحرام تيمم وجهها شطر الكعبة المشرفة، وهي مشتاقا إلى ذلك اللقاء مع أمير حجها ومعلمها مناسكه في هذا العام سيدنا رسول الله ﷺ.

ونظر سيد الوجود ﷺ إلى تلك الحشود المؤمنة والألوف المؤلفة الواقعة بفناء البيت متضرعة خاشعة مليية لله ﷻ. فسر ه ذلك وشرح الله صدره لما رأى ثمره ذلك الجهاد الطويل في مكة والمدينة؛ وما هي الوفود كلها منقادة للحق، ومهتدية بالإسلام، فانتهاز ﷺ هذه الفرصة الثمينة ليغرس في القلوب لباب الدين؛ فألقى كلماته النورانية لبيد آخر ما أبقته الجاهلية من مخلفات وآفات في النفوس ويؤكد ما يحرص دين الإسلام على إشاعته من أخلاق وآداب وأحكام..

فأفرغ ﷺ في آذان تلك الجموع النصائح الغالية والمعاني التي بعث بها، وملأ قلوبها بنورانية ربانية، وحملها مسؤولية تبليغ رسالة الإسلام بعده.

كان ﷺ يحس أن تلك الجموع الحاشدة وهذا الركب المبارك سينطلق في بيءاء الحياة وقفارها وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرشد ويذكره بما ينفعه أبدا. وما هو يوصي أمته بما ينفعها ويضمن عزها ومجدها ويحفظ لها كرامتها ووحدتها ويرضي عليها ربه ويسر نبيها.

وأكد الوصايا مرارا وهو على ناقته العضاء، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه، وعاود صيحات الإنذار ليحذر تلك الجماهير المائجة من كيد الشيطان، وبعد ذلك انتزع شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا وأنه قد بلغ؛ ليقطع جميع المعاذير المتحللة، وليجعل مهمة التبليغ ملقاة على أعناق الجميع، ويحلي ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه صلوات ربي وسلامه عليه.

لقد ظل ﷺ عقدين وثلاث سنوات يصل الأرض بالسما ويتلو على القاصي والداني ما أنزل عليه من ربه، ويغسل أدران الجاهلية التي التاث بها المجتمع، ويربي الجيل الذي سيحمل الراية بعده لينشر الإسلام في أرجاء المعمورة..

وما هو -عليه الصلاة والسلام- يقود الحجيج في أول موسم حج تطهر فيه البيت من دنس الشرك والأوثان، ويتوجه فيه كل الناس للواحد القهار..

وها هي الجموع الكثيرة من الناس أتت من كل فج عميق ومن كل جهات الجزيرة العربية لتلتقي بالحبيب الأكبر والمصحوب الأعظم ﷺ في الأيام الأخيرة من حياته، ولتشهد منافع لها في خطبته العظيمة التي وضعت مبادئ ودعائم حقوق العباد^(١)، فتجمعت حوله تلك الحشود بعد شوق طويل، فألقى كلماته الربانية ووصاياها الغالية.

والله ما أروعها من كلمات تلك التي خرجت من فيه الحبيب ﷺ كالنور ملأت الكون بنورها حتى أضاء منه كل شيء.. بعد أن بلغ رسالة ربه إلى الناس كافة، وجاهد في الله حق جهاده ثلاثة وعشرين عاما لا يكل ولا يمل.

والله ما أروعها من لحظة وأغلاها من فرصة تلك التي اجتمعت فيها الأمة المحمدية بمحبوبها ومعلمها وكاشف الغمة عنها، ومخرجها من ربك العبودية للطاغوت إلى حرية العبودية لله وحده.

آلاف من المؤمنين خاشعين متضرعين مفتقرين ومنكسرين لرهبهم جل وعلا، ووعد الله تعالى يرفرف في السماء: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر]، وحبيب الله ﷺ ينظر إلى أجيال المستقبل، وإلى ثمرة تربيته الذين سيحملون هم الدعوة الإسلامية وراية الجهاد من بعده إلى يوم القيامة، ينبههم ليسمعوا خطابه المودع: "أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا"^(٢).

فكانوا كلهم آذانا صاغية، وقلوبا خاشعة، لهذه الخطبة العظيمة التي وضع ﷺ فيها دعائم وركائز ما جاهد في سبيله ثلاثة وعشرين عاما.

قال ﷺ في خطبته^(٣) العظيمة: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ،

(١) أفضل استعمال مصطلح "حقوق العباد" بدل من مصطلح "حقوق الإنسان" النابت في غير أرضنا، والمستورد من الغرب. ففي ديننا وموروثنا ما يغنينا عن تعبير غيرنا. فليس لدينا في كتب الفقه الإسلامي ما يسمى بحقوق الإنسان، ولكن لدينا ما يسمى بـ"حقوق العباد".

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٤٦٦.

(٣) خطب النبي ﷺ في عرفات خطبته هذه الجامعة، وفي يوم النحر بمنى خطب خطبة أخرى، وفي أوسط أيام التشريق - وهو يوم النحر الأول - خطبة أخرى، وهي تأكيد لبعض ما جاء في الخطبة الأولى، وتكرار الخطبة في هذه الحجة أمر لا بد منه، لحاجة المسلمين إلى ذلك، وليبلغوا عنه ويحسوا بثقل الأمانة الملقاة على عاتقهم، وليبلغوها إلى من لم يحضر إلى يوم القيامة.

وَدَمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، (...) وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ (...). فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النَّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطئنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضْلُوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللَّهِ. وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟" قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةَ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكِتُهَا^(١) إِلَى النَّاسِ: "اللَّهُمَّ أَشْهَدِ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ". ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

وعليه، فإن هذا الذي تحقق في خاتمة الجهاد النبوي ليس انتصارا في غزوة، ولا انتصارا في معركة. إنه ليس فتح مكة، ولا ضم جزيرة العرب، ولا إخضاع كسرى وقيصر، إنما هو النصر الكوني الذي يدخل في بنية الحياة، ويغير مجرى التاريخ، ويصرف أقدار العالم، وينطبع في ضمير الزمان^(٣).

وهذا المنهاج النبوي الجامع، بين الرحمة والقوة، والعدل والإحسان أخذت جذوة الباطل تحمد رويدا رويدا، حتى أفل نجم الجاهلية، وظهر فجر الإسلام وثبتت دعائمه، وخضع العرب بعدما لان قيادهم للحق - بعدما انكمش الباطل وانذر - في حجة الوداع.

وانتهت مناسك الحج وسمع الناس كلهم صوت الحق المبين، فحث سيد الوجود ﷺ الركاب إلى مدينته المنورة لا ليأخذ حظا من الراحة في منتزهاتها، بل ليستأنف حياة الجهاد ويستقبل الوفود الوافدة على الإسلام لترجع إلى قومها مبلغة للرسالة الخالدة، ويعبى جيشا ليكسر به أنفة الروم وكبرياءهم.

إنها أمانة عجزت السموات والأرض عن حملها، وراحة أصحاب الرسالات عندما يرون بواكير نجاح الدعوة دانية القطاف، وثمرتها طيبة مباركة.

وتحققت الوعود الإلهية وسننه الثابتة:

﴿...وَالْعِقْبَةُ لِلَّذِينَ﴾ [طه]، ﴿...وَاللَّهُ مِتِّمُ نُورِهِ وَكَوَكْرَهُ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء].

(١) ينكتها: معناه يقلبها ويردها إلى الناس مشيرا إليهم. صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/٤٢٣.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في المتعة بالحج والعمرة، ح ٢٩٥٠. سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، ح ٣٠٧٤.
(٣) دراسات إسلامية، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/ ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٢٤.

المبحث الخامس

الحب يصنع الرجال

في هذا المبحث أتحدث هنا عما أسميه بسنة الله في الحب والإيمان؛ وعن الصحابة الذين تفتانوا في حب الحبيب الأعظم ﷺ، حتى افتدوه بالمهج والأرواح؛ وصدق ربنا تبارك وتعالى القائل في حقهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ [الفتح]، وقال كذلك: ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب].

نتأمل في بعض الغزوات والسرايا النبوية لنرى ذلك الحب الشديد الذي رفع أولئك الرجال مقاما عليا، وبوأهم مقعد الصدق عند ربهم ﷻ؛ فصغرت في أعينهم الدنيا وغرورها، وعظمت الآخرة ونعيمها وما أعده الله تعالى للمحبين الصادقين.

١- سنة الاستبدال:

أنزل الله تعالى يوم تبوك آيات بينات يحض المسلمين على النفير العام، ويحذرهم من مغبة التقاعد، وتولية الأدبار، ويذكرهم بأن سنته في استبدال الأقسام ماضية لا تتخلف، إن تقاعسوا واستجابوا لأنفسهم، قال الحق جل في علاه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٣٨]، ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٣٩] [التوبة].

كما يذكرهم سبحانه بأن المحبة تقتضي من المحب أن يبذل الغالي والنفيس في سبيلها، تقتضي منه أن يترك الدنيا ويفر من مغرياتها ويقبل على الآخرة ونعيمها؛ فاستجاب الصحابة ﷺ لنداء ربهم، وعبروا عن تلك المحبة الشديدة لله ﷻ ولسيدنا رسول الله ﷺ بخروجهم في ذلك الحر الشديد، وبإنفاقهم أموالهم في سبيل الله.

وهنا نستعرض بعض اللمحات من تلك الغزوة، لتأمل ذلك النفير العام، قال ابن هشام ﷺ: "أمر [النبي ﷺ] أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يجبون المقام في ثمارهم

وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه؛ وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم^(١).

ثم جد رسول الله ﷺ في سفره، وأمر الناس بالإعداد والجهاز والانكماش، وحض أهل الغنى على الإنفاق في سبيل الله، وحث الجميع على السير نصره لدين الله، فاستجاب المؤمنون لنداء رسول الله ﷺ فأنفقوا واحتسبوا الله، وأنفق سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه يومذاك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها، وجد الجميع في السير إلى أرض المعركة.

قال ابن هشام رحمه الله: "أنفق -سيدنا عثمان- في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارض عن عثمان فيني عنه راض"^(٢).

وتخلف من تخلف عن سيدنا رسول الله ﷺ يومذاك من المنافقين، ومن المؤمنين وهم ثلاثة، أما أبو خيثمة رضي الله عنه فإنه "رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين^(٣) لهما في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيات له فيه طعاما، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأته وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح^(٤) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيا، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألق برسول الله ﷺ، فهيئ لي زادا ففعلتا. ثم قدم ناضحه^(٥) فارتحلته ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ (..) حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة" فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: "أولى لك يا أبا

(١) سيرة ابن هشام، ٤/٣٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٣٩٩.

(٣) العريشين: العريشُ خَيْمةٌ من خشب. لسان العرب، مادة: عرش.

(٤) الضح: الضحُّ الشمس وقيل هو ضوءها وقيل هو ضوءها إذا استمكن من الأرض. لسان العرب، مادة: ضحج.

(٥) ناضحه: الناضحُ البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء والأنثى بالهاء ناضحة. لسان العرب، مادة: نضح.

خيثمة". ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر. فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير^(١).

ومضى سيدنا رسول الله ﷺ في طريقه إلى أرض تبوك وفي كل مرة يتخلف أناس فيقول أصحابه: يا رسول الله تخلف فلان فيقول: "فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه" حتى قيل: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره فقال: "فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه" وتلوم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيا، ونزل رسول الله في بعض منازلها، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده؛ فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا ذر". فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر؛ فقال رسول الله ﷺ: "رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده"^(٢).

أما شأن المخلفين الثلاثة^(٣) وهم: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ^(٤)، وَمُرَّارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ^(٥)، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ^(٦) تخلفوا من غير شك ولا نفاق، فقد نبى النبي ﷺ الناس عن كلامهم خمسين ليلة وأمر نساءهم بأن يعتزلوهم، واشتد غضبه ﷺ عليهم^(٧)؛ لأن تخلفهم عن الخروج للقتال

(١) سيرة ابن هشام، ٤/٤٠١-٤٠٢. مغازي ابن عقبة، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٤٠٤-٤٠٥.

(٣) انظر القصة بطولها وبتفصيل في: مغازي ابن عقبة، ص ٣٠١-٣٠٦. المغازي النبوية للزهري، ص ١٠٦-١٠٧. غزوات الرسول ﷺ، لابن كثير، ص ٣٩٥. سيرة ابن هشام، ٤/٤١٠-٤١٣.

(٤) هو: كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة أبو عبد الله الأنصاري السلمي ويقال أبو بشير ويقال أبو عبد الرحمن، الشاعر المشهور وشهد العقبة وبايع بها وتخلف عن بدر وشهد أحدا وما بعدها وتخلف في تبوك وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وقال البغوي: بلغني أنه مات بالشام في خلافة معاوية. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٤٣٨، ٥/٦١٠.

(٥) هو: مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف. ويقال إن أصله من قضاة، حالف بني عمرو بن عوف، صحابي مشهور، شهد بدرًا على الصحيح، هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٨٧٠، ٦/٦٥.

(٦) هو: هلال بن أمية بن عامر بن قيس بن عبد الأعم بن عامر بن كعب بن واقف الأنصاري الواقفي، شهد بدرًا وما بعدها، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، الإصابة، ترجمة رقم: ٨٩٨٤، ٦/٥٤٦.

(٧) وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حراما ولا سفكوا دمًا حرا ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟ فتح الباري، ٧/٧٣٦.

-وهم من الأنصار- كالنكث لبيعتهم، والقتال إن كان فرض كفاية فهو في حق الأنصار فرض عين؛ لأنهم بايعوا النبي ﷺ على ذلك، أما تخلف من تخلف عن غزوة بدر فإنهم لم يخرجوا للقتال، وإنما خرجوا لأخذ العير، انتقاماً من قريش التي أخذت أموال المهاجرين وديارهم في مكة.

وبقي أولئك الثلاثة على تلك الحال حتى تاب الله عليهم بصدقهم في بيان أعدائهم، ولم يكذبوا على سيدنا رسول الله ﷺ كما كذب عليه المنافقون، قال الباري جل وعلا يصف الحالة النفسية للمخلفين الثلاثة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٨﴾﴾ [التوبة].

لقد كان توقيت معركة تبوك ابتلاء للمؤمنين وتمحيصاً لسرائرهم، ليميز الله الخبيث من الطيب، والصادق من المدعي، والمجاهد من المتقاعد.

فغزوة تبوك أو العسرة كانت غزوة عسرة في الحقيقة، "وشدة أزمة، وأزمات شداد، فهي أيضاً غزوة امتحان لصدق الإيمان، وإخلاص اليقين، والتفاني في فداء العقيدة ونشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة بما تتطلبه من بذل الأرواح والأموال أبانت عن معادن النفوس المؤمنة التي رباها النبي ﷺ لتكون نموذجاً للفضائل تتأسى به أجيال الإسلام في مستقبل حياتها، وما يقابلها في طريق مسيرتها من عقبات وشدائد، لا يخرجها منها إلا إيمان صادق، وعزائم صارمة، واستسلام لوجه الله يجعل من الأرواح والأموال وسائل لتحقيق مرضي الله ورسوله وحبها، والوقوف عند أوامرهما ونواهيها"^(١).

لقد كانت غزوة تبوك "شبيهة بمحنة أحد، ناراً محصنة على حريقها ووهجها تميّز المتمون إلى معسكر الإسلام، درجات بعضها فوق بعض، وهذا شأن كل معسكر في تاريخ البشرية، فليس بنو آدم ملائكة يقفون صفا واحداً ولكنهم يتميزون في إيمانهم وإخلاصهم وانتمائهم، تميزهم الانتصارات الحاسمة والانكسارات الخطيرة وتفرق بينهم تجارب الراحة والسعادة وآلام المحن والنكبات. فيها نحن أولاء نجد والرسول ﷺ يدعو المسلمين أن

(١) محمد رسول الله ﷺ، عرجون، ٤/ ٤٣٧.

يتجهزوا للرد على التحدي البيزنطي عبر المجاعة والعطش وجحيم الصحراء وطريقها الطويل، أناسا يقفون في القمة وآخرين يتحركون صعداً في منتصف الطريق لا يقدرّون على الصعود خطوات أخرى إلى أعلى، وهم مع ذلك يجاولون ويجاولون، وفئة ثالثة حرنت في مواقعها لا تريد أن تسعى ولا أن تتحرك.. وهناك في الأسفل، عند جدار المرتفع وفي منخفضاته، طوائف كثيرة من المنافقين والمنهزمين، يتخبطون كالحشرات والديدان دوراً على أنفسهم وبقاء في الحفر الضيقة! " (١).

وفي سرية مؤتة: ابتلي يومها صبر المؤمنين وبذلهم في سبيل الله، وصدق إيمانهم، وحبهم لله ﷺ ورسوله الكريم ﷺ بالمقابلة مع حب أهاليهم وأمواهم وراحتهم، وابتلي وفاؤهم ببيعتهم لنبيهم ومنقذهم من الضلال، فتمايز الصادقون من الكاذبين، والمؤمنون من المنافقين، والمتخلفون الناكصون من المجاهدين الشجعان، وتمايز جند الشيطان وجند الله. وظهر الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كما ظهر الذين أخلفوا الله ما وعده.

كانت سرية مؤتة تجربة قاسية، وامتحانا عسيراً لجند الله الصادقين؛ "وكان الأقدار الإلهية شاءت أن لا ير حل المرابي القائد حتى يتأكد من صلاحية صنع يديه الكريمتين. أراد الله عز وجل أن لا ير حل أبو الأمة ومنشئها ورمز وجودها حتى يمر جند الله من عملية العيار. وكانت القيمة الممتحن فيها هي القابلة للفداء وطلب الاستشهاد.

إن جند الله الذين برزوا من عرينهم كالأسود كانوا حملة رسالة هي أعز عليهم من أمواهم وأنفسهم، وكانوا نتاج تربية وتمحيص على محك الأحداث العسيرة" (٢).

٢- رجال صنعهم الحب:

لقد حظي الصحابة رضي الله عنهم بتربية كاملة على يد سيدنا رسول الله ﷺ، فدفعتهم إلى الجهاد في سبيل الله بما تحمله الكلمة من معنى، فأمسكوا بالسيوف وقاتلوا في سبيل الله دفاعاً عن دين الله، وأمامنا أمثلة لحرقات قتالية لم تحظ بالتربية الإيمانية الكافية، لكنها أمسكت السلاح دفاعاً عن عقيدتها ووطنها، لكنهم بعد النصر أصبحوا يلهثون وراء سراب الدنيا الخادع وأسأوا إلى المجاهدين وشمتموا فينا الأعداء والحاسدين، وأدخلوا السرور على الكافرين، وأسألوا دماء إخوانهم من المسلمين بعد أن ظفروا بالغلبة على الكافرين.

(١) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص ٢٥٥.

(٢) الإسلام والقومية العلمانية، دار البشير، طنطا ط ٢/ ١٩٩٥م، ص ٨٢-٨٣.

إن السر الذي انتصر به الصحابة النموذج الخالد ﷺ؛ الإيمان الصادق والحب الشديد والصحبة الدائمة للحبيب المصطفى ﷺ.

فقد انتقل الحبيب عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، ولم يكن لدى أصحابه الكرام ﷺ من العلوم والمعارف والمخترعات والأسلحة المتطورة ما يلاقون به أعداءهم، بل كان زادهم هذه المحبة والصحبة وما استطاعوا إعداده من قوة؛ فكانوا صفا مرصوصا وبناء شامخا يشد بعضه بعضا.

وجل المسلمين اليوم لديهم فكرة خاطئة حول هذا الجليل، يظنون أن هذه الفضائل والخيرات وصلت إليهم ثم انتهت، ولن يعود هذا الخير مرة أخرى وهذا خطأ، إن الصحابة ﷺ فازوا بالصحبة المباشرة لسيدنا رسول الله ﷺ، لكن بقي السباق إلى رضوان الله ﷻ، وصحبة أرباب القلوب وُرَّاث الحبيب الأكرم والمصحوب الأعظم ﷺ، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّيْفُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة]، ألحق بالمهاجرين والأنصار من سلك نهجهم واقتفى أثرهم من أمة سيدنا محمد ﷺ إلى آخر الزمان.

صحيح أن لهذه الجبال الشاخمة مكانتها وفضل السبق؛ إذ هي كالنجوم يقتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، لكن بقي المنهاج النبوي الذي تركه لنا الحبيب المصطفى والنبى المجتبي عليه الصلاة والسلام، والذي إن تمسكنا به وسلكنا مسلكه لن نضل أبدا.

لقد ربى النبي ﷺ رجالا رحماء بينهم، تحابوا في الله، وتوالوا فيه، وسمعوا، وأطاعوا، واستجابوا لربهم، وتشاوروا في الأمر، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبايعوا، وآووا ونصروا، فكان العشرون منهم يغلبون مائتين من سواهم، كانوا رجالا صنعتهم التربية المحمدية النبوية، ومحصهم الله بالابتلاء والخطوب والشدائد والأذى، فبذلوا الغالي والنفيس لإرضاء ربهم، ونصر نبيهم ﷺ، والدفاع عن دين الإسلام، حتى حرروا العالم من قبضة الكفر، ونشروا الإسلام والسلام في ربوع الأرض.

وعندما يكون المؤمنون الصادقون كتائب مما يشبه هذه التربية وذلك التألف والتنظيم يتحقق على أيديهم موعود الله وموعود رسوله ﷺ بالاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله تعالى.

وإن أدل ما يدل على تلك التربية النبوية لأولئك الرجال، ولسنة الله في المحبة والطاعة ساحة المعارك التي بين فيها أولئك الرجال شدة جبههم لنييهم، وتمسكهم بغرزه:

- سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه ^(١)؛ في هذه السرية بعث النبي صلى الله عليه وسلم "عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدا.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشا، حتى آتية منهم بخبر وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فهاض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد" ^(٢).

فقاتلوا وأسروا من قدروا على أسره وأخذوا العير بعد اختلافهم في القتل في الشهر الحرام، وتأججت قريش وأشاعت الإشاعات أن محمدا يستحل القتال في الشهر الحرام، وقامت ذئاب الغدر من اليهود بتعميق الجرح، فقالوا: "عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله ^(٣)، عمرو: عمرت الحرب؛ والحضرمي حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب. فجعل الله ذلك عليهم لا لهم. فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا

(١) هو: عبد الله بن جحش بن رباب بن يعمر الأسدي حليف بني عبد شمس أحد السابقين، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا، استشهد يوم أحد ودفن هو وحمزة في قبر واحد وكان له يوم قتل نيف وأربعون سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٥٨٦، ٤/٣٥.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤٤٩/٢. البداية والنهاية، ٢٥٤/٢. تاريخ الإسلام، الملجد الأول (المغازي)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ٢٩/١-٣٠.

(٣) هو: واقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي الحنظلي اليربوعي حليف بني عدي بن كعب، شهد بدرا وهو أول من قتل قتيلًا في الإسلام من المشركين، مات في أول خلافة عمر. الإصابة، ترجمة رقم: ٩١٠٣، ٦/٥٩٤.

وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة]. أي: "إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم"^(١).

وفي هذه السرية الكثير من العبر والدروس؛ نستنبط منها درسا بليغا، ذلك الحب الشديد الذي جعل أولئك الرجال يمضون في سبيلهم ولا يخافون في الله لومة لائم؛ استماتة في الدفاع عن دينهم، وحباً لنبيهم ﷺ وللشهادة في سبيل الله.

- غزوة بدر الكبرى: هذه الغزوة تبهرنا دروسها وعبرها، ويبهرنا عطاؤها وهي تمد الحياة بدروس باهرة "في وحدة الصف وفي محبة الجند لقائدهم، وفي محبة المؤمنين لحبيهم وشفيعهم ﷺ حتى إنه ﷺ وهو يوحد الصفوف وينظمها ليجعلها كالبيان المرصوص.

إنه الحب الصادق للنبي المصطفى ﷺ، إنه الإيمان الأكيد الذي ربط هذه القلوب المؤمنة، إنه الإيمان الصادق والحب الأكيد والإنابة والصلة القوية بالله تعالى التي كانت من أكبر الأسباب ليجري الله تعالى لهم الخوارق في هذه الغزوة"^(٢).

لنذكر بعض الأحداث التي تظهر فيها سنة المحبة جليلة واضحة، قال الإمام ابن إسحاق - رحمه الله -: "وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية^(٣) حليف بني عدي بن النجار (...). وهو مستنتل من الصف - قال ابن هشام: ويقال مستنصل من الصف - فطعن في بطنه بالقدح، وقال: "استويا سواد؟" فقال يا رسول الله: أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل قال: "فأقدي". فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: "استقد" قال فاعتنقه فقبل بطنه فقال: "ما حملك على هذا يا سواد؟" قال يا رسول الله حضر

(١) سيرة ابن هشام، ٢/٤٥٠.

(٢) "شهر الانتصارات، غزوة بدر الكبرى"، مقال لأحمد عمر هاشم، المنشور بمجلة الأزهر الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بمصر، السنة ٧٦، رمضان ١٤٢٤هـ، نوفمبر ٢٠٠٣م، الجزء ٩، [١٣٨٥-١٣٩٢]، ص ١٣٨٨-١٣٨٩.

(٣) هو: سواد بن غزوة الأنصاري من بني عدي بن النجار ويقال سواده وقيل هو بلوي حليف الأنصار، شهد بدرا، وبعثه سواد بن غزوة أخا بني عدي وأمره على خيبر فقدم عليه بتمر. الإصابة، ترجمة رقم: ٣٥٨٤، ٣/٢١٧.

ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرا" (١).

ثم حرض النبي ﷺ أصحابه على القتال، وقال: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة". فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ (٢) - أَخُو بَنِي سَلَمَةَ - : وَفِي يَدِهِ تَمَرَاتٍ يَأْكُلُهُنَّ، بَخَّ بَخَّ أَفَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلَاءِ ثُمَّ قَذَفَ التَّمَرَاتِ مِنْ يَدِهِ، وَأَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ .

وقال عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ (٣): وَهُوَ ابْنُ عَفْرَاءَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُضْحِكُ الرَّبَّ مِنْ عَبْدِهِ؟ قَالَ: "غَمْسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا". فَتَزَعَّ دِرْعًا كَانَتْ عَلَيْهِ فَقَذَفَهَا، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ (٤).

- غزوة أحد: قاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمدا. فلما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب، وقاتل علي بن أبي طالب ورجال من المسلمين (٥).

وقاتل سيدنا حنظلة بن أبي عامر الراهب (٦) وكان قد تزوج "جميلة بنت عبد الله

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٤٦٦.

(٢) هو: عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي، شهد بدرًا، وكان أول قتيل قتل في سبيل الله في الحرب، استشهد ببدر. الإصابة، ترجمة رقم: ٦٠٣٤، ٤/ ٧١٥ - ٧١٦.

(٣) هو: عوف بن الحارث هو عوف بن عفراء أخو معاذ ومعوذ قال أبو عمر: سماه بعضهم عوذا. وعوف أصح. الإصابة، ترجمة رقم: ٦٠٩٦، ٤/ ٧٣٩.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢/ ٤٦٧. طبقات ابن سعد، ٢/ ٢٥.

(٥) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٩.

(٦) هو: حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي المعروف بغسيل الملائكة، وكان أبوه في الجاهلية يعرف بالراهب واسمه عمرو ويقال عبد عمرو، وكان يذكر البعث ودين الحنيفية فلما بعث النبي ﷺ عانده وحسده وخرج عن المدينة، وشهد مع قريش وقعة أحد ثم رجع مع قريش إلى مكة، ثم خرج إلى الروم فمات بها سنة تسع، ويقال سنة عشر وأعطى هرقل ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي، وأسلم ابنه حنظلة فحسن إسلامه، واستشهد بأحد لا يختلف أصحاب المغازي في ذلك. الإصابة، ترجمة رقم: ١٨٦٥، ٢/ ١٣٧.

بن أبي بن سلول^(١)، فأدخلت في الليلة التي في صبيحتها كان قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها، فأذن له، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ بأحد، ثم مال إلى جميلة فأجنب منها. وكانت قد أرسلت إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم أنه دخل بها. فقيل لها في ذلك فقالت: رأيت كأن السماء قد فرجت له فدخل فيها، ثم أطبقت فقلت هذه الشهادة. وعلقت بعبد الله بن حنظلة.

وأخذ حنظلة سلاحه، فلحق بالنبى ﷺ وهو يسوي الصفوف، فلما انكشف المسلمون^(٢) التقى غسيل الملائكة سيدنا حنظلة بن أبي عامر وزعيم قريش أبو سفيان، فلما استعلاه حنظلة بن أبي عامر رآه شداد بن الأسود، وهو ابن شعوب قد علا أبا سفيان. فضربه شداد فقتله. فقال رسول الله ﷺ: "إن صاحبكم -يعني حنظلة- لتغسله الملائكة. فاسألوا أهله ما شأنه؟" فسئلت صاحبتة عنه. فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة. (...). فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة^(٣).

واشدد وطيس المعركة وانتصر المسلمون وصدقهم الله وعده، وولى المشركون الأدبار، فنزل الرماة من الجبل وخالفوا أمر نبيهم ﷺ، فكانت الهزيمة، فقتل من قتل وجرح من جرح، حتى صلى النبي ﷺ قاعدا من شدة الجراح التي أصابته صلوات ربي وسلامه عليه، وأشاع المشركون بأن رسول الله ﷺ قد قتل، ليوهنوا عزائم المؤمنين، ويخففوا من معنوياتهم، مما يسبب لهم الفشل ويخسروا المعركة.

وهذا سيدنا أنس بن النضر بن ضمضم^(٤) يجيش صدره حبا وشوقا في سبيل الله ومحبة سيدنا رسول الله ﷺ؛ عَنِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ عَمَّهُ غَابَ عَنْ بَدْرَ فَقَالَ: "غَبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، لَئِنِ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أُجِدُّ. فَلَقِي يَوْمَ أُحُدٍ، فَهَزَمَ النَّاسُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدْتُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، -يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ- وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ

(١) هي: جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، ذكر ابن سعد أن حنظلة بن أبي عامر تزوجها فقتل عنها يوم أحد. الإصابة، ترجمة رقم: ١٠٩٩٠، ٥٦٢/٧.

(٢) صفة الصفوة، ١/٢٣٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/٢٩. سيرة ابن إسحاق، ص ٣١٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٥-١٠٦. تاريخ الطبري، ٢/٨٢.

(٤) هو: أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار عم أنس بن مالك خادم النبي ﷺ. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٨٣، ١/١٣٢.

به المشركون. فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَيَّنَ يَا سَعْدُ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ. فَمَضَى فُقُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفْتُهُ أُخْتَهُ بِشَامَةِ أَوْ بِنَانِهِ، وَبِهِ بَضْعٌ وَتَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةٍ بِسَهْمٍ" (١).

ولما فُقِدَ سيدنا رسول الله ﷺ وشاع الخبر بمقتله؛ قال رجل من الصحابة: "إن رسول الله قد قتل، فارجعوا إلى قومكم فيؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، فإنهم داخلوا البيوت. قال: وقال رجل منهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا. وقال آخرون: إن كان رسول الله ﷺ قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء؟ منهم [أنس بن النضر]، شهد له بها سعد بن معاذ عند رسول الله ﷺ" (٢).

فبينما رسول الله ﷺ بالشعب ومعه نفر من أصحابه، "إذ علت عالية من قريش الجبل. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا"، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

ونفض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وقد كان بَدَنَ رسول الله ﷺ، وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض ﷺ لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها. فقال رسول الله ﷺ (...): "أوجب طلحة" حين صنع بر رسول الله ﷺ ما صنع" (٣).

وبعد انتهاء المعركة فرغ الناس لقتلاهم، فتفقّد سيدنا رسول الله ﷺ سعد بن الربيع الذي ملأت محبة رسول الله ﷺ قلبه، ولم يبال بما أصابه من جراح وهو يحتضر إلا شوقه إلى حبيبه ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ؟ أَفِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟" فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا أَنْظُرُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فَعَلَ سَعْدٌ، فَنَظَرَ فَوَجَدَهُ جَرِيحًا فِي الْقَتْلِ وَبِهِ رَمَقٌ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَنْظَرَ أَفِي الْأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟ قَالَ: أَنَا فِي الْأَمْوَاتِ، فَأَبْلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي السَّلَامَ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكَ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا خَيْرٌ مَا جَزَى نَبِيًّا عَن أُمَّتِهِ.

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ح ٤٠٤٨. صفة الصفوة، ١/ ٢٤٠.

(٢) عيون الأثر، (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، ١٩/٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٠٦.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/ ٤٠.

وَأَبْلَغُ قَوْمِكَ عَنِّي السَّلَامَ؛ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا عُدْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
إِنْ خَلَصَ إِلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ. قَالَ: ثُمَّ لَمْ أَبْرَحْ حَتَّى مَاتَ، قَالَ: فَجِئْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتَهُ خَبْرَهُ" (١).

إنه سيدنا سعد بن الربيع ؓ "الذي يحذر الأنصار من أن يتمكن أحد من رسول الله
ﷺ. وبعد ذلك فاضت روحه. فنلحظ إلى آخر ما كان من الصحابي الجليل حين أشخته
الحرب فلم يقو على أن يجارب بنصاله انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله، ولتصير كلماته دويا
في آذان المسلمين، وليعلم هؤلاء الذين أثنوه جراحا ما صنعوا فيه، إنهم قربوه من لقاء
ربه، وأنه ذاهب إلى الجنة، وتلك هي الغاية التي يرجوها كل مؤمن ومن أجلها يجاهد" (٢).

أما سيدنا عمرو بن الجموح (٣) فإنه اشتاق إلى الجنة فاشتاقت الجنة إليه، قال الواقدي
-رحمه الله-: "وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج فلما كان يوم أحد- وكان له بنون أربعة
يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد أمثال الأسد- أراد بنوه أن يجسوه وقالوا: أنت رجل أعرج
ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبي ﷺ.

قال: يخ يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم؛ فقالت هند بنت عمرو بن حرام (٤)
امرأته كأني أنظر إليه موليا، قد أخذ درقته (٥) يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي خزيا فخرج
ولحقه بنوه يكلمونه في القعود فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن بني يريدون أن
يجسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إني لأرجو أن أظأ بعرجتي هذه الجنة. فقال
رسول الله ﷺ: "أما أنت فقد عذرك الله تعالى ولا جهاد عليك". (فأبى) فقال النبي ﷺ
لبنيه: "لا عليكم أن تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة". فخلوا عنه فقتل يومئذ شهيدا.

(١) سيرة ابن هشام، ٤٩/٣. الموطأ لمالك بن أنس، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد، ح ١٠١٣.
سيرة ابن إسحاق، ص ٣١٣. تاريخ الطبري، ٨٥/٢.

(٢) غزوات الرسول ﷺ، محمد متولي الشعراوي، دراسة وإعداد وتحقيق: مركز التراث لخدمة الكتاب
والسنة، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) هو: عمرو بن الجموح بفتح الجيم وتخفيف الميم بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن سلمة
الأنصاري السلمي، من سادات الأنصار واستشهد بأحد. الإصابة، ترجمة رقم: ٥٨٠١، ٤/٦١٥.

(٤) هي هند بنت عمرو بن حرام الأنصارية عمه جابر بن عبد الله الصحابي المشهور. الإصابة، ترجمة
رقم: ١١٨٦٠، ٨/١٥٧.

(٥) الدَّرَقُ: ضرب من التَّرْسَةِ الواحدة دَرَقَةٌ؛ تتخذ من الجلود غيره الدرقة الحَجَفَة وهي تُرْس من جلود
ليس فيه خشب ولا عَقَبَ والجمع دَرَقٌ وأدراق ودراق. لسان العرب، مادة: درق.

فقال أبو طلحة: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ثم تابوا وهو في الرعيّل الأول لكأني أنظر إلى ضلعه في رجله يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة ثم أنظر إلى ابنه يعدو في أثره حتى قتلا جميعا.

وكانت عائشة زوج النبي ﷺ خرجت في نسوة تستروح الخبر - ولم يضرب الحجاب يومئذ -، حتى إذا كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي لقيت هند بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله بن عمرو بن حرام تسوق بعيرها لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو^(١)، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر^(٢).

فقال عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خيرا، أما رسول الله فصالح وكل مصيبة بعده جليل (...).

قالت: من هؤلاء؟ قالت أخي، وابني خلاد وزوجي عمرو بن الجموح. قالت: فأين تذهين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها. تزجر بعيرها، ثم برك بعيرها فقلت: لما عليه قالت ما ذاك به لربما حمل ما يحمل البعيران ولكني أراه لغير ذلك. فزجرته فقام فلما وجهت به إلى المدينة برك فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع. فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال رسول الله: ﷺ "فإن الجمل مأمور هل قال شيئا؟" قالت: إن عمرا لما وجه إلى أحد استقبل القبلة وقال: اللهم لا تردني إلى أهلي خزيا وارزقني الشهادة.

قال رسول الله ﷺ: فلذلك الجمل لا يمضي إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح. يا هند، ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن". ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم ثم قال: "يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعا، عمرو بن الجموح، وابنك خلاد وأخوك عبد الله". قالت هند: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم"^(٣).

(١) هو: خلاد بن عمرو بن الجموح الأنصاري السلمي [تقدم نسبه في ترجمة أبيه] ذكره بن إسحاق وغيره في البدرين قال أبو عمر لا يختلفون في ذلك واستشهد بأحد. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٢٨١، ٣٤٠/٢.

(٢) هو: عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي والد جابر بن عبد الله الصحابي المشهور، معدود في أهل العقبة وبدر، وكان من النقباء، واستشهد بأحد. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٨٤١، ٤/١٨٩.

(٣) مغازي الواقدي، ١/٢٦٥ وما بعدها.

وهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال له سيدنا عبد الله بن جحش رضي الله عنه يوم أُحد: "ألا تأتي ندعو الله؟ فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو غدا فلقتني رجلا شديدا بأسه، شديدا حَرْدُه^(١)، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وأخذ سلبه، فأمن عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقني غدا رجلا شديدا بأسه، شديدا حرده، أقاتله فيك ويقاتلني فيقتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني.

فإذا لقيتك قلت يا عبد الله: فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك، وفي رسولك، فيقول الله: صدقت قال سعد: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه معلقان في خيط"^(٢).

أما أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية^(٣) رضي الله عنها فقد قاتلت ببسالة يوم أحد. "ذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري: أن أم سعد بنت سعد بن الربيع^(٤) كانت تقول: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك؛ فقالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعني سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقممت بأبشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي. قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور^(٥)، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقماه الله لما ولي الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضر بني هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان"^(٦).

(١) حرده: والحَرْدُ المنع والحَرْدُ الغيظ والغضب. لسان العرب، مادة: حرد.

(٢) عيون الأثر (تحقيق: الخضراوي ومتو)، ٣٢/٢.

(٣) هي: أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم من بني مازن بن النجار الأنصارية النجارية، والدة عبد الله وحبيب من بني زيد بن عاصم، قال أبو عمر: شهدت بيعة العقبة وشهدت أحدا مع زوجها ولدها منه في قول ابن إسحاق، وشهدت بيعة الرضوان، ثم شهدت قتال مسيلمة باليامة، وجرحت يومئذ اثنتي عشرة جراحة، وقطعت يدها، وقتل ولدها حبيب، روت عن النبي ﷺ أحاديث. الإصابة، ترجمة رقم: ١٢١٧٨، ٨/٢٦٥.

(٤) هي: أم سعد بنت سعد بن الربيع الأنصارية تقدم نسبها في ترجمة والدها. الإصابة، ترجمة رقم: ٢١٧/٨، ١٢٠٤٦.

(٥) غور: عمق، وغَوْرٌ كُلُّ شَيْءٍ فَعَّرَهُ وعمقه. لسان العرب، مادة: غور.

(٦) سيرة ابن هشام، ٣/٣٦-٣٧.

وهذا سيدنا أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه في غزاة أحد يفدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، فعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم خلفه يتترس به. وكان راميا، فكان إذا ما رفع رأسه ينظر أين وقع سهمه، فيرفع أبو طلحة رأسه ويقول: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك. وكان أبو طلحة يشور نفسه^(١) بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: إني جلد يا رسول الله فوجهني في حوائجك ومرني بها شئت"^(٢).

- يوم الرجيع^(٣): قال ابن إسحاق: "قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ أَحَدٍ رَهْطٌ مِنْ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ"^(٤).

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فِينَا إِسْلَامًا، فَأَبَعْتُ مَعَنَا نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقَّهُونَا فِي الدِّينِ وَيُقَرِّبُونَا الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُونَا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَفْرًا سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ: مَرْتَدُ بْنُ أَبِي مَرْتَدٍ الْغَنَوِيُّ^(٥)، وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيْرِ اللَّيْثِيُّ^(٦)، وَعَاصِمُ بْنُ

(١) يشور نفسه: أي يعرضها على القتل والقتل في سبيل الله يبيع النفس وقيل يشور نفسه أي يسعى ويخف يظهر بذلك قوته. لسان العرب، مادة: شور.

(٢) طبقات ابن سعد، ٣/ ٥٠٤ وما بعدها.

(٣) اختلف أهل السير في تاريخ هذه السرية؛ فابن إسحاق يقول بأنها كانت في السنة الثالثة للهجرة بعد غزوة أحد، انطلاقاً من رواية مرسله عن شيخه عاصم. وابن سعد يقول بأنها كانت في شهر صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة؛ أي في بداية السنة الرابعة. ومنهم من حددها بمنتصف شهر صفر آخر السنة الثالثة. طبقات ابن سعد، ٢/ ٥٥. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١١٣. جوامع السيرة، ص ١٠٦. سيرة ابن هشام، ٣/ ١١٥. عيون الأثر: الخطراوي ومتو)، ٢/ ٦٢.

(٤) عضل والقارة: عضل: بطن من بطون بني الأهل بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم، وأما القارة: بطن من الهول أيضا ينسبون إلى الديش المذكور، وقال ابن دريد: القارة أكمة سوداء فيها حجارة كأنهم نزلوا عندها فسموا بها. فتح الباري، ٧/ ٤٣٥.

(٥) هو: مرتد بن أبي مرتد الغنوي صحابي وأبوه صحابي واسمه كزاز بنون ثقيلة وزاي بن الحصين وهما ممن شهد بدرًا، استشهد مرتد في صفر سنة ثلاث في غزاة الرجيع. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٨٨٣، ٧٠/ ٦.

(٦) هو: خالد بن بكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن بكر بن ليث بن عبد مناة الليثي حليف بني عدي بن كعب، مشهور من السابقين وشهد بدرًا، واستشهد يوم الرجيع وهو ابن أربع وثلاثين سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ٢١٥٠، ٢/ ٢٢٧.

ثَابِتُ بْنُ أَبِي الْأَقْلَحِ^(١)، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيِّ^(٢)، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثَنَةِ بْنِ مُعَاوِيَةَ^(٣)، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ^(٤).

وأمر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، فخرج حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدأة^(٥) غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا، ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل أصحابه.

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورجعوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا إلى مكة، ليبعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه فقبره ﷺ بالظهران، وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة. قال ابن هشام: فباعوها من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة. قال ابن إسحاق: فابتاع خبيبا حجير بن أبي إهاب التميمي، حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه لقتله بأبيه.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقبله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به

(١) هو: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح واسم أبي الأقلح قيس بن عصمة بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عمرو بن عوف الأنصاري، من السابقين الأولين من الأنصار. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٣٥٠، ٣/٥٦٩.

(٢) هو: خبيب بن عدي بن مالك بن عامر بن مجدعة بن جحجي بن عوف بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٢٢٤، ٢/٢٦٢.

(٣) هو: زيد بن الدثنة بفتح الدال وكسر المثلثة بعدها نون بن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الأنصاري البياضي، شهد بدرًا وأحدا. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٩٠٠، ٢/٦٠٤.

(٤) هو: عبد الله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوي حليف بني ظفر من الأنصار وكان أخا معتب بن عبيد لأمه، من أهل بدر. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٧٧٢، ٤/١٣٦.

(٥) الهدأة: موضع بين عسفان ومكة. معجم البلدان، باب الهاء والراء وما يليها، حرف: الهاء.

صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم^(١)، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلِكَ؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يجب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا؛ ثم قتله نسطاس ي رضي الله عنه.

ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا؛ قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أنني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة، قال: فكان خبيب بن عدي أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. قال: ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا. ثم قتلوه رضي الله عنه^(٢).

ثم أنشأ يقول:

"فلست أبالي حين أقتل مسلما
على أي جنب كان الله مصري

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع"^(٣).

وعند الواقدي رضي الله عنه -: "ثم قال: اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك عني، فبلغه عني السلام!

عن أسامة بن زيد، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه، فأخذته غَمِيَّةٌ كما كان يأخذه إذا أنزل عليه الوحي. قال: سمعناه يقول: "وعليه السلام ورحمة الله"؛ ثم قال: "هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام"^(٤).

(١) التَّنَعِيم: موضع بمكة في الحل وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة وقيل: على أربعة وسمي بذلك لأن جبلا عن يمينه يقال له: نعيم وآخر عن شماله يقال له ناعم والوادي نعمان. معجم البلدان، باب التاء والنون وما يليهما، حرف: التاء.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ١١٥-١١٨، باختصار.

(٣) مغازي ابن عقبة، ص ٢٠٢.

(٤) كتاب المغازي للواقدي (تحقيق: مارشدن جونس)، ١/ ٣٦٠-٣٦١.

وبعث سيدنا رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري^(١) بَعْدَ مَقْتَلِ خَيْبِ بْنِ عَدِيِّ وَأَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ، "وَأَمْرُهُ أَنْ يَقْتَلَ أَبَا سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَيَبْعَثَ مَعَهُ جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ الْأَنْصَارِيَّ"^(٢) فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا مَكَّةَ"^(٣)، لكن عرفهم أهل مكة لما رأوهم فخرجوا هاربين راجعين إلى المدينة.

- غزوة حنين: نجد صوراً رائعة لذلك الحب الشديد لحضرة النبي ﷺ الذي سيطر على كيان أولئك الرجال الذين باعوا أنفسهم وأرواحهم لله تعالى؛ فهذه مولاتنا أم سليم بنت ملحان^(٤) رضي الله عنها، التفت النبي ﷺ فرآها "وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها بارد لها، وإنما لحامل بعبد الله بن أبي طلحة ومعها جمل أبي طلحة، وقد خشيت أن يعزها الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في خزامته"^(٥) مع الخطام، فقال لها رسول الله ﷺ: "أم سليم؟" قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل؛ فقال رسول الله ﷺ: "أو يكفيك الله يا أم سليم؟" قال: ومعها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟

(١) قال ابن هشام: ومما لم يذكره ابن إسحاق من بعوث رسول الله ﷺ وسراياه بعث عمرو بن أمية الضمري. سيرة ابن هشام، ٤/٤٨٧.

(٢) هو: جبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري ثم السلمى يكنى أبا عبد الله، شهد العقبة وبدر، مات جبار بن صخر سنة ٣٠ في خلافة عثمان، زاد أبو نعيم وهو بن ٦٢ سنة. الإصابة، ترجمة رقم: ١٠٥٧، ١/٤٤٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ٤/٤٨٧-٤٨٨.

(٤) هي: أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، وهي الغميصاء، ويقال الرميضاء، ويقال اسمها سهلة، ويقال رميلة، ويقال بل اسمها أنيفة، ويقال رميثة، وأمها مليكة بنت مالك بن عدي بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. تزوجها مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار فولدت له أنس بن مالك، ثم خلف عليها أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار فولدت له عبد الله وأبا عمير. وأسلمت أم سليم وبايعت رسول الله ﷺ وشهدت يوم حنين وهي حامل بعبد الله بن أبي طلحة، وشهدت قبل ذلك يوم أحد تسقي العطشى وتداوي الجرحى. طبقات ابن سعد، ٨/٤٢٤.

(٥) خزامته: خزم الشيء يخرمه خزماً شكه والخزامة برة حلقة تجعل في أحد جانبي المنخري البعير وقيل هي حلقة من شعر تجعل في وتره أنفه يُشدُّ بها الزمام. لسان العرب، مادة: خزم.

قالت: خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته^(١) به قال: يقول أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميضاء^(٢).

- سرية كعب بن عمير الغفاري^(٣) ﷺ إلى قضاة من ناحية الشام^(٤): عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: "بعث النبي ﷺ كعب بن عمير الغفاري نحو ذات أطلاح^(٥) من البلقاء^(٦) فأصيب كعب ومن معه"^(٧)، ابن سعد-ﷺ: "[وكانوا] خمسة عشر رجلاً فدعواهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر فشق ذلك عليه وهم بالبعث إليهم فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم"^(٨)، وكان ذلك في "في شهر ربيع الأول سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ"^(٩).

- سرية مؤتة (جيش الأمراء): بعث سيدنا رسول الله ﷺ، "الحارث بن عمير الأزدي"^(١٠) أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف^(١١). وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول الله ﷺ: "أمير الناس زيد

(١) بعجته: أي أشقته، وهو من: يَعْجَ بَطْنُهُ بالسكين يَعْجُهُ بَعْجاً فهو مَبْعُوجٌ وَبِعِجٌ وَبَعْجُهُ شَقُّهُ فزال ما فيه من موضعه وبدا متعلقاً. لسان العرب، مادة: بعج.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤/٣٤٦.

(٣) هو: كعب بن عمير الغفاري قال أبو عمر من كبار الصحابة أمره النبي ﷺ على سرية فقتل. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٤٣٢.

(٤) قال ابن سعد: في شهر ربيع الأول سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

(٥) ذات أطلاح: موضع من وراء ذات القرى إلى المدينة. معجم البلدان، باب الهمزة والطاء وما يليهما، حرف الهمزة.

(٦) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. معجم البلدان، باب الباء واللام وما يليهما، حرف الباء.

(٧) مغازي موسى بن عقبة، ص ٢٦٣.

(٨) طبقات ابن سعد، ٢/١٢٧-١٢٨.

(٩) طبقات ابن سعد، ٢/١٢٧.

(١٠) هو: الحارث بن عمير الأزدي ثم اللّهي. الإصابة، ترجمة رقم: ١٤٦١، ١/٥٨٩.

(١١) الجرف: يقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة المنورة على الجزء الذي يلي وادي العقيق، وهو الآن حي من أحياء المدينة. تاريخ المدينة المنورة، ص ٧٧.

بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليترض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم". وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقتلواهم، وخرج مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع^(١) فوقف وودعهم، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين! "^(٢).

فلما مضوا إلى مؤتة وغادروا المدينة سمع العدو بمسيرهم، "فجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه"^(٣).

فلما سمع المسلمون بذلك العدد الكبير، فأقاموا ليلتين ليفكروا في أمرهم "وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فيما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

فشجع الناس عبد الله بن رواحة؛ وقال: يا قوم، والله إن التي تكروهون، للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة. قال فقال الناس قد والله صدق ابن رواحة"^(٤).

فمضى المسلمون إلى مؤتة ووافاهم "المشركون فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكرام"^(٥) والديباج والحريير والذهب، فالتقى المسلمون والمشركون فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم، حتى قتل طعنا بالرماح ﷺ، ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فنزل عن فرس له شقراء فعربها فكانت أول فرس عرقت في الإسلام وقاتل حتى قتل ﷺ عنه، ضربه رجل من الروم فقطعه بنصفين، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحا ووجد فيها قيل

(١) ثنية الوداع: عن يمين المدينة أحسب أنه كان الخارج من المدينة يودعه المشيع من هناك. الروض المعطار، حرف الثاء، ص ١٥١.

(٢) طبقات ابن سعد، ١٢٨/٢.

(٣) طبقات ابن سعد، ١٢٩/٢.

(٤) سيرة ابن هشام، ٢٨٩/٤.

(٥) الكراع: قد يستعمل للإبل. لسان العرب، مادة: كرع.

من بدن جعفر اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل ﷺ، فاصطلع الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء وانكشف الناس فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ، حتى نظر إلى معترك القوم. فلما أخذ خالد بن الوليد اللواء قال رسول الله ﷺ: "الآن حمي الوطيس!" فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يثبون في وجوههم التراب ويقولون: يا فرار! أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: "ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله!"^(١).

ولما أصيب حب رسول الله ﷺ سيدنا زيد بن حارثة أتى النبي ﷺ بيت زيد "فجهشت بنت زيد في وجه رسول الله ﷺ، فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب فقال له سعد بن عباد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيبه"^(٢).

- خبر قتل المرأة^(٣) التي كانت تسب النبي ﷺ: عن ابن عباس ؓ: "أن أعمى كان على عهد رسول الله ﷺ وكانت له أم ولد، وكان له منها ابنان وكانت تكثر الوقعة

(١) طبقات ابن سعد، ١٢٩/٢.

(٢) طبقات ابن سعد، ٤٧/٣.

(٣) خبر قتل المرأة هذه المرأة سماها أهل المغازي بالعصماء بنت مروان، ونسبها إلى بني أمية بن زيد، وأنها كانت تؤذي النبي ﷺ وتعيب الإسلام. امرأة من بني خزيمة وهناك اضطراب كبير في الروايات التي روت هذه الحادثة، فرواية ابن إسحاق والواقدي إسنادهما منقطع، ولهذا اخترت رواية النسائي لأن سندها صحيح.

ولا بأس من ذكر رواية ابن هشام هنا قال: سرية عمير بن عدي الخطمي لقتل عصماء بنت مروان: وهي من بني أمية بن زيد فلما قتل أبو علفك نافقت، وكانت تهجو الإسلام وتعيب أهله بشعرها، وتحرض على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: "ألا أخذ لي من ابنة مروان؟" فسمع ذلك من قول رسول الله ﷺ عمير بن عدي الخطمي، وهو عنده، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها، ثم أصبح مع رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إني قد قتلتها. فقال: "نصرت الله ورسوله يا عمير"، فقال: هل علي شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: "لا يتطع فيها عنزان".

فرجع عمير إلى قومه، وبنو خزيمة يومئذ كثير موجهم في شأن بنت مروان، ولها يومئذ بنون خمسة رجال فلما جاءهم عمير بن عدي من عند رسول الله ﷺ قال: يا بني خزيمة، أنا قتلت ابنة مروان، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون. فذلك اليوم أول ما عز الإسلام في دار بني خزيمة، وكان يستخفي بإسلامهم فيهم من أسلم، وكان أول من أسلم من بني خزيمة عمير بن عدي، وهو الذي يدعى القارئ (...). وأسلم يوم قتلت ابنة مروان رجال من بني خزيمة لما رأوا من عز الإسلام. سيرة ابن هشام، ٤٩١/٤.

برسول الله ﷺ، وتسبه فيزجرها، فلا تنزجر، وينهاها فلا تنتهي، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي ﷺ، فوقع فيه، فلم أصبر أن قمت إلى المغول^(١) فوضعت في بطنها، فاتكأت عليه، فقتلتها، فأصبحت قتيلة، فذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس وقال: "أنشد الله رجلا لي عليه حق فعل ما فعل إلا قام"، فأقبل الأعمى يتدلدل فقال يا رسول الله: أنا صاحبها؛ كانت أمٌ ولدي، وكانت بي لطيفة رفيقة، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، ولكنها كانت تكثر الوقعة فيك، وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، فلما كانت البارحة ذكرتك، فوقع فيك، فقمت إلى المغول فوضعت في بطنها، فاتكأت عليها حتى قتلتها، فقال رسول الله ﷺ: "ألا اشهدوا أن دمها هدر"^(٢).

فهذا الرجل الضرير دفعته تلك المحبة السامية السرمدية إلى أن يعلو فوق النسب والعاطفة فداءً لحبيبه ونور بصره، رغم المكانة التي كانت تحظى به تلك المرأة في قلبه، ورغم حبه الشديد لها ولبنيتها، لكن حب الحبيب الأعظم ﷺ فوق كل حب، وصدق ربنا تبارك وتعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة].

إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وباعوا أنفسهم وأرواحهم لله تعالى، وطلقوا الدنيا طلاقاً باتناً، وسارعوا إلى جنات عرضها السموات والأرض.

وعلى ضوء ما سبق ذكره من القصص الرائعة، والمواقف الخالدة، والدرر الغالية في تاج التاريخ الإسلامي يتبين لنا مدى ذلك الحب الشديد الذي ملأ شغاف قلوب أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ، ذلك الحب العالي الخالد الذي لا تنزله الشدائد، ولا تزعزعه الصعاب والخطوب، وهكذا نراهم ﷺ في أحلك اللحظات حراجه يمدون حبيبهم ﷺ بأرواحهم أن تصيبه شوكة آتت في بيته، وهم في اللحظة الأخيرة بين أعدائهم ينتظرون

(١) المغول: شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه وقيل هو حديدة دقيقة لها حدٌّ ماضٍ وقفاً وقيل هو سوط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه ليغتال به الناس. لسان العرب، مادة: غول.

(٢) سنن النسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ، ح ٤٠٧٠. قال الألباني حديث: "صحيح الإسناد".

الموت، فما أخلصه من بذل، وما أعظمه حبًّا حير أعداءهم وأدهشهم في ذلك الوقت، لما رأوا ذلك التفاني في الحب الشريف.

هذا إضافة إلى الجهاد المتواصل والعمل الدائب من أجل رفع راية الإسلام، وتبليغ كلمته في العالمين، فخرج الصحابة رضي الله عنهم في الغزوات والسرايا والبعوث، واستجابوا لربهم الذي ناداهم وحضهم وحثهم على القتال في سبيله؛ فكانت هناك معارك تلو المعارك، ونشاط متدفق من السرايا والبعوث.

"إننا نرى بوضوح كامل كيف كان معظم الصحابة رضوان الله عليهم مشاركين ضمن هذه السرايا والبعوث قوادًا تارة، وجنودًا عاديين أخرى، فكان ذلك من الخطط (الإستراتيجية) بعيدة المدى يعدها النبي صلى الله عليه وسلم لتثبيت دعائم الدولة الإسلامية، وإعداد منظمها ودقيقا لجيوش الفتوحات الإسلامية التي ما فتى عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات السلم والحرب والخوف والأمن"^(١).

فكانت ثمار تلك السرايا والبعوث -التي ظهرت فيها سنة الله في المحبة جليلة واضحة- يانعة، وعراجينها دانية، ونتائجها باهرة، أدهشت القاصي والداني لما حققته من فتوحات إسلامية في وقت يسير، ويزيد هذه النتائج دهشة الوصايا النبوية والتوجيهات المصطفوية لأمرء جيوشه بتقوى الله والرحمة بالشيوخ والنساء والصبيان، والتزام الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، فكانوا لهذه الوصايا والتوجيهات مطبقين وبها ملتزمين، وكانوا بعد مرحلة النبوة للمنهادج النبوي سالكين، ولأثره مقتفين، ففتحو قلوب العباد، وفتحوا البلاد.

إنها المحبة التي تصنع العجائب، وتدفع صاحبها إلى التعالي فوق الذات، إنها روحانية عالية حولت أولئك الرجال من رعاة إلى قادة للعالم، وأخرجتهم من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإيمان.

إنها المحبة التي هي مجلدة للقلوب من الصدأ والكسل، ومدعاة لتحريك الهمة للجد والعمل، وهي عماد الدين، وباب النصر والتمكين، لولاها لما استقام البناء على وجه الأرض

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة؛ دراسة نقدية تحليلية، أعدها: بريك أبو مائلة العمري، أشرف عليها: أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١/١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ٦١.

لحظات، ولا عمتنا البركة من السماوات، إنها السبيل الذي يخرجنا من ذلك المستنقع الآسن، والدرك الهابط، والظلام البهيم، السبيل الموصل إلى جنات النعيم.

وعلى هذا، فما بال الناس يرتكسون في الحمأة الوبيئة والعلاج بين أيديهم؟ إن المحبة هي العلاج المنسي في عالمنا الإسلامي المعاصر، يتسارع المسلمون إلى فجاج وإلى جهات وإلى أساليب ووسائل شتى بحثا عن العلاج، والعلاج بين أيديهم وهم عنه تائهون، تلك والله هي المصيبة الكبرى.

فمحبة سيدنا رسول الله ﷺ ليست كلمة تلهج بها الألسن الغافلة، بل هي طاعة وموافقة واتباع للمحبوب وبذل الغالي والنفيس والمهج في سبيلها، أما إذا كانت مجرد دعوى فسرعان ما تتخطفها الأهواء، وتتصيدا الشياطين، فتتمزق هذه الدعوى وتذوب؛ إذ لا يمكن أن نجد محبة دون طاعة واتباع. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور]، وقال عز من قائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

تلك المحبة إذن، هي الترياق المجرب، هي المفتاح الذي يقود الأمة إلى الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، كما قادت سادتنا الصحابة رضوان الله عليهم ففتحوا البلاد، وفتحوا قلوب العباد، هي المفتاح الذي يدفع الإنسان إلى اقتحام العقبات الكؤود، من أجل البناء بناء صرح العمران على أس القرآن وسنة النبي ﷺ إمام أهل الإحسان. إن البناء الذي ينسى هذا الأساس المتين لا يمكن أن يحمي صاحبه من الأخطار الوافدة إليه بشكل من الأشكال، بل سرعان ما ينهار على أم رأسه.

إذا انفك قلب الإنسان عن هذا التاج-المحبة-العظيم، ما الذي يبقى له؟ لاشك يصبح قلبه مأوى ووكرا لأفاعي الريب وسوء الظن، وذئاب الهوى والطمع.

إذاً فصر أولئك الرجال وثباتهم، وجهادهم لم يرقم إلا على دعامة رئيسة، ألا وهي دعامة الحب الشديد للنبي المجتبي ﷺ.

هذه الدعامة إذا سلم أساسها وقامت صافية عن الشوائب والزغل سهّل البناء، وسهل الجهاد، وكلما كانت المحبة شديدة كان البناء شامخاً ومتيناً.

لكن ما نلاحظ غيابه في واقعنا - وهو أهم درس نستفيد من هذا المبحث - تلك المحبة، فابتلينا بغيابها بالويل والثبور وعظائم الأمور. أن تعود القلوب إلى معين المحبة، فتغرف منه، ذلك هو الدواء لهذه الأمراض الوبيلة التي حلت بنا.

لو أن القلوب صفت وُغرس فيها غرس المحبة لجمع الله شملها، ووجد كلمتها، ولفجر القوة من حيث لا تحتسب من كيانه. فما انتصر الإسلام بالفكر ولا الجدال، لكنه انتصر بالمحبة والطاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام وبتلك الروحانية الإيانية العالية. فالإسلام الفكري لا يحقق شيئاً، لا ينبت كلاً ولا يعطي ثماراً؛ لأنه شجرة فوق الأرض لا جذور لها سرعان ما تعصف بها الرياح العاتية وتهوي بها في مكان سحيق.

فعندما تتحقق هذه المحبة بمفهومها الشامل في قلوب المسلمين وأعمالهم تحل مشكلاتهم كلها، وعندما تغيب المحبة ويبقى التناطح والبغض والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، فإن المشكلات تتكاثر ولن تجد لها حلاً أبداً.

وخير شاهد على ما سبق ذكره ما تعانيه الأمة الإسلامية من مشكلات كثيرة من تفرق وتشرذم وطائفية وأحقاد و.. بقي الجسد المتمثل في الأمة الإسلامية، وانفصلت الروح عنه؛ المحبة والأخوة والتعاون.. والرعيّل الأول النموذج الخالد ﷺ ما نالوا ما نالوه من خير وفضل، وما تحقق على أيديهم من فتوحات ونصر وتمكين لمجرد استيعاب مبادئ الإسلام، لكن تحقق ذلك على أيديهم بسبب حبه الشديد الذي سيطر على قلوبهم وملك كيانه، ذلك الحب الذي جعل الموت في سبيل الله أعلى أمانهم، قرب لهم البعيد، ولين لهم الحديد، وصغّر في عينهم هم الدنيا، وكبّر فيها هم الآخرة، وجعل المستحيل ممكناً، والماء الأجاج عذبا سلسيلاً، وتحقق فيهم قوله سبحانه تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧ ﴾ [الأحزاب].

ذلك هو لب الدين وروحه والسر في انتصاره وظهوره على الدين كله.

تلك المحبة غابت اليوم عن قلوب المسلمين، ولما غابت امتلأت تلك القلوب بحب الدنيا وكرهية الموت، بحب المال والجاه، بحب الشهوات والنزوات، بحب الرئاسة والظهور الذي يقصم الظهور. أما الإسلام فبقي محصوراً في الدماغ، فكراً سطحياً في العقول الخالية من ذكر الله والدار الآخرة.

دواء واحد إن غاب لا والله لن تحل معضلاتنا مهما بحثنا عن العلاج، ومهما طرقنا الأبواب، ومهما اتخذنا من وسائل، ومهما سلطنا من سبل، هذا الدواء هو أن نوجه قلوبنا بالمحبة إلى الله جل وعلا وإلى رسوله ﷺ، وإذا لم تتحقق هذه فإن معضلات الأمة لن تحل، ومشكلات العراق لن تحل و..، لأن الوحدة لم تتحقق، والوحدة ليس ما نراه من مصافحات وابتسامات دبلوماسية على شاشات التلفاز، دك من دعاوى، وتعال فانبش طوايا القلوب تجدها متجهة إلى جمع الأموال، والثروات، وحب الشهوات، والكبر والغرور، والتهافت على الدنيا وعلى الكراسي الفانية! تلك صور تدمي القلوب، وتتقطع لها الأكباد!

وليست وحدة الديار فقط فذلك أمر واجب وضروري، لكن أهم منه وحدة القلوب التي عشش فيها الشقاق والشحناء والبغضاء..

الدواء هو أقرب إلى الأمة من جبل الوريد، لكن لم تتبه إليه بعد. على الرغم من وجوده بين عينيها. يجب أن نعود إلى قلوبنا وننظر إلى حالها أهو موافق لإيماننا بالله تعالى وما يطلبه منا جل وعلا؟ أم مخالف له؟

الدواء مجموع في كلمة من أربعة أحرف: المحبة. ولكن لا المحبة الهابطة، إنها الداء، أما الحب العالي والغالي الصاعد فهو الدواء والشفاء.

والمحبة الصادقة في صورها الرائعة كما عاشها الجيل الأول النموذج الخالد جيل الصحابة رضوان الله عليهم- كما رأينا في تحملهم وثباتهم- وغيرهم من بعدهم، هي التي تحتاج إليها الأمة في هذا الوقت؛ إذ هي مصدر المثل العليا والعزة والكرامة، فهي من أجل أعمال القلوب ومن أوثق الروابط، فليست بالأمر الهين اليسير، ولنا في الصحابة أروع الأمثلة في تقديم المحبة على كل شيء، فكانوا الصورة الصادقة لها، والكلمة الهادية الباقية. فمن أراد اللحاق بهم سلك طريقهم وبذل جهده في ذلك.

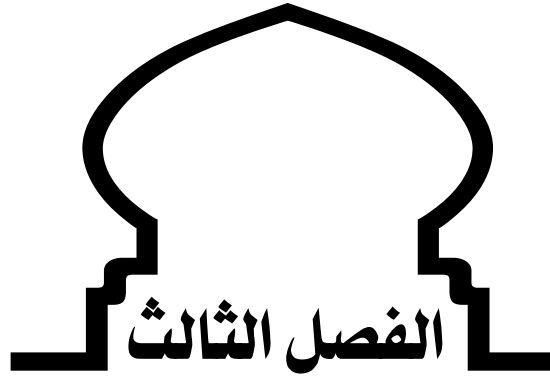
وهنا لا بد أن أؤكد أنه عندما تمتلئ القلوب بالمحبة، وعندما تتألف القلوب وتوثق الروابط الودية لا تستطيع دول الشرق ولا الغرب وقوى الإنس والجن أن تحطم هذه الروابط بين أفراد الأمة المسلمة. يقول الله جلت حكمته: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران].

السبب الرئيس الذي جعل الأمة تصل إلى حضيض التخلف والتأخر عن الركب هو "داء الأمم" فرغت أفئدة أبنائها من المحبة لله ولرسوله والمؤمنين، أصبحت تلك القلوب تصفر فيها رياح الشحناء والحقد والبغضاء.

ولن تقوم لنا قائمة حتى نرجع إلى المنهاج النبوي لنغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، يقول عز من قائل: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ [الرعد].

فبمحة الله ﷻ ومحبة رسوله الكريم ﷺ شفيت الأمة في بداية أمرها، وبه تشفى في وسطه وآخره؛ فمهما التمس الناس الهدى في غير الإسلام، ومهما تفلسفوا عن القوميات ومعانيها ومهما. كل ذلك يتبخر ويذهب أدراج الرياح ما دامت الأمة تركز إلى الأهواء القاتلة والنُّعرات القبلية والطموحات الشخصية، وما دام داء الأمم يضرب بخيله ورجله في أرضها.

ولقد جربت الأمة الوسائل كلها، وطرقت الأبواب المختلفة بحثا عن العلاج فوجدتها جميعا مغلقة، ثم وجدت بابا واحدا هو الباب المفتوح، باب المحبة!



سنن الله في معاملة النبي ﷺ لليهود

فرش

إن من العيب أن نقرأ التاريخ بمنظار المادية الجدلية الغافلة عن سنن الله في الخلق، ولهذا فإن القراءة القرآنية السننية للتاريخ كفيلة بأن تمكننا من معرفة الأحداث وأسبابها؛ ولا أعني بهذا التحليق في سماء الأحلام أو الاضطجاع في مضجع الجبرية الوثير، لأن الاحتماء بالقدر والفرار من التدافع يؤدي إلى الكارثة، وتصبح الأمة بذلك منبوذة خارج التاريخ.

بذلك المنظار القرآني السنني نقرأ مواجهة النبي ﷺ لدسائس اليهود؛ حتى ندرك كنه سنة الله في عداوة أولئك المتمردين للذين آمنوا، ونرى كيف ساقهم القدر إلى وعد الله بإفسادهم الأول في الأرض، ثم يسوقهم إلى وعد الآخرة جزاء وفاقا على بغيهم وفسادهم وعلوهم بغير حق.

ولهذا فقد تميزت العلاقات بين المسلمين واليهود في زمن النبوة بتوترها الشديد حيث تعددت المؤامرات، وتنوعت الدسائس، واختلقت المكائد، وتكررت الأحلاف التي عقدها اليهود مع أهل الشرك والوثنية للقضاء على دعوة الإسلام وعلى حامل لوائها النبي الخاتم ﷺ، ونقضوا عهد التناصر -الذي نصت عليه وثيقة المدينة- الذي عقده الحبيب المصطفى ﷺ معهم مرارا، حتى طردوا من المدينة المنورة بما كسبته أيديهم، وما زالت ذاكرتهم تذكر ذلك التاريخ وخاصة ما حدث لبني قريظة ويهود خيبر، مما جعلهم يفكرون في إقامة دولتهم في "الأراضي التوراتية" ليس في الشام والعراق ومصر، وحسب، بل ترنو أبصارهم إلى المدينة المنورة موطن الأجداد من بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير.

فلا حدود لعلو اليهود وقسوتهم وعداوتهم ومكرهم، فهم الذين يلقتون أبناءهم منذ نعومة أظفارهم مبادئ العنصرية والحقد وأنهم "شعب الله المختار".

فاليهود هم اليهود، ولا يزالون أبدا أئمة البغي والفساد، والغدر والخيانة، ولهذا حذرنا القرآن الكريم غاية التحذير من اليهود، ومع ذلك اتخذهم قومه مهجورا، ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون..!

وانطلاقا مما سبق أحببت أن أخصص فصلا كاملا لأبناء إسرائيل العاقين، وسنة الله فيهم، مع التفصيل في ﴿...وَعَدُ الْآخِرَةِ...﴾ [الإسراء] وهو وعد ما زال لم يتحقق

ادخره الله تبارك وتعالى لهذه الأمة في آخر الزمان؛ تكريماً وتشريفاً لحبيب الله وصفوة خلق الله سيدنا محمد الكامل ﷺ.

فوعده الله آت وهو المنار الذي يوجه هذه الأمة المستضعفة إلى شاطئ السلامة وبر الأمان ويرسم لها طريق الخلاص، وسبيل العزة والنجاة، ويدلها على أنسب الرياح للإبحار. وما عليها إلا أن تحسن استشراق الأفق، وتحذر فخاخ الجزر القاتلة.

هذا، فبمنظار سنة الله يتضح لنا الماضي جليلاً لاجباً وكذلك الحاضر لتتصور المستقبل ونتحرك نحوه دون انحراف عن سكة المنهاج النبوي.

وصدق الله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣) [الأنعام].

المبحث الأول

اليهود.. عدااء بلا حدود

إن سنة الله في عداوة اليهود للمؤمنين سنة ماضية إلى يوم القيامة، لقوله تبارك وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [المائدة: ٨٤]، وقوله جل شأنه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله عز اسمه: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقوله تقدرست كلماته: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولذلك فمنذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة القرآن بالمدينة المنورة وجه اليهود سهامهم المسمومة إلى الإسلام، "وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة. (...). ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة، وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة.

إن الذي ألب الأحزاب على المجتمع الإسلامي الجديد بالمدينة ودولته، وجمع أهل الكفر بكل فرقهم هم اليهود^(١).

وإن الذي أطلق الشائعات وألب العوام، في مقتل ذي النورين عثمان وما تلاها من النكبات والخطوب يهودي..

وإن الذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث النبوية وفي الروايات والسير والتاريخ يهودي.. وإن من أضرم أغلب نيران الحروب على طلائع البعث الإسلامي في كل بقع الأرض وراءه يهودي!

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٦٠-٩٦١.

وإن الحرب التي شنها اليهود على الإسلام ورسالته أطول أمداً، وأعرض مجالاً من تلك التي شنها عليه أهل الشرك والأوثان في السابق واللاحق.

لنقف هنا ملياً مع سنة الجهاد المتمثلة في مواجهة النبي ﷺ لدسائس اليهود. فأول من دشنوا حملة العداوة للإسلام والمسلمين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول ﷺ وحاربوه: يهود بني قينقاع.

ولا ريب أن حادثة بني قينقاع "تدل في جملتها على مدى ما ركب في اليهود من طبيعة الغدر والخيانة، فلا تروق لهم الحياة مع من يجاورونهم أو يخالطونهم إلا أن يبيتوا لهم شراً أو يحكيوا لهم غدرًا، وهم على أتم الاستعداد لأن يخلقوا جميع الوسائل والأسباب لذلك"^(١).

ومما ينبغي ذكره هنا أن النبي ﷺ لما قفل من بدر منتصراً ومعززا استيقظ الغدر في نفوس يهود بني قينقاع، وأخرجوا ما كانوا يخفونه في صدورهم من الحسد والغل، "إذ خشي اليهود أن تزداد قوة المسلمين، وتهدد بقاءهم بالمدينة، وتناقشوا حول نقض الصحيفة، ومواجهة المسلمين قبل أن تزداد قوتهم"^(٢)، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، "وأظهروا للمسلمين شراً، وغدروا ببعض نساء الأنصار، فهتكوا حرمتهم"^(٣).

فلما كثر فسادهم، واشتد طغيانهم، وأضرمت نيران العداوة في ضمائرهم، وتوسعوا في استفزازهم وبغيهم وعتوهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية والاستهزاء للمؤمنين في المدينة، ويواجهون بالأذى والقبح كل من ورد سوقهم من المسلمين، وعندما تفاقم ذلك، وعتوا عتوا كبيراً، جمعهم سيدنا رسول ﷺ ليحذرهم من مغبة فسادهم وبغيهم "بسوق بني قينقاع، فقال لهم: احذروا ما نزل بقريش وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل. فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة"^(٤).

(١) فقه السيرة النبوية، للبوطي، ص ١٦٨.

(٢) دراسات في تاريخ الدولة العربية، (عصور الجاهلية والنبوة والراشدين والأمويين ١-١٣٢هـ/٦٢٢-٧٤٩)، مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط ٣/١٩٨٤م، ص ١٤٤.

(٣) عظمنا في التاريخ، مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص ٥٥.

(٤) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٢/١٣٧. حياة الرسول المصطفى ﷺ، العميد عبد الرزاق محمد أسود. الروض الأنف، ٣/٢٢٤. تاريخ الطبري، ٢/٥٧. الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، يوسف بن إسماعيل النبهاني ص ٤٥. أنساب الأشراف، ١/٣٠٨.

فلما نبذوا "العهد والمرّة أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه: ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْزِلُوا إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فقال رسول الله ﷺ: أنا أخاف بني قينقاع، فسار إليهم بهذه الآية" (١)، وحاصرهم (٢).

وكان أمر بني قينقاع في شوال "سنة ثلاث من الهجرة" (٣)، وكان هؤلاء اليهود "حلفاء لعبد الله بن أبي بن سلول، وكانوا أشجع يهود، وكانوا صاغة" (٤).

قال الإمام ابن حزم الأندلسي رحمه الله: "وكانوا سبعمئة مقاتل، فيهم ثلاثمئة مدرع، مدرعون بدرع الحديد، ولم يكن لهم زرع ولا نخل، وإنما كانوا تجارا وصاغة، يعملون بأموالهم" (٥).

ولم يكتف يهود بني قينقاع بنقض العهد فقط، بل مما زاد الطين بلة، والموقف توترا الحادثة التي شهدها سوقهم، تلك المرأة من العرب التي قدمت على السوق ببضاعة تريد بيعها، "وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمدها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضب المسلمون فوق الشر بينهم وبين بني قينقاع.

فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ؛ فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه رسول الله ﷺ. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. وكان يقال لها ذات الفضول. فقال له: أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً (٦)، ثم قال: ويحك! أرسلني؛ قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٢/ ٢٩.

(٢) فاستخلف على المدينة "في محاصرته إياهم بشير بن عبد المنذر، وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة" سيرة ابن هشام، ٣/ ٨.

(٣) البداية والنهاية، ٢/ ٣٥٤.

(٤) الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٨-٢٩.

(٥) جوامع السيرة، ص ٩٢.

(٦) ظللاً: مَا حَجَبَ عَنْكَ ضَوْءَ الشَّمْسِ وَصَحْوَ السَّمَاءِ، وَكَانَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُشْرِقًا بَسَامًا، فَإِذَا غَضِبَ تَلَوْنَ أَلْوَانًا، فَكَانَتْ تِلْكَ الْأَلْوَانُ حَائِلَةً دُونَ الْأَشْرَاقِ وَالطَّلَاقِ وَالضِّيَاءِ الْمُنْشَرِّعِنْدَ تَبَسُّمِهِ. الروض الأنف، ٣/ ٢٢٥.

في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤٌ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك" (١).

فلما كان من رأس المنافقين ما كان، قال لهم رسول الله ﷺ: "خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم!" فأرسلوهم. ثم أمر بإجلائهم، وغنم الله عز وجل رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال - ولم تكن لهم أرضون، إنما كانوا صاغة - فأخذ رسول الله ﷺ لهم سلاحا كثيرا وآلة صياغتهم، وكان الذي ولي إخراجهم من المدينة بذراريهم عبادة بن الصامت" (٢).

فبإجلاء اليهود عن المدينة انتشر الأمن والسلام في أرجائها، وأصبحت المدينة قاعدة إسلامية صرفة مطهرة من رجس اليهود وحنقهم وفسادهم وخفت صوت المنافقين «وانمحت كل أساليب الدجل والخديعة، والجدير ذكره أن باقي بطون اليهودية لم تستطع تقديم العون والمساعدة في حصار يهود قينقاع وذلك للخطة المحكمة التي رسمها المسلمون في قتالهم، كذلك ضعفت معنويات يهود بني قينقاع لعدم استحصالهم على تموين خارجي خاصة وإنهم ليسوا على علم بالزراعة» (٣).

وما كان ذلك الإجلاء اعتداء من رسول الله ﷺ، بل كان ذلك لرد اعتدائهم، ولنقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع رسول الله ﷺ، ولأنهم أصبحوا جيران سوء لا يؤمن شرمهم، يحق إجلأؤهم ليسلم الناس من فسادهم، فكان ما وقع وفق سنة الله في الجزاء من جنس العمل.

ولما نقض يهود بني قينقاع العهود، وانتهكوا الحرمات، ونبذوا كلمة الحق وراء ظهورهم، حصدتهم سنة الله، وحققت عليهم كلمة العذاب: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ

(١) الاكتفاء بها تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، للكلاعي، ٤٩/٢. الروض الأنف، ٢٢٥/٣. الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر، ص ٩٩ وما بعدها... تاريخ الطبري، ٥٧/٢. حياة رسول الله ﷺ، محمود شلبي، ص ١٠٠. كتاب المغازي، للواقدي، ١/١٧٦. أنساب الأشراف، ٣٠٩/١. مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب، ص ١١٨. سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، ص ٢٩٤-٢٩٥. كتاب الجامع في السنن والآداب، القيرواني، ص ٢٧٧.

(٢) تاريخ الطبري، ٥٨/٢. محمد ﷺ محاولة لفهم السيرة النبوية، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، ط/١٩٧٥م، ص ٤٤.

(٣) أطماع اليهود وأسفارهم، فؤاد حسين مزتر، دار الكتب الثقافية، بيروت، ط/١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ص ١٢٢-١٢٣.

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبَسُّ الْيَمَادُ ﴿١٢﴾ [آل عمران] (١). لما حل بهم الانتقام لم ينفعهم الندم، وبرَّح بهم الألم.

ولم يكتف اليهود بنقض العهود وهتك الحرمات، بل قاموا بالتحريض على قتل النبي ﷺ، قام بهذه الجريمة النكراء شاعرهم كعب بن الأشرف (٢) - الذي كان أشد اليهود حقدا وحنقا على الإسلام وأشدهم إيذاء للنبي ﷺ -، الذي ذهب إلى مكة بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى، ليحرض قريش بأشعاره وبهجائه للنبي ﷺ وبمدحه لقريش على الثأر من أهلها ببدر، وقتل النبي ﷺ.

يروى الإمام موسى بن عقبة - صاحب أصح المغازي - عن الإمام ابن شهاب قصة (٣) قتل ابن الأشرف اليهودي بطولها نذكرها لأهميتها: " وكان كعب بن الأشرف وهو أحد بني النضير وقيمهم قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء، فقال له أبو سفيان أناشدك الله أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟ فإنا نطعم الجزور الكوماء (٤)، ونسقي اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال. فقال ابن الأشرف: أتم أهدى سيلا.

ثم خرج مقبلا قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ معلنا بعداوة رسوله الله ﷺ وبهجائه، فقال رسول الله ﷺ: من لنا من ابن الأشرف قد استعلن بعداوتنا وبهجائنا،

(١) قال ابن إسحاق يروي عن ابن عباس ؓ قال: " ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم ". الروض الأنف، ٢٢٤-٢٢٥ / ٣.

(٢) هو: كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان، حليف بني النضير، وأمه عقيلة بنت أبي الحقيق. وكان أبوه أصاب دما في قومه، فأتى المدينة وكان كعب طولا جسيما، ذا بطن وهامة ضخمة. وهو الذي قال يوم بدر: بطن الأرض خير من ظهرها، هؤلاء ملوك الناس وسرواتهم - يعني قريشا - حتى أصيبوا. فخرج إلى مكة، ونزل على أبي بن ضبيرة، وجعل يهجو المسلمين. أنساب الأشراف، ٢٨٤ / ١.

(٣) وقد روى الإمام البخاري في صحيحه هذه القصة مختصرة ففي حديث جابر بن عبد الله ؓ قال رسول الله ﷺ: " من لكعب بن الأشرف، فإنه آذى الله ورسوله ﷺ. قال محمد بن سلمة: أتجب أن أقتله يا رسول الله؟ قال: " نعم ". قال: فأتاه فقال: إن هذا - يعني النبي ﷺ - قد عَنَّانا وسألنا الصدقة، قال: وأيضا، والله لَتَمَلَّنَّهُ، قال: فإنا قد اتبعناه فنكره أن ندعَه، حتى نُنظر إلى ما يصير أمرُه، قال: فلم يزل يكلمُه حتى استمكن منه فَتَقَلَّه ". كتاب الجهاد والسير، باب الكذب في الحرب، ٣٠٣١ ح.

(٤) الجزور الكوماء: وهي الطويلة السنام والكوم عظم في السنام. لسان العرب، مادة: كمي.

وخرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا؛ قد أخبرني الله عز وجل بذلك، ثم قدم على أخبث ما كان ينتظر قريشا أن يقدم فيقاتلنا معهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ على المسلمين ما أنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۗ﴾ [النساء: ٥١] وآيات في قريش معها.

وذكر لنا والله أعلم أن رسول الله ﷺ قال: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت. فقال محمد بن مسلمة^(١): أنا يا رسول الله أقتله، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقام محمد بن مسلمة إلى أهله، فلقي سلكان بن سلامة^(٢) في المقبرة عامدا إلى رسول الله ﷺ فقال له محمد بن مسلمة: إن رسول الله ﷺ قد أمرني بقتل ابن الأشرف وأنت نديمه في الجاهلية ولم يكن يأمن غيرك فأخرجه إلي أقتله. فقال له سلكان: إن أمرني فعلت.

فرجع معه محمد بن مسلمة إلى رسول الله ﷺ فقال: سلكان: يا رسول الله أمرت بقتل كعب بن الأشرف؟ قال: نعم، قال سلكان: يا رسول الله فحللني فيما قلت لابن الأشرف، قال: أنت في حل مما قلت. فخرج سلكان، ومحمد بن مسلمة وعباد بن بشر بن وقش وسلمة بن ثابت بن وقش^(٣) وأبو عيس بن جبر^(٤) حتى آتوه في ليلة مقمرة، فتواروا في

(١) هو: محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الخزرج بن عمرو بن مالك الأوسي الأنصاري الأوسي الحارثي، أبو عبد الرحمن المدني حليف بني عبد الأشهل، ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة في قول الواقدي، وهو ممن سمي في الجاهلية محمدا، وقيل يكنى أبا عبد الله وأبا سعيد والأول أكثر، وروى عن النبي ﷺ أحاديث، وشهد المشاهد بدرًا وما بعدها إلا غزوة تبوك فإنه تخلف بإذن النبي ﷺ له أن يقيم بالمدينة، وكان ممن ذهب إلى قتل كعب بن الأشرف وإلى ابن أبي الحقيق، وقال ابن عبد البر كان من فضلاء الصحابة واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وكان ممن اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صفين، قال الواقدي: مات بالمدينة في صفر سنة ٤٦ وهو ابن ٧٧ سنة، وأرخه المدائني سنة ٤٣ وقال ابن أبي داود: قتله أهل الشام. الإصابة، ترجمة رقم: ٣٣/٦، ٧٨١١.

(٢) هو: أبو نائلة الأنصاري اسمه سلكان بن سلامة بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي الأشهلي أخو سلمة بن سلامة بن وقش وقيل اسمه سعد وقيل سعد أخوه وقيل سلكان لقب واسمه سعد وهو مشهور بكنيته، شهد أحدا وغيرها وكان شاعرا ومن الرماة المذكورين. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٠٩/٧، ١٠٦٣٠.

(٣) هو: سلمة بن ثابت بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصاري الأشهلي ذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدرًا واستشهد بأحد. الإصابة، ترجمة رقم: ٣٣٦٨، ٣/١٤٤.

(٤) هو: أبو عيس بن جبر بن عمرو بن زيد بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، قيل: كان اسمه في الجاهلية عبد العزي وقيل معبد=

ظلال جذور النخل، وخرج سلكان فصرخ، يا كعب: فقال له كعب: من هذا؟ فقال له سلكان: هذا أبو ليلى يا أبا نائلة، وكان كعب يكنى أبا نائلة، فقالت امرأته: لا تنزل يا أبا نائلة إنه قاتلك، فقال: ما كان ليأتيني إلا بخير، لو يدعى الفتى لطننة أجاب.

فخرج كعب فلما فتح باب الرض قال: من أنت؟ قال: أخوك، فطأطئ لي رأسك فطأطأه فعرفه فنزل إليه فمشى به سلكان نحو القوم، وقال له سلكان: جئنا وأصابتنا شدة مع صاحبنا هذا، فجئتك لأتحدث معك ولأرهنك درعي في شعير. فقال له كعب: قد حدثتكم إنكم ستلقون ذلك ولكن نحن عندنا تمر وشعير وعبير فأتونا قال: لعلنا أن نفعل، ثم دخل سلكان يده في رأس كعب ثم شمها فقال: ما أطيب عبيركم هذا؟ صنع ذلك مرة أو مرتين حتى أمنه، ثم أخذ سلكان برأسه أخذة نَصَلُهُ منها، فجأر عدو الله جأرة رفيعة، وصاحت امرأته وقالت: يا صاحباة فعانقه سلكان وقال: اقتلوني وعدو الله فلم يزلوا يتخلصون بأسيا فهم حتى طعنه أحدهم في بطنه طعنة بالسيف خرج منها مصرانه وخلصوه إليه فضربوه بأسيا فهم وكانوا في بعض ما يتخلصون إليه وسلكان معانقه أصابوا عباد بن بشر في وجهه أو رجله ولا يشعرون.

ثم خرجوا يشتدون سراعا حتى إذا كانوا بجرف بُعَاث^(١) فقدوا صاحبهم ونزف الدم فرجعوا أدراجهم فوجدوه من وراء الجرف، فاحتملوه حتى أتوا به أهلهم ليلتهم، فقتل الله عز وجل ابن الأشرف بعداوتة الله ورسوله وهجائه إياه وتأليب قريشا وإعلائه عليه قريشا بذلك^(٢).

فلما قتل كعب بن الأشرف خاف اليهود خوفا شديدا، ولم جرؤ أحد منهم على رفع رأسه بعد، وبذلك العمل الجريء والشجاع أخرس النبي ﷺ ألسنة أولئك، ورد كيدهم إلى نحورهم، وأفسد عليهم أمرهم، وكبت حنقهم في صدورهم وغياهب نفوسهم، دون أن تسفك دماء كثيرة، فالجزء من جنس العمل والمجرم المحارب المعاند المستهزئ برسول

=فسماه النبي ﷺ عبد الرحمن، وقال المدائني: مات سنة أربع وثلاثين وهو ابن سبعين سنة وصلّى عليه عثمان. الإصابة، ترجمة رقم: ١٠٢١٨، ٧/٢٦٦.

- (١) بعث: وضع على ليلتين من المدينة النبوية فيه كانت الواقعة واليوم المنسوب إليها بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. الروض المعطار، حرف العين، ص: ١٠٩.
- (٢) المغازي، ابن عقبة، ص ١٨٠-١٨٢. كتاب المغازي، الواقدي (تحقيق: مارشدن جونس)، ١٧٦/١.

الله ﷺ نال جزاءه العادل، وأصبح عبرة ليهود المدينة وللمشركين بمكة، فلم يجروا أحد على القيام بمثل ما فعل.

فبعد إجلاء بني قينقاع، ومقتل ابن الأشرف الذين كانوا يجاهرون المسلمين بالحق والعداوة والذس والمؤامرة هدأت مؤقتاً ظواهر شراذم يهود بني النضير وبني قريظة في المدينة والتزموا السكوت، لكن بواطنهم وما يجول في ضمائرهم ما زالت تترصد بالمسلمين الدوائر، وتكُنُّ لهم العداوة والبغضاء، فما فتئت نار عداواتهم أن أضرمت من جديد، فخرجت من الباطن إلى الظاهر، وأخرجت أفعى الغدر رأسها من أخبث جحورها، فدبرت مكيدة خسيصة للتخلص من النبي الخاتم ﷺ فأرادوا أن يلقوا عليه صخرة من أعلى حصنهم فتقتله، فبعد الابتلاء الذي ابتلي به المسلمون في غزوة أُحُد بدأ يهود بني النضير يتجرؤون على رسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ قابل تجرؤهم بالصبر، لكن لم يزدهم ذلك إلا خسة ووقاحة وجسارة، فقاموا بمؤامرة جريئة تهدف إلى القضاء على رسول الله ﷺ، وهذا يدل على خبثهم وجبنهم، يفرون من المواجهة، ويكيدون المكائد، وقد تحالف معهم رأس النفاق ابن أبي، فحرضهم على عدم الخروج وغرهم أنه معهم، فتمسك الباطل بباطل آخر، وحققت عليهم كلمة العذاب.

فكانت خيانتهم ونقضهم للعهود، وغدرهم، ومكرهم وخداعهم، هو سر اللعنة الإلهية التي حاقت بهم منذ القديم إلى يوم القيامة. سببا لإجلائهم ﴿... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

يذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني سبب إجلائهم في الفتح، يقول: "وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ قِصَّةَ بَنِي النَّضِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَى مَعْمَرِ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِّنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَتَبَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَغَيْرِهِ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ قَبْلَ بَدْرِ يُهَدِّدُونَهُمْ بِإِيْوَانِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَتَوَعَّدُونَهُمْ أَنْ يَغْزَوْهُمْ بِجَمِيعِ الْعَرَبِ، فَهَمَّ ابْنُ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "مَا كَادَكُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا كَادَتْكُمْ قُرَيْشٌ، يُرِيدُونَ أَنْ تُلْقُوا بِأَسْكُمْ بَيْنَكُمْ"، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ عَرَفُوا الْحَقَّ فَتَفَرَّقُوا. فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرِ كَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَعْدَهَا إِلَى الْيَهُودِ: أَنْكُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ، يَتَهَدَّدُونَهُمْ، فَاجْمَعُ بَنُو النَّضِيرِ عَلَى الْغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا

إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: أَخْرَجَ الْبِنَاءَ فِي ثَلَاثَةِ مِنْ أَصْحَابِكَ وَيَلْقَاكَ ثَلَاثَةَ مِنْ عُلَمَائِنَا، فَإِنْ آمَنُوا بِكَ اتَّبَعْنَاكَ. فَفَعَلَ. فَاشْتَمَلَ الْيَهُودَ الثَّلَاثَةَ عَلَى الْخَنَاجِرِ فَأَرْسَلَتْ امْرَأَةً مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى أَخِهَا مِنْ الْأَنْصَارِ مُسْلِمَ تَخْبِرُهُ بِأَمْرِ بَنِي النَّضِيرِ، فَأَخْبَرَ أَخُوهَا النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ، فَرَجَعَ، وَصَبَّحَهُمْ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ يَوْمَهُ، ثُمَّ غَدَا عَلَى بَنِي قَرَيْظَةَ فَحَاصَرَهُمْ فَعَاهَدُوهُ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُمْ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجِلَاءِ وَعَلَى أَنْ لَهُمْ مَا أَقَلَّتِ الْإِبِلُ إِلَّا السَّلَاحَ، فَاحْتَمَلُوا حَتَّى أَبْوَابِ بِيُوتِهِمْ، فَكَانُوا يُحْرَبُونَ بِبُيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ فَيَهْدُمُونَهَا، وَيَحْمِلُونَ مَا يُوَافِقُهُمْ مِنْ خَشْبِهَا، وَكَانَ جَلَاؤُهُمْ ذَلِكَ أَوَّلَ حَشْرِ النَّاسِ إِلَى الشَّامِ^(١).

ويذكر ابن إسحاق سببا آخر لإجلالهم: "وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ الْعَامِرِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ. فَلَمَّا خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ قَالُوا: لَنْ تَجِدُوا مَحْمُودًا أَقْرَبَ مِنْهُ الْآنَ فَمَنْ رَجُلٌ يَظْهَرُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيَطْرَحَ عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ: أَنَا، فَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ، فَأَنْصَرَفَ عَنْهُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَفِيهِمَا أَرَادَ هُوَ وَقَوْمُهُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة] (٢)".

وفي رواية أخرى لابن إسحاق: "فَلَمَّا آتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! نَعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ، مِمَّا اسْتَعْنَتْ بِنَا عَلَيْهِ. ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بِيُوتِهِمْ قَاعِدٌ - فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟ فَانْتَدَبَ

(١) فتح الباري، ٧/ ٣٨١. يقول ابن حجر بعدما ذكر القصة: "وَكَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ مُهِيدٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى ابْنِ التَّيْنِ فِي زَعْمِهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ حَدِيثٌ بِإِسْنَادٍ، قُلْتُ: فَهَذَا أَقْوَى مِمَّا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقٍ مِنْ أَنَّ سَبَبَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ طَلَبُهُ ﷺ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الرَّجُلَيْنِ، لَكِنْ وَافَقَ ابْنُ إِسْحَاقٍ جُلَّ أَهْلِ الْمَغَازِي، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَإِذَا ثَبِتَ أَنَّ سَبَبَ إِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ مَا ذَكَرَ مِنْ هَمِّهِمْ بِالْغَدْرِ بِرَسُولِ ﷺ، وَهُوَ إِنَّمَا وَقَعَ عِنْدَ مَا جَاءَ إِلَيْهِمْ لِيَسْتَعِينَهُمْ فِي دِيَةِ قَتِيلِ عَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ، نَعَيْنَ مَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقٍ، لِأَنَّ بَثْرَ مَعُونَةٍ كَانَتْ بَعْدَ أَحَدٍ بِالْإِتِّفَاقِ. وَأَعْرَبَ الشَّهْبِيُّ فَرَجِحَ مَا قَالَ الرَّهْرِيُّ، وَلَوْلَا مَا ذَكَرَ فِي قِصَّةِ عَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ لَأَمَكَّنَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ الرَّجِيعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ".

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ١٣١. الطبقات لابن سعد، ٢/ ٥٧. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢/ ١٧٣. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١١٨-١١٩.

لذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ، أَحَدَهُمْ فَقَالَ: أَنَا لَذَلِكَ، فَصَعَدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٌ وَعَمْرُو وَعَلِيٌّ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبْرُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ فِقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ. فَلَمَّا اسْتَلَبَتْ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابُهُ، قَامُوا فِي طَلَبِهِ فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: رَأَيْتَهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ. فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبْرَ، بِمَا كَانَتْ الْيَهُودُ أَرَادَتْ مِنَ الْعُدْبَةِ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالتَّهْيِؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ (...) ثُمَّ سَارَ بِالنَّاسِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ^(١) فَحَاصَرَهُمْ سِتَّ لَيَالٍ.

قال ابن إسحاق: فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَطْعِ النَّخِيلِ وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا، فَنَادَوْهُ أَنْ يَا مُحَمَّدُ قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ، وَتَعْبِيهِ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟

وَقَدْ كَانَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ، مِنْهُمْ عَدُوُّ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ وَوَدِيعَةُ وَمَالِكُ بْنُ أَبِي قَوْفَلٍ وَسُوَيْدٌ وَدَاعِسٌ قَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ: أَنْ أَتِبُوا وَتَمَنَعُوا، فَإِنَّا لَنْ نَسْلَمَكُمْ، إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ أَخْرَجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ، فَتَرَبَّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُمْ وَيَكْفِ عَنْ دِمَائِهِمْ عَلَى أَنْ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا الْحَلَقَةَ فَفَعَلَ. فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْإِبِلُ فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنْ نَجَافِ بَابِهِ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ فَيَنْطَلِقُ بِهِ. فَخَرَجُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ^(٢). فَبِهَذَا الْحُكْمِ النَّبِيُّ الْعَادِلُ^(٣) قَصَمَ ظَهْرَ الْيَهُودِ.

(١) قال ابن سعد: "في شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهرا من مهاجرة". الطبقات، ٥٧/٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ١٣١/٣. طبقات ابن سعد، ٥٨/٢. تاريخ الطبري، ٩٩/٢. غزوات الرسول ﷺ، ابن كثير، ١٣٦-١٣٧. عيون الأثر، لابن سيد الناس (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت)، ٦٧/٢-٧٠. أنساب الأشراف، ٣٣٩/١. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحى الشامي، ٤/٤٥١. حياة رسول الله ﷺ، محمود شلبي، ص ١٢٠.

(٣) وصدق لامارتين حين قال: "إن عظمة محمد [ﷺ] - على كل المستويات - لم يبلغها إنسان آخر". مقتطف من قصيدة للشاعر الفرنسي لامارتين يمدح فيها النبي ﷺ. فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، عبد الرزاق أحمد السنهوري، تحقيق: توفيق محمد الشاوي ونادية عبد الرزاق السنهوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص ٢٧٢، نقلا عن كتاب لامارتين، تاريخ تركيا، ٢/٢٧٦-٢٧٧.

فكان إفساد خطة ما اجتمع عليه أهل الكفر والنفاق آية قرآنية، وسنة إلهية، تعصم النبي ﷺ من الناس، وتظهر حقيقة الحق ومكانته، وأن الله معه، وتظهر كذلك ضيعة الباطل ودسائسه، فكانت نهايتهم كنهاية إخوانهم بني قينقاع ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥].

فلنخص أسباب إجلاء يهود بني النضير في العناصر الآتية: "

نقض بني النضير عهودهم التي تحتم عليهم ألا يأووا عدوا للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرسدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.
رفض يهود بني النضير في غزوة أحد أن يعينوا المسلمين بسلاحهم أو بأموالهم.
وقبل المعركة أخذوا يصرفون الناس عن الخروج.

لم يكتف يهود بني النضير بكل ما فعلوه من إضرار بالمسلمين بل حاولوا اغتيال النبي ﷺ^(١).

يقول الحق سبحانه وتعالى في ذلك الإجلاء الذي طهرت فيه المدينة من رجس بني النضير^(٢): ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَذْنَبُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يَبُوءُ لَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٤].

فآليات الكريمة تعلق ما جرى ليهود بني النضير -الذين طحتهم سنة الله لما فعلوها منكراً-، بأن سببه هو أنهم شاقوا الله ورسوله، وتقرر الآية سنة من السنن الإلهية، فكل من شاق الله ورسوله فهو خاسر هالك، سواء كان يهودياً أم مجوسياً، أم كائناً من كان، على اختلاف الزمان والمكان، وقد وقع ذلك بالفعل، فحصدت هذه السنة يهود بني النضير

(١) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ، أبو بدر محمد بن بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١/د، ت، ١/٢٤٤-٢٤٦، باختصار.

(٢) إجلاء بني النضير ذكرها ابن هشام بعد أحد، قال السهيلي: "وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل بن خالد وغيره عن الزهري، قال: كانت غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر". الروض الأنف، ٣/٣٧٣.

والكفار السابقين، وتحصد كلاً من سلك مسلكهم من الكفار المعاصرين.. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب].

وعلاوة على ذلك، فإن اليهود لما عادوا إلى نقض العهود - كانت الكرة عليهم -، وعادت سنة الله عليهم بتشديد العقوبة، يقول الحق جل جلاله: ﴿...وَأَنْ عُدْتُمْ عَدْنَاً وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء]، وبذلك جرت سنة الله في معاقبة المعتدين المستكبرين من اليهود الذين انهمكوا في أودية الأحقاد والضغائن والعداوة والبغضاء، وطرخوا حشمة الدين، وجنحوا إلى الشيطان وانخرطوا في سلكه، وقنعوا بالحظوظ النفسية الخسيسة، وأصروا على الغي، وقارفوا الجحود، وتعودوا نقض العهود، فعاد ذلك عليهم بالوبال في الدنيا وبالخسران في اليوم الموعود. أولئك الذين نُزعت الصفات الإنسانية من قلوبهم فجبّلوا على المكر والخداع والاحتيال.

ثم تشير الآيات من سورة الحشر إلى سنن إلهية أخرى في اليهود:

- اليهود جبّلوا على الجبن منذ القديم: قال الحق جل ذكره: ﴿لَا يُقْنِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر].

فالحديث عن جبن اليهود وخوفهم لا يقتصر على يهود بني النضير الذين نزلت بمناسبة إجلائهم هذه السورة، وإنما هو شامل لليهود زماننا إلى أن يتم نسفهم في اليم نسفاً، وها نحن قد نرى اليوم ذلك الجبن والخوف والرعب الذي ملأ كيانهم، إذ يتملصون من المواجهة المباشرة، ولهذا يختبئون خلف ﴿قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ معاصرة؛ تتمثل في قواعدهم العسكرية وثكناتهم ومستوطناتهم، كما أنهم يقاتلون ﴿مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ معاصرة تتمثل في الجدار العازل^(١) الذي بنته إسرائيل لتقاتل من ورائه، وفي الدبابات والمصفحات والطائرات والسيارات العسكرية والمروحيات.

وإذا اضطروا إلى المواجهة المباشرة جنبوا وفروا منهزمين وقد سجل التاريخ المعاصر نماذج كثيرة لا غبار عليها لجبنهم أمام المجاهدين في فلسطين ولبنان وغيرهما.

(١) وهذا يدل على إعجاز القرآن الذي أخبرنا بأن اليهود جنباء يفرون من المواجهة المباشرة بالقتال من وراء جدر، والجدار العازل الذي بنته إسرائيل لدليل صريح على معجزة القرآن وإعجازه الذي أخبرنا منذ ١٥ عشر قرناً عن ذلك.

الصلوات الحميمية بين المنافقين واليهود: قال الحق جل وعلا في سورة الحشر: ﴿لَمَّا تَرَىٰ إِلَىٰ آلِ الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَنَّ الْأَذْبَانَ الَّذِينَ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَآنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر].

وما ذكرته الآيات من تحالف بين اليهود والمنافقين ليس خاصا بذلك التحالف بين يهود بني النضير والمنافقين بقيادة ابن أبي بن سلول، وإنما هو عام يشمل كل تحالف وتعاون بينهم حتى قيام الساعة.

وهذا ينطبق على واقعنا المعاصر وعلى الصلوات السرية الخفية والعلنية التي يعقدها بعض المنهزمين من بني جلدتنا الذين وباعوا دينهم بغرض من الدنيا؛ فقدموا تنازلات، وأقاموا لليهود دولة في فلسطين، ووالوهم وتحالفوا معهم، وعملوا على تقويتهم، وضحوا بشعوبهم من أجلهم.

ومن الأهمية بمكان أن نشير ولو إشارة خفيفة إلى قول الله تعالى وتقدس: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى...﴾ ﴿١٣١﴾ [آل عمران]: سياق الآية الكريمة يتحدث عن المواجهة بين المسلمين وبين اليهود؛ تخبرنا بأن اليهود مهما نوعوا في أساليبهم وخططهم للقضاء على المسلمين فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا؛ وتخبر الآية الكريمة أن ما ينزلونه من أذى وقتل وتشريد وفتك وتدمير مجرد أذى سطحي ظاهري، يمكن احتماله وتحمله بالتؤدة والصبر وبالجهاد حتى يتحقق النصر.

وعليه، فإن جوهر القضية مما سبق ذكره من مكائد اليهود الكثيرة هو أن يأخذ المسلمون حذرهم وحيطتهم من هذه الطائفة المفسدة في الأرض، والتي يأبى طبعها اللئيم وسجيتهما السافلة إلا أن تنكث العهود وتغدر كلما سنحت لها الفرصة بذلك، وأن يجموا أنفسهم منهم، ولا يركنوا إليهم، "وأن يقفوا منهم موقف مراقب العدو المخالط، جار السلم والحرب، الذي يدس الدسائس، ويتحين الفرص، ويتنزه الغرّات، ليوقع بعدهم النكاية البالغة.

كما تعطينا أحداثهم هذه مجموعة من العبر والعظات التي يجب التبصر بها، والعمل بما تمليه علينا من سلوك نسلكه في مواجهة اليهود في كل عصر، وفي مواجهة من هم أمثال

اليهود في صفات الكيد والمكر والحيلة، والنفاق والخبث ونقض العهد والخيانة والغدر، وأمثال هذه الرذائل التي عرف اليهود بها في مختلف أدوار التاريخ.

والأمة التي لا تستفيد من تجارب من سبقها ولا تتعظ بعظات هذه التجارب أمة غير مؤهلة للتقدم، ولا تأخذ بأسباب الرقي، بل تظل تتعثر في تجاربها الخاصة، وتتخبط في غشاوتها، بينما يحرز غيرها السبق في الابتكارات الحديثة المضافة إلى موارث الأولين^(١).

هذا وتبين لنا مما سبق ذكره أن اليهود أهل غدر ومكر وخيانة وحيلة، نقضوا العهود، وعاثوا في الأرض فساداً، وأهلكوا الحرث والنسل، واستحلوا محارم الله بأدنى الخيل فلعنهم وجعل منهم القرود والخنازير، وتوعدهم إن عادوا إلى مثل ذلك بأن يبعث عليهم عباداً له أولي بأس شديد؛ يذيقونهم العذاب الشديد، ويستأصلونهم من جذورهم، جزاءً وفاقاً، وهاهم قد عادوا مرة ثانية إلى نقض العهود وسفك الدماء وقتل الأبرياء واغتصاب الأرض، لا جرم أن تعود عليهم سنة الله بإخراجهم من الأرض التي اغتصبوها أذلة صاغرين، خاسرين هالكين، على أديبارهم خائبين، فيقتلون شر قتلة في الدنيا، وفي الآخرة الخزي والعذاب الأليم، وهكذا اقتضت سنة الله المطردة بإنزال العقوبة بهم، وتعذيبهم وإساءة وجوههم؛ إذ الجزاء من جنس العمل.

(١) مكائد اليهود عبر التاريخ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، في سلسلة أعداء الإسلام، دار القلم، دمشق، ط ١/ ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، ص ١٢٦.

المبحث الثاني

الجزء من جنس العمل في رد كيد يهود بني قريظة

بالرغم من الخسائر التي حلت باليهود من جرّاء خياناتهم المتوالية، ونقضهم للعهود، وتأليبهم لقوى الشر على المسلمين، وحرهم ضد رسول الله ﷺ وأصحابه، "إلا أنهم لم يهدأوا ولم يستكينوا، ولم ينجحوا للسلم، بل ظلوا يرسمون الخطط ويحكون المؤامرات لزعة أركان الدولة الإسلامية في المدينة، والقضاء على الدعوة في مهدها، وكان يهود بني النضير الذين أخرجوا من ديارهم مُكرهين والتجأوا إلى خيبر، أشد الناس عداوة للإسلام وأهله، وقد امتلأت نفوسهم حقداً وغيظاً ضد رسول الله ﷺ وأصحابه، فلم يتركوا فرصة واحدة تسنح لهم إلا واستغلوا لإشعال نار الحرب في يثرب وخارجها"^(١).

وقد علم اليهود منذ البداية أن كفار قريش وقبائل الشرك والوثنية كارهون للدعوة الإسلامية ولحامل لوائها النبي الخاتم ﷺ، وكل منهم يود القضاء عليها واستئصالها، "وإن اختلفت بينهم الأسباب وتنوعت معهم المقاصد. وصمم بنو النضير أن يجمعوا هذه القبائل وأن يؤلفوا بينها، وأن يشكلوا منها كتلة واحدة ينقضون بها على محمد ﷺ وصحبه، فيضربونهم ضربة رجل واحد، فيقضون عليهم قضاء مبرما. ثم يتنهون من أمرهم إلى الأبد"^(٢).

واشتدت عداوة اليهود، وعظم خطرهم، وكثرت مكائدهم، وتحرك الشر في نفوسهم، وتفجر غيظهم، بعد إجلاء يهود بني النضير عن المدينة المنورة إثر غدرهم وخيانتهم ونقضهم عهودهم مع المسلمين، "وخاصة زعماء بني النضير الذين ارتحلوا إلى خيبر؛ إذ رأوا أن الإسلام يقوى وتتعمق جذوره، وكلما حاولت فئة اقتلعه خابت في مسعاها، وردت خائبة، وازدادت قوة الإسلام، لذا حاول زعماء اليهود تحزيب الأحزاب وجمع قوى الشر كتلة واحدة والتوجه إلى المدينة واقتلاع الإسلام من جذوره والانتهاه من أمره، لقد تحرك زعماء اليهود هؤلاء إلى مكة وعرضوا الفكرة على قريش فوجدوا أذناً صاغية وتجاوباً كبيراً فضربوا موعداً للتوجه إلى المدينة لا يُخلفه هؤلاء ولا هؤلاء"^(٣).

(١) التاريخ السياسي والعسكري، علي معطي، ص ٣٠٩.

(٢) التاريخ السياسي والعسكري، علي معطي، ص ٣٠٩.

(٣) التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق،

ط ١٤٠٧/١هـ - ١٩٨٦م، محمود شاكر، ص ٢٧.

ومن نفر الذين حَزَبُوا الأحزاب: "سلام بن أبي الحَقِيق، وسلام بن مَشْكَم، وكنانة بن الربيع، اجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب النبي ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضا"^(١)، ثم باقى القبائل حتى كان عددهم قريبا من عشرة آلاف، وقد تحدثت عن ذلك بتفصيل في أسباب غزوة الأحزاب.

واستعمل ذلك الوفد من زعماء اليهود -المبعوث إلى مكة لإشعال نار الحرب على المسلمين والتحريض على قتالهم واستئصالهم- كل ما كان في وسعه من وسائل خسيصة، وحيل شيطانية، وخطط مأكرة، حتى سر قريش قول اليهود، ونشطوا للحرب، فلما أنهى الوفد اليهودي مهمته قفل إلى المدينة يظهر المودة للمسلمين ويبطن الخديعة والمكر والعداوة.

ذَمَرَ الشيطان حزبه - يهود بني قريظة- على نقض العهد فاستجابوا له؛ فكان لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُبي بن أخطب النَّضري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال"^(٢).

هكذا تواصلت مساعي اليهود في الخيانة وتأليب المشركين على دين التوحيد دين الإسلام ومجتمع ودولته وأتباعه ورسوله، عارضين ثمار مزارعهم في خير على قبائل المشركين مقابل قضائهم على الإسلام.. بل لقد ذهبوا إلى أكثر من ذلك؛ فقد اعتبروا الوثنية والشرك أفضل من دين التوحيد الذي جاء به النبي محمد ﷺ وهم أهل كتاب وهم على علم بأنه رسول الله حقا ﷺ.

إن موقف اليهود يوم الأحزاب ينم عن حقد دفين وكره للإسلام والمسلمين، ظانين أنها بداية الشرارة لحرب شعواء؛ يكون مآل المسلمين فيها الإبادة والقتل، ولكن الله كبتهم، وردهم على أعقابهم خاسرين، وصار كيدهم في نحورهم، وتدبيرهم في تدميرهم، أعز الله جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وكان موعد بني قريظة قطع رؤوسهم وسبي نسائهم وذرائعهم، وذلك جزاء الماكرين.

(١) عمدة التفسير (مختصر ابن كثير)، ٣/٣٣.

(٢) عمدة التفسير (مختصر ابن كثير)، ٣/٣٣.

ونخلص من ذلك إلى أن رجال بني قريظة لم يكونوا "سوى مجرمي حرب، وفق قوانين القتال المعاصرة، نقضوا العهد، وانضموا إلى الأعداء والحرب قائمة بين المسلمين والأحزاب. فكان نقضهم خيانة عظيمة، ولم يكن عقابهم العادل المكافئ لفعاليتهم سوى القتل. وقد أنزلوا من حصونهم مقرنين في الأصفاد، وحفرت لهم الخنادق، ثم جيء بهم فوجاً فوجاً حيث لا قوا مصيرهم ودفنوا هناك"^(١).

فكان من الطبيعي أن يرد النبي الملهم المؤيد بالوحي ﷺ وهو حاكم المدينة في نفس الوقت على مواقف اليهود العدوانية والعدائية، وذلك لحماية الإسلام والدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي من دسائسهم ومؤامراتهم.

يحكي ابن هشام في سيرته غزوة بني قريظة^(٢)، نوردها هنا بالتفصيل لتبين سنة الله في معاقبة اليهود، يقول ابن هشام: "فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ كما حدثني الزهري، معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم؛ فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة"^(٣).

قال ابن إسحاق: "وقدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برأيته إلى بني قريظة، وابتدورها الناس. فسار علي بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال يا رسول الله لا عليك أن

(١) دراسة في السيرة النبوية، عماد الدين خليل، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ "أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأمواهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني قينقاع (وهم قوم عبد الله بن سلام)، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة". صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز، ح ٦٢-١٧٦٦.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/١٦٧-١٦٨. جوامع السيرة، ١١٤-١١٥. طبقات ابن سعد، ٢/٧٤. إمتاع الأسماع، المقرئ، ١/١٤١. أنساب الأشراف، البلاذري، ١/٣٤٧.

لا تدنو من هؤلاء الأخابث؛ قال: لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم يا رسول الله؛ قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً. فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم. قال: يا إخوان القردة هل أحرزكم الله وأنزل بكم نعمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصَّوْرَيْنِ -موضع قرب المدينة- قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم» ولما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم يقال لها بئر أنا.

وتلاحق به الناس، فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة، فشغلهم ما لم يكن منه بد في حربهم، وأبوا أن يصلوا، لقول رسول الله ﷺ حتى تأتوا بني قريظة. فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسول الله ﷺ.

(...) وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة^(١)، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وقد كان حبي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم. قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثاً، فخذوا أيها شتمتم قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدق فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم علي هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ومصليتي السيوف لم نترك

(١) وهذا ما ذهب إليه ابن سيد الناس في مدة حصارهم. عيون الأثر، ٩٤/٢. وخالفهم البلاذري في فتوح البلدان، قال: "حاصر -أي النبي ﷺ- بني قريظة خمس عشرة ليلة من ذي القعدة وذي الحجة". ص ٢٣. وقال الواقدي: "سار إليهم النبي ﷺ يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، فحاصرهم خمسة عشر يوماً، ثم انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس". المغازي (تحقيق: مارسدن جونس)، ٢٩٦/٢.

وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد؛ فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيت علي هذه، فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً^(١).

فلما أصبح الصباح، ما كان علي بن أبي قريظة إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس وكانوا لهم حلفاء، فقالوا: «يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت (...). قال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى؛ قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ^(٢). وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها ربيعة^(٣)، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخنق اجعلوه في خيمة ربيعة حتى أعوده من قريب. فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من آدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه. فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال رسول الله ﷺ: "قوموا إلى سيدكم". (...). فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه،

(١) سيرة ابن هشام، ٣/ ١٦٩.

(٢) هو: سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس الأنصاري الأشهلي سيد الأوس، وأمه كبشة بنت رافع لها صحبة، ويكنى أبا عمرو، شهد بدرًا باتفاق، ورمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة وأجيبت دعوته في ذلك ثم انتقض جرحه فمات ذلك البخاري وذلك سنة خمس، الإصابة، ترجمة رقم: ٣٢٠٦، ٣/ ٨٤.

(٣) هي: ربيعة الأنصارية أو الأسلمية. الإصابة، ترجمة رقم: ١١١٧٥، ٧/ ٦٤٦.

أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له؛ فقال رسول الله ﷺ: نعم؟ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء^(١).

وينطق لسان الوحي الملهم قائلا لسعد: " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة"^(٢).

قال ابن إسحاق: "ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالا، وفيهم عدو الله حبي بن أخطب، وكعب بن أسد، رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة. وقد قالوا لكعب بن أسد، وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالا: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ^(٣).

(١) سيرة ابن هشام، ١٧١/٣. جوامع السيرة، ابن حزم، ص ١١٦. طبقات ابن سعد، ٧٥/٢. التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ٢٩٤/٢. تاريخ الطبري، ١١٩/٢. المغازي، لابن عقبة، ص ٢٢٥. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٣١. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، ص ٣١٠. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري بك، ص ١١٨. حياة رسول الله، محمود شلبي، ص ١٢٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ١٧١-١٧٢/٣. جوامع السيرة، ابن حزم، ص ١١٦. طبقات ابن سعد، ٧٥/٢. التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ٢٩٤/٢. تاريخ الطبري، ١١٩/٢. المغازي، لابن عقبة، ص ٢٢٦-٢٢٥. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٣١-١٣٢. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، ص ٣١٠-٣١١. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري بك، ص ١١٨. حياة رسول الله، محمود شلبي، ص ١٢٧.

(٣) أما النساء، فقتلت منهم امرأة واحدة، قال ابن هشام: "التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد، فقتلته". سيرة ابن هشام، ١٧٣/٣.

قال ابن حزم: "فكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة متصلا بأول ذي الحجة في السنة الرابعة من الهجرة (...). واستشهد يوم بني قريظة من المسلمين: خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو، من بني الحارث بن الخزرج، طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحي فقتلته. ومات في الحصار: أبو سنان بن محصن بن حراثن الأسدي، أخو عكاشة بن محصن، فدفنه النبي ﷺ في مقبرة بني قريظة التي يتدفن فيها المسلمون السكان بها اليوم. ولم يصب غير هذين". جوامع السيرة، ص ١١٧-١١٨.

وأتي بحبي بن أخطب عدو الله وعليه حلة له فقاحية^(١) (تضرب إلى الحمرة) قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة (أنملة) لثلاث يسلبها، مجموعة يدها إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه^(٢).

أراد يهود بني قريظة حصد جمع المسلمين، فحصدتهم سنة الله الواردة في قوله جل ذكره: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَّا لُؤَاخِيراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

"كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل"^(٣)

وبانتها هذه الغزوة تخلص المجتمع الإسلامي في المدينة من أهل الفساد والبغي والعدوان، وتطهر الصف المسلم من عدو داخلي شديد المراس، وأراح الله جل وعلا الإسلام والمسلمين من شر مجاورة أهل الغدر والخيانة، ولم تبق منهم إلا ثفالة من اليهود كثفالة القدر بخير مع أهلها، قذف الله في قلوبهم الرعب، وركبهم الذل والخزي حتى خرجوا من المدينة صاغرين.

ولما استأصل سيدنا رسول الله ﷺ شر يهود بين قريظة من جذوره، بتنفيذ حكم الله فيهم، وقطع شجرة ابن الأشرف من أصولها، على يد رجال من الأوس، بقيت شجرة الزقوم المتجلية في أبي رافع سلام بن أبي الحقيق وكان "من ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يقتل مع بني قريظة كما قتل صاحبه حبي بن أخطب، رغبت الخزرج في قتله طلباً لمساواة الأوس في الأجر. وكان الله سبحانه قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنا رسول الله في قتله فأذن لهم، فانتدب له رجالاً كلهم من بني سلمة وهم: عبد الله بن عتيك^(٤) وهو أمير القوم بأمره ﷺ، وعبد الله بن أنيس، وأبو

(١) قال ابن هشام: فقاحية ضرب من الوشي. سيرة ابن هشام، ١٧٣/٣.

(٢) سيرة ابن هشام، ١٧٣/٣.

(٣) ديوان الأعشى، لميمون بن قيس الأعشى، المؤسسة العربية بيروت ط/د، ت، قصيدة: ودع هريرة، ص: ١٤٨.

(٤) هو: عبد الله بن عتيك بن قيس بن الأسود بن مري بن كعب بن غنم بن سلمة بن الخزرج الأنصاري كذا نسبه بن الكلبي وخليفة وابن حبيب وهو أخو جبر بن عتيك، قال البغوي: بلغني أن عبد الله =

قتادة الحارث بن ربيعي، ومسعود بن سنان^(١)، وخزاعي بن أسود^(٢)، حليف لهم. فنهضوا حتى أتوه في خير في دار له جامعة، فنزلوا عليه ليلاً فقتلوه ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، كلهم ادعى قتله، فقال: "أروني أسيافكم" فلما أروه قال لسيف عبد الله بن أنيس: "هذا قتله أرى فيه أثر الطعام". وكان عبد الله بن أنيس قد اتكأ عليه بالسيف حتى سمع صوت عظم ظهره، وعدو الله يقول: قطني قطني، يقول: حسبي"^(٣).

وبهذا العمل الرجولي الشجاع تم القضاء على رأس آخر من رؤوس البغي والخيانة والفساد، "ومجرم حرب خطير كان له دور بارز ومميز في تحزيب الأحزاب ضد المسلمين، فنال بذلك القصاص العادل الذي يستحقه بالفعل، فلو أراد الله عز وجل ونجحت مخططات الأحزاب لكان في ذلك القضاء المبرم على المسلمين ولكن الله سلم، وفشلت مخططاتهم وهزمهم الله وحده وقتل الله حبي بن أخطب مع بني قريظة، ثم قضى على أبي رافع بمبادرة بطولية من الخزرج فتخلص المسلمون من عدوين خطيرين كان في بقائهما تهديد كبير لأمنهم وسلامتهم"^(٤).

وباستئصال جذور الشر من المدينة، وتطهير عاصمة الدولة الإسلامية من كيد اليهود لم يبق هناك خطر يهدد الدولة المسلمة، أو يتآمر عليها.

وهكذا نجد "أن سنة الله في خلقه أن يكون جزاؤهم بجنس ما عملوه، وهذا أمر كوني أقام الله عليه الدنيا والآخرة ليكون قانوننا حاكماً في المجازاة والمحاسبة، وليس هذا فحسب، وإنما أراد الله عز وجل أن يكون هذا القانون وتلك السنة أمراً شرعياً تكليفاً"^(٥).

= ابن عتيك قتل يوم الياومة شهيداً في خلافة أبي بكر سنة اثنتي عشرة. الإصابة، ترجمة رقم: ٤٨١٩، ١٦٧/٤.

(١) هو: مسعود بن سنان بن الأسود الأنصاري حليف بني سلمة، شهد أحداً واستشهد يوم الياومة. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٩٥٥، ١٠٠/٦.

(٢) هو: الأسود بن خزاعي الأسلمي حليف بني سلمة من الأنصار، وسماه بن إسحاق خزاعي بن الأسود، وقال الطبري: شهد الأسود بن خزاعي أحداً، وذكر الواقدي أنه سار مع علي إلى اليمن لما بعثه النبي ﷺ. الإصابة، ترجمة رقم: ١٥٤، ٧١/١.

(٣) الفصول في سيرة الرسول ﷺ، لابن كثير، ص ٨١. سيرة ابن هشام، ٣/٢٠١-٢٠٣. المغازي، لابن عتبة، ص ٢٢٩.

(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، بريك العمري، ص ١٧٧-١٧٨.

(٥) السنن الإلهية، مجدي عاشور، ص ٢٦٣.

ولذلك كان ما حكم به سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه على بني قريظة هو نفس ما كانت ستفعله الأحزاب بالمسلمين لو انتصرت عليهم بخيانة وغدر بني قريظة، ولو أن أفاعي بني قريظة تمسكت بعهدهما لما أصابها سوء، ولكنهم جبلوا على الغدر والخيانة، «نقضوا ما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من العهد، ومالوا عليه قريشا، وقتلوه، وسبوه أقبح سب»^(١)، فكان الجزاء من جنس العمل. صنعوا خاتمة أمرهم بأيديهم، وحفروا قبورهم، فكانت نهايتهم المحق، والخسران، وهي سنة الله في أهل الغدر والفساد، سنة ثابتة ومطرده، ماضية إلى يوم القيامة، وصدق الله تعالى القائل: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجْعَلَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجْعَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]. إنها سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير؛ الجزاء من جنس العمل، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

ومنذ ذلك اليوم الذي قطع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم دابر يهود بني قريظة، «ضعفت حركة النفاق في المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون. وتبع هذا وذاك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبحوا هم الذين يغزونهم. حتى كان فتح مكة والطائف. ويمكن أن يقال: أنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين. وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم، وإنه كان فارقا واضحا بين عهدين في نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها»^(٢).

وخلاصة القول: إن النبي صلى الله عليه وسلم أجلى يهود بني قينقاع من المدينة لعل باقي اليهود يعتبرون بما وقع لإخوانهم، لكنهم عادوا ليشتبوا أن ديدنهم دس الدسائس وبث الشكوك، وإحياء التُّعرات، فكانت حادثة إجلاء بني النضير، ثم ازدادوا علوا وفسادا وطغيانا كبيرا، ومكر السيئ، فحققت عليهم سنة الله فكان ما حدث لبني قريظة، فهكذا كان مكرهم وكيدهم، أما مكر الله وكيده فهو جزاؤهم على مكرهم. فكان ذلك سنة من السنن الإلهية المطردة الماضية إلى يوم القيامة الحاكمة باستئصال المكذبين، وإهلاك المفسدين، فكان ما أصابهم هو من جنس ما أصاب الأمم الهالكة من قبلهم التي كذبت الرسل، ونقضت العهود، ووجدت بأنعم الله، وهي سنة إلهية في كل مكذب بآيات الله، ومنغمس في الفساد والتجبر والطغيان، وصدق الله جل ذكره القائل: ﴿كَذَّبُوا آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا

(١) كتاب المفهم، أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الهادي التازي، ١/ ٢٩٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٤٩.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ [آل عمران]، وهذا من أكبر مظاهر عدل الله في خلقه، وميزانه المستقيم في معاملة البشر، وإنما لسنة الله في الجزاء من جنس العمل التي تسوقهم إلى ما وعدهم ربهم سواها.

المبحث الثالث

وعد الله بإفساد اليهود

يقول الحق جل وعلا في إفساد اليهود في المرة الأولى: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ [الإسراء].

اختلف أهل العلم في تفسير الآيات السابقة؛ ما حقيقة المراتين؟ وهل مضى وعدهما، أم لا؟ ومتى تحقق وعد أولاهما؟ ومن المبعوث عليهم في المرة الأولى؟

فالمفسرون من القرون الماضية، الذين لم يكن أمام أعينهم ما نشاهده صباح مساء من الحقائق الباهرة، ومن الفساد الصهيوني في فلسطين السليبية، منهم من فسر المرة الأولى التي أفسد فيها بنو إسرائيل في الأرض وعتوا عتوا كبيرا حين كذبوا نبي الله إرمياء وقتلوه، فأرسل الله عليهم بُخْتَنَصْرَ، وقيل أرسل الله عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولو بأس شديد، وقيل: جاءهم جند من فارس يتجسسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوعى حديثهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى، فكان منهم جوسٌ خلال الديار لا قتل، وقيل: أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا، وقيل: أنهم لما قتلوا نبي الله زكرياء ﷺ غزاهم ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وقيل حين خالفوا أحكام التوراة، إلى غير ذلك من الآراء.. (١).

وهنا يمكن القول بأننا كثيرا ما نبني على غير أساس، حينما نغفل سنة الله في عباده، فبفهم سنة الله في الكون، والسير على خطاها تبني الأمة مستقبلها الزاهر، وتكون سماء عالية صافية يتطلع إلى سموقها الناس فلا يزالون في رقي دائم.

فواجب علينا أن نقرأ التاريخ بمنظار القرآن الكريم وفي ظله ونوره، لنتفتح بصائرنا حتى نفقه سنة الله في الكون ونفهم عن الله، وندرك كنه الأحداث، وبأنها لا تدور في عجلة مفرغة، بل وفق سنة الله وقدره.

(١) انظر هذه الآراء في: الجامع لأحكام القرآن، للطبري، ١٧٧/٩. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٨/٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ٤٣٨/٣. تفسير الكشاف، ص ٥٩٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٦/٥٩٨ وما بعدها. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، ٧٦/٥.

إن ذكر الوَعْدِينَ في سورة الإسراء التي نزلت إبان معجزة الإسراء والمعراج، التي كانت مباشرة بعد رجوع النبي ﷺ من الطائف الذي لاقى فيه من الأذى والعنت والشدة الكثير على يد سفهاء ثقيف، فكان ذكر الوعديين في سورة الإسراء بلسان الرحمة، وإكسير النصر، وباعث اليقين، لحبيبتنا وسيدتنا وسندنا رسول الله ﷺ، وللرجال الصادقين معه، وللسالكين منهاجه من بعده.

ولذلك فإننا إذا رجعنا إلى الآية الكريمة التي تحدثت عن فساد اليهود في الأرض التي يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]، فعباد لنا: المقصود بهم المؤمنين، فهم من يخضع لله ويعبده حق العبادة، وهم من تحققت هذه البشارة على أيديهم، أما باختصر فهو رجل وثني وليس مؤمنا، ولا يستحق هذا التشريف الإلهي، وبهذا المنطق القرآني فلا يجوز أن نعتقد أن يُختصر هو صاحب المرة الأولى.

فالله جل وعلا لا يعطي هذه المنحة لعدو من أعدائه، بل أكرم بها عباده: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾، هم أولو قوة وإيمان ليطهروا الأرض من رجس اليهود الذين تمردوا على كل فضيلة خلقية واجتماعية، فديدهم النهب والسلب والفساد. ولهذا فإن الله جل وعلا جعل القضاء على الجرثومة الخبيثة بيد المؤمنين عباد الرحمن، تكريما للمؤمنين ووفاء بوعد الذي وعدهم إياه، بأن العاقبة لهم.

ويمكن الرد على من قال بأن بنوخ نصر هو من دخل المسجد أولا، أو أنه المبعوث عليهم في المرة الآخرة بهذه الحقيقة التاريخية، يقول الدكتور سهيل زكار: "تحدث الملك بنوخ نصر عن حملاته، وأهمها الحملة التي قام بها في السنة السابعة من حكمه حيث جاء في النص الذي تحدث عنها: "السنة السابعة شهر كسيليمو (كانون أول) حرك ملك أكاد جيشه إلى أرض حتي Hatti، وحاصر مدينة "ياحودو" Iaahudu واستولى على المدينة في اليوم الثاني من شهر آذارو، وعين فيها ملكا حسبما ارتضاه، واستولى على غنائم ثقيلة منها، وجلبها إلى بابل" (١)، وطبعاً لم يكن اسم القدس في يوم من الأيام "ياحودوا"، والدراسة

(١) التوراة، ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، سلسلة: النصوص اليهودية المسيحية المقدسة، دار قتيبة، بيروت - دمشق، ط ١/١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص ٤٥. نقلا عن: The Ancient Near East, vol I, pp 199, 205, The Third Edition of the same book, princeton 1969, pp 307308. ancient Record of Assyria and Babylonin. BY james Breasted, chicago, 1926, vol 2, pp199. 121, 143.

المتأنية لنصوص بنوخذ نصر تظهر أنه لم يستول على القدس، ولم يدخل فلسطين إلا مرة واحدة، جرى صده من قبل الجيوش المصرية، وبقينا لم يكن هناك سبي ليهود من القدس إلى بابل، لأن اليهود لم يكونوا قد ظهوروا على مسرح التاريخ، يضاف إلى هذا أن الحفريات الأثرية أظهرت أن القدس كانت مدينة مزدهرة عامرة في التاريخ الذي قيل بأنها تعرضت فيه للخراب على أيدي جيوش بنوخذنصر، لكن هذه المدينة أخذت تتراجع لتصبح شبه قرية، وكان ذلك بعد أكثر من نصف قرن، أيام الحكم الإخميني، الذي قيل بأن فيها أعيد بناء المدينة حسبما جاء في سفري عزرا ونحميا، وتم فيها عودة المنفيين" (١).

انطلاقاً مما سبق ذكره من الحقائق التاريخية يمكن القول أنه يجب أن نتعامل مع القرآن الكريم بشكل مباشر لأن في القرآن جواباً شاملاً وكافياً غناءً لكل حقيقة من حقائق الوجود الأساسية، فهو كلام الله الذي أحاط بكل شيء علماً. عكس الإسرائيليات الخادمة لطموحات الكهنة وأحبار اليهود وأهوائهم ومآربهم.

ومن جهة أخرى نجد أن هذين الإفسادين اليهوديين المذكورين في القرآن موجّهان للمسلمين، فالحديث عن الوعدين في آيات القرآن عني بشارة ترف إلى عباد الله المؤمنين، بأنهم سيواجهون إفساد اليهود وعلوهم، ويكون النصر فيها للمسلمين.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا﴾: "الحديث في الآية عن رسول الله ﷺ وأصحابه الذين أزالوا الإفساد اليهودي الأول في المدينة وما حولها، وكان ذلك بعد الهجرة. وقد أخبر الله أنه يبعث عباده بعثاً على اليهود، وإسنأُ الفعل ﴿بَعَثْنَا﴾ إلى الله يدل على تكريم هؤلاء المجاهدين، المبعوثين بعثاً على اليهود.

ووصف الله هؤلاء المجاهدين بأنهم عبادٌ لنا ﴿عِبَادًا لَنَا﴾، أي تتحقق فيهم العبودية المطلقة الخالصة لله، وهذا تكريم رباني آخر لهؤلاء المجاهدين، ﴿أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ﴾. وقوة اليهود المقرونة بالعلو الكبير تحتاج إلى مجاهدين أقوياء، متصفين بالبأس الشديد.

وأعان الله الصحابة المجاهدين، ونصرهم على اليهود المفسدين، وجاسوا وتحركوا خلال ديار اليهود وبيوتهم، وأخرجوا اليهود من الديار، وأورثهم الله إياها.

(١) التوراة، ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام، ص ٤٥.

بين الإفسادين، الإفساد الأول الذي كان في بداية القرن الأول، والإفساد الثاني الذي بدأ منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري. أي أن الفترة بين الإفسادين كانت ثلاثة عشر قرناً^(١).

يقول الحق جل وعلا: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلِمُوا نَبْرًا ﴿٧﴾ [الإسراء]. ويقول الله عز اسمه: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَنَابِكُمْ لَفِيضًا ﴿١٠٤﴾ [الإسراء].

وقد بينت السنة المطهرة المقصود بوعد الآخرة في الحديث، الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى يُقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يحتجب اليهودي من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله. إلا الغرقد^(٢) فإنه من شجر اليهود"^(٣).

وعليه فلا بد من المواجهة إذن، وقاتل اليهود وراء الحجر والشجر ما عدا الغرقد حتم مقضي، والدخول الثاني للقدس بعد دخول عمر رضي الله عنه قضاء محتوم. لا نحسب الدخلة الكريمة العريضة التي دخلها صلاح الدين رضي الله عنه ورفع مقامه، فقد دخلها على النصاري المحتلين لا على بني إسرائيل. ولو بدا من النصاري التفات عن حلفائهم اليهود لالتمسنا "ظروفا للتخفيف" من حدة المواجهة معهم^(٤).

(١) وعود القرآن بالتمكين للإسلام، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط ١/١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص ١١٤-١١٨.

(٢) يقول الإمام النووي: "الغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود، وقال أبو حنيفة الدينوري: إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة". صحيح مسلم بشرح النووي، ٢٤٢/٩.

واليهود اليوم في فلسطين البلاء مولعون بغرس شجر "الغرقد" المذكور في الحديث.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود، ح ٢٩٢٥ و ٢٩٢٦، صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، ح ٢٩٢٢، واللفظ لمسلم، المسند للإمام أحمد، مسند أبو هريرة رضي الله عنه ح ٩٣٨٧.

(٤) سنة الله، ص ٧٤.

أفسد -الإفساد الأول- اليهود في الأرض على عهد رسول الله ﷺ، وعتوا عتوا كبيرا، نكثوا العهود، ودسوا الدسائس، ومكروا مكرا كئيبا، وطغوا طغيانا كبيرا، فلما بلغوا الأوج في علوهم وفسادهم، سلط الله عليهم عبادا له أولي بأس شديد، وهم النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، فجاسوا خلال ديار خيبر، فاستأصلوا شجرة الفساد من جذورها، وأخرجوا أفاعي الغدر من جحورها، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف].

هنا يجب أن نقف مليا مع غزوة خيبر التي يظهر فيها وعد الله بالإفساد اليهودي الأول جليا لاحبا:

إن يهود خيبر لم يظهر منهم "أي عداء للمسلمين حتى نزل عليهم يهود بني النضير بعد أن أجلوا عن ديارهم، وكان من أبرز من وصلها منهم حُبي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، فأوغروا صدور يهود خيبر ضد المسلمين إذا سنحت لهم الفرصة، ولا ننس أنهم حزبوا الأحزاب في غزوة الخندق؛ لذا أعد النبي ﷺ جيشه، وهرول نحو خيبر لئيباغت اليهود"^(١).

وشيء آخر لا بد من معاودة التأكيد عليه؛ هو أن اليهود بعد جلائهم عن يثرب جعلوا خيبر وكرا للفساد والتآمر، "كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاضلة على هذا الوكر"^(٢).

وعليه، فبالرغم من الهزائم التي حلت باليهود في عهد النبوة، والتي أدت إلى إخراجهم مدحورين من يثرب، "إلا أنهم لم يرعوا، ويعودوا إلى رشدتهم، ولم يأخذوا من الماضي عبرة للحاضر والمستقبل، ولم يحاولوا قط أن ينتزعوا من نفوسهم شعور الحقد والعداوة للدعوة الإسلامية وصاحبها، وأن يعيشوا مع المسلمين في سلام ووثام.

(١) سيرة الرسول ﷺ، مصطفى مراد، ط/ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ٤٠٦.

(٢) الرحيق المختوم، ص ٣١٩.

ويبدو أن الفكرة التي سيطرت على عقول اليهود، وشكلت دستور حياتهم، وتناقلها الأبناء عن الآباء، وتواصى بها الزعماء والسادة هي فكرة القضاء على الإسلام وأهله^(١).

وعليه، فهل يترك النبي ﷺ هؤلاء اليهود يتقلبون في ظلماتهم ويحكون الدسائس بالإسلام ويؤلبون أهل الكفر عليه؟! لقد رأى النبي ﷺ «بثاقب فكره وصائب رأيه أن يتحرك إلى جحور هذه الحيات ليووجه إليها ضربته القاصمة فأذاعت قيادة المسلمين بيانا دعت فيه إلى الجهاد، والاستعداد للقضاء على أعداء الله في خير قضاء نهائيا حتى يأمن شغال المدينة وتكون بعد ذلك قاعدة أمينة استعداداً لمحاسبة قريش»^(٢).

أذكر حادثة خير بتفصيل؛ قال الإمام موسى بن عقبة: "ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها ثم خرج منها غازيا إلى خير، وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية"^(٣).

قال الإمام محمد بن إسحاق: "وحدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار. فنزلنا خير^(٤) ليلا، فبات رسول الله ﷺ حتى إذا أصبح لم يسمع أذانا، فركب وركبنا معه فركبت خلف أبي طلحة^(٥) وإن قدمي لتمس قدم رسول الله ﷺ، واستقبلنا

(١) التاريخ السياسي والعسكري، علي معطي، ص ٢٠٢.

(٢) خذوا من أحداث التاريخ عبرة، عبد الحميد كشك، مكتبة الصحافة، العباسية، ط ٢/١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م، ص ١٤٣.

(٣) المغازي، موسى بن عقبة، ص ٢٤٧.

(٤) غزوة خير في المحرم سنة سبع، قال محمد بن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم، وولى تلك الحجة المشركون، ثم خرج في بقية المحرم إلى خير... قال ابن حجر: روى يونس بن بكير في المغازي عن ابن إسحاق في حديث المسور ومروان قالوا: انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح؛ فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خير بقوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ...﴾ [الفتح] يعني خير، فقدم المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خير في المحرم". انظر: سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٥. الطبقات ٢/٢٠٦. المغازي، لابن عقبة، ص ٢٤٧. كتاب المغازي، للواقدي (تحقيق: مارسدن جونس)، ٢/٦٣٤. فتح الباري، ٧/٥٣٣.

(٥) هو: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عمرو بن مالك بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبو طلحة مشهور بكنيته، كان من فضلاء الصحابة وهو زوج أم سليم، شهد العقبة وقد جزم بذلك عروة وموسى بن عقبة وذكره كلهم فيمن شهد بدرا،

عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم^(١) ومكاتلهم^(٢)، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش^(٣) قالوا: محمد والخميس^(٤) معه! فأدبروا هراباً، فقال رسول الله ﷺ: "الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"^(٥).

قال ابن إسحاق: "وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر^(٦)، فبنى له فيها مسجداً ثم على الصهباء^(٧)، ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع^(٨)، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أمواهم وأهلهم حسا، طنوا

واختلف في وفاته فقال الواقدي وتبعه بن نمير ويحيى بن بكير وغير واحد: مات سنة أربع وثلاثين وصلى عليه عثمان وقيل قبلها بستين. الإصابة، ترجمة رقم: ٢٩٠٧، ٢/٦٠٧.

(١) المساحي: جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد والميم زائدة لأنه من السحو الكشف والإزالة والله أعلم. لسان العرب، مادة: مسح.

(٢) المكاتل: جمع مكاتل وهي الفقة العظيمة، وسميت بذلك لتكثُل الشيء فيها، وهو تلاصق بعضه ببعض. الروض الأنف، ٤/٦٩.

(٣) الجيش: وهو من الألف إلى أربعة آلاف. فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، ٢٥٢.

(٤) الخميس: الجيش العظيم المشتمل على المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر. سفرة الزاد في سفرة الجهاد، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي البغدادي، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام ٢٧٣٦٣، الرقم الخاص ٨٧٤، ص ٧.

(٥) سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٦-٢٤٧. الطبقات، ابن سعد، ٢/١٠٦-١٠٨. عيون الأثر، لابن سيد الناس (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت)، ١٧٠/٢. تاريخ الطبري، ١٥٩/٢.

(٦) عصر: كل حصن يتحصن به يقال له عصر، وهو جبل بين المدينة ووادي الفرع. معجم البلدان، باب العين والصاد، حرف العين.

(٧) الصهباء: بالحجاز، في طريق خيبر، وعلى اثني عشر ميلاً منها. الروض المعطار، حرف الصاد، ص ٣٦٨.

(٨) الرجيع: ليس هو الموضع الذي غدرت فيه عضل وقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم النبي ﷺ معهم، فهو ماء لهذيل، أما هذا -قيد الدرس- فهو غير الأول لأن ذاك قرب الطائف وخبير من ناحية الشام خمسة أيام عن المدينة فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشر يوماً. معجم البلدان، باب الرء والتاء، حرف الرء.

أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر" (١).

وبعد ذلك تدنى رسول الله ﷺ يفتح حصنا حصنا^(٢) ويأخذ أموالهم حصونهم وبدأ في أخذ أموالهم مالا مالا، "فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم- وعنده قتل محمود بن مسلمة^(٣)، ثم القموص؛ حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وبنتي عم لها؛ فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه. وكان دحية بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله ﷺ صفية فلما أصفها لنفسه أعطاه ابنتي عمها، وفشت السبايا من خيبر في المسلمين"^(٤).

ولما فتح رسول الله ﷺ من تلك الحصون ما فتح، "وحاز من الأموال ما حاز انتهبوا إلى حصنهم الوطيح والسلام، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحها، فحاصروهم رسول الله ﷺ^(٥) بضع عشرة ليلة"^(٦)^(٧)، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، وأن لا ما فر من العقاب العادل النازل بهم، سألوا رسول الله ﷺ "أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل. وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشق ونظاة والكتيبة وجميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين. فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل"^(٨). وكان فيمن مشى بين رسول الله

(١) سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٧. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٤٣-١٤٤. تاريخ الطبري، ١٥٩/٢.

(٢) انظر الخريطة:(د) في ملحق الخرائط والصور.

(٣) هو: محمود بن مسلمة بن سلمة الأنصاري، أخو محمد بن مسلمة، استشهد في حياة النبي ﷺ، شهد محمود أحدا والخندق والحديبية وخيبر وقتل يومئذ شهيدا، الإصابة، ترجمة رقم: ٧٨٢٧، ٦/٤٢.

(٤) سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٧-٢٤٨. جوامع السيرة، ابن حزم، ص ١٢٦. الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر، ص ١٤٥. تاريخ الطبري، ١٥٩/٢-١٦٠.

(٥) سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٧.

(٦) قال ابن هشام: "وكان شعار أصحاب الرسول ﷺ يوم خيبر: يا منصور، أمت أمت". سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٩.

(٧) سيرة ابن هشام، ٣/٢٤٩. المغازي، موسى بن عقبة، ص ٢٤٨-٢٥٠.

(٨) وقتل من اليهود يوم خيبر ثلاثة وتسعون رجلا كما قال ابن إسحاق، ومن أصحاب النبي ﷺ خمسة عشر رجلا. قال ابن حزم: "وكان المسلمون يوم خيبر ألفا وأربعمائة رجل، ومائتي فارس". انظر: الطبقات، ابن سعد، ١٠٧/٢. وعيون الأثر، لابن سيد الناس (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي

ﷺ وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود^(١)، أخو بني حارثة. فلما نزل أهل خيبر على ذلك، سألو رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأمر لها؛ فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فينا بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب^(٢).

فلما اطمأن رسول الله ﷺ، استيقظ الغدر في نفس أحد اليهوديات وهي زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، التي حاولت أن تدس السم لرسول الله ﷺ ليتهي أمره، فأهدت له "شاة مصلية [مشوية] وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها؛ فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغعة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور^(٣)، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ. فأما بشر فأساغها؛ وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ثم دعا بها، فاعترفت فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ؛ ومات بشر من أكلته التي أكل. قال ابن إسحاق: (...). كان رسول الله ﷺ قد قال: في مرضه الذي توفي فيه، ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور^(٤) تَعُودُهُ: يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة

في دار الآفاق الجديدة، بيروت)، ١٨٣/٢. مغازي موسى ابن عقبة، ص ٢٥٨. جوامع السيرة، ص ١٢٧.

(١) هو: محيصة بن مسعود حويصة بن مسعود بن كعب بن عامر بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري، وكان محيصة أصغر من حويصة وأسلم قبله. الإصابة، ترجمة رقم: ٧٨٣٠-١٨٨٣، ٤٥/٦، ١٤٣/٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢٥٣-٢٥٤. المغازي، لابن عقبة، ص ٢٥٢. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٥٢. حياة رسول الله، محمود شلبي، ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) هو: بشر بن البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السلمي، فشهد العقبة مع أبيه وشهد بدرًا وما بعدها ومات بعد خيبر من أكلة أكلها مع النبي ﷺ. الإصابة، ترجمة رقم: ٦٥٤، ١/٢٩٤.

(٤) هي: أم بشر بنت البراء بن معرور تقدم نسبها في ترجمة والدها وفي ترجمة أخيها بشر قيل اسمها خليدة وقيل السلاف والذي ظهر لي بعد البحث أن خليدة والدة بشر بن البراء، الإصابة، ترجمة رقم: ١١٩٠٧، ٨/١٧٥.

التي أكلت مع أخيك بخير، قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدا، مع ما أكرمه الله به من النبوة"^(١).

ولا شك في أن الهزيمة التي حلت بيهود خيبر وجعلتهم يجرّون أذيال الخيبة والتعاسة، قضت على كياناتهم العسكري في الجزيرة العربية قضاء تاما. لذلك عجل يهود "فدك" بطلب الأمان والصلح.

قال ابن إسحاق: "فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى، فحاصر أهله ليلي ثم انصرف راجعا إلى المدينة"^(٢).

لقد دعا رسول الله ﷺ أهل وادي القرى إلى الإسلام فأبوا وعموا وصموا عن دعوة الحق، "فبينما النبي ﷺ بوادي القرى أصيب رجل من المؤمنين بسهم فقتل"^(٣)، فلما برزوا للقتال "قتل منهم أحد عشر رجلا. ويات عليهم وغدا - النبي ﷺ - لقتالهم، فأعطوا بأيديهم، فأخذها عنوة"^(٤)، وغنمه الله ﷻ أموالهم، "وأصاب المسلمون أثانا ومتاعا كثيرا، وقسم رسول الله ﷺ ما أصابه على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها، وولاها عمرو بن سعيد بن العاص وصالحه أهل تيماء"^(٥) على الجزيرة لما بلغهم فتح وادي القرى"^(٦).

وقبل غزوة خيبر بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكبا فيهم عبد الله بن أنيس السلمي إلى اليُسَير بن رزام اليهودي حتى أتوه بخيبر"^(٧)، وبلغ رسول الله ﷺ

(١) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٥٥. المغازي، موسى بن عقبة، ص ٢٥٤-٢٥٥. تاريخ الطبري، ٢/ ١٦٣.

وذكر الإمام البخاري غزوة خيبر في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر من صحيحه.

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢٥٥. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٥٢-١٥٣. حياة رسول الله ﷺ

ﷺ، محمود شليبي، ص ١٧١. تاريخ الطبري، ٢/ ١٦٤-١٦٥. جوامع السيرة، ابن حزم، ص ١٣٠.

تاريخ ابن خلدون، ١/ ٨٣٨. زاد المعاد، ابن القيم، ٢/ ١٩٨.

(٣) خاتم النبیین ﷺ، ٢/ ١٠٧١.

(٤) إمتاع الأسماع، المقرئ، ١/ ٣٣٢.

(٥) تيماء: من أمهات القرى، على سبع ليال من المدينة، ولها سور على شاطئ بحر طوله فرسخ، ويخرج

من تيماء إلى الشام على حوران والبشنة وحسمى، وبين تيماء وأول الشام ثلاثة أيام، وتيماء مياه ونخل،

ومنه تمتاز البادية وبه تجارات قلائل. الروض المعطار، حرف: التاء، ص ١٤٦.

(٦) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص ٣٢١.

(٧) كان ذلك في شوال سنة ست للهجرة. عيون الأثر، تحقيق: الخطراوي ومتمو، ابن سيد الناس،

١٠٩/٢. طبقات ابن سعد، ٢/ ٩٢.

أن يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله ليستعملك على خير، فلم يزلوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين. فلما بلغوا قرقرة ثبار وهي من خير على ستة أميال، ندم السير، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله، فزجر بعيرهم ثم اقتحم يسوق بالقوم، حتى استمكن من السير ضرب رجله فقطعها، واقتحم السير وفي يده مخرش^(١) من شوحت^(٢) فضرب به وجه عبد الله فشججه شجة مأمومة وانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شدا، ولم يصب من المسلمين أحد، وقدموا على رسول الله ﷺ فبصق في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح ولم تؤذ حتى مات^(٣).

وبتصفية قضية اليهود الباقين حول المدينة انتهت معارك النبي ﷺ دون أن يواجههم مرة واحدة، ودون أن تراق دماء كثيرة، ودون أن يقاتلهم وكفار قريش في وقت واحد.

وهذه من أهم العبر إحدى العبر السياسية والعسكرية في مواجهة النبي ﷺ لأعداء الإسلام، "دلنا على براعته وتوفيقه في الوصول إلى النصر دون أن يثير قوى الأعداء عليه جميعاً ما دام يستطيع أن يفرق بينهم - كما في غزوة الخندق - أو أن يضربهم الواحد بعد الآخر كما حصل في تصفية قضية اليهود في جزيرة العرب^(٤).

هذا، وبانقياد يهود المدينة جميعهم، تخلص المسلمون من عدو غادر كان يترصد بهم الدوائر، وينقض كل العهود والمواثيق، فانتصر دين الإسلام، واندثر الباطل واندحر.

ومن هذه المعارك تنطق سنة الله وتقول: أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وهو سبحانه تعالى وتقدس، لا ينتزعها أمة وتعطى لأخرى محاباة، بل كل ذلك وفق سنة إلهية عادلة، لا تحابي أحداً. فكل أمة طغت وتكبرت وفسدت، وجحدت النعمة فقدت مكانتها، وانتزع منها كل شيء، وحق عليها العذاب، كما وقع لليهود، الذين دارت عليهم الدوائر، وأصابتهم بفسادهم القوارع، فكان الوعيد الإلهي في انتظارهم، لما عتوا عتوا كبيراً، وفسدوا في الأرض، وصدوا عن سبيل الله، فجاست جيوش الحق خلال ديار خير،

(١) مخرش: غصن. لسان العرب، مادة: خرش.

(٢) شوحت: شجر ينبت في سفح الجبل. لسان العرب، مادة: شحط.

(٣) المغازي، لابن عقبة، ص ٢٥٩. سيرة ابن هشام، ٤/٤٧٦-٤٧٧.

(٤) عطاؤنا في التاريخ، ص ٥٧.

فكان وعد الله حقا، وكلامه صدقا وعدلا، وستته لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا. ﴿الْمُزَوَّرَاتِ﴾ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ [الأنعام].

هكذا رُسم لنا المنهاج، وخطت لنا الطريق، ووضعت لنا القنوات من شأنها أن تعيد المياه إلى مجاريها وتأخذ بيد الأمة إلى شاطئ السلامة وبر الأمان، لتتخلص من روح الجاهلية، وبؤرة الفساد، وأصل البلاء، من اليهود الحاقدين، الجاثمين على بيتها المقدس. وعلى ثروات العالم.

لكن لا بد لنا من الرجوع إلى السيرة النبوية العطرة، نتدبر أحداثها وكنهها، ونتأمل في جهاد رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، لكي نستمد من هذا الجهاد معاني الإيمان الحقيقية التي فقدناها، ومعاني الرجولة الصادقة التي انجرفنا عنها، ومعاني فريضة الجهاد في سبيل الله -لنصرة دين الله ونشر دعوة الإسلام- التي تخليتنا عنها، ومعاني الإقبال على الله ﷻ وتجديد القصد إليه وإقامة الوجه له التي أعرضنا عنها.

ننظر إلى مستقبل أمة الإسلام بعين الذين ينتظرون أن يتحقق موعود الله لها بالتمكين والاستخلاف في الأرض وظهور النور الله الخالد، وموعود الله للمؤمنين برضاه عنهم وإدخالهم جناته في الآخرة بعد الموت.

لا بد إذن، أن نعيد الوصلة بالسيرة المصطفوية، منها نستمد الخبرة والأسوة، ومنها نستقي الرحمة والحكمة، ومنها نتأسى في جهادنا لاستقبال ﴿وَعَدُ الْآخِرَةِ...﴾ ﴿٧﴾ [الإسراء]، كما جاهد النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، فاستقبلوا ﴿...وَعَدُ أُولَئِهِنَّمَا...﴾ ﴿٥﴾ [الإسراء]، فكان النصر على أيديهم، وأذاق الله اليهود بأس العذاب، ونتظر بعد تشميرنا على ساعد الجد بالمحبة الصادقة والتربية الصحيحة على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإعداد القوة، والتمسك بسنة الجهاد، أن يذيقهم بأس العذاب، وأن يخرجهم أذلة صاغرين كما أخرجهم أول مرة. وما ذلك عليه سبحانه وتعالى وتقدس بعزيز. ﴿...إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا...﴾ ﴿٧﴾ [الأنفال].

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الماتعة في رياض سيرة سيدنا رسول الله ﷺ و سنن الله فيها، حيث تفيأنا تلکم الظلال الوارفة في تلك الجنان المخضرة، وها هي سفينة هذا الكتاب اهتدت إلى مقصدها ووصلت إلى مرساها الذي يممته في مقدمتها.

تلکم إذن هي السنن الإلهية في الجهاد النبوي؛ ونبينا ﷺ يبشرنا بفجر جديد، وخير عميم، وصبح قريب؛ إن أخذنا بسنة الله في سيرته، وأماننا كتاب الله ينطق بالحق، ويهتف باستخلاف المؤمنين في الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

وهذا وعد يتحقق رُغم ما نسمعه من أراجيف يروج لها دعاة على أبواب جهنم الذين يئسوا من الخير كما يئس الكفار من أصحاب القبور؛ لأن الذين طال عيشهم في الظلام القاتم يؤذيه نور النهار المشرق، فشمس وعد القرآن بزغ فجرها، وبشارة النبي العدنان بدت طلائعها، لتتير السبيل وتبرئ العليل، وهي عطاء للعالمين، ورحمة للمستضعفين، وجحيم على المستكبرين.

ولعل ما أسفر عنه هذه الكتاب ما هو إلا نسيم هب من عبيق تلك السيرة النبوية وما حوته من كنوز وذخائر ودرر تحتاج إلى من يستخرجها ويستنبطها لتنتفع بها الأمة في مسيرتها التجديدية؛ وخاصة وهي على أبواب قرن التجديد والصحو الإسلامية وانتشار نور الإسلام في ربوع الأرض كلها، وزوال دولة إسرائيل جرثومة الفساد من جسم الأمة.

ولذلك فإننا لا نعدم حلا طالما أننا نرتشف الضرب من معين السيرة العطرة الذي لا ينضب؛ هذه السيرة التي تحترق الزمان والمكان لتواكب كل عصر ووقت ومكان، كيف لا وهي سيرة من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وها قد حصَّص الحق وتبيَّن أن ما أصاب أمتنا هو نتيجة ذلك الجهل بسُنن الله وعدم فقهاها وإدراك سرها ومغزاها في هذا الوجود، والحيدان عن طريق المحجة الناصعة البياض - لا يحدد عنها إلا هالك -، والبعد عن السيرة النبوية العطرة ومهيع العزة والكرامة وسبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

وأما عن حصيلة هذا الجهد فيمكن رسم معالمه عبر النقاط الآتية:

وقفت في هذا الكتاب الذي خصصته لاستنباط السنن الإلهية ضمن الآيات القرآنية التي تناولت الجهاد النبوي على مجموعة من السنن:

فمن الفترة المكية (من البعثة حتى بناء الدولة الإسلامية بالمدينة) استنبط واستخرجت هذه السنن الإلهية:

١- التدرج: وهي سنة ماضية إلى يوم البعث والنشور، وقد رأينا كيف خضعت الدعوة الإسلامية لسنة التدرج وكذلك تغيير الأنفس والمجتمع وبناء الدولة.

٢- تكذيب المرسلين: وقد رأينا إنكار كفار قريش للرسالة المحمدية، والآيات الربانية، ولم يقفوا عند حد الإنكار، بل تجاوزوه؛ فأذوا النبي ﷺ، وافتروا عليه كذبا، واتهموه بتهم ما أنزل الله بها من سلطان، وحاولوا اغتياله، وأخرجوه من أرضه.

٣- الابتلاء: وهي سنة من سنن الله في تربية عباده المختارين، وفي تمحيص الذين يختارون الإيمان حتى يتبين الذين صدقوا من الكاذبين، وقد تنوعت أصناف الابتلاء، وقد رأينا منها ابتلاء الله للمؤمنين بنقم الكافرين؛ ويتضح هذا جليا فيما اكتوى به المستضعفون بمكة، فقد عذبوا وقُتلوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق، واغتصبت أموالهم.

٤- الإعداد: وتدرج هذه السنة في سنن الأسباب ومسبباتها؛ ورأينا تجلياتها في الهجرة النبوية، والتخطيط النبوي الحكيم لها.

٥- لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا: وهذه سنة من سنن الله كذلك؛ فرغم كل المكائد والخطط والدسائس التي استعملها كفار قريش للقضاء على المؤمنين فإنهم لم يستطيعوا أن يكسروا شوكتهم، ويقصروا من حدتهم، ومن حبهم الشديد للنبي ﷺ، فما زادتهم تلك الابتلاءات والمحن إلا محبة وثباتا وجهادا. تلك إذن سنة الله في الرسل في إنجائهم ومن معهم.

٦- النصر بعد الاستيئاس: وهذه من سنن الله التي مضت في الأولين وماضية في الآخرين، وفق ناموس مرسوم؛ وتحققت بعد رجوع النبي ﷺ من الطائف؛ إذ نصره الله بإيمان الجن به، وبرحلة الإسراء والمعراج، وتحققت كذلك بالإذن للمؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى المدينة وبناء المجتمع العمراني الإسلامي الجديد.

٧- وعد الله بعصمة نبيه ﷺ: فالله سبحانه وتعالى هو من يتولى حماية نبيه وحفظه وعصمته من الناس؛ وهذا وعد إلهي لنبيه الكريم ﷺ وقد رأينا كيف صرف الله عنه كيد كفار قريش الذين حاولوا اغتياله مرارا بمكة ولم يفلحوا، وتكررت العصمة في كل محاولة كيد يقوم بها الأعداء بمكة والمدينة؛ فكلما حاولوا قتله أو مدوا يد الغدر إليه رُدوا على أعقابهم خائبين خاسرين.

فما كان الله ﷻ ليترك نبيه وحامل رسالته إلى البشرية في أيدي العابثين، يمكرون به ويخططون للتخلص منه، والقضاء على دعوته.

٨- المحبة تصنع الرجال: وهذه سنة نافذة، وقد رأينا أولئك الرجال الذي تفانوا في الحب الشريف، وبذلوا الغالي والنفيس في سبيله حتى صيرتهم تلك المحبة قادة للعالم، ففتحوا قلوب العباد، وحرروا البلاد، وكانوا كالجبال الشم تهاجم القياصرة والكياسرة والأمم. - ثم انتقلت إلى الجهاد النبوي في الفترة المدنية (من بعد بناء الدولة الإسلامية إلى وفاة النبي ﷺ)، فاستخرجت واستنبطت منه السنن الآتية:

١- صراع الحق والباطل: وهي سنة ماضية إلى يوم القيامة، فالحق في صراع مستمر مع الباطل، وأهل الباطل لا يتركون فرصة للقضاء على أهل الحق، وهكذا إلى أن تقوم الساعة، وقد رأينا هذه السنة في ذلك الصراع الطويل بين جحافل الكفر وكتائب أهل الإيمان في الغزوات والسرايا والبعوث.

٢- خسارة الكفر في حربه للإسلام: وهي سنة ماضية إلى يوم القيامة، فمهما ضحى العدو بجهوده وأمواله، ومهما خطط من دسائس فإن نهايته تعيسة، وتدميره في تدبيره، وهلاكه في تخطيطه.

٤- هزيمة كفار قريش في بضع سنين: وهذه سنة الله في المكذبين برسله وآياته وفق سنة الله الماضية أبداً في المكذبين والمشركين المتجبرين، وقد تحقق ذلك في غزوة بدر الكبرى، حيث تم قطع دابر رؤساء الكفر والشرك.

٥- الإمهال والاستدراج ثم الهلاك والاستئصال: وهي سنة جارية في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسول؛ سنة الله لا تستعجل، وكلماته لا تتبدل ولا تتغير ولا تحايي أحداً،

وهذه السنة الربانية حصدت صناديد قريش؛ أمهلتهم واستدرجتهم ثم طحتهم رحاها في الغزوات والسرايا النبوية، وذلك لما بالغوا في إيذاء المؤمنين، والتصدي لدعوة خاتم النبيين.

٦- الأسباب والمسببات: إنها سنة أقيم عليها نظام الحياة، وقد استنبطتها من غزوات النبي ﷺ وسراياه؛ ذلك لنعلم أن سنة الأسباب ليست هي التي تنشئ النتائج؛ فالفاعل المؤثر هو الله وحده. والله يرتب النتائج على المقدمات بقدره ومشيئته.. ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يبذل جهده في واجبه ويفي بالتزاماته، ولا يتوكل ولا يتكاسل؛ إذ بقدر ما يبذل جهوده ويوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها. وهذا ما شاهدناه في أحداث الجهاد النبوي.

وهذه السنة مركبة من سنن أخرى وهي: أن طاعة الرسول ﷺ هي طريق النصر والهداية، وأن المرء مهما بذل من جهد واتخذ من أسباب فإن النصر بعد ذلك من عند الله تعالى وبقدره وتوفيقه؛ هذا حتى لا يعتقد الإنسان في الأسباب وأنها لولاها ما كان نصر ولا تمكين.

٧- مداولة الأيام بين الناس: إن الله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله وينصرون دينه، ولا يلتفتون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الفانية، فكل من تحققت فيه ضوابط الجهاد من إعداد كامل بعد التوكل على الله تعالى دالت له الأيام، وكل من أخل بها وتركها وتوكل على نفسه واكتفى بالأمانى المعسولة دالت عليه الأيام، فالحرب سجال والأيام دول، وعلى هذا تتحقق هذه السنة الربانية فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً. ومن خلال هذه السنة يتميز المؤمنون من المنافقين وضعاف النفوس، كما تنكشف الأخطاء والهفوات، وينجلي الغبش.

٨- ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً: فهذه سنة جارية وماضية إلى يوم القيامة حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة؛ فإن حظ الكافرين من المعركة تولية الأدبار، والذلة والصغار، هذا متى وفر المسلمون الشروط، وأخذوا بسنن النصر ومقوماته؛ فسنة الله ماضية منذ فجر البشرية البعيد أن تدور على الكافرين الدائرة وأن تمضي فيهم سنة الله الجارية.

٩- كشف المنافقين: بالجهاد القتالي تتحقق سنة التمييز وينكشف النفاق المدسوس؛ ولهذا فإن ساحة الجهاد القتالي مصفاة لا تحطى، في منظرها يتضح الغث من السمين، والهزل

من الجد، والصادق من الكاذب، وقد رأينا كيف كشفت سنة الجهاد القتالي عن حقيقة المنافقين، الذين كانوا يخفون نفاقهم في أيام الرخاء، فلما جاءت أيام الشدة والقتال خرج ما وارته الصدور، وما ستره الظلام، وهكذا تمضي سنة الله في الجهاد ماضية لا تتخلف.

١٠- النصر للفقير والعاقبة للمتقين: فهذا ناموس إلهي مطرد لا يحد. فالإسلام هو المنتصر والظافر، وعلى الطائفة المؤمنة أن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين الصادقين، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق نحو غايتها السامية..

١١- التمحيص والاختبار: إن وراء الجراح والآم التي أصابت المسلمين في الغزوات والسرايا النبوية حكمة ربانية وهي: تطهير الصفوف، وتمييز المؤمنين من المنافقين والصادقين من الكاذبين، وتمحيص القلوب واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم.

١٢- وكفى الله المؤمنين القتال: هذه سنة استخرجتها من الغزوات والسرايا التي لم يلق فيها النبي ﷺ ولا أصحابه ﷺ كيدا ولا قتالا، وقد وردت هذه السنة بصيغة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ...﴾ [٢٤] [الفتح]، فالمعارك التي خرج إليها المسلمون لمواجهة العدو ثم لم يلقوا كيدا ولا قتالا كان ذلك من عند الله تعالى وبقدرته ومشيتته؛ ليرد الذين كفروا بحنقتهم وحقدهم وعداوتهم وغيظهم على أعقابهم لم ينالوا خيرا ولم يظفروا بنصر.

١٣- تثبيت الله لعباده المؤمنين المجاهدين في وقت الشدائد: وهذه سنة من سنن الله كما رأينا في غزوة الأحزاب التي ثبت الله فيها عباده المجاهدين في وقت الشدة والضيق؛ والأحزاب تتربص بهم الدوائر من كل جانب، والمنافقون يشبطون الهمم ويروجون الإشاعات. من وسط هذا الظلام تشرق شمس سنة من سنن الله التي اقتضت بتثبيت المؤمنين في وقت الشدة والضيق.

١٤- تحقيق وعد الله سبحانه بنصرة المستضعفين: وقد تحقق هذا الوعد في غزوة بدر الكبرى، ثم كان النصر الأعظم والأكبر ووراثه الأرض يوم فتح مكة المكرمة؛ فنكست رؤوس الجبابرة، والطواغيت وخضع الكل لسلطان الإسلام، وورث المسلمون أرض مكة وتحقق الوعد الرباني ﴿وَرُبُّدُّ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص].

- ثم بعد هذا انتقلت إلى الحديث عن مواجهة النبي ﷺ لليهود؛ فاستنبطت منه السنن الآتية:

١- الجزء من جنس العمل: وهذه السنة ميزان الله المستقيم الذي لا يخطئ، ومظهر جلي لعدل الله في خلقه في الدنيا والآخرة، وقد رأينا هذه السنة في حقيقتها البلجاء في مكائد اليهود، فقد دبوا الخطة، ودسوا الدسائس لاستئصال الدعوة الإسلامية من جذورها، والقضاء نهائيا على الإسلام، لكن دارت عليهم رحى هذه السنة فصيرتهم أثرا بعد عين، وقد تحقق هذا في غزوة بني قريظة، وقد رأينا كيف حصدت سيوف المسلمين رؤوسهم جميعا إلا من لم ينبت منهم.

٢- شدة عداوة اليهود للمؤمنين: منذ بعث الله نبيه الكريم ﷺ بالهدى ودين الحق وظلام اليهود يتربص بنور الإسلام، وقد استكن في صدره كل حقد وضغينة، وما استطاع إلا أن يخفت الشعاع!! فليس في مقدور ظلامهم أن يمحوا نور الحق المبين، كما ليس في طاقة الفم أن تطفئ نور شمس السماء.

ولذلك فالأحقاد والبغضاء والعداوة متجذرة في قلوب اليهود منذ القديم، وهذه حقيقة أكدها القرآن في مواضع كثيرة، فاليهود أشد عداوة للمؤمنين، سنة ماضية فيهم.

٣- الوعد الإلهي بإفساد: وقد تحقق الوعد الأول زمن النبي ﷺ لما جاس المسلمون خلال ديار خيبر وأخرجوهم منها أذلة صاغرين، وفي خلافة الفاروق رضي الله عنه حيث طهر جزيرة العرب من رجسهم وفسادهم.

أما "وعد الآخرة" أو وعد الله بإفساد اليهود الأخير فقد ادخره الله تعالى إلى آخر الزمان، وها نحن نرى علوهم وفسادهم في الأرض، وإهلاكهم للحرث والنسل، وسفكهم للدماء، وتشريدهم للأطفال والنساء.

ومن وسط الظلام يخرج النور، وبعد الشدة الفرج، ولعل يكون هذا آخر إفسادهم ليسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، ويخرجهم من الأرض المقدسة أذلة صاغرين، إنه وعد الله ووعد الله حق وهو لا يخلف الميعاد.

هذا إضافة إلى سنن أخرى جاءت في ثنايا الموضوع وأشارت إليها إشارات خفيفة ولم أقف عندها كثيرا، ولا أدعي الكمال في هذا البحث؛ فذلك ما وصل إليه جهدي بعد

توفيق الله تعالى ثم دعاء الصالحين، فلعل جهودا أخرى ودراسات تواصل السير وتتدبر في الأحداث لعلها تكتشف وتستخرج سننا من التاريخ الإسلامي ككل لتنتفع بها الأمة في مسيرتها العمرانية الأخوية.

وختمت الكتاب بالدعوة إلى التأسي بسيرة رسول الله ﷺ والوقوف على سنن الله فيها، والسير على منهاجها، لاسيما في هذا العصر الذي لاحت في سمائه بشائر النصر وأمارات الصبح القريب الذي تشرق شمس الإسلام من جديد..، ففي سنن الله في جهاد رسول الله ﷺ قوى مشعة، وأضواء هادية، وأنوار ساطعة، تبدد كل فتنة، وترد كل شبهة، وتجتاز كل عقبة، وروح يسري في غياهب الصدور، وسر يلمس حنايا القلوب ينطلق بها من قمم الدنيا القاتم إلى رحاب الله الواسع، فيحرك أشواقها حتى تصعد إلى مدارج العلا، مظلة على الدنيا، جالسة فوقها، مفاخرة بأنه لا يعلوها إلا الله، ولا تسير إلا في نوره الناصع البياض، ولا تزيع عن المحجة اللاحبة.

وفي سيرة الجهاد النبوي برنامج واضح لنصرة الحق وإعلاء كلمة الله، وتخطيط محكم للوصول إلى الغاية المنشودة، ومنهاج لا يخطئ الغرض ولا يزيغ عن جادة الصواب، لأنه قد رسم في السماء.. ولأنه متساو مع سنة الله الكونية، وأسبابه ومسبباته..

هذا، وأردفت كل ما سبق بهذه الخاتمة التي ذكرت فيها أهم نتائج هذا الكتاب. وأسأل الله تعالى أن يكون هذا الكتاب لبنة أولى في صرح سنن الله وسيرة سيدنا رسول الله ﷺ، على أمل أن أتابع ما بدأته في بحوث مستقلة إن شاء الله.

أتراني قد وفيت هذه الرحلة حقها؟ وهذا الموضوع ما اقتضاه مني؟ هذا ما أرجوه من العلي القدير سبحانه وتعالى جابر العثرات، وغافر الزلات، وناصر المؤمنين، وفارج هم المكروبين، والهادي إلى طريق الحق المبين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، اللهم عظم شأنه وبيِّن برهانه وأبليج حُجَّته، وبيِّن فضيلته، وتقبل شفاعته في أُمَّته، واستعملنا بسنته يا رب العالمين ويا رب العرش العظيم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

المخطوطات:

١. سفرة الزاد في سفرة الجهاد، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي البغدادي، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام: ٢٧٣٦٣، الرقم الخاص: ٨٣٤.

٢. فضائل الجهاد، محمد البابلي الشافعي (ت ٩٣٤هـ)، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام: ٢٨٨٢٢، الرقم الخاص: ٩٣٤.

الكتب المطبوعة:

١- كتب التفسير وعلوم القرآن:

٣. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، المكتبة الثقافية، بيروت، ط/د، ت.

٤. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبه الحسيني (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: عمر أحمد الراوي، راجعها ودققها على الأصل المخطوط: عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٥. بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، أشرف على إصداره: محمد الأحدي أبو النور، جمهورية مصر العربية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط ٢/ رجب ١٤٠٦هـ- مارس ١٩٨٩م.

٦. التحفة القلبية في حل الحمولية في غريب القرآن الكريم، موسى بن محمد بن موسى بن يوسف القليلي العمري المالكي (ت ١٣٣٢هـ)، حققه وعلق عليه: كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٧. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٨/ ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٨. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط/د، ت.

٩. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط/د، ت.

١٠. تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، مذيلا بأسباب النزول

- للسيوطي، دار الجليل، بيروت، ط ١/ ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
١١. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، ط/د، ت.
١٢. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧-٥٣٨هـ)، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط ٢/ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٣. تفسير القشيري المسمى: لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: سعيد قطيفة، قدم له: منيع عبد الحلیم محمود، المكتبة التوفيقية، ط/د، ت.
١٤. تفسير مبهمات القرآن، الموسوم: بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل، أبو عبد الله محمد بن علي البلنسي (٧١٤-٧٨٢هـ)، دراسة وتحقيق: حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١/ ١٤١١هـ-١٩٩١م.
١٥. تفسير الشعراوي، الناشر: أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ط/د، ت.
١٦. تفسير القرآن الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر بمصر، ط ٤/ ١٣٧٤هـ.
١٧. تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/د، ت.
١٨. تفسير الثعالبي المسمى بجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (٧٨٦-٨٧٥هـ)، حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي-بيروت، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، ط ١/ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (الشهير بتفسير السعدي)، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٢٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الشهير بتفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد عبد الرزاق البكري ومحمد عادل محمد ومحمد عبد اللطيف خلف ومحمود مرسي عبد الحميد، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد المنعم مذكور، نسخة مقابلة على مخطوط كامل ومراجعة على نسخة الشيخين: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، دار

السلام، القاهرة، ط ٢/ ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٢١. الجامع لأحكام القرآن الشهير بتفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تقديم: هاني الحاج، حققه: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر، د، ت.

٢٢. حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ، أبو بدر محمد بن بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١/ د، ت.

٢٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧ هـ)، تصحيح وتعليق: محمد شكري، إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث، بيروت، ط/ د، ت.

٢٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٣٤/ ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٥. الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦ هـ)، نقله من الأصل الفارسي إلى اللغة العربية ووضع عناوينه الجانبية: سلمان الحسيني الندوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٢/ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٦. القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار العلم للملايين، ط ٥/ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢ م.

٢٧. قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، حققه وأكمله وأصلحه: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥/ نيسان أبريل ١٩٨٥ م.

٢٨. القاموس القويم في القرآن الكريم، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، مجمع البحوث الإسلامية، ط/ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٩. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط/ ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م.

٣٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٣١. مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار: أحمد محمد شاكر، تحقيق: أنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، ط ١/ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٢. استفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١/ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٣٣. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤/ ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- ٢- كتب الحديث وشروحه:
٣٤. إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، محمد بن أحمد بن علي ابن غازي العثماني المكناسي (٨٤١-٩١٩هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الله محمد التمساني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط ١/ ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
٣٥. إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد القسطلاني، وبهامشه صحيح مسلم بشرح النووي، مكتبة المثنى ببغداد.
٣٦. تقريب التهذيب، أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٢٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، ط ٣/ ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
٣٧. جامع الأصول من أحاديث الرسول، محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤/ ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٣٨. الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١/ ١٢٧١هـ- ١٩٥٢م.
٣٩. الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق: محمد المنتصر محمد الزمعي الكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٤/ ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
٤٠. سنن أبي داود، أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢-٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد بربير، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/ ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م.
٤١. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجه (٢٠٩-٢٧٣هـ)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١/ د، ت.
٤٢. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧هـ)، ضبطه وصححه: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٣. سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهرير بالنسائي (٢١٥-٣٠٣هـ)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١/د، ت.
٤٤. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهرى المالكي (ت ١١٢٢هـ) وبهامشه: تعليقات وفوائد فقهية للناسر، طبعة بإشراف: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط/١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٤٥. صحيح البخاري الموسوم: بالجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، ضبط النص: محمود محمد نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤/ ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤.
٤٦. صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، اعتنى به وراجعته: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط/ ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
٤٧. صحيح مسلم بشرح النووي، محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧١هـ)، راجع ضبطه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد محمد تامر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط ٢/ ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٤٨. صحيح ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢/ ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٤٩. غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن جعفر، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١/ ١٩٨٥.
- ٥٠.
٥١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، عن الطبعة التي حققها عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقم أبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى، ومكتبة العلم القاهرة، ط/د، ت.
٥٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط ٣/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥٣. كتاب الزُّهد، وكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ)، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر ط ١٤٢٧/١هـ-٢٠٠٦م.

٥٤. كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي (دفين الإسكندرية ٦٥٦هـ-١٢٥٨م) عن نسخة نادرة بخط الرحالة المغربي ابن بطوطة بالمدرسة العزيزية بدمشق عام ٧٢٧هـ-١٣٢٧م، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط ١٤٢٦/١هـ-٢٠٠٥م.

٥٥. المسند، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٥٦. المسند، أحمد بن علي بن المثني أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٥٧. المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ط ١٤١٥هـ.

٥٨. المستدرک على الصحيحين وعليه تعليقات الذهبي في التلخيص، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١/١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٥٩. المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، ط ١/١٤٠٩هـ.

٦٠. الموطأ للإمام مالك بن أنس (٩٥-١٧٩هـ)، برواية يحيى بن يحيى بن كثير الليثي القرطبي (ت ٢٤٣هـ)، (ومعه إسعاف المبطلات رجال الموطأ للسيوطي)، خرج أحاديثه وعلق عليه: نجيب ماجدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٦١. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣- كتب التاريخ والسير والشمائل:

٦٢. إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض اليعصبى، عبد الله بن عبد القادر التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١/١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٦٣. أخلاق النبي ﷺ، لأبي عبد الله محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت

- ٣٦٩هـ)، دراسة وتحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط ٢/١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٦٤. الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
٦٥. الإشارة إلى سيرة المصطفى ومن بعده من الخلفاء، مغلطاي بن قليج، حقق نصوصها وخرجها وعلق عليها: محمد نظام الدين الفُتَيْح، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط ١/١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٦٦. أطلس السيرة النبوية، شوقي أبو الخليل، دار الفكر، دمشق، ط ٤/١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
٦٧. أطلس التاريخ العربي والإسلامي، شوقي أبو الخليل، دار الفكر، دمشق، ط ١٢/١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
٦٨. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط ١/١٤١٧هـ.
٦٩. إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والخفدة والمتاع، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، ط ١/١٩٤١م.
٧٠. الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، يوسف بن إسماعيل النبهاني (١٣٥٠هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٧١. أيام في حياة الرسول ﷺ، فاروق حمادة، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٧٢. بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي قراءة ورؤية جديدة، عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٧٣. البداية والنهاية، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١-٧٧٤هـ)، راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد محمد تامر وشريف محمد ومحمد عبد العظيم ومحمد سعيد محمد، دار البيان العربي، القاهرة، ط / د، ت.
٧٤. تاريخ جيش النبي ﷺ، محمود شيت خطاب، رسائل الفكرة الإسلامية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط / ١٩٨١م.
٧٥. تاريخ مكة المكرمة قديما وحديثا، محمد إلياس عبد الغني، مطابع الرشيد، المدينة المنورة،

- ط/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٧٦. تاريخ المدينة المنورة المصور، محمد إلياس عبد الغني، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٧٧. تاريخ أسماء الثقات، عمر بن أحمد أبو حفص الواعظ، تحقيق: صبحي السامرائي، الدار السلفية، الكويت، ط/١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٧٨. تاريخ الإنسانية وأبطالها، محمد رضا، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٧٩. تاريخ ابن خلدون، المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م)، دار ابن حزم، بيروت، ط/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٨٠. تاريخ الإسلام، المجلد الأول (المغازي)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٦٦١هـ)، حققه وقدم له وأعد فهرسه: محمد محمود حمدان، ودار الكتاب المصري-القاهرة، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط/١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٨١. التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ استراتيجية الرسول السياسية والعسكرية، علي معطي، مؤسسة المعارف، بيروت، ط/١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٨. -التاريخ الإسلامي، الجزء الثاني (السيرة)، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٨٣. تاريخ الطبري الموسوم ب: تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، تحقيق: مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط/د، ت.
٨٤. تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، دار سعد مصر، القاهرة، ط/رمضان ١٣٧٤هـ-مايو ١٩٥٥م.
٨٥. تهذيب الخصائص النبوية الكبرى للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، هذب وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط/١٤١٠هـ.
٨٦. التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، ط/٤/نوفمبر ١٩٨٣م.

٨٧. التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط١/١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
٨٨. جوامع السيرة النبوية، أبو محمد علي بن محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ)، ضبطه وصححه: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٨٩. حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، يوسف بن إسماعيل النهاني، تحقيق: محمد عزت، المكتبة التوفيقية، ط/د، ت.
٩٠. حياة الرسول المصطفى، العميد عبد الرزاق محمد أسود، الناشران: الدار العربية للموسوعات، دار المسيرة، بيروت، ط/د، ت.
٩١. حياة رسول الله ﷺ، محمود شلبي، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط٢/د. ت.
٩٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، اعتنى به: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، د، ت.
٩٣. الدرر في اختصار المغازي والسير، يوسف بن عبد البر النمري (٣٦٨-٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، د، ت.
٩٤. دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، ط١/١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٩٥. دراسات في تاريخ الدولة العربية، (عصور الجاهلية والنبوة والراشدين والأمويين ١-١٣٢هـ/٦٢٢-٧٤٩)، مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط٣/١٩٨٤م.
٩٦. دروس من غزوة أحد، عبد العزيز كامل، دار المعارف، القاهرة، ط٤/د، ت.
٩٧. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤هـ-٤٥٨هـ)، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٩٨. الذخائر المحمدية، محمد بن علوي المالكي الحسني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط١/١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٩٩. الرحيق المختوم؛ بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل السلام، صفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٠٠. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي) ت ٥٨١هـ، (علق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الشوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/د، ت.
١٠١. الرياض النظرة في مناقب العشرة، أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٠٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: حمدي بن محمد بن نور الدين آل نوفل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٠٣. السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة؛ دراسة نقدية تحليلية، أعدها: بريك أبو مائلة العمري، أشرف عليها: أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١/١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٠٤. سيرة ابن إسحاق المسماة: بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار (٨٥-١٥١هـ)، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله، تقديم: محمد الفاسي، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، مطبعة محمد الخامس، فاس-المغرب، ط ١/١٣٩٦هـ-١٩٧٩م.
١٠٥. سيرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، سليمان الندوي، عربيه وحققه وخرج أحاديثه: محمد رحمة الله حافظ الندوي، دار القلم، دمشق، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٠٦. سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية، محمد عيسى دروزة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٢/١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.
١٠٧. سيرة الرسول ﷺ، مصطفى مراد، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٠٨. السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
١٠٩. السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد بن محمد بن شهبه، دار القلم، دمشق، ط ٦/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١١٠. السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، عني بطبعه ومراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
١١١. صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

- ١١٢ . صور من حياة الرسول، أمين دويدار، دار المعارف، القاهرة، ط ٤/د، ت.
- ١١٣ . صور وعبر من الجهاد النبوي بالمدينة، محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١/١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- ١١٤ . عظماءنا في التاريخ، مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- ١١٥ . العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- ١١٦ . عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير، لابن سيد الناس، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط ٣/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ١١٧ . عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعموري (ت ٧٣٤هـ)، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحبي الدير متو، دار التراث، المدينة المنورة، دار ابن كثير دمشق- بيروت، ط ١/١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- ١١٨ . غزوة أحد دراسة دعوية، محمد عيظة، دار إشبيلية، ط ١/١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- ١١٩ . غزوات الرسول ﷺ، محمد متولي الشعراوي، دراسة وإعداد وتحقيق: مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ١٢٠ . غزوات الرسول ﷺ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠هـ-٧٧٤هـ)، خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
- ١٢١ . فتوح البلدان، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (٢٧٩-٨٩٢هـ)، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- ١٢٢ . الفصول في سيرة الرسول ﷺ، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، الشركة الجزائرية، اللبنانية، الجزائر العاصمة، ط ١/١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- ١٢٣ . الفضائل المحمدية التي فضلها الله بها ﷺ على جميع البرية، يوسف بن إسماعيل النهاني، اعتنى به وراجعته: شفيق البسط، قدم له: محمد علي بن السيد محمد المكي الكتاني، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

- ١٢٤ . فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام- القاهرة، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر-دمشق، ط ١١/١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
- ١٢٥ . فقه السيرة، محمد الغزالي، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ٨/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ١٢٦ . في مهبط الوحى، محمد بديع شريف، دار الفكر، القاهرة، طبع مطبعة عيسى الحلبي وشركاؤه، ط ٢.
- ١٢٧ . الفن الحربي في صدر الإسلام، عبد الرؤوف عون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط/١٩٦١م.
- ١٢٨ . القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، عبد الله محمد الرشيد، دار القلم، دمشق، ط ١/١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- ١٢٩ . كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني(ت٣٨٦هـ)، حققه وقدم له وعلق عليه: محمد أبو الأجنان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة-بيروت، المكتبة العتيقة- تونس، ط ١/١٤٠٤هـ-١٩٨٢م.
- ١٣٠ . كتاب المغازي، محمد بن عمر بن واقد (٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط ٣/١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ١٣١ . الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الأكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ط/١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.
- ١٣٢ . المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى "محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخية"، أكرم ضياء العمري، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية. ط ١/١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- ١٣٣ . محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) محمد بك الخضري، اعتنى به: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- ١٣٤ . محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد السيد علوي ابن السيد عباس المالكي الحسني، دار

- الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
١٣٥. محمد خاتم المسلمين، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/د، ت.
١٣٦. محمد رسول الله ﷺ؛ منهج ورسالة - بحث وتحقيق، مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي، كتاب القرن الرابع عشر الهجري، محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، دمشق، ط ٢/١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
١٣٧. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١/١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
١٣٨. محمد ﷺ محاولة لفهم السيرة النبوية، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، ط/١٩٧٥م.
١٣٩. مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط ١/١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.
١٤٠. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ-٩٥٧م)، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
١٤١. مرويَات غزوة بدر، أحمد محمد العلمي باوزير، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط ١/١٤٠٠هـ.
١٤٢. المغازي النبوية، محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري (٥١-١٢٤هـ)، حققه وقدم له: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط ١/١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
٣٤١. المغازي لموسى بن عقبة (ت ١٤١هـ)، جمع ودراسة وتخرّيج: محمد باقشيش أبو مالك، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر أغادير المغرب، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ط ١٩٩٤م.
١٤٤. المقدمة، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ٢/١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٤٥. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، ط ٢/١٤٠٤هـ-١٩٨٥م.
١٤٦. منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، محمد أمخزون، دار السلام، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٤٧. الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية، حامد محمد الخليفة، دار القلم، دمشق، ط١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٤٨. نبأ عظيم إلى جميع البشرية وإنك لعلی خلق عظيم؛ الرسول محمد ﷺ، إعداد وإشراف: صفی الرحمن المبارکفوري، شارك في إعداده نخبة من العلماء والباحثين، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١/١٤٢٧هـ.

١٤٩. نبوة محمد ﷺ في القرآن، حسن ضياء الدين عتر، دار النصر، حلب، ط١/١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٥٠. نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية، عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٥١. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخصري بك، تحقيق: قاسم الشاعبي الرفاعي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٥٢. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، جمع وترتيب: أحمد فريد، دار ابن القيم، الإسكندرية، ط١/١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٤- كتب التراجم والمعاجم:

١٥٣. الأعلام، خير الدين الزركلي (ت١٣٩٦هـ)، المطبعة العربية، ط٢/١٩٢٨م.

١٥٤. أساس البلاغة، جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري، قدم له وشرح غريبه وعلق عليه: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١/١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٥٥. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجليل - بيروت، ط١/١٤١٢هـ.

١٥٦. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق: محمد حميد الله، (سلسلة ذخائر العرب)، دار المعارف، القاهرة، ط٣/د، ت.

١٥٧. التعريفات، السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي (ت٨١٦هـ)، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٥٨. جمهرة أنساب العرب، أبو محمد ابن حزم الأندلسي الظاهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٣هـ.

- ١٥٩ . حياة الصحابة، محمد يوسف بن محمد إلياس الكاندهلوي (١٣٣٥-١٣٨٥هـ)، تحقيق: وليد بن محمد بن سلامة، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/١٤٢٣هـ.
- ١٦٠ . الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت - طبع على مطابع دار السراج -، ط ٢/١٩٨٠م.
- ١٦١ . صفة الصفوة، جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ)، خرج أحاديثه: محمد بن عيادي بن عبد الحكيم وأحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ١٦٢ . طبقات الشافعية، أبو بكر بن هداية الله الحسيني (ت ١٠١٤هـ)، ضمن سلسلة ذخائر التراث العربي، حققه وعلق عليه: عادل نويض، منشورات دار الوفاق لجديدة، بيروت، ط ٢/١٩٧٩م.
- ١٦٣ . طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي (٧٧٩-٨٥١هـ)، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه: عبد العليم خان، رتب فهارسه: عبد الله أنيس الطباع، عالم الكتب، بيروت، ط ١/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- ١٦٤ . الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ط ١/١٩٦٨م.
- ١٦٥ . فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٣٠هـ)، ضبطه وعلق حواشيه وقدم له ووضع فهارسه: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ١٦٦ . القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قدم له وعلق عليه: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/٢٠٠٤م-١٤٢٥هـ.
- ١٦٧ . لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، بيروت، دار صادر، ط د.ت.
- ١٦٨ . مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط ١/١٩٩٧م.
- ١٦٩ . مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين عبد المومن بن عبد الحق

- البغدادى (ت ٧٣٩هـ)، وهو مختصر معجم البلدان لياقوت الحموي، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١/١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.
١٧٠. مشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: م. فلايشهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١٩٥٩م.
١٧١. المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ٣/١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٧٢. معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مجمع اللغة العربية، ط ٢/١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.
١٧٣. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، حققه وضبطه: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط ٣/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
١٧٤. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ط/١٤٠٤هـ.
١٧٥. معجم المطبوعات العربية والمعربة، جمعه ورتبه: يوسف إلياس سر كيس، مكتبة الثقافة الدينية، ط/د، ت.
١٧٦. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، ط/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٧٧. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط ٣/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٧٨. موسوعة الألفاظ القرآنية، مختار فوزي النعال، تقديم: بكري شيخ أمين، مكتبة دار التراث-حلب، اليمامة-دمشق، بيروت، ط ١/١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
١٧٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خَلَّكَان (٦٠٨-٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط/١٩٧٢م.
١٨٠. الواقدى ومنهجه في كتابه مغازي الرسول ﷺ، طارق أبو الوفا محمد، مكتبة زهراء الشرق، مصر-القاهرة، ط ١/٢٠٠٥م.

٥- كتب السنن الإلهية:

- ١٨١ . أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة (٢٦) الصادر عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، ط١/المحرم ١٤١١هـ.
- ١٨٢ . أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢/١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- ٣٨١ . اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، إعادة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- ١٨٤ . تبصير المؤمنين بفقهاء النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط١/د، ت.
- ١٨٥ . التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (١)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/أبريل ٢٠٠٣م.
- ١٨٦ . التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (٣)، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى عبد القادر غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/جمادى الأولى ١٤٢٤هـ.
- ١٨٧ . حتى يغيروا ما بأنفسهم، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٧/١٤١٤هـ-١٩٩٣ من تصوير: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- ١٨٨ . خذوا من أحداث التاريخ عبرة، عبد الحميد كشك، مكتبة الصحافة، العباسية، ط٢/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- ١٨٩ . سنة الله، عبد السلام ياسين، مطبعة الخليج العربي، تطوان-المغرب، ط٢/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- ١٩٠ . السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- ١٩١ . السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، إشراف: مصطفى محمد الشكعة، تقديم: علي جمعة، دار السلام، القاهرة، ط١/١٤٢٧هـ-

٢٠٠٦ م.

١٩٢. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٣٠)، القاهرة.

١٩٣. العلوم الاحترافية والوقائية القرآنية دراسة مقارنة مع توقعات الدراسات المستقبلية لكل من فوكوياما وهتغتون، ضمن سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم والمعارف (٥)، محمد جابري، مؤسسة الندوي، وجدة، ط٢/٢٠٠٧ م.

١٩٤. العمل قدرة وإرادة، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٢/١٤١٤هـ-١٩٩٣ من تصوير: ١٤١٥هـ-١٩٩٤ م.

١٩٥. المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر، المجلد الثالث عشر: الاجتماع (المدرسة القرآنية)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط/١٤١٠هـ-١٩٩٠ م.

١٩٦. منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية القرض الربوي من أجل السكن-نموذج-، ضمن سلسلة الفقه المنهاج (٤)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/د. ت.

١٩٧. وعود القرآن بالتمكين للإسلام، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤ م.

٦- كتب عامة:

٨٩١. أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، اعتنى به وراجعته: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤ م.

١٩٩. أطماع اليهود وأسفارهم، فؤاد حسين مزنر، دار الكتب الثقافية، بيروت، ط/١٤٠٩هـ-١٩٨٩ م.

٢٠٠. أطلس القرآن: أماكن أقوام أعلام، شوقي أبو الخليل، دار الفكر-بيروت، دار الفكر-دمشق، إعادة الطبعة الأولى/١٤٢٣هـ-٢٠٠٠ م.

٢٠١. الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط/١٩٩٣ م.

٢٠٢. إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، حققه وكتب هوامشه: محمد حامد الفقهي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١٤١٨هـ-١٩٩٨ م.

٢٠٣. التوراة، ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، سلسلة: النصوص اليهودية المسيحية المقدسة، دار قتيبة، بيروت - دمشق، ط ١/١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٢٠٤. الثقافة والتفسير الأنثروبولوجي، تأليف: آدم كوبر، ترجمة: تراجي فتحي، مراجعة: ليلي الموسوي، سلسلة عالم المعرفة (٣٤٩)، مارس ٢٠٠٨م، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والآداب بالكويت.
٢٠٥. الجامع لأحكام وأصول الفقه المسمى: حصول المأمول من علم الأصول، محمد صديق حسن خان القنوجي (١٣٠٧هـ-١٨٨٩م)، تحقيق ودراسة: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، راجعه وقدم له: أبو الحسن عطية مسعد العكاري، دار الفضيلة، القاهرة، ط/د، ت.
٢٠٦. الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، ط ٢/١٩٩٧م.
٢٠٧. خصائص الأمة المحمدية، محمد بن علوي بن عباس المالكي المكي الحسني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط ١/١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٢٠٨. الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٠/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٢٠٩. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٦/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢١٠. دراسات إسلامية، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٥/١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٢١١. ديوان الأعشى، لميمون بن قيس الأعشى، المؤسسة العربية بيروت ط/د، ت.
٢١٢. ديوان شوقي، أحمد شوقي، دار صادر، بيروت لبنان، ط ١/١٩٩٣م.
٢١٣. ديوان الكتاني في المعارف والمدح النبوي، أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني (١٢٩٠هـ-١٨٧٣م/١٣٢٧هـ-١٩٠٩م)، سلسلة النفائس الكتانية (١٦)، جمع وتحقيق وتقديم: إسماعيل المساوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢١٤. الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، ط/د، ت.
٢١٥. الرسول ﷺ؛ دراسة منهجية هادفة حول الأصول الثلاثة: الله، الرسول، الإسلام، سعيد

حوى، ط/ د، ت، ن.

٢١٦. السلاح في الإسلام، عبد الرحمن زكي، دار المعارف، القاهرة، ط/ ١٩٥١.
٢١٧. شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمد الزرقا، صححها وعلق عليها: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط/ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٢١٨. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، دار التراث، القاهرة، ط/ د، ت.
٢١٩. ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، عبد الحميد بخيت، دار المعارف، مصر، ط/ ١٩٧٧م.
٢٢٠. العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢٢١. غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبّاد النَّفَرِي الرُّنْدِي (ت ٧٩٢هـ)، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٢٢. الفتاوى الكبرى، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
٢٢٣. فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، عبد الرزاق أحمد السنهوري، تحقيق: توفيق محمد الشاوي ونادية عبد الرزاق السنهوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٢٢٤. الفوائد، ابن قيم الجوزية (٦٩٨هـ-٧٥١هـ)، حققه وعلق عليه: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط/ د، ت.
٢٢٥. القرآن والسلطان، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط/ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٢٢٦. كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم، سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض (١٠)، مكتبة دار المنهاج الرياض، ط/ ١٤٢٥هـ.

٢٢٧. كتاب الفتاوى والرسائل الصغرى المسماة: در الغمام الرقيق يرئائل الشيخ السيد أحمد بن الصديق، جمع وتنسيق وتخرىج: عبد الله بن عبد القادر التلىدي، ط ١/١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٢٢٨. كتاب النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: أبو صهيب الرومي وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط ١/١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
٢٢٩. الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، مطبعة الخلود، بغداد، ط ١/١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
٢٣٠. كتاب الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١/١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٣١. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى الحلبي القاهرة، ط ١/١٣٩٨هـ.
٢٣٢. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو علي الحسن الندوي، دار الجيل بيروت، ط/د. ت.
٢٣٣. المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، محمد الديك، دار الفرقان، ط ٢/١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢٣٤. المعين في تفسير كلام الأصوليين، عبد الله ربيع عبد الله محمد، دار السلام، القاهرة، ط ١/١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٢٣٥. مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٤/١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٢٣٦. مكائد اليهود عبر التاريخ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، في سلسلة أعداء الإسلام، دار القلم، دمشق، ط ١/١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
٢٣٧. هذا الدين، سيد قطب، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط ١/١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- الدوريات:
٢٣٨. "حوار مع المؤرخ الإسلامي الأستاذ الدكتور محمد منقعة"، حاوره: رشيد كهوس أبو اليسر، مجلة الفرقان (الأردن)، السنة: ٩، العدد: ٨٣، ذو الحجة ١٤٢٩هـ، كانون أول -دجنبر- ٢٠٠٨م.

٢٣٩. "السنن الاجتماعية في القرآن الكريم"، مقال لمحمد السيسي، المنشور بمجلة رسالة القرآن (المغربية)، العدد الأول: محرم-صفر-ربيع الأول ١٤٢٥هـ/ مارس- أبريل- ماي ٢٠٠٤م.

٢٤٠. "شهر الانتصارات، غزوة بدر الكبرى"، مقال لأحمد عمر هاشم، المنشور بمجلة الأزهر (الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بمصر)، السنة ٧٦، رمضان ١٤٢٤هـ، نوفمبر ٢٠٠٣م، الجزء ٩.

٢٤١. "المسلمون وفقه السنن.."، مقال لمحمد أمحزون، المنشور بمجلة المنار الجديد (مصر)، السنة السادسة شعبان ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، العدد ٢٤، القاهرة.

٢٤٢. "من أنصاري إلى الله؟"، افتتاحية مجلة الفرقان (الأردنية)، إبراهيم زيد الكيلاني، السنة الثامنة، العدد ٥٨، شوال ١٤٢٧هـ-تشرين ثان ٢٠٠٦م.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	إهداء
٧	المقدمة
المدخل العام	
تحقيق الجهاد في سبيل الله	
١٣	تمهيد
الفصل الأول	
سنن الله في الجهاد النبوي بمكة	
(من البعثة النبوية حتى بناء المجتمع الإسلامي بيثرب)	
٤٥	مدخل
٤٦	المبحث الأول: تكذيب كفار قريش للنبي ﷺ
٦٧	المبحث الثاني: ابتلاء الله للمستضعفين بمكة بنقم كفار قريش
٨١	المبحث الثالث: الأخذ بسنن الإعداد قبل الهجرة
٨٩	المبحث الرابع: التدرج في تبليغ رسالة الإسلام للناس بمكة
٨٩	١- سرية الدعوة
٩٣	٢- الدعوة جهرا
٩٧	٣- البحث عن قاعدة حرة للدعوة
١٠٦	٤- البحث عن سند اجتماعي للدعوة
١١٤	المبحث الخامس: التدرج في بناء المجتمع العمراني الأخوي بيثرب
١١٨	أ- بناء المسجد
١٢٠	ب- الإخاء بين المهاجرين والأنصار
١٢١	ت- معاهدة المدينة
١٢٤	ث- تشكيل الجيش الإسلامي
١٢٦	المبحث السادس: التدرج في تربية النفوس وتزكيتها

١٢٧

أ- محبة النبي ﷺ

١٣١

ب- تصحيح العقيدة

الفصل الثاني

سنن الله في مواجهة النبي ﷺ

لمكاند كفار قريش والروم وقبائل العرب

١٣٧

تمهيد

١٣٨

المبحث الأول: تنازع الحق والباطل

١٣٨

١ - التدافع بين الناس

١٥٠

٢ - وعد الله بعصمة نبيه ﷺ من الناس

١٥٢

٣- خسارة الكفر في حربه للإسلام

١٦١

٤- وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ

١٦٨

المبحث الثاني: سنة الله في أخذ المكذبين من قريش

١٧١

١ - سيهزم جمع الكفر

١٧٩

٢- إمهال الظالمين ثم إهلاكهم

١٨٥

المبحث الثالث: الأسباب ومسبباتها

١٨٥

١ - ارتباط الأسباب بمسبباتها

١٩٤

٢- طاعة رسول الله ﷺ عين النصر

٢٠٢

٣- النصر من عند الله ﷻ

٢١٣

المبحث الرابع: مداولة الأيام بين الناس

٢١٣

١ - الحرب سجال والأيام دول

٢٢٣

٢- الابتلاء والاختبار لتمحيص السرائر

٢٣١

٣- سنة التمييز (كشف المنافقين)

٢٤٢

٤- النصر للتقوى والعاقبة للمتقين

٢٥٩

المبحث الخامس: الحب يصنع الرجال

٢٥٩

١- سنة الاستبدال

٢٦٣

٢- رجال صنعهم الحب

الفصل الثالث

سنن الله في معاملة النبي ﷺ لليهود

٢٨٩

فرش

٢٩١

المبحث الأول: اليهود.. عداء بلا حدود

٣٠٥

المبحث الثاني: الجزاء من جنس العمل في رد كيد يهود بني قريظة

٣١٥

المبحث الثالث: وعد الله بإفساد اليهود

٣٢٧

الخاتمة

٣٣٥

فهرس المصادر والمراجع

٣٥٧

فهرس الكتاب

